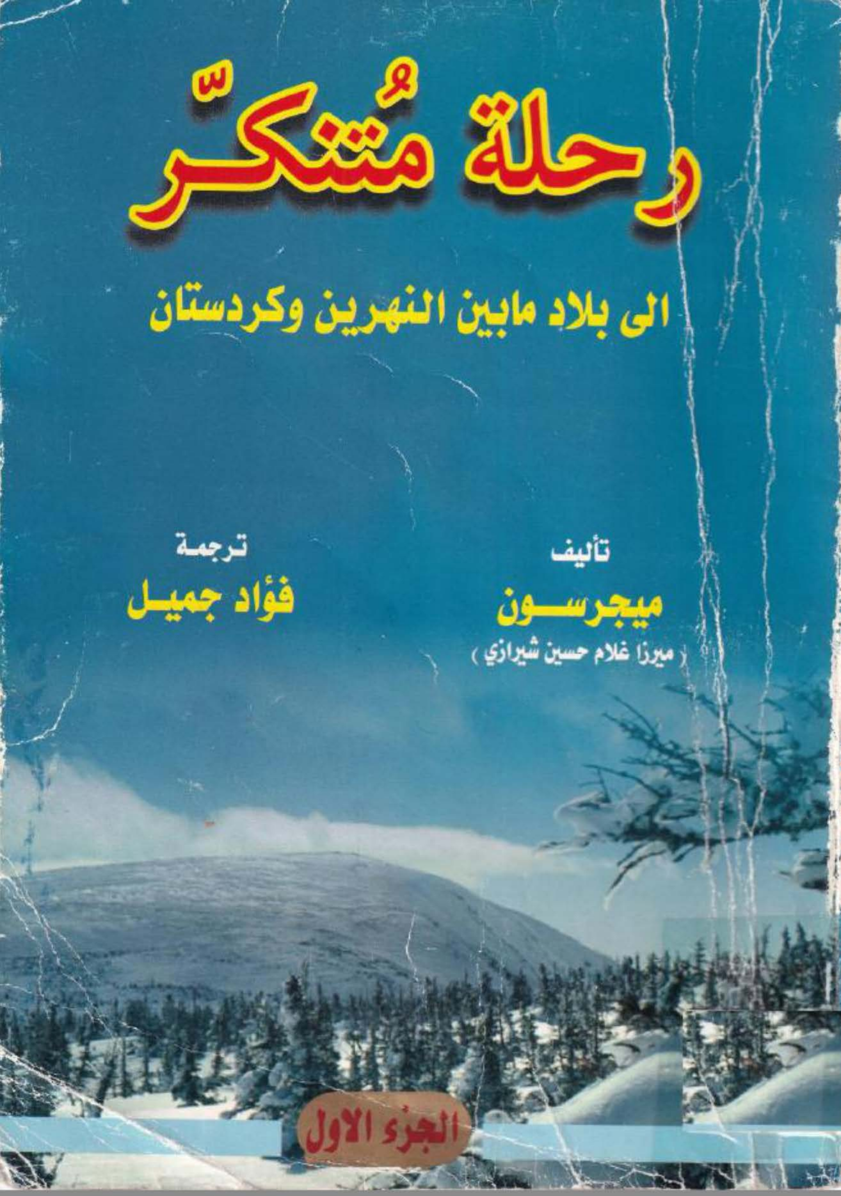

رحلة مُتنكّر
الى بلاد مابين النهرين وكردستان
تأليف
ميجرسون
(ميرزا غلام حسين شيرازي)
ترجمة
فؤاد جميل
الجزء الاول

رحلة "متنكر" الى بلاد ما بين النهرين وكردستان

تأليف

سون

"ميرزا غلام حسين شيرازي"

نقله الى العربية وحققه وقدم له وعلق عليه

فؤاد جميل

الجزء الاول

من (اصطنبول) الى (السليمانية)

الطبعة الاولى

١٩٧٠

و

انجز طبع (الكتاب) على مطابع (الجمهورية) ببغداد

و

بانفاق (المترجم) الخاص

١٥٠٠/١٣٩٠ هـ = ١٩٧٠م

الاهداء

الى

كل (مؤمن) ب (وحدة تراب الوطن) المفدى ...
(عامل) على (تآخي) ابنائه (عربهم) و (اكرادهم)
و (تركمانهم) و (غيرهم) دوما ...

(جادّ) في سبيل اعلاء شأنه وتطويره ، بعقلية متفتّحة ، ليسير ـ مواكبا (العصر) ، قُدُما .

[وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون]

ومن اصدق من الله قيلا

١١ أذار ١٩٧٠ ف.ج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مقـــــدمة

[المترجم]

في (التاريخ) مواعظ وعبر ، تستخلص من (وقائعه) ذات الغيَر ، وفي (أدب الرحلات[*]) تاريخ حي ، وقصص ممتعة ، و (الكتاب) الذي تحمل (الجزء الاول) منه بيمينك - أيها القارىء الكريم - وسيليه ، ان شاء الله (الجزء الثاني) وشيكا ، يقرن (التاريخ) ب (أدب الرحـــلات القصصي) ، وصاحبه (المقدم سون) يُسلك ، حقا ، في عداد الروّاد الباحثين ، واثبات المؤرخين واعلام الرحالين ، قدامى ومحـــدثين ، وذلك بالنسبة الى (الاكراد) المواطنين الكرام الاعزّة في (عراقنا الغالي الحبيب) و (موطنهم) الذي لن يتجزأ منه ، أبد الدهر .

ان اول ما تجلوه (الرحلة) هو كَلَف (المؤلف) بالاكراد وموطنهم ، وهو كلف جد شديد ، ولا جرم ان يكون (القلم) أو (اللسان) ترجمان (الجنان) . انت تحس بذلك كله - وانت تقرأ (الرحلة) ، منذ شمّر (صاحبها) لها ، حتى القى عصا التسيار وختمها . كان لا يني في التفكير بهم ، وبتاريخهم - وهو تاريخ طويل حفيل يضرب بجذوره في أعماق الزمن - وبموطنهم الذي أحب فيه جباله المكلّلة هاماتها بالثلج الناصع ، ووديانه

(*) في خزانة (تراثنا العربي) الخالد كتب قيمة من هذا الضرب من ضروب الادب ، من أمثال : (رحلة ابن جبير) و (رحلة ابن بطوطة) و (رحلة ابن فضلان الى روسية) و (الرحلة المكية والبعلبكية لعبدالله فكري) وغيرها كثير .

السندس الخضر ، وجداوله المترثرة المترقرقة ، وحدائقه العذبة اللمعان •
كما انه اقام وشائج متينة من مودّة موصولة ، ومعرفة موثقة ، مع بعض متقدميهم ، عصرذاك ، والسيدة عادلة ، الرئيسة الحقة في منطقة حلبجة ، منهم في المقدمة • لكن (المؤلف) لم يشد الرحال ، ويعبر البحر ، ويقطع البراري ، وينحدر في (دجلة) ، على ظهر (كلك) ، نزلا ، ويجتاز امكنة التهلكة في كردستان ، ويتحمّل حـــرها وثلوجها الاشاهب ، ورياحهـا الحواصب ، وطعامه ، ابانها ، مجشوب ولباسه خشن غليظ ، بحيث يصدق عليه قول الشاعر :

أخا سفر جواب أرض تقاذفت
به فلوات فهو اشعث اغبـر

••• لما ذكرنا ، حسب • ذ'د' عن نفسك هذا الوهم – أيها القارىء الكريم – ذلك اني نقّرت عن اسباب (الرحلة) وعن دوافعها الحقة فتوصّلت، على القطع ، الى ان الرجل اوفد في (واجب سري خطير) يتصل بالانبراطورية البريطانية ، بلاده ، واختير له لقدرته على تحمل الاسفار الطوال واحتمال المشقات الثقال ، بما تنطوي عليه ، طبعا ، اعني : ما يحلو او يمر وما يسوء أو يسر ، ولتمكنه من (الكردية) واطلاعـه على تاريخ الاكــراد وعاداتهم • وهكذا نجده قد درس (الوضع) ، ايامئذ ، في كردستان ، من أمم ، عن عيان ، ولا معدى عن ان يكون قلم حصيلة (دراسته) في (تقارير سرية) الى جهات مختصة في بلاده فاصطنعت لغايات مبيّتة • كما يجب الا يذهب عن بالنا انه ، بذلك ، هيىء نفسه ، وهيأته بلاده ، ليتبوّأ مناصب سياسية – عسكرية خطيرة – اثر الاحتلال البريطاني ، الدابر البغيض ، لعراقنا الحر الابيّ ، وقد حدث ذلك حقا ، على ما ستطلع عليه في (الملحق) الموسوم بـ (المؤلف ••• في سطور) •

احتلت (القضية الكردية) ـ من وجهة النظر الانبريالية البريطانية منذ بداية سنة ١٨٩٠ مقاما ذا خطر عليا • فلقد اصطنعها الانكليز سلاحا في وجه الروس وركّزت (الجاسوسية البريطانية) نشاطها بين القبائل الكردية ،القاطنة ، يومذاك ، في العراق وشمالـ غربي ايران بخاصة ،كي تغلق الباب بوجه منافستها الرئيسة في هذا الميدان اعني: روسية القيصرية، وما (رحلة المؤلف) الا من مخططاتها • لذلك نجد (المؤلف) يخفـــي (القصد الحق) من (رحلته) اخفاء (شخصيته) وتنكّره ، خلالها ، باسم : (مرزا غلام حسين شيرازى) • كما انك تجده ، بالنسبة للعثمانيين حكام البلاد، عهدذاك، ثَلّبَة مُفْتَتَرِضا، يغضُ منهم ويضع من اقدارهم ويغلو فيما لقيه من موظفيهم ، وما اعتصار Chantage شرطة السليمانية له الا من هذا القبيل • لا نريد بقولنا هذا ان العثمانيين براء مما اجترموا بحق هذه (البلاد)، لكننا نريد ان نقول ان (المؤلف) ينسف حكمهم فيها ليمهد الى حكم بني جلدته وهو استعبادي(*) ، سواء بسواء •

يقال ان (الترجمـــة) تذهب بجمـــال (الاصـــل) • تلك حال (الترجمة اللفظية) التي لا تعني الا بنقل الكلمـات أو العبارات من لغة الى أخرى • وما هذا هو (مثلنا الاعلى) في الترجمة ،ولا هو من نهجنا وديدننا واعني به : الترجمة المشرقة الدقيقة التحقيقية • نحن نعني ، ابتداءا ، بالمحافظة على (المعنى في الاصـل) لنحله ، بالدقة التي يؤدي اليها وسعنا ، في (النص المترجم) ، اى اننا ننشد (صحة المعنى) و (جمال المبنى) معا • ولكي يقرأ (الكتاب المترجم)في غير سآمة ولا ملالة نعمد ، في الاحيان ، الى تضمين (النص المترجم) ابياتا من الشعر أو كلمات مأثورة ، أو أمثالا سائرة يقتضيها السياق ، وهي في الحق لا تخرج عن (الاصل) ولا تجافيه وانما تزيده وضوحا واشراقا • وفى (الكتاب الاصل) شروح فى الهوامش وتعليقات ، ثبتناها فى (الكتاب المترجم) جميعا كما ثبتنا

(*) لا نقول (استعماري) ولا نجاري الاستعمال الذي شاع وذاع ، ذلك لان (الاستعمار) طريقة قرآنية شريفة تنم عن التعمير والخير اصلا . لكن تراجمة الغزاة البريطانيين دلسوها فاطلقوها على غزو سادتهم الهادف الى ابتزاز خيرات البلاد المحتلة فاتخذوا الغاية النبيلة تضليلا وضلة ، زاعمين انهم جاؤوا لتعمير البلاد •

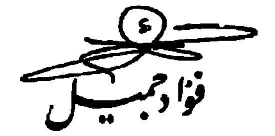
فيه شروحا وتعليقات وتصويبات واستدراكات ارادة الفائدة ، واغنـــاء معلومات القارىء الكريم •

واخيرا ان (رحلة متنكر الى بلاد مابين النهرين وكردستان :
Through Mesopotamia and Kurdistan in Disguise)
لمؤلفها : (سون : Soane: هي من هذه الرحلات الممتعات ذوات الخطر التي انطمرت ، على ترادف السنين وكرور الايام ، تحت طبقة كثيفة من الاهمال • فيها تكاد تشهد ما شهد (صاحبها) وتسمع ما سمع وتحس انك تسافر معه حين يسافر وتقيم معه حين يقيم ، مع انك ــ أيها القارىء الكريم ، جالس مجلسك وتحمل (كتابه) بيمينك ، تستمتع بها و (تسمع أنباء الامـــور الصحائع ا) فتعلم انه أقام ، خلالها ، على نكدمن العيش ولقى الصعاب الثقال وغمت عليه الحال في الاحيان واعتلج في صدره الهم كثيرا ، لكنه كان في جميع الاحوال :

حتى اذا المحنة لاحت لـــه
مر على الزئبق في مســـرب

راجيا ان يكون في نقلها الى العربية وتحقيقها والتعليق عليها ما ينفع الناس ، والله هو الموفق الهادي الى سواء السبيل •

انه نعم المولى ونعم النصير •



بغداد ١٩٧٠/٦/١

مقــــدمة

(المؤلف)

ان الفصول التوالي لسرد هيّن يسير لرحلة جرت ، عَبْر (بلاد ما بين النهرين) وكردستان الجنوبية ، استخلص من مفكرة يومية اصطحبت خلال الرحلة ، من اصطنبول الى بغداد ، خللّ تلكم الديار .

ولي ان اذهب ، من دون شطط ، الى اني وصفت فيها كثيرا مما لم يسبق ان وصف حتى يوم الناس هذا أبدا . كما اني عرضت نظرة الى اماكن معلومة ، من وجهة نظرة اخرى .

وثمة حالات عديدة تطلبّت معرفة الفارسية بسمة لتمكّن (الكاتب) من ان يمرّ من بين اهل فارس ، وكأنه واحد من بني جلدتهم . ولكن ما اقوله ، على ما يتراءى ، نفجا وزهوا ، ولا ضرورة له ولا جدوى ، لكن الحوادث هي التي تطلبّت له ذكرا ، وانك لواجد في مجرى السرد لذلك ايضاحا .

وفي القســم التأريخي من الكتاب ، وبقــدر تعلّق الامر بالتأريخ الحديث ، استطعت ان ادلي بشيء من مادة قشيبة كليا . وما اتصل منه بتأريخ الاكراد ، زوّدتني اياه رسائل وردت علي من (شاه علي اورمان) و (شيخ رضا الكركوكي) و (طاهر بك جاف) و (مجيد بك جاف) و (محمد علي بك جاف) ، كما انني وقفت على معلومات كثيرة ، من خلال أحاديث دارت في (حلبجة) و (السليمانية) ، وانها ، على ما يخيّل لي ، ليس لها من ندّ ولا نظير . وبقدر ما اتصل بالفصل الخاص بالتأريخ

الكلداني اني لمدين ، واقولها من الاعماق ، الى (السيد بدرية) رئيس الملة في الموصل ، والى شقيقه : حبيب بدرية . وبحكم اطلاعهما على كتب التأريخ في مواضي عصوره ، تكرّما فسمحا لي بالافادة مما عندهما من معلومات .

هذا وانا لاشفق من كثرة استعمالي : (ضمير المتكلّم) ولكني على ثقة من شمولي بعفو من جرّاء ذلك ، اذ من دون استعماله لن تكون القصة المسرودة شخصية .

ولعل لهجة السرد تحمل على الاعتقاد بالتحيّز الى الاكراد ، وآية ذلك : اني لقيت من هؤلاء القوم عطفا اصيلا سابغا ، يفوق ما لقيته من أي جمع غريب آخر ، قدرّ لي ان اتصل به في اماكن اخرى . واني لمدين لهم بكثير من الفضل .

وان اقل ما استطيع ان اقوم به في باب ردّ الفضل هو :

القاء شيء من الضوء الكاشف على شخصية قومية مُثّلت ، حتى الآن ، باعتدادها جماع (الوحشية) و (الخيانة) و (اللا انسانية) .

وما أبغي سوى شكري ثوابا وان الشكر من خير الثواب !

المحمرة ای. بي. سون

الفصل الاول

اصطنبول

حين نزلت من القطار ، صبح يوم معتم ، في القسطنطينية ، وعند نهاية سكة حديد ، للريح والبرد معرّضة ، شأنها كشأن مثيلاتها في جميع أرجاء القارة ... كنت عازماً على الثواء في (عاصمة العثمانيين) ، من الزمن لأيا . ذلك ان اقامتي التي استطالت في (الشرق الاوسط) صيّرتني اسير جاذبية يصطنعها حقا . على انها مكنتني ، في الوقت نفسه ، من تقدير شامل لما في الشرق من بلهنية عيش واسباب الراحة في الحياة . ولما كنت اجهل الاقسام الغربية من الانبراطورية التركية تماما ، وتراودني بشأنها الآراء التي تراود الناس في (وطننا) جميعا ، لذلك تراءى لي ان اصطنبول ، على التحقيق ، دار استراحة انيقة ، ونقطة يتشوّف منها الى الشرق والغرب ، على حد سواء ، وبيسر والسماح ، فتُصطفى من كل منهما المقوّمات اللازمة لحياة بهيجة ، ومن الكتب وخزاناتها دانية ، وتهيء ، أيضا ، منفذاً يهرب منه المرء الى ما بين ظهراني الشرقيين ، وما حولهم .. وكل ذلك من دون اللجوء الى رحلة طويلة ، والى (قائمة كلفة) ، أكثر منها طولا .

ومن نكد الحظ اني كنت لا اعرف القسطنطينية ، ولا طقسها الشتوي ، كما كنت اجهل سكانها أيضا .. وما كانت لي مع الاتراك معاملة في يوم ما ، كما اسقطت من حسابي الاغارقة ، وهم يؤلّفون ٣٥

بالمئة من اهل العاصمة جميعا . لقد كانت هذه لهم ، في يوم من الايام وبحكم السيادة ، ملكا ، ولا تزال اليوم ، كذلك ، وبكل ما يتصل بمآتم التجارة تقريبا .

وفي الحق كانت حصيلة معلوماتي ، يوم وصولي ، كلها : ان القسطنطينية مؤلفة من ثلاثة أحياء ، أو مناطق ، هي : (بيره) ، و (غلطة) واصطنبول[1] ، وان لها فندقا يسمّى (بيره بالاس) ذا كلفة ينوء تحت وطأتها كيسي المتواضع الصغير .

واشار عليّ شخص ، حول جنسيته تحوم الريب ، ان اتخذ الى نزل (بنسيون) فرنسي في (غلطة) سبيلا ، وطمأنني انه : رخيص ، نظيف ، ومريح ، على غرار ما قد تكون عليه النزل الفرنسية في ارجاء العالم الاخرى ، وهي على ذلك غالبا . لقد تراءت الخطة ممتازة بالرخص والنظافة والراحة ، وعلى ذلك ما ان تخلصت من موظف (كمركي) متعب ممل عامل في المحطة الآن جعلت متاعي، على ظهر عربة تجرها الجياد ، كدسا ، وانطلقت بنا على عقدات من حجارة ، ولها فرقعة وطرطمة ، مارة من حفر طين هي طرق القسطنطينية . وكنا ، خلل الشوارع الواهنة الشأن تتدحرج ، ولعزيتا ، صلصلة وجلجلة ، وتشهد حافلات (الترام) تزحف في سبيلها ضاجة عاجة ، بين صفوف من دكاكين بضاعة ، ونظيراتها موجودة في أية عاصمة من عواصم اوربة . واتجهنا الى الجسر العائم

---

(۱) . القسطنطينية واقعة على الجانب الاوربي من البوسفور ، ويشطرها . القرن الذهبي ، الى شطرين ، وقد كون هذا المنفذ البحري نهيران يلتقيان ويصبان في البوسفور قرب مدخله في بحر مرمرة . ان الميل الاخير ، او نحو ذلك ، من مجراه معقوف عقفة قرن (الوعل) ومن هنا جاء الاسم . ويفصل (القرن الذهبي) والمدينة الذهبية، عن الحيين: غلطه وبيره ؛ ويضفى على جمال (القسطنطينية) كثيرا وعلى ثروتها ايضا . ان الجانبين موصولان بجسر واحد يفتح لمرور السفن ، وتحتشد في (القرن الذهبي) الابلام ويجني اصحابها من ورائها ، بنقل العابرين ، ما يقيم لهم اودا ، راجع :

David Frazer: "The Short Cut to India", p. 3.

[المترجم]

على صفحة الدأماء المسمّى بـ (القرن الذهبي) ، وهو ، في كانون الاول ، اسم على غير مسمّى ، ولعلّه يوحي بذروة تهكم انطلق من لسان سائح خاب منه الامل والرجاء .

وما ان قاربنا هذا الجسر العجيب الا اوقفنا بين جمع حاشد من العابرة المشاة ، على رؤوس آحاده (الطربوش الخالد) ـ ومنهم من كان يتوّج رأسه بالقبعة من النوع المسمّى (باولر) ، أو بأي غطاء رأس آخر لكل امة اوربية ـ والزمنا على دفع خمسة قروش (١٠ بنسات) ليحق لنا المرور . ومنعا من افلات اي فرد من دفعْ الرسم ، وقف صف من الموظفين الاتراك ، عَبْرَ الطريق ، يرتدي افراده بزّة متميّزة بوجه كاف ـ وهي بدلة بيضاء .

ولون (القرن الذهبي) اعتيادي وطيني ، وتحت الجسر حشد مألوف من « العبّارات » : البواخر الجارية في البوسفور ، الذاهبة ، الى الشاطيء الاسيوي أيضا .

« ويا حسن تلك الجاريات اذا عدت   مع الماء تجري مصعدات وتنحدر ! »

وعلى الارصفة صف من دور المكس (الكمرك)[٢] ، لاحظ لها من وراء ، ودوائر شحن وميناء . وخلفها ، على الارض المتعالية ، ما هو تقليد بشع للعمارة الفرنسية والفينية ، وعلى غرار ما يشاهد في غلطة وبيره . وثمة تكنات سوامق فيها صفوف وصفوف من نوافذ قذرة تفتح على المُجْتلَى وقبالتها ، عَبْرَ الماء ، في اصطنبول وفوق ما يشبه جبلا من جدار وشباك ، ومن سقوف البيوت الكائنة على سفح التل ، يتعالى (برج غلطة) ، وهو بنية دائرية الشكل يرفرف عليها العلم التركي .

ولما كان الطريق المار فوق الجسر مفروشاً بخشب ممدودة ، لا تبلغ اثنتان منه مستوى واحدا ، لذلك كانت تحول دون السير السريع ، ولو

---

(٢) الكمرك ، المستعملة اليوم في العراق ، كلمة تركية النجار . ذكر شمس الدين سامي في (قاموسه) انها من أصل يوناني والكاف فيها فارسية ، غير معطشة ولا مخففة (المترجم) .

كان الطريق من المارة المشاة خاليا . ان هؤلاء القوم يتخذونه سبيلا ويفضلونه على المسار الخاص بهم كثيرا . ونهاية (غلطة) تفضي الى شارع مزدحم بالناس والعربات والعجلات ، وفيه يتجمّع صرافو (غلطة) ، بليدة التجارة في القسطنطينية . ان عطفة متيامنة تؤدي الى حافلات الترام ، هي أكثر عددا ، والى شارع طويل مرصوف بحصباء واهنة فيه دكاكين ، صغيرة وكبيرة ، وعلى مماشيه يطوّف رجال البواخر الآتية من كل ميناء أوربي ، أو من ساحل الشرق (الليفانت) . والاغارقة هم ، بطبيعة الحال ، الاغلبية ، وكثير منهم يرتدي ملابسه الوطنية ، ومشدّات زرقاء ، وذيول الاردية ضخمة متدلية ، وقمصانها ملوّنة ، وستراتهم صغيرة وهي من سترات الزوّافين[٣] والقبعة من النوع المسمّى بـ (بورك بى) . والارمن كُثُر ، وسكان الليفانت أيضا ، وهم اقوام شتى . وانك لتشاهد الايطاليين ، في حيهم : (غلطة) ، في كل مكان ، ولغة الشارع التي تسمع هي اية لغة فيما خلا التركية نفسها . كما تشهد ، هنا وها هنا ، جماعة متنافرة فظّة غليظة تحمل على ظهورها جلودا محشوّة ، وهم حمالو القسطنطينية . انها تصطخب[٤] وترسل النكات بلسان لا يعرفه احد من اهل المدينة . انهم الاكراد ، اقوى الاهلين واكثرهم رجولة ، لكنهم ، ولعل مردّ ذلك الى تلكم الصفات انفسها ، محتقرون الى ابعد حد في هذه البليدة ، حيث الختل والرياء .

وغادرنا الشارع هذا ، واخذنا نرقى زحفا منحدرات ، شديدة الميل ، تقوم على جانبيها بنات الاستجار ، حتى بلغت العجلة طريقا طويلا ممتدا على سفح التل . اني ، بتسميته (الطريق) ، لزعيم بانعدام ما يفضل هذا الإسم ، ومن الحق ان نوضّح ان هذا الشريان ذا الخطر في نظام نقليات

(٣) (جـ زوف Zouave) وهو جندي فرنسي في فرقة المشاة الخفيفة التي كانت في الجزائر أبان (الاستعباد الفرنسي) الذاهب الى غير رجعة ! (المترجم)

(٤) تعالت اصواتهم واختلطت .

(٥) طريق لوليجى هنديك (المؤلف) .

(غلطة) ـ كان ، ولا يزال ، وعلى التحقيق ، سيلا عريضا ، بالحصى مرصوفا ، فيه حفر وسيعة تتاثر على ابعاد غير منتظمة غالبا . ولانعدام المجاري كان الرصف ينحدر الى وسطه ، وبعد ان يملأ الحفر يجرى السائل القذر في التل نُزُلا . اما الفضلات الصلبة ، فلقد كان كل ساكن فيه ، على كل حال ، يجود على كمياتها دؤوبا ، وهي ترى في الشوارع مكدسة تفصح بلغة فاسدة عن نوعية الاناسي القاطنة . اني اذ اصف هذا الشارع الرئيس في (الحي الايطالي)(٥) فوصفي يشمل جلّ ما عليه القسطنطينية ، لا استثني منها الا قلة ، شوارع ممتازة على جانب البوسفور(٦) في (بيرة) يعيش فيها الموسرون الاوربيون .

والقي بي عند باب ما يشبه مطعما ، وعندما وقفت العجلة فتحت الباب عجوز ورحبّت بي بلغة ايطالية طلقة . ولما كانت معرفتي بهذه اللغة محدودة فلقد هتفت العجوز منادية (ماري) فخرجت مما يشبه السرداب ، كائنا خلف غرفة الطعام ، امرأة ترامت ذكية لطيفة ، وفي نحو الثلاثين من العمر ، واعلمتني بالفرنسية ان ثمة غرفة ، وان الاسعار معقولة ، وطلبت تأمينا . وسرعان ما وجدت نفسي احلّ في شقة غير مفروشة بسجاد ، فيها موقد من حديد ، وفراش ، ومغسلة ومنضدة صغيرة . لقد كانت حقا افضل غرفة ، لكن رائحة قوية كانت تشيع في البيت وتدلّ على طبيعة الطبخ لدى الطليان ، كما تلمّح الى وجود عدد من (البالوعات) في البناية ، لا يعد ولا يحصى . ثم وجدت ان خمسة من المراحيض موجودة أيضا ، وكان ذلك بآخَرَة .

وما كان اكمال قصة هذا النزل الممتاز الشاذ لتحتاج الى غير عشاء في غرفة الطعام حيث يلتقي المرء بالارمن واهل ساحل الليفانت ، وهم

---

(٦) في الحق ان منظر البوسفور رائع : (يضيق عنه السمع والروع) ، و « ثمة شعور عام ، في الاقل ، مشترك بين الناس على اختلاف اعمارهم وازمانهم هو ان البوسفور الازرق لا نظير له في العالم ولابد من ان الانسان لا يصبو الى اكثر من أن يعيش على شواطئه الحبيبة ويموت » .
فريزر في (المصدر السابق) ذكره ص ١٢ . [المترجم]

يتناولون طعامهم بالسكاكين حسب ، وبلقمات غريبات عجيبات ، ويحسبون ان الشوكة آلة لا تليق بغير الواهنين الاغرار .

وفي الصبح من اليوم التالي رقيت طرقا متلوّية ، ومررت من خلال برك تاذورات (بيره) ومجاريها . وامضيت ساعات احاول أن أجد سكنا افضل وسعر اكثر اعتدالا . وبعد اطلاعي على جحور كريهة للارمن والاغارقة ، على اختلافهم ، وانسحابي على أحسن وجه من وجوه الحفاظ على الكرامة بازاء الاسعار المذهلة التي اراغها[٧] القوم لقاء أي مكان نظيف صحي نوعمّا ، (وقلت هما امران ، احلاهما : مرّ) سعدت بلقيا روسي يؤجّر جناحاً في (الشقة الاصطنبولية) ويصبو الى ايجاد من يحلّ فيها طوال ثلاثة أشهر ، امد زورة يزمع القيام بها لموسكو .

حياتي في بيره

والذي جعل قلبي يطفح بشرا وسرورا ان « الشقة » ـ بنية جديدة ، ومن (فندق بيره بالاس) قريبة ، وتقع في افضل ارجاء القسطنطينية ، وانها نظيفة مؤثثة على احسن وجه . وكان ان اتفقنا فشاعت ، على ما آمل ، في نفسه الطمأنينة والرضى كثيرا ، كما شاع في نفسي ذلك أيضا . ومهما كان من حال ، لقد اصرّ صاحبي على ان يُختتم اتفاقنا بكثير من « المشهيّات » واقداح (الفودكا) والشراب ، وجرى ذلك في كثير من المشارب في بيره . وما ان نجمت صداقة بينه وبين سيدّة رومانية ممتازة ، الاّ ودعني وذهب مع من تعرّف بها حديثا .

وطوال ثوائي في القسطنطينية لم آسف على ذلك (الاتفاق) ابدا ، فالمكان كان مريحا سهلا ، ولما كان موقعه في وسط (بيره) ـ وهي لا تعدو ان تكون بليدة شبه فرنسية ، ولا اثر للاتراك فيها ، فيما خلاّ قلة من الحمالين والسوّاق الذين يرتدون الطربوش (فيز) ، والشرطة السكارى ـ لذلك نسيتُ ما جئت من اجله ؟ اعني الاتصال بالجانب الشرقي من المدينة . وفي الحق ان المرء ليتعرّف على خلطاء كثيرين ،

---

(٧) طلبها .

من الغربيين المتعين فيها ، وفيهم فرنسيون ، وارمن ، ورومانيون ، وروس ، وبلقانيون ، ومن سواهم ، وان مصلحبتهم تستغرق وقته كله . ونسيت كليا الشروع بتعلّم التركية ، وغدوت ذا كفاية حسنة في اللغة الفرنسية ، والمت باليونانية ، والاخيرة لغة في القسطنطينية مفيدة وكالتركية ، سواء بسواء . ومهما كان من امرٍ ، وغبَّ لأي من الزمن ، وعندما سمح الجو اللعين بذلك ، اخذت امضي في زورات الى اصطنبول ، وبنبذ كل دليل سياحي ، عثرت على المُجتليات شخصيا ، واركان كثيرة اخرى لا يملّ الانسان من ترديد النظر في مشاهدها أبدا ، ومن بينها دكاكين الاتراك الذين هم من أصل فارسي ، كائنة في (السوق الكبيرة) ، وحيث كنت على ثقة من ترحاب حار مبعثه اني احب فارس واشاطر اصحابها املا بأمل في ان تنعش وتستقل .

وفي السوق الكبيرة هذه روح الشرق الذي عشت فيه ، وقدّر لي ان اراه ، كرة اخرى ، وان افسد الاثر غالبا مترجم (مستر توملس كوك) وجماعته من المخلوقات الوديعة التي تنشد الوقوف على « سر الشرق الخفي » في دكاكين اليونانيين .

كنت اسير ، ها هنا ، وعلى رأسي طربوش ، هو لبلس رأس ينقذني من ملاحظة أصحاب الدكاكين الاغارقة السمجة ، ومن نداءاتهم في المدينة ، وهي تصخّ الاذان ، صخًا هو على أشدّ ما يكون عنادا واصرارا . وفي خلال زمن طويلة امضيته بين ظهراني أهل فارس ، وفي اسواقها ، لم استطع العثور على فرد غير تبريزي . والاتراك الذين هم من أصل فارسي يعرفون من اللغة الفارسية ما فيه الكفاية ، وان كان ذلك نزرا قليلا . وكان ان عثرت على رجل شيرازي أخيرا ، فسرّني ذلك كثيرا . ان اقامتي لمدة سنتين بين الشيرازيين لذكرى حية الى القلب جدا . وكان هذا الشيرازي نفسه مسرورا أيضا ، اذ قابل انسانا مخلصا معجبا بـ (جوهرة فارس الجنوبية) ، او (اللؤلؤة الملقاة بين زمردات) .

وعلى كل حال ، لو كان اللطف والسماحة من المعايير المعتبرة فان صاحبي الشيرازي سُرَّ ، على التحقيق ، من عثوره على شيء له روحيا (والارواح جنود مجندة) .

قنصل فارس العام

وانس اصدقائي من فارس كثيرا عندما سمعوا عن مبارزة كانت لي مع القنصل الفارسي . فلقد طرق سمعي ان احد معارفي القدامى يعمل في القنصلية كتوما (سكرتيرا) ثانيا . وفي يوم اتخذت سبيلي اجوس خلال الازقة المتعرّجة المنحدرة في اصطنبول الى البناية التي يرفرف عليها العلم الفارسي . انها مصبوغة باللون الاحمر وقذرة . وما ان دخلت فناء (البناية) الا قابلني (البوّاب) وخاطبني بالتركية ، ولما كنت ، عهد ذاك ، أجد في فهمها عسرا ، لذلك أجبته بالفارسية . ان ذلك أكثر مما كان يأمل من اوربي تائه ، ولما كانت معرفته بالفارسية واهنة ، سواء بسواء ، لذلك سمح لي بالذهاب الى (الميرزا) الصغير الدمث ، أي الكاتب ، وهو طهراني . وسألت عن صديقي (ميرزا حسن خان) ، فقيل لي : انه غادر الى فارس قبل زمان . وعلى ذلك ادرت ظهري اريد مغادرة المكان . وقبل ان ابلغ الباب جاء رجل صغير الجرم يسعى ورائي معجلا ، ورجاني ان امثل في حضرة القنصل العام لانه يروم لقياي .

وسرت في اثره ، ثم رقينا سلما ، ومررنا بعد ذلك ، من بين حشد من الريفيين الاذربايجانيين ، وهم ينتظرون ، ثم أُدخلت غرفة وسيعة مفروشة بالسجاد الفارسي على وجه حسن ، حيث يجلس القنصل العام ، خلف مكتب ، وهو ماجد (جنتلمان) في وسط العمر . وكان كتوم سره الاول يجلس على اريكة بجانبه ، وهو رجل باسم صغير الجرم تبريزي .

---

(٨) يلاحظ اننا نستعمل فارس ، وفارسي ، واللغة الفارسية لان هذا هو الاسم الذي كان مستعملا وقت تاليف الكتاب بالنسبة الى (ايران) الحالية ، وهو الذي استعمله (المؤلف) نفسه ، وقد تبدل اسم فارس الى ايران رسميا سنة ١٩٣٥ . (المترجم)

واخذت اضرب اخماسا بأسداس واسائل نفسي : لِمَ يروم الرجل ان يراني ؟ والفرض الوحيد الذي راود نفسي هو : انه يريد ان يعرف من أنا ؟ وما الذي بيني وبين (ميرزا حسن) ياترى ؟! وعند دخولي، حييته، على الطريقة الفارسية ، ومواضعاتها[8] تقضي بان يسلّم من يدخل الغرفة على من فيها اولا . وما ان ردّت تحيتي على الوجه المتاد الا قبلت دعوته الى الجلوس ، وتمهلت حتى يبدأ الحديث ، جريا على الطريقة الفارسية ، كرة اخرى ، ذلك انها تمنع من هو اقلّ شأنا ، من بين اثنين ، ان يكون هو البادىء بالكلام .

وكان اول ما سأل عنه : ان كنت في اسطنبول منذ زمن مديد ؟ وهل انوي البقاء فيها ؟ وكيف رأيتها ؟ وما جرى مجرى ذلك . وما ان استنفد جميع ما لديه من اسئلة اولية الا جاءت فترة اخذ الفارسيان يتفرّسان خلالها فيَّ ، على الوجه المعنيّ الثابت ، فلم استطع الى ذلك تعليلا . انهما ، في العادة ، حسنا التصرّف فلا يحرجان بأي وجه من الوجوه زائرا . واثر دقيقة حرجة نوعمّا ، هتف (القنصل) فجأة وبأسلوب رسمي : « لِمَ كل هذا التنكّر ؟ ولم هذه الاكاذيب ؟ فالصدق اولى . قل لي : ما مسقط رأسك ؟ » . وكان ان عقلت الدهشة لساني ، برهة ، فقد يكون مثل هذا من تركي محتملا ، اما من فارسي ، فلا . ان لم اقل شيئا في باب فشلي التام في تعليل مثل هذا التبدّل الفائق ، فأقول اني لم اسبر غور السبب الذي حمل على مثل هذه الاستفسارات التي وجهت اليّ بأدب ، او من دون ادب . ان البراءة هي التي جعلتني اذهب الى انني اؤدي زيارة مجاملة ليس غير ، فاذا بي اخاطب وكأني ارتكبت نوعا من التقصير ، لذلك تريثت عسى ان انوّر بشيء .

وسألت : « اكاذيب ؟ » .

وجاء الجواب : « اجل ! اكاذيب ، جليّ عندي أنك شيرازيّ ، وان

---

(9) آثرناها ترجمة لـ (Etiquette) ، وكلمة (رسوم) قريبة من معناها . (المترجم)

لسانك يخونك ، وانا راغب في الوقوف على هذا الذي اصطنعته لتجعل من نمط المظهر هذا شيئا ملائمـــا ، وتلفّق الحكاية الواهنـــة القائلـة بانك : انكليزي ٠ ٠

وبدَرَ الى ذهني ، على حين غرّة : ها هنا ممثل (محمد علي شاه)[١٠] الذي استطاع قبل ستة أشهر ، عن طريق (الانقلاب) اجلاس نفسه على العرش وامتلاك زمام السلطة المطلقة ، فحلّ (مجلس النواب) ، على وجه فاجيء ٠ لقد هرب كثير من انصاره الى اوربّة وهم يرحلون في أرجائها مرتدين الملابس الأوربية ٠ والظاهر انهم أخطاؤوا اذ حسبوني واحداً منهم ٠

وفي ساعة الصرة هذه خطـر ببالي جـواز سفري ، ومن الطالع الحسن اني عثرت عليـه وعلى عـدد من الرسائل ، بضمنها رسالة من السفير الفارسي معنونة الى (موسيو سون) ، وهكذا استطعت ان اثبت هويتي بعد اصار ٠

وفي هنيهة ، عادت الى القنصل روحه الودود ، ودعاني ، باقصى ما يمكن من التدفّق الى الجلوس على كرسي ضخم ٠ وقدم لي دُخينة (سيكارة) ٠ ثم امر بالشاي ان يؤتى به ٠ ومن هذه اللحظة ، عينها ، اتخذت الزيارة طابعا رسميا معتـادا لرجل فارسي ٠ وعنـدما استأذنت بالانصــراف قلت : كان املي في ان لا يسعى الى القـاء القبض علي ، باعتدادي ثوريا ، فقال : لك ان تحسب كل ما حدث افكوهة ٠

« حسنا ، يجب الاّ تتكلم الفارسية بمثل هذه الطلاقة ٠ انك لتشهد

---

(١٠) اعتلى محمد علي شاه عرش فارس سنة ١٩٠٧ فاظهر عداءا مرا بازاء العناصر الوطنية فيها ٠ وفي الـ ٢٣ من حزيران ١٩٠٩ اغلق (المجلس) المفتتح حديثا على يد حرس الشاه (القوازق) ٠ وفي الـ ١٣ من تموز سنة ١٩٠٩ جاءت قوات وطنية من اصفهان ورشت فدخلت (طهران) واحييت القضية الدستورية ٠٠ وكان ان نزل الشاه عن العرش في ١٨ من تموز وغادر البلاد ٠ وبعد ذلك بقليل نصب ابنه احمد شاه ، ودعي مجلس جديد الى الاجتماع في ١٥ تشرين الثاني ٠ وفي تموز سنة ١٩١١ عاد محمد علي شاه الى ايران ، ثم احتمى مرة اخرى الى الروس بعد ان اندحر ٣ مرت على يد القوات الوطنية ٠ (المترجم)

مواطنيك متأخرين ، عادة ، في تعلّم لغتنا ، فلو شوهد احدهم وهو يتكلم على غرار ما تتكلم ، أتأمل أن يصدّقه أحدٌ ؟ » .

وقابلته بعد ذلك مرات عدة ، وكان يلقاني ، دوما ، بروح رجل يشارك رجلا آخر دُعابة كبيرة خفية .

وفي نحو هذا الوقت ، اعني كانون الاول ١٩٠٨ ، احتفل بافتتاح البرلمان وشقّ ممثلو الامة (المبعوثان) ، وممثلو الدول الاجنبية ، طريقهم بين الاجواق الموسيقية التركية ، المتنافرة الانغام ، ومن خلال صفوف الاعلام والزينات ، الى (المجلس) في اصطنبول ، ليعقدوا جلساتهم فيه اشهرا ويبرهنوا على جدواه .

الاتراك والفرس

وكانت وجهة نظر الفرس ، وهم أول من خبر آلام التمثيل الشعبي ومغارمه ، ممتعة . طبيعي ان يزعم ان العنصر الفارسي في كل من القسطنطينية وازمير ــ وعدته نحو عشرة آلاف ــ كان متحمّسا من الاعماق لـ (المجلس التركي) ، ولو صدقت الخطابات والتهانيء التي بعثت بها النوادي السياسية الفارسية لحق هذا الزعم . ان الفرس ، على كل حال ، مدركون دوما قيمة المواءمة ، وجليّ ان تدرك ذلك النوادي التي لم تؤسّس الا بسبب من روح التسامح التركية والتي تنشر عقائد كان يعتدّها السفير التركي والقناصل وحدهم ضالة ، وان على هذه النوادي اظهار عطفها البيّن على أية حركة شعبية عثمانية .

ان السخر من الاجانب ، وبخس اقدارهم ، هما اقرب شيء الى لسان الفرس ، ابّان وجودهم في حرم بيوتهم الخاصة ، ولقد وجدوا المجال للافصاح المتيد .

ان هؤلاء اللاجئين ، باعتدادهم من الشيعة ، يصدمون ، على أين القول ، العطف على أية حركة تقوم بها السنة الاتراك[١١] . ولما رأوا

(١١) يلحظ دوما ان الرحالة والكتاب من الدول الاستعبادية يضربون دوماً على وتر الطائفية ، على حين يأمر الله تعالى المسلمين بقوله (عز من قائل) : « وان هذه امتكم أمة واحدة ــ الآية » . ان اثارة النعرات الطائفية من السبل التي كان يصطنعها المستعبدون المحتلون في سبيل الغزو الروحي ، تمهيدا للغزو العسكري والسياسي (وساء ذلك عملا) (المترجم)

العديد من الاغلاط التي أدت الى التنافر ، فسقوط (البرلمان الفارسي) ، تكرر في انتخاب (المجلس التركي) وتنظيمه ، لذلك طمعوا على التطلع ، بروح التعالي وزهوا ، الى محاولات امة كانوا يرونها بربرية دوما . يضاف الى ذلك كله ، ان حال جمهرة الفلاحين ، وسكان المدن من الطبقة الدنيا ، كانت سيئة كحال فارس في ظل (العهد القديم) ، لكنها لم تكن باسواء من حال الطبقات المماثلة في تركية . ولو كانت ثمة درجات في اصلاح الفساد ترقى عليها السلطات الادارية في الانبراطورية ، فان قلة من الاتراك الفرس ، ذوي الخبرة ، لن تمد يدها الى ادراك درجة الكمال في هذا الفن ، بالنسبة الى تركية والى اقاليمها الاسيوية ، على كل حال .

وعلى ذلك ، كان الفرس ، وهم يتشوقون الى ما يجرى ، يشهدون المصاعب التي يجب التغلب عليها ، وهي مصاعب تعقدت بسبب من المزاج الثوري لدى اليوناني والارمني ، وهو مزاج كائد خائن . لقد كانوا يرقبون نجوم ازمة ذات خطر ، وما ان نجمت ، على ما تباؤوا به ، الا توسعت عندهم نظرة الغالب المتمثلة بعبارة « لقد قلت لك ذلك ! » وكانوا قد اعتدوا النفس لها - بشعور من غلب عدوا قديما .

وكان النتاج المباشر الوحيد لافتتاح البرلمان - بقدر تأثيره في سكان المدينة - تهيئة عدد من الصحف ، فيها أعمدة طافحة بالخطابات ، ليست بأقل أو أكثر تفاهة مما يهيؤه (برلماننا) لصحف لندن - وازدياد عدد السكارى ، ومن الشرطة خصوصا . وفسرت الاقاليم (الحرية) تفسيرا خاصا بها ، فهي الحال الفوضى عندها على اختلاف انواعها ، وازدادت الى حد لم يعرف له (التأريخ التركي) مثيلا تقريبا ، أو ، في الاقل ، في (الاقاليم الاسيوية) ، وهي التي يعنى بها هذا (المؤلف) حصرا .

واخيرا ، ان ذلك لتكرار صادق لما حدث في فارس في اوائل سنة ١٩٠٧ ، حين منح (مظفرالدين شاه) الراحل اول دستور فارسي . لقد كانت الجماهير الجاهلة في تلكم البلاد التاعسة تؤمل من (المجلس) ان يعد ، في غضون ايام قليلة ، دواءا لجميع الادواء التي استفحلت ، خلال

قرون من الحكم الفاسد ، وغدت ملازمة لجسم الامة . ولما خاب ممثلو الامة في اصلاح حتى الأمور الطفيفة جاءت الانفجارات وعمّت ارجاء البلاد . لقد اثارها (محمد علي شاه) فمكنّته من استعادة سطوته المطلقة ، حتى حين .

ومثل هذا حدث في الانبراطورية العثمانية تماما . ومن نافلة القول ان نذكر ان قسما كبيرا من الناس كانوا يعنون بوجود (السلطان) عناية حية، وعلى الخصوص : طبقة رجال الدين وارباب المناصب منهم ، وهم من اكتنزوا الثروة بطرائق لا تتيّسر ما لم يكن (السلطان) موجودا ، ويسهم في ذلك ويرضى . كانت ضحايا تلكم الطبقة الكبيرة تأمل من وراء اعلان (الحرية) ان ينسحب اولئك الطغاة العتاة من الميدان سريعا ، فلا يسمع احدٌ لهم ، من بعد ذلك ، ذكرا . وما ان مرت الايام وكرّت الليالي ، و (مصّاصو الدماء وسفّاكوها أيضا) يدأبون على اعمالهم بنشاط متزايد ، الا ثار الناس (والحرب مشتقة المعنى من الحَرَب)[12] ، تحفزّهم العقائد السياسية الجديدة ، وكانت الثورة شاملة جميع الجهات . ان القبائل العربية والكردية اعتدت (العهد الجديد) بمثابة احياء جزئي لخطرها ، وعودة ، نوعاً ، لاستقلالها العريق ، لكن ذلك كان من الاماني التي تنفيها الايام ، ففرض الضرائب والتجنيد عليها لم تقلّ شدتهما عما كانت عليه من قبل ، لذلك خرجت على (المجلس) وعلى (السلطان) معا . وفي عهد تحرير هذا (الكتاب)[13] نجم وضع يمكّن الاتراك ، وجيشهم ، من القيام بكثير مما يمكنهم القيام به خلال قابل الايام .

ومن الانصاف ان نضيف : ان كثيرا من تلكم (الانفجارات) جعلها السلطان عبدالحميد نفسه ، على ما قيل ، اشدّ حدة وخطرا ، وكان يعمل على ذلك سرّا . وكان ان خضع هذا (السلطان) ، بخنوع ، لم يشهد مثله

---

(١٢) الغضب .
(١٣) خريف سنة ١٩٠٩ (المؤلف)

في العاهل الفارسي ، الى التغييرات الجذرية التي قام بها شعبه . ومهما كان من امر ، فلقد كانت نهايته كنهاية (محمد علي شاه) بسواء . ذلك ان كُلا منهما وجد نفسه ، بعد اشهر ، مخلوعا متقاعدا .

وعلى كل حال كانت سياسة القسطنطينية اشهر من ان يدلّ عليها في مثل هذا المقام ، فالاحرى ان نعود الى موضوعنا الاصلي المتصل بالفرس .

وسرعان ما علمتُ ، اثر وصولي القسطنطينية ، ان الأكراد فيها كثر ، لكنهم من (الكرمانجي)[١٤] ، قبائل (زازا) القاطنة في كردستان التركية الشمالية جميعا . وتراءى ان آمالي في العثور على كردي من كردستان الفارسية الجنوبية ستتقطع ، على التحقيق ، خائبة . وان السبب الذي يحملني على لقيا احد اولئك القوم هو : اتمام دراسات خصصّت لها سنة واجرتها في (كرمنشاه) الكائنة في : فارس الغربية .

شيخ الاسلام

ومهما تكن الحال ، اعلمني احد اصدقائي الفرس ، ذات يوم، ان روحانيا جاء من (سنه) ، الكائنة في كردستان الفارسية ، حديثا . لم يخبرني شيئا عنه باكثر من لقبه (شيخ الاسلام) وسكنه ، على وجه مبهم ، وكان في اصطنبول خانا عجبا . ولما كان هذا الشيخ سنيا متعصبا ، فمن الطبيعي الا آمل من صاحبي (الشيعي) ان يُعنى بامره باعمق من هذا .

وعقدت العزم على العثور عليه ، لذا امضيت اياما اسير في ازقة اصطنبول وشوارعها الراعبة ، صُعُدا ونزُولا . لقد سألت عنه في كل

(١٤) ينطق بعض الاكراد لغتهم بلهجة تدعى الكرمانجية ، ولا يعرف شيء عن اصل كلمة (كرمانج) ، والكرمانجية شرقية وغربية ،فالشرقية لهجة المنطقة الممتدة بين الزاب الاسفل وشط العظيم واطراف نهر سيروان (ديالى) ، اما الغربية فهي لهجة أكراد ديار بكر وماردين وحكارى وارمية وارضروم والمناطق الكردية في الاناضول . أما قبائل زازا فهي من الاكراد وتنتشر في شمالي ديار بكر واطراف ارزنجان وبعض جهات من الاناضول .
راجع (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان جـ ١ ص ٣١٨ وما بعدها لمحمد امين زكي) . (المترجم)

خان (محمدي) وطوّفت مستفسرا عن شيخ اسلام (سنه) في جميع الخانات التي امكنني العثور عليها . وكان استفساري مدعاة جور عظيم شعّت به نفوس جلّ الاتراك الذين استطعت ان انقل اليهم ما في قلبي ، وبكلمات تركية اعرفها . وعلى ما هي عليه الحال في تركية دوما ، ان التساؤل يثير من الانزعاج والصدود شيئا بالغا . وكان كل من سألته يردّ عليّ بعديد من الاسئلة : لِمَ ؟ ولأي سبب ؟ ومَنْ ؟ ومِنْ اين ؟ وان جهلي وقف حائلا دون الاجابة عنها .

مقابلة عجيبة

ومهما يكن من شيء ، وبتأثير من الرغبة في الحصول على قائمة بالخانات ، ثم الدوران عليها ، خانا فخانا ، قدرت على العثور على سكن (الشيخ) في خاتمة المطاف . انه خان ، على غرار جلّ خانات القسطنطينية ، ذو طابقين وغرف صغيرة تعدم النوافذ ، وهي بباحة محيطة . وبُني في وسطه بيت صغير ، فيه خلايا منزلة ايضا . وفي الطابق الاول منه طارمة تدور بدورانه وتفتح عليها الغرف . وكان ان عثرت على الرجل ، طلبتي ، في خلية زاوية ، او بالاحرى وجدته حيث يوجد ان كان في سكنه . وكان الوقت طوال ذلك مرعبا راعبا بشكل يندّ عن الوصف . وتعاقبت ، على دوران الايام ، ريح عاصف ماطرة ، واعاصير ثلجية ، وكانت العواصف القرّة تأتي من السهول والمرتفعات الكائنة شمالا وغربا . وعجبت من كون هذا الرجل من أهل فارس المشمسة ، وهو غريب بالنسبة الى مثل هذه الايام الكالحة الحالكة ، ويستطيع العيش ، وتسمو الشجاعة بهمته فيندفع الى الوحل والقذارة في شوارع القسطنطينية ، يسعى فيها .

وشهدت (مجيد) وهو كردي من (سنه)[١٥] ويتكلم من الفارسية قليلا . لقد دُهش من ان اوربيا يتكلم الكردية ، فعقل الدهشُ لسانه . وعلى كل حال ، اتفقنا على موعد ، وبعد يومين اثنين وجدت نفسي ، على

---

(١٥) سنه ـ سنندج مركز ولاية كردستان في ايران الحالية وجلّ سكانها من الاكراد (اردلان) (المترجم)

حين غرّة ، اجبه عاصفة مثلجة ، تعمي الابصار ، اجاهد خللها واسير لمدة نصف ساعة ، من (بيره) نافذا من (غلطة) ، عبر (القرن الذهبي) . لقد تراءى ان الرياح المثلجة في الدنيا كلها كانت تهب على اسطنبول .

وكان ان زحفت على كدس الثلج في فناء (الخان) ، وما كان فيه من انسان ، ثم رقيت درجا مهدوما وطرقت عند نهاية الطارمة بابا خفيضا . ونادى احدهم من الداخل : من الطارق ؟ وما ان سمع جوابا باللغة نفسها الا قال : ادخل ... فدخلت .

وثمة ضوء سماوي كان ينير المكان على الوجه الوافي ، وسرعان ما اظهر ترتيبه ان من يحلون فيه هم من اصل فارسي . وكان هناك (سماور) وراء صف من (الاستكانات) الصغيرة المعدّة لشرب الشاي . ويقتعد اعلى السماور ابريق شاي صغير . وكان الخادم الفارسي يملأ (ناركيلة) فارسية ، قرب منقلة من نحاس . وقرب الجدار ثلاثة من صناديق فارسية الطراز ، او اربعة ازدانت بِدُسر ذوات رؤوس من شبه . وفي احد الاركان لوازم الطريق ، شربات من طين مفخور ، وابريق الوضوء ، ومضلة وما جرى مجراها مما لا يجهلها أي مسافر في فارس . وثمة بساط (كليم) يبدأ من منتصف الغرفة ، ويفرش ارضها ، وينتهي عند نهايتها الاخرى . وال (كليم) ضرب من السجاد يحاك في كردستان الفارسية .

وكان هناك رجلان يجلسان متقابلين والارجل منهما مخفاة تحت لحاف يتراءى انه كان الى مقعد ما مستندا . وكان الذي اشد روحانيا ذا حاجبين اسودين ولحية سوداء ، يتراءى شخصا فظا غليظا يملأ قلب اي زائر لم يدع ، رعبا . وكان صاحبه على مثل حاله ، وان كان اعلى منه سنا . وكان الرجلان يعتمان بعمامتين بيضاوين صغيرتين ، لكني لم اتبيّن ان كانا قد غيّرا ملابسهما الوطنية بملابس اسطنبول ، لانهما كانا يرتديان معطفين سميكين .

وكان المقعد الذي تحت اللحاف ، بدوره ، يغطي منقلة ملیئة بالفحم ، تكوّن ما يسمى بـ (الكرسي) ، وهي طريقة التدفئة الفارسية . ومن

الجلي ان الحرارة ، وهي شديدة ، كانت محصورة تحت اللحاف لايتسرّب منها شيء الى الغرفة ، وكانت قرّة •

وكان (الشيخ) قد أعلم بقدومي فرحّب بي بالفارسية ، برطانة كردية كافية لتدلّ عليها • وكان ان لمت رجلي تحت اللحاف ، وقد شدّه حتى بلغ الحنك من كل منا ، وعلى هذا امضينا دقائق تبادل معه ، ومع العجوز الاسنّ منه ، التحايا والمجاملات • قد يبدو هذا الوضع ، بالنسبة لغريب لم يألفه ، سخيفا • اعني ثلاثة رجال جالسين على نوع من فراش ضخم ، واللحاف من الفراش ، والنمارق تسند الظهور منهم وقد احنوا الرؤوس فوق المفرش ، وكل منهم يجبه الاخر •

وكان الرجلان لَقِسي النفس من جراء حال الطقس ، ولما قلت لهما : انا من شدّ الرحال الى بلديهما : كردستان وخبّرها ، وعرف لغتها، سُرّي عنهما ، نوعماً • وباحتساء الشاي وتدخين (السكائر) غدا الرجلان مرحين يحدثانني ، ويطلعاني على كثير من المعلومات المتّصلة بالقبائل ، وهو ما جئت من اجله حقا ، وما كنت آمل ان اقف عليها ، في مقابلتي الاولى ، أبدا •

ومهما يكن من امر ، لقد فعل طقس القسطنطينية ما فيه الكفاية فجعل نفس كل منهما متقززّة برمة بالمكان • وكان ان افصح (الشيخ) عن رغبة في الرحيل الى بيروت على ظهر أول باخرة ، ليتّخذ منها السبيل عائدا الى (حلبجة ـ هه له بجه) على الحدود الفارسية ـ التركية ، في بلاد كردستان الجنوبية • وطبيعي ان تتملكني عند هذا رغبة ، بادىء الرأي ، لمعرفة العلة التي حملته على مغادرة كردستان أولا ، ولِمَ لمْ يعقد العزم على العودة اليها من اقرب نقطة ، وعن سبيل وقفة قصيرة على الحدود • وعلى سبيل الاختبار ، سألت سؤالا او سؤالين ، لكنه ، على ما ظهر ، كان يرتاب من الاجانب طرا ، لذلك وجب علي ان اكتفي بنظرياتي الخاصة التي لا ينبثق منها اكثر من الاحتمال القائل بانه يضع نفسه في مصاف اللاجئين السياسيين •

ومهما يكن ، لقد تراءى الرجل تاعسا في هذا المحيط الغريب القذر ، ولما كان يحمل على لسان ، وتبدو على حاله ذكريات قوية تتصل بكردستان

الفارسية ، فلقد تراءى ، على وجه فطيع ، انسانا غريبا في هذه المدينة التي قلدت اوربة وكل ملامحها الوضيعة . وكان مجموع مقابلاتي معه ثلاثاً ، وما كان في الامكان اغراؤه على المجيء الى (بيره) التي سمع عنها انها بليدة تعج بالنسوة الاوروبيات ، ودكاكين ، فرنجية الطابع ، على حين يمتد فيها عمامته الروحانية ، وملابسه الفضفاضة غير ملائمة . لذلك ، وجدته ، عند كل مرة يلتحف فيها وصاحبه ، لقس النفس صامتا (ونار الاسى بين الحشا تضرم) ، ينهب النفس حسرات ، ولا يتكلم في شيء فيما خلا ما اتصل بالامكنة والناس الذين خلفهم ، في جبال وطنه ، ظهريا .

ان معرفتي به ، وان كانت قليلة ، لكنها كانت كافيـــة ، وهي السبب في نضوج فكرة راودتني منذ وصولي فاجتوائي القسطنطينية . وعلى الرغم من اني لست بكردي ، ولم اصبح في معزل عن عشيرتي الاقربين او تقاليدي واعرافي ، لكنني ، وقد حللت في فارس الشرقية ، كنت توّاقا الى حرية السهل والجبل والى سير القافلة ، وهي تصلصل وتجلجل ، وئيدا ، والى شدو الرعاة الضاني على التلال ، والى الهواء الطلق النقي الطري ، ووديقة الشمس المحرّقة . كانت كلماته حائمة حولها ، وكذلك كانت افكاري ، سواء بسواء . ان لهجته ، وفارسيته الخشنة ، اعادتا الى خاطري ، بجلاء ، ما بعده من جلاء ، مشاهد سنة خلت . لقد تمثلت فيها ، بايد لا يقاوم ، صور السهل والتل في كردستان ، وروعة الشمس وهي تتوارى بالحجاب ، (تختال في ثوب الاصيل الذهب) ، على السهل وعلى قمم الجبال الموشاة بالثلوج . وكلما أفسحت المجال لاحلام اليقظة كلما سمحت لتلكم اللهجات الخشنة ان تدوي في اذني ، واشدها ما كانت تربني الانجذاب الى السهل .

وكان أن غادرت (الشيخ) ولم أسمع عنه ، من بعد ذلك ، شيئا . لكنني عدمته حقا ، كما عدمت غرفته الصغيرة ، ركن كردستان في القسطنطينية، فمن كان يحل فيها كان يحتفظ بتقاليده الوطنية وعاداته صامدة بازاء جميع

مغريات (بيوت القهوة)[١٦] وأماكن الراحة • وكان مرأى رحيله ، عبر سورية ، وتغرّبه من حدود كردستان ومنخفضات دجلة لا يفارق مخيلتي ، كل يوم بتة • لقد هللت ، لذلك اليوم الذي يصل فيه أول بليدة كردية باعتداده سريا ، وما كنت أحلم بأنه قد يسرق أو يقتل على يد الاكراد قبل وصوله هناك أبدا •

وأخيرا ••• جرى بيني وبين الطقس اتفاق ، اذ لو صحا الجو وحل الدفء ، في يوم ما ، فسأبقى ، والا ، ومن دون أخذ أي اعتبار معوّق بنظر الاعتداد ، اتخذت سبيلي الى بيروت حتما ، ومنها الى كردستان راحلا •

متنكرا ••• كأحد ابناء البلاد !

وكان المال ، على التحقيق ، نزرا قليلا • لذا لم اك قادرا على السفر على ما يسافر الاوربي عادة ، أعني مصطحبا خدما ، منفقا ضعف ما يندق على كل شيء ، حالا في أفضل الاماكن ، في الارجاء طرّا • فان قُدّر لي أن أرحل فسألبس الطربوش (فيز) واسافر باعتدادي شرقيا • كما اني سأشتري طعامي الخاص واساوم على كل شيء شخصياً ، وأعنى بالقيام بجميع هذه الامور التي لا يستطيع أوربي القيام بها ، أو حتى مجرد التفكير في القيام بها • لقد خبرت الحياة في فارس متنكّرا كفارسي ، وسيكون هذا أمرا يسيرا ان كنت بين الاغراب غريبا • ان أي اختلاف بين أساليبنا وعاداتنا سيخضع الى الواقع • وكان ثمة شيء يروق ويجذب، وأعني به القيام بأعمال من دون معين (خادم) ، وجهل التركية والعربية عمليا والمرء يمضي عبر سورية ، الى كردستان ، وعبر دجلة نزلا •

فان قدّر لي الوصول الى هناك فأصبح ، وكأني حللت في وطني ، ذلك اني كنت أعرف لهجتين أو ثلاث لهجات فارسية معرفة تامة تساعدني على أن أمضي من بين الاكراد وكأني فارسي • ان اخفاء الجهل بالعادة

---

(١٦) شاعت في ايامنا كلمة (المقهى) ولقد وجدت البوريني في (تراجم الاعيان ــ القرن الحادي عشر) استعمل (بيوت القهوة) [المترجم]

والعرف لهو ، في الشـــرق ، قاعدة الحياة • وبصـــدد ممارسة الشعائر الاسلامية ، أقول : اني تعلمتها في فارس جميعا ، وكنت اؤدي الصلاة كما يؤديها شيعي ، واباري أفضل القوم في تلاوة القرآن (كذا ! : المترجم) •

وعلى ذلك ، وغب أخذ جميع الامور بنظر الاعتبار ، غدا (المشروع) نفسه وكأنه موصى عليه بنفسه • انه بخس الكلفة ، وسأرى ، بواسطته ، كثيرا من البلدان والقبائل الجديدة بالنسبة الي ، وسأتعلم من اللهجات الكردية كثيرا ، وما أن أفرغ من ذلك كله الا أكون قد امتلكت معلومات صادقة عن الناس وسبل حياتهم وطبيعتهم ، بأكثر مما يستطيع امتلاكه أوربي ، غب سنوات عشر •

لذا ••• جلست ، أرقب ما سيقرره الطقس نفسه !

الفصل الثاني

من (القسطنطينية) الى (هيرابوليس)

طرفت عيناي الى العزلة والطريق ، فنهضت
... ومضيت الى الامكنـة البلقع اليـــــاب
(اغنية الاكراد الارزنجانيين)

لم يكن الطقس بي كَلِفا حتى ينجلي ، اذ ما أن قرب يوم اتخاذ (القرار) المرتجى الا أخذ يسوء ويسوء مطرّدا . وفي خضّم اعصار كاسح من مطر بارد ، اتخذت سبيلي الى (غلطة) لاحجز مكانا لسفري ، على ظهر باخرة شركة (ميساجيري ماريتيم) ، الى بيروت .

صعوبات اكتنفت جواز السفر

كان ما يجب اتخاذه من ترتيبات قليلا ، ذلك اني كنت أمتلك جوازا ، لكن كان لزاما عليّ أن أتزوّد بوثيقة تدعى (تذكرة عبور) ، وهي جواز سفر بالتركية ، تصدره الشرطة . وما أن حصلت على أمر (القنصل) الاّ مضيت الى مجموعة من الاكواخ في اسطنبول تدعى (الضبطية القديمة) ، واثر سعي من كوخ الى كوخ لمقابلة عدد من (الافندية) ، تراءى ان واجبهم هو وضع الاشارات على استمارة المريضة ، قدّمت اليّ الوثيقة ، على حين غرّة ، اذ جاءت من ركن غير مأمول كائن في فناء قذر . وما كان الكاتب شاعرا بوجودي في البناية مطلقا ، وعلى الرغم من ذلك وجدت اني وصفت : برجل متوسط القامة ، أسود الشعر ، من دون لحية ، وان

لي شاربين أسودين ـ وكل ذلك ، على التحقيق ، صحيح ـ واخيرا ...
اني على مذهب الـ (بروتستانت) . وكان عليّ أن أمضي في جل رحلتي باعتدادي محمديا . وعند هذا وجدت ثمة كاتبا تركيا يدقق ، منذ طالعة الامر، في خططي، وانه هو الذي جعلني في جوازه المتضخم ، (بروتستانتيا). طبيعي أن أحتج بقوة بازاء حق كتبة الشرطة ، العالمين بكل شيء ، في نسبتي الى أية طائفة أو عقيدة . لكنهم دهشوا قليلا من اعتراضاتي ، وما كان في الامكان أن يدركوا غير ان جميع الاتراك هم من المسلمين وان جميع الارمن هم من النصارى ، وان جميع الفرنسيين هم من الكاثوليك، وان الانكليز والامريكيين من الـ(بروتستانت). لقد كانوا يجعلون هذه أسماء لأديان الامم حسب ، وما كانوا بقادرين على أن يدركوا ان الانكليزي قد يكون منتسبا الى أية طائفة من الطوائف المنشقة . وأن يكون الانكليزي كاثوليكيا ، أمر ، بنظرهم ، بيّن السخف . وازداد ازدراؤهم لذكائي عندما أصررت على ان مثل هذا الامر محتمل ، وغدا الازدراء على أشدّه . ولذلك كان لزاما عليّ ابقاء كلمة (الترذيل) هذه ، على انني صممت على طمسها ، أو اتلافها ، عند مسيس الحاجة الى ذلك .

وكان يوم الرحيل ، على غرار أيام الشهور المواضي ، يوم (صوب سحاب وابل واكف) قرّا ، وتطلّعت بأمل باسم الى المستقبل ، ذلك (ان السفر لا يطول على قاصد الحبيب) ، وعساني أرى ، في غضون أيام قليلة، تلال سوريه المشمسة . وكان اسم سفينتنا : (ساغالين) وهي وسعة مريحة ، وقديمة. وكان رسيس[1] الربيع قد جاء بطليعة السياح الى فلسطين . وما أن أصبحت على ظهر السفينة الا وقعت في اذنيّ الكلمات الانكليزية الاولى منذ أن تركت لندن راحلا . وكانت جماعات السياح مريحة : أربعة من كاثوليك روما أو خمسة يصطحبون جمعا من (البورجوازيين) الاتقياء في زيارة لـ (بيت المقدس) . وجماعة أخرى ، أكبر عددا ، تتألف من

(١) الرسيس : ابتداء الشيء .

الصناعيين الموسرين ذوي المكانة جاءت آحادها من (ليدز) و (ليستر) ، وغيرهم ، يتحدّون بالعشرات ، جاؤوا من مدن (مدلاند) في انكلترة . اما الجماعة الثانية فكانت مؤلّفة من ستة من الأماجد المنسوبين الى السلك الديني ، كل منهم ينتمي الى طائفـــة مختلفة من طوائف البريطـــانيين المنشقين . لقد ألّف بينهم من قلّد (مستر توماس كوك) في عملـــه ، وانهم من الاقاليم جميعا . وثمة أمريكي وزوجه ، وباشا تركي واسرته ، وأفندية من توابعه ، وألمان وفرنسيون لا تعرف لهم صلة ، مضورون ... كل اولئك كانوا مالئي السفينة .

ولما كان عليّ أن أبدأ بارتداء الـ (فيز) ، عاجلا أم آجلا ، لذا رأيت ان من الاجدر أن أقوم بذلك حالا ، وأن أتخذ صفة فارسي ذاهب الى بلاده ، وهذا يخلق لي ، في جهل التركية ، عذرا . وما كان أي تنكر آخر اصطنعه بقادر على تحقيق مثل هذا أبدا . وفي تنكرّي ، كواحد من أهل أرض قاصية ، وفي سبيلي الى أمكنة لا يعرف فيها الاسم : (انكليزي) الا لماما ، أحسست بأني في معزل غريب عن أبنـاء جلدتي : الاوربيين ، حين سمعتهم يتحدّثون في أمر رحيلهم ، ويختطّون لسفراتهم مجد أعني : متى سيزورون فلسطين ومصر ، يا ترى ؟ ويعودون ، الى مدنهم في (ميدلند) ، سياحا شرقيين خبيرين ، كرة أخرى ؟

عجيب هذا الذي يجيء به تبديل طفيف في غطاء الرأس . ها أنذا بمجرد ارتدائي الطربوش ، غدوت في معزل ، رجلا يرسل النظر الى انماط من الناس شتّى ، ممن يمرّون في لندن فلا يعرهم أحد التفاتا ، فيهتفون بصوت مسموع : « انه تركي متمدين تماما » ثم يتساءلون : « ما عدد زوجاته يا ترى ؟ » أو ما جرى مجرى هذه الاسئلة الشرقية المعتادة . لقد كان جهل هؤلاء القوم مطبقا عجبا ، وشاهدوا ، على ما أذكر ، ذات صباح ، (متيلين) فتكأكأ القسس والسياح على السياج ، وبأيديهم (دلائل السياحه) والنواظير ، وقد لجّ التطلع بهم واختصموا في : هل ان الارض العاليـة هي (خيوس) أو انها (رودس) ؟ لقد غفلوا عن المخطط الكبير الذي يعلو

سلم البهو ، وبه يمكن تعين موضعنا ، على خط سيرنا ، بتفكير لا يستغرق الا بقيقتين . لقد كانوا ، على التحقيق ، معجبين برواء الارخبيل الرائع وعلا حماسهم الصميم لرؤية الأمكنة التي توصي برؤيتها (دلائل السياحة). وثارت منهم الأنفس عندما بلغنا (رودس) ، وهم على ثقة من انها ليست ب (قبرص) ، وقد تسعّر الجدل بينهم بشأن (كولوسس Colossus)[٢] فدأب يدور حوله ، لمدة ساعتين ، بحيوية . وكان أن تلاشى مرأى الجزيرة تحت الأفق الازرق ، وقال قائل منهم ، وهو رجل من (مانجستر) ، مؤكّدا ، ويروح من السماحة متدفقا : « انه في زرقة البحر عند (بلاك بورل) حقا ! » .

وقبل أن يمرّ علينا ، ونحن في البحر ، يومان ، انطلقت من فمي بضع كلمات انكليزية عفوياً ، فتناهت الى قلب انكليزي من (نيوكاسل) ووقعت فيه كموقع الماء من ذى الغلة الصادي . داس الرجل على قدميّ بقوة ، فأسرعت الى الاعتذار اليه ، لا اراديا ، وكان أن نظر اليّ ولاحت على وجهه من امارات الدهشة أشدّها ، ثم هتف قائلا : « يا للسماء ... أأنت تتكلم الانكليزية ! » ، قلت : « أجل !.. فأنا ممن ترعرع في انكلترة » فقال ، والظاهر انه استروح لذلك : « ان هذا ليفسّر الأمر ، لقد ترعرعت فيها ، فالى أين أنت ذاهب ؟ » فقلت له : « اني ذاهب الى فارس » . ثم كان أن استخلص النتيجة على استعجال ، فكان صنيعه سببا في انقاذي من عقبى أي تعبير مبهم أفوه به في تلكم اللحظة عينها . وعاود الحديث وقال : « أواه ، لي أن أزعم ، اذن ، انك أحد اولئك السادة الذين كانوا في انكلترة مؤخرا ، ومثّلوا (البرلمان الفارسي) ، كيف رأيتها ؟ وأي رجا منها عرفت جيدا ؟ » .

أجبت : « سسكس Sussex وكنت Kent » وكنت في ذلك صادقا تماما وبصرف النظر عن ملاحظاته الاولى ، والجنوب كله ، ذلك اني لم أذهب

(٢) تمثال ضخم للغاية يفوق جرم انسان كائن في الجزيرة .
[المترجم]

شمالا بأبعد من (لنكلن) أبدا ، وهنا انضمّ الينا أحد أصدقاء محدثي ، فقدمت اليه بشيء من الحمية ، وكان الذي عثر عليّ يعلن بلهجة العالم الطبيعي الذي استطاع العثور على لقطة نادرة :

« هذا السيد يتكلم الانكليزية مثلك ومثلي ، كل شيء فيها ، وانه فارسي يتخذ السبيل الى فارس • »

حسن هذا كله ، لقد غدوت ، منذ تلك اللحظة ، طائر الصيت بين اولئك القوم فوجدتهم ذوي قلوب عامرة حقا ، لا سيما عندما زودتهم بمعلومات تتصل بفارس ، وقلت انهـا تنظر نظـر العطف الى انكلترة الدستورية ، وتنشد العون منها ، وتعتدها صديقة طبيعية عريقة ، وذلك على النقيض من الروس ، لانها تجتوي القوزاق • ان كوني من الفرس ، وهو أمر تراءى لهم ، بطبيعة الحال ، حقا ، هو الذي يسّر لي صداقتهم، وما كان يسرّهم شيء أكثر من أن احدثهم في هنات بلادي ، وأهدافها ، ومطامحها وتأريخها وأعرافها وعاداتها ودينها وآدابها ، وكل موضوع آخر يرد على البال • وفي كل مناسبة من مناسبات هذا الحديث كنت أحظى بجمع يلقي السمع الى ما هو أروح شيء على قلبـه وأزيد في نشاطه ، لذلك كان آحاده ينهالون عليّ بالاسئلة التي لا تعدّ ولا تحصى • وكنت أسرّ من أن أقدر على تنويرهم ، وكان عليهم أن يعترفوا بأن آراءهم السابقة قد تغيّرت كثيرا ، وان وجهة النظر السـامة التي كانت عندهم والتي لم يكونوا ليطيقوا اخفاءها ، باعتدادها أصيلة صادقة ، لو كانوا اناسا غير مهذبين ، هي السمو الواعي ، لذا يجب أن تفرض نفسها عليهم ابّان عودتهم الى انكلترة •

اني اذ ألعب هذا الدور ، على ما يبدو لي ، لمصطنع حيلة وضيعة ، وعذرها الوحيد اني انسان ينطوي على نية حسنة صادقة بالنسبة لـ (فارس) ، وفيها أمضيت سنين مسرّة من سني حياتي • لقد أضفى هذا التنكّر على احكامي وثوقا ووزنا لن يستطيع انكليزي آخر ، مهما كان مبلغـه من

العلم ، الحصول عليهما من مواطنيه ، وبالنسبة الى موضوع فارس القصي •

وهكذا مرّ الزمن رخاءا حسنا ، وأسفت لأن أشهد تلال بيروت تتقارب تدريجيا • انهم آخر انكليز سألقاهم لزمن مديد قابل ، فتكـري يحول دون زيارة القناصل حيثما وجدوا في المدن الواقعة على طريقي • وبأسف شديد ودعتهم (وبودي لو يودعني صفو الحياة واني لا اودعهم) وشهدتهم راحلين ، ودليلهم مخلوق مرعب ، هو أحد نصارى البلاد ، وبريق الشهوة الى النفحات يلمع في عينيه • وما أن رأيتهم على حال مريحة ناعمة ، يقادون الى هنا وهناك ، الا دبّ في قلبي الحسد ، ذلك انهم سيطوّفون في فلسطين فيستقلّون قطارات وعجلات خاصة وسيحلّون في أفضل (الاوتيلات) ، ثم يعودون ، على هذا الوجه المترف الراقي ، الى انكلترة ، على حين أنا بسبيل مشروع جدّ مختلف ، اذ سيُسار بي وعيناي على القرش المتملّص ، ولساني على استعداد لأن يقول كذبا •

وكان أن وجدت نفسي اشارك تركيين ، وعربيا نصرانيا حلبيا ، قاربا صغيرا أقلّنا الى دار المكس (الكمرك)(*) حيث احتشد جمع من العرب والترك وأهل الـ (ليفانت)(٣)•

وأوصاني سوري يتكلم الفرنسية ـ على شاكلة كل شخص آخر في بيروت ـ بان أحلّ في فندق صغير ، قرب المسناة • وكان أن أعطيت لي غرفة فيه تطلّ على الميناء ، ذات شرفة أمامية صغيرة يجلس المرء فيهـا حذرا محترسا لأن القاطرات القذرات المتزاحمات في الطريق لها وقفة تحتها ، وهي تورى نارا تصطنع لها فحماً خاصاً ساماً ، فيبعث من (صمامات الامان) فيها بخار ذو ضوضاء مزعجة جدا •

(*) قيل ان كلمة (كمرك) مشتقة من (كمبرون : Gambron) وهي (بندر عباس) على الخليج العربي ، اذ كانت تجبى فيها رسوم على السفن • [المترجم]

(٣) في الاصل Levant ويراد بها البلاد الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط • [المترجم]

انها نهاية خط (ترام لبنان) وهو الذي يزحف على التلال صعداً حتى يبلغ نقطة تدعى (رياق) انتهاءاً .

وصاحب (الاوتيل) تركي ، وهو بارد الدم ظليف ، لكن من يريد أن يطعم فيه عليه أن يدور في أحد زواياه ويذهب الى المطعم « الفرنجي » حيث يشهد جمعا مريجا من جميع الاجناس ، الحجاج العائدين من مكة ، وقد جلسوا على الكراسي ، ولا تبدو على وجوههم امارات الارتياح ، ينظرون ، باستكار ، الى طقم السكاكين والشوكات الذي كان يرتبه النذل (جارسون) اليوناني أمامي .

في بيروت

كانت بيروت ، في يوم من الايام ، واحدة من أعظم المدن الفينيقية التجارية ، حين ارسلت (صور) سفنها الى (جزائر القصدير) . وكان أن نست المدينة منذ ذلك الحين فغدت اليوم زاهرة مزدهرة . انها مبنية على منحدر التلال و (يتوه فيها النظر ويحار البصر وتحبس الانفاس لها ، روعة وجلالا !) . تلك هي التلال التي تفصل سورية عن البحر المتوسط . ويبدو لي أن أهلها ، في الغالب ، نصارى ، ولا يشهد المرء فيها ملامح مدينة شرقية حقة الا في أزقة سوق صغيرة . أما في البقية الباقية منها فثمة طرق وسيعة متربة ، وميـــدان عام واسع ، وبساتين ، وترام كهربي يشاهد في كل مكان . ولغتها فرنسية بأكثر منها عربية ، وتحظى الانكليزية بعناية طيبة في (الكلية الامريكية) القائمة في المدينة . انها ، على غرار حيفا وطرابلس الراكبتين الساحل نفسه ، قائمة على نقطة برية صغيرة ، قبالة الشمال ، ويحمي ميناءها سور بحري متين مطبق على حوض عميق .

ويتطلع المرء في الشرق الى أول لوازم السفر ، هذا الذي يسميه الترك (رفيق الطريق) ، ونظيره في الفارسية أيضا ، (فالرفيق قبـــل الطريق) . وفي هذه المناسبة ، ومن دون تفتيش عليه ، مثل (رفيق السفر) المنشود في شخص تركي من (قونية) كان يحل في الفندق الذي حللت فيه نفسي . وكان علينا أن نرحل بالقطار ، والشمس تجر الى الغـروب

ذيولا (صفراء تشبه عاشقا متبولا) ، تلقاء (حلب) متوجّهين . وكان القدر قد خطّ لي أن ألتقي بهذا الرجل ، وعلى الرغم من ان الحوار بيننا كان محدودا ، فأنا أجهل التركية ، استطعت أن أفهم منه ان قطع الطريق يستغرق ٢٤ ساعة ، وان علينا أن نصحب ما نبغي من زاد . لذلك اتخذنا السبيل الى السوق البلدية وابتعنا من باعة المأكولات بالسلال ، كمية كبيرة من أفخر أنواع البرتقال ، وشيئا من الخبز وبعض ضروب الكعك الحلو ، شتى .

وعند الساعة السادسة استأجرنا الحمّالين ونقلنا متاعنا الى المحطة ، وهي سقيفة على المسناة ، على بعد ياردات قليلات . وما أن سجلنا متاعنا بأسعار باهظة ، والظاهر ان ذلك تمّ بتكرّم متعال من (أفندي) عليه سيماء المتفخ العسكري ، الا ابتعنا التذاكر من الدرجة الثانية الى حلب . يهيمن الفرنسيون على مستخدميهم على الوجه الصحيح ، فلقد وجد (رفيقي) بعدئذ ، ان قد فُرض عليه مجيديان دفعهما عن متاعه زيادة ، ومجيدي آخر على بطاقة السفر أيضا ، ومما لا شك فيه ان (الافندي) و (كاتب التذاكر) قد استحوذا عليها . لقد أفلتُ من هذه الاتاوات ، والفضل في ذلك ، على ما يتراءى ، الى رعاية حمّال عربي شاب ، فلسبب لا سبيل الى تفسيره ، جعلني تحت رعايته ، كما انه رفض جميع (النفحات - البقشيش) عندما انطلق القطار بنا ، ينهب الارض نهبا .

لقد كانت المقطورة التي وجدنا أنفسنا فيها ، نواجه بعضنا بعضا ، وركبة كل منا تصطدم بركبة الآخر ، مليئة بعشرة أشخاص آخرين . ولما كانت عوارض هذا الصنيع الفرنسي من الطراز الاول!، ومردُّ ذلك الى السكة الحديد الفرنسية وهندستها ، وهو لا يعلو الا ستة أقدام ، والسكة نفسها من المقياس الضيق ، لذلك ارتفعت الحرارة معجلة ، شأنها كشأن الرائحة المنبعثة من جسوم من حلّوا في القاطرة . وكان عرض المقاعد ، على ما قسته خفية ، ١٥ انجا على التمام . علينا أن نمضي الليلة في هذه المقطورة ، وهذا ما حدث حقا . وكانت رفقتنا في السفر أربعة ايطاليين متجهمين ، وهم من مستخدمي

السكة الحديد ، ينضاف اليهم ستة أشخاص يلبسون البزات الرسمية ، والظاهر ان الاتراك ، وهم بعيدون عن المدن التي سكانها من بني جلدتهم ، يلبسون امثالها دوما . ويخيب المرء ان سعى الى حدس مقامهم ودرجة خطرهم ، وهما مما يجب أن يأخذه بنظر الاعتبار كل امرء خلال حديثه مع موظفي هذا الشعب الذي يعتد بالرسميات على وجه ملحوظ . طبيعي أن يكون هؤلاء الاشخاص من « الافندية » جميعا . وكان ثلاثة منهم يتقلدون السيوف ، وذلك يعني كل شيء يخطر على البال . لقد دلت الملاحظات الاخيرة على ان (كاتب الكمرك) يحق له مثل هذا أيضا . ولحسن الحظ كان هؤلاء مستغرقين في شؤونهم الخاصة فلم يلحظونا ، فافلتنا ، حينا من الوقت ، من الرغبة في الاستطلاع ، ولا رحمة فيها ولا شفقة عندما تعتلج في نفس التركي ، أهليا كان أم موظفا .

وفي نحو الساعة الرابعة صباحا ، واثر يوم قلق مضطرب جدا ، أخرجنا في الظلام ، الى العراء ، ولنقف على المعادن . هذه (رياق) حيث يتفرع الخط العريض الذاهب الى حلب . ومن حسن الحظ كان قطارنا الجديد ، ووسائل السفر عليه أفضل نوعما ، على استعداد للانطلاق ، لذلك أسرعنا اليه ، وكان محلنا الجديد أقل ازدحاما . وما أن شغلناه ، وأخذنا نرقب ماجريات الامور ، الا تعالى صوت جمع مهتاج من الناس وصل توا . لقد كانوا يشفقون من أن يفوتهم القطار ، فبدد الصوت السكون المطبق . كان القطار الاول قد رحل ، وكل فرد يجلس في مقعده ، والظاهر اننا كنا واقفين لتمكين المسافرين من أن يخلدوا الى سنة من النوم ، حادثة عائثة . طبيعي أن تسترعي الجلبة الانتباه ، لكن الذي دهشت له حقا أن أرى وجه أصفهاني من فارس ، في مثل هذه الارض التركية العربية نفسها ـ يطل من نافذتنا ، ثم يرمق رفقته الذين يسيرون في أعقابه هاتفا فيهم بلغته الفارسية : « ها هنا مكان ! »

عرس يهانون

وهب حشد صغير من الاصفهانيين المضطربين ، وآحاده يلبسون

ملابسهم الوطنية ، راكضا . ومما لاريب فيه انهم كانوا بسبيل جعل عدد منهم في مقطورتنا ، لو لم يعقبهم الافندية العديدون ، ويحولوا دون محاولتهم الدخول اليها . وكان الغالب من اولئك القوم يجهل العربية أو التركية ، ومن الجلي انهم كانوا يرومون السفر الى حلب . لقد تحيّرت من موقف الافندية المرموقين ـ وهو موقف لا يمكن تفسيره ـ ومن رفضهم السماح لهؤلاء الغرباء الفقراء الذين أكّدوا انهم دفعوا اجور السفر ، لذلك انحنيت ومددت رأسي من القطار وسألت أحدهم بالفارسية : « ما خطبك ؟ » وتراءى كالمبهور ، هنيهة ، لسماعه لغته ينطق بها تركي يرتدي طربوشا ، لكن اذنيه صدقتاه أخيرا ، فانطلق ينذر بالويل والثبور ويقول بغيظ وحنق : باه ! اف لهذا عملا ، لعنة الله عليهم ، لدينا تذاكر سفر من الدرجة الثانية من دمشق . لقد حشرونا وحريمنا في عربة الماشية ، أولاد (السنة) الكلاب (كذا ! المترجم) أولاد العاهرات التركيات (كذا ! المترجم) ، والآن نُمنع حتى منها . وبينا هو في هذا سمعت صوتا غليظا بالعربية يتعالى : (لا محلّ للعجم أبدا) ، وبتركية بغيضة : (اخرجوا يا أولاد الكلاب!)[٤] .

كان اولئك الرجال التاعسون ـ وهم حجّاج عادوا من مكة ـ يطردون من باب الى باب ، تصبّ عليهم اللعنات ، ويوصمون بالمارقين الشيعة الهراطقة ، وحيل بينهم وبين أي محل . وما من اهانة لحقت اناسا بأشدّ من الاهانة التي لحقت بهؤلاء التاعسين ، وما من نقلة كانت بأقسى من نقلتهم هذه .

جهل يسير

وعلى حين غرّة مثُـل موظف فرنسي من مكان ما ، فحلّ المشكلة بالحاق مقطورة اضافية . وكان أن حلّ فيها اولئك الفرس ، فانكشفت

---

(٤) كنا نريد ان نطوي هذه الفقرة عن القارىء الكريم طاعة للادب والتقاليد ، لكن امانتنا المطلقة في الترجمة الزمتنا على ابقائها ، علما بأن مثل هذا الاضطهاد وهذا السباب لا يتبادله الا السوقة والاوشاب ، وقاح الوجه سليطو اللسان ، وان ديننا الاسلامي السمح الكريم لا يقر ذلك ابدا فهو دين : (وان هذه امتكم امة واحدة) ، و (انما المؤمنون اخوة)و (لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، ومن اصدق من الله حديثا [المترجم]

عنهم الغمّة وانجلت الغمرة ، فأصبحوا عن الناس في عزلة . وكان محلهم أوسع من محل مضطهديهم وأكثر دعة وراحة ، لذلك سكنوا اليه سكون الطائر الغريب ، بعد طول تدويم ، الى العش المهجور .

وهكذا شرعنا بالسفر ، ثم كان أن غرقنا في لجّة النوم ، وما أن استيقظنا منه الا كان عمود الصبح قد انفرج وأشعة الشمس تنير بعلبك . انها مكان عظيم تتزاحم حوله الذكريات المواضي ، لكن القطار سرعان ما خلفها ظهريا . انه لا يُعنى بعبادة (بعل) ولا يتوقف عندها الا لحظات قليلات ، ثم يدبّ بعد ذلك يطوي السهول ، ذوات التلال الواطئة ، الكائنة بين (حمص) و (حماه) ، وهما مدينتان عربيتان ، وسكانهما قد نجوا من التفسخ الملازم للحكم التركي ...

وقبل أن نصل حلب بساعات ، ركب القطار موظفان يرتديان البزّة الرسمية ، فأزاحا مسافرا لا يرتديها عن مكانه ، وحلاّ فيه . وبعد دقائق قليلة أخرج أحدهما وهو يَدَّ يَنُ أحول (دفتر ملاحظات) صغيرا قذرا ممزّقا ، وشرع يضع فيه علامات ، ويتطلّع الى المسافرين وكأنه يرسم صورا . وما أن فرغ من العملية الغريبة هذه الا أعطى (الدفتر) الى صاحبه ، فقرأه وأعاده اليه قائلا : (حسن جدا) . ثم شرع الاثنان بأكل البرتقال وبرمي القشور تحت قدميّ جار لهما . وشُغلا بمثل هذا نحو نصف ساعة ثم نظر أحدهما الى ساعته وقال : ان الوقت متأخر ، وغادر مكانه مارّا من الباب ، محاذيا الممشى ، معجلا . وبعد لأي من الزمن ، ظهر من الطريق نفسه كرة اخرى ، وجلس ، وأخرج (دفتر الملاحظات) وأزاح النقاب عن هويته . انه ضابط شرطة واجبه التوثّق من ان جميع المسافرين على القطار هم ممن يسمح لهم بدخول حلب من دون خطر اثارتهم القلاقل والاضطرابات السياسية أو ارتكاب الجرائم على اختلاف أنواعها . كان هذا بعد أربعة أشهر من الاحتفال بافتتاح (البرلمان) ، أي بعد أربعة أشهر مما قيل بأن القيود المفروضة على السفر من قبل (السلطان) ، وعيونه ، قد الغيت نهائيا ، باعتدادها من بقايا العصور المظلمة وأيام

الاستبداد الكريهة .

ومهما تكن الحال ، لقد كان هذا (الأفندي) - على ما يظهر - فوق أمثال هذه القوانين كثيرا ، شأنه كشأن أي شخص وجدته أخيرا . لقد أصرّ على الحصول على معلومات تامة . وكان ثمة ميكانيكي الماني ، سيء الحظ ، مسافرا الى حلب للعمل في معمل أحد تجارها . ولما كان هذا الشخص أوربيا ، فلقد أخضعه . الافنـدي ، لجميع ضـروب المزعجات الممكنة ، فكذّب ما أدلى به ، وكاد يتّهمه بأنه مجرم . لقد كانت مهنة الرجل تقلق الشرطي أيضا ، ومن المحتمل ، على ما يتبادر الى ذهني ، ان الجهل الفاضح هو السبب في قيامه بمثل هذا الثأر الصغير . فعندما سأل عن مهنة الاوربي ، قيـل له : « مهندس » ، فلم يستكنه معنى الاسم ! وأخيرا ... جاء دوري ، وكنت أشـفق من استفسارات مزعجة ، اذ لو قلت : اني انكليزي لما صدّقني أحد أبداً ، ذلك ان أبناء جلدتنا يسافرون في مثل هذه الارض ، على عربة محجوزة من عربات الدرجة الاولى ، حصراً ان الواحد منهم يرتدي « قبعة شمسية » ويقوم على خدمته (معينون) . ولو قلت : اني فارسي لاطمأن الرجل الى مثل هذا القول ، لكن ذلـك « الجواز » اللعين موجود دوما ، ومن الطبيعي أن أجهل انه سيفحص في حلب ، جنبا الى جنب مع ملاحظات هذا المخلوق .

ولما كنت لا أعرف من العربية والتركية الاّ قليلا ، لذلك تظاهرت بالجهل التام وشرعت ادلّ بالاشارات على اني مسافر الى فارس ، اقطع مسافة شرقية ، مشيرا الى نفسي قائلا (بالعجم) مكررا . وكان أن انهال عليّ باستفسارات لا تعد ولا تحصى ، لو أجبت عنها لجعلتني متخبّطا في حال ، من المتناقضات ، فوضى راعبة مرعبة . وما أن أخفق في الحصول على أي جواب الاّ انصرف ، اذ لم يجد ، على ما يُخيّل الي ، لذاذة في مثل هذه (اللعبة الرياضية) ، وذهب الى ضحية أكثر ذكاءاً .

حلب

وفي نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر بلغنـا حلب ، أو بالاحـرى

(محطة حلب) ، نهاية القطار الزاحف الذي يسرنه الاسم الممتاز :
(قطار دمشق الممتد الى حمص وحماه) .

غريب أن لا يسأل أحـــد عن (جوازات السفر) ، وكان الازعاج الوحيد ان متاع ركاب الدرجة الثانية المسجّل لن يوزّع قبل ساعة، وما أن تلقيت هذا النبأ الا هجم عليّ ، بعنف ، مَنْ يشبه أحد رقباء الفنادق ، ومن حسن الحظ انه كان آخر من لقيت من أمثاله ــ ذلك اني خلفت الفنادق ورقباءها في حلب ظهريا . ومهما كان ، لقد خضعت الى أن ارمى في عجلة ، ثم وجدت نفسي تلقاء المدينة، على طريق واسع طويل، متّجها . ان أول معالم المدينة هي (القلعة)(*) التي تعلو (تلّها) ذا القمّة المسطّحة . جليّ ان حلب الحديثة عربية ، ولغتها هي عربية أيضا ، ولم تستطع الفرنسية ، على مافعلت في بيروت ، الى زاحتها ، سيلا ، على ان في قلة من الشوارع العريضة لوحات مكتوبة بالفرنسية الرديئـــة ، علّقهـــا أرباب الدكاكين ، والمصوّرون ، وأصحاب الفنادق من الاغارقة والأرمن والسوريين . وأغلب طرقها وأزقتها فرشت بحجر ، وهي تمتدّ بين جُدُر عالية ، وانك لتجد فيهـا النوافذ المشبّكة التي يصلها العقل الاوربي بحلب . وغير ذلك ، فيها سوق فاخرة ، وصفوف من (الأكشاك) ، على الطرز الشرقي ، متتابعة ، يجلس فيهـــا أصحابها القرفصاء يبيعون الاشياء الاوربية والبلدية التي يصادفها المرء في جميع الاسواق الكائنة بين أفغانستان والقسطنطينية . ويخيّل الى من حلّ في الشرق الاقصى انها الخطوة الاولى التي يخطوها الى البلد العتيق ، كرة

(*) ان مدخل القلعة اجمل ما تقع عليه عين مصاري في الدنيا كلها . انها تعلو تلا طبيعيا ، وثمة خندق طبيعي يحيط به ... ومن الصعوبة بمكان تسلق (التل) ، وعليه طريق فذ يؤدي الى القلعة .. وعلى جانبي احـد الابواب الداخلية (رأسا اسدين) هما من مخلفات الحيثيين قبل ٣٠٠٠ سنة ، قيل ان احدهما يمثل اسدا يبكي والآخر يضحك . وفي (القلعة) سرداب مظلم يؤدي الى موضع تحت الارض يقال انه كان سجنا .

وثمة كتابات كوفية ترجع الى ١٠٠٠ سنة تحدد بناءها الحالي . ومن برجها يمكن مشاهدة منائر حلب وسقوفها ، والثكنة الكبيرة التي بناها ابراهيم باشا المصري . [المترجم]

اخرى • وشاع في نفسي سرور وأنا اطوف في تلكم الأروقة ذوات الدكاكين الناشطة • وكان أن اشتريت جهاز طريقي: شموعا وسكرا وشايا ، وأباريق من قصدير وزجاج ، ومكوارت الجبنة ، والفواكه ، وما جرى مجراها • كما اني اشتريت ، من العرب الجالسين وراء صفوف من أقراص السكر المطلقة ، والعلب ، وعلب القصـــدير ، وكأنهم مخندقون ، أفانين من البضائع شتى •

وبقدر تعلق الأمر بقدم (حلب) أقول : انه لا يبزها في ذلك ، في آسية الغربية ، غير دمشق (التي لا تزال محتفظة بمقامها الاول ، غب ٣٥٠٠ من السنين ، بقيت خلالها على حظ من خطر) ، ولا معدى عن لم تصل بتأريخها •

ومما يدل على انها كانت مدينة حيثية وجود كتابات بهذه اللغة ، داخل أبواب القلعة • وفي الوقت الحاضر لا نعلم عما هو أوغل في القدم من هذه الامبراطورية الباهرة التي استطالت أيامها مديدة ، أعني ٣٠٠٠ سنة (٣٧٠٠–٧٠٠) • وعلى الرغم من ان مايسمع عن حلب في المدونات القديمة قليل ، ان وجدت حقا ، فهو قريب من عهـــد (قرقميش) القديمة الوارد ذكرها في (العهد القديم) ، ولعلهما نامتا ، وسقطتا أيضا ، خلال الحروب مع الآشوريين التي دامت من ١١٠٠ – الى سنة ٧٠٠ق•م ، وكل ذلك على الرغم من ان اسمها لا يذكـــر في الـكتابات على الحجر في نينوى ، وكالـــح ، وقوينجق وآشور •

وفي خضم أعاصير الامم أعني : الحيثيين والمصريين والعرب – وفوق الجميع : الميديون – التي هبت حين سقطت آشور ، نسيت (قرقميش) ولم يعد يسمع ذكر لحلب حتى حلول الأزمنة النصرانية •

لعل المدينة تنصرت في نحو الزمن الذي ارسل فيه القديس بولص رسالة الى انطاكية (على ما ورد في أعمال الرسل : ١٠/١٩ – ٢٤) ، لكنها ، في الحق ، لم تبدأ بلعب دور في السياسة السورية الا في الازمنة المحمدية • لقد كانت آنئذ كرسيا مطرانيا ، كما كانت على حظ فيه كفاية من خطر في

الايام الاسلامية الاولى ، حين دارت ، بقربها ، معركة كبرى (سنة ٦٥٧م)، وفي سنة ١٠٥٦ استولى عليها الفاتح العظيم : ألب ارسلان ، وشهدت ، بعد قرن من ذلك ، (صلاح الدين) يدافع عن (قلعتها) بازاء الصليبين . لقد هوت ، على غرار ما هوت آسية الغربية كلها ، على يد المغول البرابرة سنة ١٢٦٠ واستبيحت حرمتها .

وفي الايام المتأخرة أنجبت من رجال الدين والعلماء المسلمين كثيرا .

وفي خلال الحرب التركية ـ المصرية ، في منتصف القرن الماضي ، جرى اقتال فيها وقصفها الجيش المصري قصفا . ولا تزال ثمة قلعة كبيرة بناها قائد ذلك الجيش : ابراهيم باشا ، قائمة خارج المدينة ، ويحتمي فيها جند الاتراك .

ومما حيرني كثيرا اني لم استطع الجولان في الحصن الخالي في يومنا هذا ، ولو استطعت الى ذلك سبيلا ، لما وقفت على شيء يزيد عما رواه المؤرخون ـ الآثاريون العديدون الذين زاروها ، وزودوا القراء بتاريخها تفصيلا ، قديما وحديثا .

وفضلا عن ذلك ، كانت حلب ، ولا تزال ، مدينة من مدن الشرق المعروفة على أفضل وجه ، وبالنسبة للشعب الانكليزي على أخص وجه ذلك ان معتمدي (شركة الليفانت) عاشوا فيها وماتوا ، وبالنسبة الى تجارتنا مع الـ (ليفانت) كانت (حلب) شارية بارزة فيها .

وفقدت حلب ، على غرار ديار بكر والموصل وبغداد ، كثيرا من خطرها عند فتح قناة السويس . كانت ، قبل ذلك ، على الطريق البري الشمالي المفضي الى الشرق ، ومع ذلك ان ادخال السكة الحديد ، على وهنه ، قام بشيء كبير في باب استعادة أهميتها السابقة ، وذلك على الرغم من أن الاتراك قد نشروا آفتهم فيها ، على غرار ما فعلوا في أي بلد حكموه . واليوم تصنع المدينة كميات كبيرة من القماش القطن ليصدر ، الى حد كبير ، شرقيا ، فيتخذ مادة اللبوس الرئيس من قبل سكان كردستان التركية الجنوبية وبلاد ما بين النهرين الشمالية .

لم يمض عليّ في حلب الا نصف يوم ، وأنا أحلّ في مكان قـــذر يزهو باسم (فندق سوريّة) ، يديره أرمني ـ وما منع ذلك أن يحلّ فيه مسلمون ـ حين مثُل حوذي تركي مرعب يروم أخذي الى ديار بكر ، المدينة الكبيرة التالية على طريقي • ورجوته أن يمهلني يومين اثنين ، لكنه، بسبب من وجود زبائنه الذين ينتظرون على نهاية الخط الاخرى ، ويروم الاتيان بهم هاهنا ، لم يستمع الى رجائي بالتأخر ، وهكذا وجدت نفسي ، بعد سويعات ، راكبا احدى العربات الغريبات الساعيات بين مدن سورية •

انها أشبه ما تكون بـ (البنط : Punt) ، وهو ضرب من القوارب ، وهي تجري على دواليب ، وسقفها من خشب ، مغطى بالجنفاص ، دريئة للركاب وللسائق ، ويمكن اسدال الستائر فيها ، ان وجدت ، وقاية للمسافر من ترتيب ما في العربة • ومن حسن الحظ ، ان ما كان عندي قليل ، وبوضع حقيبتي الوحيدة في مقـدمة العربة ، استطعت الحصول على مجال مربّع وسيع ، كما كان ثمة حصير تحتي أجلس عليه ، أو أستلقي •

وتُربط صغار الادوات ، كالمشربات ، والسماورات ، خارج العربة ، في نقاط عدة ، وتبقى حتى تنكسر أو تنسحق ، وهو مصيرها المحتوم • ومن الضروري أن يرتّب أمر الميرة ، ذلك ان كمياتها ، على الطريق ، ليست ، في الاحيان ، مضمونة • لقد كنا في السفر خفافا ، وأنا كذلك ، ذلك اننا لم نكن نحمل الا أرغفة الخبز ، وشيئا من التمر والبصل ، كما لم يكن الموسم موسم الفاكهة ، فلقد كنا في شهر آذار •

وحسبني (الحوذي) ، لسبب ما ، حاجّا ، من مكة راجعا ، فوجدت ان في ذلك تنكّرا ممتازا ، يضمن لي ، على الطريق ، تبجيلا • لذلك قبلت أن يبقى مثل هذا الزعم قائما ، حتى يستطيل أمده ، فلن يبدّل تبديلا • وكان أن شددت حول طربوشي منديلا ، لونه أبيض ، دلالة على أني اقفل الى بلدي حاجّا راجعا • على مثل هذا، ذات ظهر ، غادرنا حلب في عربتنا • وعلى مسيرة دقائق قليلة ، خارجها ، وعلى الربوة لو أرسل المرء نظره الى ما حوله لما رأى الا الصحراء السورية الصفراء المجرّدة من تلال تتناثر على

أديمها ، وقد تكرر هذا الخلاء ، في الاحيان ، قرى الاعراب وكأنها ركام مساكن النمل • ان طــرز العمارة حتى الفرات يشبه (كلات السكر) دواما •

(قرية باب)

وسار بنا جوادانا على طريق مستوية ـ اذ ليس ثمة طريق شقته البشر ـ حتى أوشكت الشمس على الغروب ، وعنــد ذلك ، وعلى حين غرّة ، رأينا ، بين تلال ، وهي قلّ ، قرية بلدية تدعى : « باب » • ومما لا ريب فيه ان قربها من (حلب) يفسر وجود سوق حسّنة و (خان) نظيف فيها • وفي غرفة من غرفها العوالي ، مطلّة على فناء (الخان) المزدحم بالبغال والحمير والابل والخيول والاغنام ، وجدت مكانا مريحا • والخان مبني بحجر أبيض ، وبقــدر تعلّق الأمر بالاستجمام هو أفضل الأمكنة التي شهدتها ، خلال تجوالي الذي استطال سنين عدة • ما كان على حظ من تصميم معماري ، فهو يتألف من مبنى ذي غرف ، علوه نحو ٩ أقدام عن سطح الارض ، والمبنى هذا يؤلف من الخان جانبا • وقبــالته اسطبلات وسيباط يعلوها صف من الغرف ، حللت في احداها •ومدخل الخان اعتيادي: دهليز عميق ، وثمة حجرات صغيرات على جانبيه ، وفوق الطاق المعقود على المدخل بنى المعمار غرفتين فاخرتين فيهما نوافــذ ذوات زجاج خصصتا لزوجات الموسرين، وهما تفتحان على ساحة مسطّحة مسوّرة صغيرة ، تمشي عليها هاته النسوة ذهوبا وجيئة • وأشار (الخانجي) اليها مزهوا وقال ان الغرفتين مخصصتان للبواشية (الباشوات) وأرباب الصدارة ، وان عمارتهما من أحدث طراز •

تكشف الخبرات الاولى من السفر ، تكرّرا ، عن أشياء صغيرة عديدة لا يفكر المرء فيها قبلا • فما أن بلغنا مرحلتنا ، باعتــدادنا أوربيين ، الا كُنســت غرفنا دراكا ، وفُرشت سجادا ، وجيء بمناضد ومقاعد مخيمية فوضعت خارجا ، واعدّ الشاي ، وتصاعد منه البخار ، سريعا • وما كنت ،

على التحقيق ، بحاجـة الى أن أكنس غرفتي ، في هذه المرة ، شخصيا ، وذلك على الرغم من اني تعلمت أن أستعمل شفرات العشب الثلاث التي يطلقون عليها اسم مكنسة في هذه الارجاء ، أخيرا • وجاء (الخانجي) بالماء أيضا • وكان عليّ أن آتي بمستلكاتي ، وهي قليلة ، فبقاؤها في العربة لم يكن آمنا • لذا كنت أرقى الدرج الضيق ، من الفناء الى السطح ، وأنزله دؤوبا ، حاملا الحصران واللحاف والغطاء والحقائب والحزم ، وبدونهـا يغدو السفر في الشرق أمرا مستحيلا •

ثم وجدت اني بحاجة الى الشاي ماسة ، فكان عليّ أن أنزل مع (سماوري) ، وهو من قصدير ، وأمتح الماء من بئر واملاؤه واحصل على فحمة متقدة من حوذي يدخن (ناركيلة) • وما أن فعلت ذلك الا انسحبت الى مكاني العالي ، كرة اخرى • وبعد لأي من الزمن استمتعت بشـرب (استكان) شاي وأكل شيء من الخبز الجاف •

وفي هذا الوقت عينه ، ظهر حوذي عربتي وأبان عجبه من اني لم أتبع عادة المسافرين الذين يبلغون مكانا غريبا ـ زيارة السوق •

لقد أهملت ذلك ، وفي الحق اني لم أشتر منها شيئا • وكانت الشمس، في هذا الوقت ، قد توارت بالحجاب ، وما كان عندي ما أتعشى به ، والسوق مقفلة ، وأسوأ من ذلك كله انه لم يكن في حقائبي شيء ، حتى الخبز ، لـ١٢ ساعة قابلة سيستغرقها السفر في الصحراء غدا • وكنت في هذا الحين على صـفاء مع الاتراك ، لكن حوذي عربتي سرعان ما هتف وقد اعترته نوبة حيوية : « أنا أعرف الكردية ! » وهكذا عثرت على وسيلة تخاطب آنية • وعلى الرغم من اني لا أعرف اللهجة الكرمانجية جـدا ، لكنها كانت قريبة، على الوجه الكافي، من لهجات أخر كنت أعرفها ، وهذا يجعلها مفهومة • ووقفت أخـيرا على ان حوذي عربتي عنـدما سمعني أهتف بالكردية ، باعتدادها « صديقة قديمة » أخذ يضـرب أخماسا بأسداس بشأن موطني • انها قضية لا معـدى عن حسمها مع « رفيق السفر » في

الشرق ، وهكذا سجّلني باعتدادي من أهالي كردستان الفارسية • وعلى ذلك ، وبوصفي حاجا كردستانيا ، كان صـــديقي الحوذي يقـدمني الى الناس جميعا •

رجل عـدل

هاهنا دلّ على انه الولي الحميم حقا ، ذلك انه عرض عليّ أن يريني السوق ، ويحاول الحصول على خبز وعشاء ، قبل أن يحل ميعاد غلقها • أما السوق فكانت صغيرة ، ولحسن الحظ كان فيها مطعم صغير تباع فيـه ثلاثة أنواع ، على التمام ، من الرز (بلاو) الدهين جدا • ومنها اخترت ما هو أقل اغراء ، واتفقت مع صاحب المطعم على ارسال صحنين الى الخان• ومن ثم اتخذنا السبيل الى خباز القرية ، وعنده أدركت المزية الكبرى ، أعني : كوني حاجـاً أولا ، ثم حاجا غريبا • وكان الرجل ، في بادىء الأمر ، يجتوي اعطاءنا شيئا ، فلقد كان بسبيل غلق حانوته ، لكن دليلي ذكـره بلهجات مشوبة بالاسى بأني : حاج ، فتوقّف الرجل وأخذ يرمي في ميزانه خبزا • وللحصول على الوزن التام أبدى الحوذي محمد ما يفيد اني من بلد بعيد ، وغريب لا يعرف البلاد هذه ولا لغتها ولا عاداتها • وكان أن رمى الخبـاز السمح بقطعة من الخبز اضـافية ، بلمحة دالّة على فضـيلة احترام الغريب ونوال الأجر من جرّاء ذلك ، ثم نظر اليّ مظهرا تقواه • ومن حسن الحظ اني كنت أستطيع أن اعبّر بالعربية مقدّرا ، وهذا ما حمده كثيرا • وما أن سألناه عن السعر الا ذكره على الوجه الحق من دون مساومة ، ولمّح الى رذيلة ازعاج الغريب • ان مثل هذه الوجهة الخلقية الممتازة لمستها في أماكن عديدة ، حيثما وجد الاكراد أو العرب • أما الترك فشعب آخر من حيث التصرّف والعادة • وكان أن وجدت عشائي بانتظاري في الخان ، فدعوت حوذي عربتي للمشاركة فيه • ذلك اني كنت أعلم ان قدري ، على السلم الاجتماعي ، متواضع يعادل قدر الحوذي ، ان لم يكن أوطأ منه •

ومحمد سافر جلس الحوذي أمامي وجها لوجه وأجهزنا ، بالأصابع، على الطعام . ان تجاربي السابقة في فارس علّمتني كيف أتناول طعاما شبه سائل باصطناع قطعة من الخبز واصبعين من أصابعي ، أو آتي على صحون من رز من دون أن أشعر بما حواليّ . كما اني عرفت اصول الوضـوء اللازمة ، وعبارة الحمد بعد الفراغ من الطعام ، وما كانت الاخيرة ضرورية والانسان على الطريق مسافر ، ذلك ان الشعائر الدينية عند عبيد السبل الصحراوية مهملة الممارسة كثيرا . وانتهى العشاء ولم يطل أمده الا نحو ثلاث دقائق ، فشاركنا في تدخين سكائر بعضنا بعضا ؛ وما أن غادر الحوذي ليعني بجواديه الا انسحبت تحت معطفي الى ركن من أركان الغـرفة ، وخامرني شعور بأني رجعت ، كرة اخرى ، الى الشرق السمح البهيـج الذي عرفتـه من قبل ، وتقرّبت ، بمئات ومئات الاميـال ، الى الشمس الطـالعة .

وقبل أن ينفجر صبح اليوم التالي نهضنا ثم أخذنا نسير على الطريق، وتجلّى السهل المصفرّ المتماوج في ضوء الشمس المتعالية ، وتراءت ، الآن، سلسلة من تلال نائية واقعة الى الشمال منا . وما كنا بسالكي المسار المعتاد ، عبر الصحراء ، الذي يفضي على الدوام بأكثر الى الشمال ، نلقـاء (بيرجيك)[٥] ، وهي بليـدة أبرز ملامحها قلعـة بنيت خلال الحروب الصليبية .

منبج

كان طريقنا تلقاء (منبج)[٦] مادا ، وهي مدينة تنطوي على أقـدم تأريخ للصحراء السورية تقريبا - باستثناء (قرقميش) دوما . كنا نجوس

(٥) بيرجيك : كان فيها المعبر الرئيس في شمال الفرات ، وعندها قلعة قديمة . [المترجم]

(٦) منبج : بفتح فسكون ... قال (صاحب الزيج) : « بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . ومنها البحتـري الشاعر » . وقال ابن حيان ... من منبج الى حلب يومان ومنها الى ملطية اربعة ايام والى الفرات يوم واحد - راجع ياقوت . [المترجم]

خلل الاراضي التي شهدت حرث الامة الحيثية العظيمة، والتي قيل ان (قرقميش) كانت عاصمتها، وهي على بعد أميال قليلة من هنا . وكان ذلك في نحو سنة ٣٥٠٠ ق.م وهو عمر لا يتفوّق عليه الاّ عمر أرض بابل نفسها . ومنذ ذلك العهد حتى عهد فتح هذه الارضين على يد الأشوريين ، في نحو سنة ٧٠٠ ق.م ، كان ملك الحيثيين يحكم بلادا خصبة ، من دون شك . انها تقع على ضفتي الفرات ، حيث دارت بعض المعارك العالمية الكبرى . لقد حارب كل من الحيثيين والاغريق والفرث من أجل سورية فظفروا بها أو خسروها . قامت منبج ، التي كان فيها معبد للالهة «اتير كاتيس ـ الزهرة» (وسيرد عنها أكثر فيما بعد) ، كمدينة موسرة ثرية، ودأبت على هذا طوال تلكم القرون ، الى أن سلبها روماني من الدهماء ، يشتري الأمكنة . لكن طمعه وطماحه قادا به في خاتمة المطاف الى الخراب الذي يستحقه . انه ماركوس لوسيوس كراسس ، وهو من دخل ، في سنة ٥٤ ق.م وابان حملة باراء الفرث : « المزار ، ووزن بدقة الاعطيات من المعادن الكريمة وولّى بها بنزق وحماقة . »[٧]

ومهما يكن من أمر ، لم تخرّب المدينة ، ذلك ان (انطونيوس) ، بعد نحو ٢٠ سنة ، تنازل عنها الى هارب من بلاد الفرث ، وجرى ذلك بعد أن استحوذ عليها لأشهر قليلة ، ثم عاد الى تلك البلاد تاركا اياها في أيدي الرومان .

ووصلنا في تلك الامسية عينها الى حقـــل فيه آبار خربة وأكداس مكدّسة من صخور عظيمة منقورة ، وتلال ترهص ببنايات عتيقة . ويقوم على أعلى التلال هذه ، اليوم ، مسجد صغير ، ويقطن الحقل عدد من الكرج المهاجرين الذين تراؤوا ، بملابسهم ، غرباء بين العرب الذين حولهم . وفي جميع الجهات بقايا بنيات قديمات ، وصخرات عظيمات الى الحد الذي يشق أمرها على من يروم نقلها ، ويتراءى ان الانتفاع الوحيد منها هو في تسوير

---

(٧) راجع : Rawlinson, Parthia, p. 152. [المؤلف]

حقول الحنطة ، وعندما لا تكون الصخرة كبيرة جدا ، بحيث يتعذر نقلها ، تستخدم للبناء في القرية القذرة الكدرة . ان غرفها ، الثلاث المليئة بالنفايات المتدنية للحقل ، هي كل ما تبقى من (خان) ، وتتوائم مع طبيعة المكان .

هنا حمدنا التبصّر الذي حملنا على أن نأتي بالمأكولات من (باب) ، ذلك ان السكان المتشاكسين رفضوا أن يبيعوا لنا شيئا فيما خلا البيض ، وكان ٥ ـ ٦ بيضات منه يعادل بنسا واحدا . وكان الماء رديئا ، وكنا نستقي من بئر غير ذات غور (وهي خارج بالوعة تنبعث منها روائح) . ان نصف أهل القرية يأتون الى تلكم البئر للاستقاء .

ولما لم يكن هناك سوق يذهب اليها ، ولا سبيل الى ابتياع طعام ، لذا أمضيت الوقت جالسا على الوصيد ، فالغرفة مليئة بذباب كثيف . وأدجى الليل وجاء النوم فلقيا مني ترحابا عظيما .

الفصل الثالث

من (الفرات) الى (دجلة)
اورفه : (أديسه) ، وآمد : (ديار بكر)

أعتقد انه لاتوجد في منّبج بقية باقية من معبد (اتير كاتيس : Atergatis) ، المعبد الذي شتت شمله (كراسس) • وحتى في (قرقميش) لا يوجد شيء من هذا القبيل الآ تل ، لم يفتح ، اذ ابقاه الاتراك مغلقاً فلم يكشف عن المكان الذي كانت تعبد فيه الهة عظيمة • لعلّ هذه الالهة كانت أعظم الهة عرفتها الأزمنة القديمة •

ويستشف من قراءة تواريخ : الكلدان وسورية ، وأرض كنعان ، والحثيين والاسرائيليين والفينيقيين والاغريق ان الالهة الرئيسة في اساطيرهم كانت الهة الظفر ، او الهة الحب ، ومن الممتع اقتفاء سيرة هذه الالهة خلال الاديان المتصلة بالشرق القديم • فالكلدان الذين استوطنوا الاراضي المنخفضة الكائنة عند مصبي الفرات ، منذ عصور تبعد عما نعرف كثيرا ، أقاموا ، منذ الأزمنة القديمة ، الهة « بليت Belit » ، السيدة ، ومنها نجمت الالهات المتأخرة عند الشعوب الاخرى ، وبالاحرى الاسماء والعبادة المتصلة بها •

معلوم اليوم ان الحثيين (ومرد الفضل في معرفة تأريخهم الى البحوث الرائعة التي قام بها الاستاذ سايس ، والعالم مدين له في هذا الباب) كانوا امة خارقة القوة ، ملكوا الارضين الكائنة في سورية من نحو سنة ٣٧٠٠ الى سنة ٧٠٠ ب٠م[1] حين غلب عليهم الآشوريون • وخلال هذه الاحقاب الزمنية كان اتصالهم بحضارة بابل ، وذلك قبل ظهور السريان كأمة

---

(١) راجع : Ragozin, Assyria [المؤلف]

بأمد بعيد ، ولعلهم اتخذوا ، عبادة (بليت) أو (عشتار) أعني الالهة الواحدة نفسها ، على اختلاف الاسمين ، وغيّروا اسمها الى (اتير كاتيس) ٠

كانت عبادة الالهة الاخيرة شائعة ذائعة بين شعوب الكنعانيين في (سورية) ، وكان اسمها (عشتروث) او (عشتورث) ، على ما نجده في (الكتاب المقدس)٠

وجادت الاساطير الكنعانية بفكرة (الذكر) و (الانثى) الاساسية لكل من (بعل) و (عشتروت) ، وهي الفكرة التي مكنتنا قصص التوراة من الوقوف عليها ٠ ان هذه الفكرة متصلة بأصل الانسان والقوة: و (بعل)، الهالمبادىءالحية عندالشعوبالكنعانية جميعا، هو الالهالذي هام وراءه الاسرائيليون غالبا ، وان (عشتروث) الهة الامومة والحب ، والشهوانية كانت تقرن به لزاما ٠

ان (بعل) او (بيل) او (مولوخ) ، اله الشمس ، او (دكون) اسماء لاله واحد ، وذلك بالنظر الى القبائل والشعوب التي اتخذت عبادته ٠ لعله يمثل أقدم فكرة في أية عبادة ، وفي الغيبيات الناجمة من تبجيل الشمس والقمر باعتدادهما يمثلان النهار والليل ، النار والرطوبة ، الحرارة والبرودة ، الضياء والظلام ، الحياة والموت ، وباعتدادهما الهين توأمين لهذه الظواهر المتضادة ــ وباختصار : رموز الوجود كله ٠

وعلى ذلك نجد الالهة عشتار معبودة من قبل الفينقيين على ما عبد (عشتورث) الحيثيون ، وعلى ما عبد (اتير كاتيس) الفلسطينيون والكنعانيون وعلى ما عُبدت (دركيتو) ، السمكة الالهة ، (التي رمزها نصف امرأة ونصف سمكة ، على غرار داكون الاله الذى كان رجل سمكة) ٠

طبيعي ان قد خُصّصت لهذه الاماكن العالية التي شيدت فوقها المعابد المسماة (عشيراه) ، وبازائها ارسل أنبياء اسرائيل ٠

وعلى هذا نجد ان Elijah ارسل بازاء كهنة (بعل) ــ وهو النسخة السورية (لاله النار) ــ الذين توجّهوا الى الههم، الذي كان يحتفظ،

على ما ورد في أساطيرهم ، بالمبادىء الأولية للنار لرسل هذا العنصر .

ومهما يكن من حال ، ان (عشتار) ، أو بأي اسم من أسمائها ، لعبت دورا مهما في تاريخ اسية الغربية ، وباكثر من الشمس ـ الالـه نفسه . لقد شيّدت لها المعابد من قبل الشعوب جميعا ، واحتفظت بالهيمنة على (الزهرة) السيّارة ، التي كانت آيتها ورمزها ، دوما .

وكانت ، حتى بين الأشوريين الذين رفعوا لها ذكرا بأكثر من أية امة اخرى ، تحمل طبيعة ثنائية ، ذلك اننا قرأنا ان قد كان لها معبد في (نينوى) وآخر في اربيلا (اربيل) والاخيرة خصصت لـ (أربعة الهة) . ان عشتار نينوى كانت ، من حيث الجوهر ، الهة الحب والترف ، تحكم (كوكب الزهرة) ، لكن (عشتار اربيلا) كانت مصدر الظفر في المعركة ، تشد من ساعد المقاتل .

كان ، على كل حال ، دينا قويا ابدا ، استطال امده ٤٠٠٠ سنة من سني قتال ، وثمة شعوب نجمت خلالها فلمعت أسماؤها ثم انطفأت ، ومن سيء الناس كان عندهم قليل من عطف على الاحساس الطبيعي ، كالفينيقيين والاشوريين وتخضع لها جل الامم ، كبيرها وصغيرها ، من فارس الى ساحل البحر المتوسط .

الحيثيون

ويقال لنا ابوم ان مملكة الحيثيين امتدت الى (ايونية) ، وشيدت معابد الى الالهتين في (افسس) و (ازمير) . لقد جاء الاغريق الى هاهنا مستعمرين ، وباتخاذهم جمهرة المعبدت والكاهنات اساسا ، ابتدعوا اسطورة الامزونيات . ولم يكن ذلك حسب ، فلقد اتخذوا عبادة (اتير كاتيس) وكيّفوها ، وأعطوها اسما اغريقيا ، بـه طار ذكرها عالياً ، واكتسبت تبجيلا عظيما ، وبشكل يفوق ما نالته أية الهة من الهات الاساطير الاغريقية الاخرى .

وهنـا في قريـة منبـج ، التي كانت تسمّى (هيرا بوليس) خلال أيام السـطوة الاغريقيـة ، وجـد أحد المعـابد السورية

الرئيسية ، في آخر يوم من أيام عبادتها (٥٤ ق٠م) ٠ وعندما حدث ذلك ، كان النسيان قد عفا على الحيثيين وذهبت ريحهم منذ نحو ٦٥٠ سنة ٠ لكن عبادة الالهة ، ولعل معبدها أيضا ، وهو سليل المعبد الضخم في قرقميش ، كانا لا يزالان قائمين ٠ ان ما نعلم عن الحيثيين ، على ما ذكرنا آنفا ، يرد الى الاستاذ اي٠ جي٠ سايس ، وهو من أعلن ، أول مرة ، الى عالم من رجال الاستشراق وطلابه، خبر امة حيثية عظيمة، كان وجودها مجهولا حتى ذلك اليوم ، لا قبل عقدين من السنين ، جهلا تاما ٠

واننا لنعلم ، اليوم ، ان الانبراطورية الحيثية دامت لمدة طويلة : نحو ٣٠٠٠ سنة ٠

وتذكرهم المدوّنات الكلدانية باعتدادهم امة عاشت في سنة ٣٥٠٠ ق٠م ٠ وكان مستقرّ هذه الامة ، على ما يظهر ، (قرقميش)، لكنهم حلّوا ، قبل ذلك ، في جبال طوروس وتلال ارمينية ، ومنها نزلوا ، باعتدادهم شعبا جبليا قويا ، الى اراضي كنعان الخفيضة ٠

لقد نسلوا من (حيث) ابن كنعان (الخليقة : ١٠-١٥) ، وما ان استقرّوا في قرقميش ، حيث شيّد معبد (اتير كاتيس) الرئيس في (جرابلس الحالية) ، الا مدّوا مملكتهم من البوسفور حتى تخوم مصر ، وكانت لهم معارك دامية طويلة مع فراعنتها ٠

انهم يتراءون ، على غرار جميع الشعوب في الشرق ، وحتى يوم الناس هذا ، عشائريين في بنيتهم ، لكن ملكهم الرئيس هو ملك قرقميش وله ملك ملازم في (اديش) الكائنة جنوبا ٠

ومهما يكن من أمر ، لقد استدام ايدهم طويلا ، ثم هوى بزحف الآشوريين ، وكانوا ، عهد ذاك ، امة يافعة ، ومنفصلة عن الكلدان البلديين، حديثا نسبيا ٠ وفي سنة ٧٠٠ ق٠م ثار آخر ملوك الحيثيين ، وهو من كان خاضعا الى (سرجون) حينا من الدهر ، بازاء جيرانه الاقوياء ، وبذلك أجهز على البقية الباقية من الانبراطورية الحيثية ، والتي بدأ الضعف يتسرب اليها وتتفسخ ، ثم لفّها النسيان بشملته ٠

ولم يبق ، اليوم في قرقميش ، عاصمة الحثيين عبّر سنين طوال والمدينة الرئيسة التي كانت تبد فيها (اتيركاتيس) ، الا تل عظيم . واستمرت الحرب فوق مخلفات المحاربين العظام ، اذ دحر المصريون الآتراك هناك ، قبل نصف قرن .

وخطرها ، اليوم ، ينحصر في ان سكة حديد بغداد قد خُطّط لها ان تعبر النهر قرب تل قرقميش ، لذا ، لنا أن تتطلع الى مؤلفات المانية ضخام تصدر في يوم من الايام ، وتجود علينا بتفصيلات اوفى بشأن هذه المدينة العتيقة ، وبأكثر مما عندنا منها في يومنا هذا . وغادرنا (منبج) (في غرة الفجر والصفور لم يطر) من اليوم التالي ، واكتشفنا ، في الطريق ، ان عربات عديدة قد توقّفت في المكان ، خلال الليل . لقد كانت منها ، في المقدمة وفي المؤخّرة ، عربات مدمدمة مهترّة ، ومنها عربتان أو ثلاث عربات مليئة بامتاع ، أما البقية الباقية فكانت تحمل المسافرين . والارضون في منبج قفر يباب دواما . ثم اخذنا نشهد تلالا صغيرة ، وعلى مبعدة ، شمالا ، استطعنا ان نرى جبال الكرد في منطقة (معمورة العزيز) . ان هذه الجبال ، في مثل هذا الوقت من السنة ، بالجليد مجلّلة .

مخاضة في الفرات

وسرنا سويعات ، سيرا حسنا تتخلل التلال الخفيضة ، حتى قامت في طريقنا ، على حين غرة ، عقبة ، وكان ذلك منحدرا متهاويا ، وما أن درنا حول عطفة تل الا تراءى الفرات تحتنا ، نهرا غضبان مندفعا عريضا جدا . وبطرق خطرة متمعّجة بلغنا عقبة : شاطئا وسطا عريضا ، فوجدنا ان نحو ٦ من العربات قد بلغته ، وما أن وصلت العربات المنطلقة من منبج الا أصبح العدد ١٢ ، وكلها واقفة على خط واحد . لقد كانت الجياد من دون سروج ، هي والعربات ترقب عبور النهر بسفينة تشبه باخرة ذات مقدم عال مقصومة في الوسط . وعلى المؤخرة العالية جلس رجل يدير مجذاف دفة ضخما طويلا ، كما كان بيد رجلين ، أو ثلاثة رجال ، المرادي والمجاذيف التي تزوّد السفينة بالقوة

الداهمة . وما كان الامر ليقتصر على جذف السفينة، عبر النهر، ذلك ان قد كان هناك محلان للنزول ، كل منهما على جانب ، كما كان التيار قويا جداً بحيث وجب أن تشد السفينة على مسافة نحو ميل فوق محل النزول ، على الضفة المقابلة . واثر الدفع اخذ كل فرد يصب اقصى ما لديه من قوى لتصبح تلك السفينة ، ثقيلة الظل ، عَبر النهر . ولو كان القوم أقوياء ومعجلين ، على الوجه الكافي ، لاستطاعوا الوصول الى البقعة التي تقف عندها العربات المنتظرة ، ولبلغوا نقطة على الشاطيء سفلى ، ولما بقي الا سحب السفينة في رجعى ، كرة اخرى . ومن الحتم ان يستغرق نقل عربتين وجيادهما (وهذا أقصى ما تستطيعه السفينة) ساعتين أو ثلاث ساعات ، وذلك باحتساب الوقت منذ وصول جماعة أخرى على الضفة المقابلة .

ولما رأى حشد المسافرين الكبير ان التأخير سيحدث قسرا ، لذا سعوا الى اتفاق ودي بشأن الاسبقية . ولسوء الحظ وجدنا ان نصف العربات كانت مؤجَّرة من قبل مدير شرطة (اورفة) لنقله ، وبضاعته ، ونسوته . وعلى الرغم من انه — على ما قال رفقته في السفر — لم يبد رغبة في الاستعجال ، لكنه ، الان ، انتهى الى كل من كان يتكلم في أمر الاتفاق على نسق في العبور ، شاهراً سيفه ، مؤنباً الرفقة عموما ، لانهم يرون الاخذ بمثل الترتيب في حال وجوده ، وكان هذا كافيا للدلالة على قضايا الاسبقية كلها .

سيمضي ، وما لديه ونسوته أولا ، ثم يمضي في أعقابه من يدفع له مالا ، وذلك بحسب مقدار الدفع ارتفاعا . لقد تراءى السوّاق الاتراك والارمن مرعبين من منظره الكريه وتصرفاته ، بحيث قام جلّهم بالانسحاب الى مسافة ما — مستغفلين ما قدمه من أسبقية في العبور عن طريق الدفع — وأخذوا يتناولون غداءهم ، راضين بأن ينصرّف هو على ما يشاء . ومهما يكن من أمر ، لقد خلوت قوى عربتين مليئتين بنصارى من اورفه بازاء محاولاته المتكرّرة في سبيل ابتزاز المال ، فدفعنا ما يلزم فيما بعد الظهر وانطلقنا .

واتفقت البقية الباقية منا على من يمضي اولا ، وبالافادة من الساعات التي كان علينا الانتظار خلالها ، أخلدنا الى النوم ، وهو الذي يملأ من وقت العطالة في الشرق كثيرا .

وقبيل الغروب عبرنا ... اخيرا ، فوجدنا انفسنا على السهل المنفسح لوادي الفرات . ورحلنا مسجلين بعد أن شددنا جيادنا الى العربات. وما ان بلغنا (الخان) الا وجدناه مليئا بـ (الأفندي) ومنقولاته واثاثه ، والمسافرين الذين ساروا في اعقابه ، وبالافادة من اسوأ واجب مضينا ونحن على ايقان من ان الحظ قد يهيء لنا مكانا ننام فيه .

لقد جسنا خلال السهل ، وكنا نرقى، تدريجيا ، أرضا ذات تلال تتراءى وضيئة في ضوء القمر ، حين أبصر السائق سقوفا تشبه (كلات السكر) خارج الطريق فتوقفنا لمحادثة سكانها .

وجاء رجلان ايدان يسعيان ، والظاهر انهما كانا من العرب ، وما ان كلّم احدهما صاحبَه بكلمات قليلة الا وجدناهما من الاكراد . لقد حمل ذلك السائق وحملني على التصميم على البقاء ، ذلك ان الاكراد ، على سمعتهم كلها (كذا ! : المترجم) هم ،كمضيفين، أفضل من الارمن والاتراك أو العرب. وفي خاتمة المطاف ، ما أن اخرج عدد من الاطفال والخراف مما تراءى يشبه سردابا ، الا قيل لي : ان أفضل غرفة في المكان هي على طرف التمام من يدي . وكان أن نزلت ثلاث درجات ، ثم مررت من دهليز مظلم ، لأجد نفسي ، بعد ذلك ، في حجرة مدوّرة ، سقفها أشبه شيء بـ (كَلّة السكر)، لكنه غير منظور في ظلمة ، لم تبددها لمة من وقيد يحترق .

قرية كردية

وقام الاكراد ، وهم لا ينفكون عن اطلاق النكات والممازحة المرحة ، والواحد منهم يدفع الآخر ، بالاتيان بمتاعي ، ووضعه جميعا في الغرفة ، ثم انهم استقرّوا فيها أخيرا . ان نفوس القرية نحو ١٥ من الرجال والنسوة ، وفي خلال خمس دقائق اجتمعوا جميعا حول قطعة السجادة التي كانت عندي . وكان احدهم يعرف التركية ، وحاول ان يصطنعها في التحدث

معي ، بحسباني تركيا ، وما ان اجبت بالكردية مبينا لهم اني لا افهم التركية الا بعث عليهم الطمأنينة والرضى كثيرا ، باعتدادي اخا كرديا ، وان كنت من قبيلة اخرى ، (إذ كان هؤلاء القوم من الـ «ملّي») ، واني من مواطنيهم ، لذا وجب أن اعامل باعتدادي ضيفا ، على ما قال الشاعر :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا
نحن الضيوف وأنت رب المنزل

ويصبح الضيف اولانا بمنزلنا
نرضى بذلك ويمضي حكمه فينا

وهكذا جرى اولئك القوم السذّج الكرماء على عرق من العرف الكردي العريق في باب السماحة ، وما كان ، عندهم ، من حطام الدنيا الا القليل . لكنهم ذبحوا أفضل دجاجة لديهم في هذه المناسبة ، وجيء بعدد من البيض يكفي عشرة من الرجال عداً . وشُغل كل واحد منهم بشيء ما ، فيما خلا (المختار) الذي جلس باعتداده مضيّفا . وقام أحدهم بايراء النار في وسط الغرفة فصيّر الظلمة ، بتعالي اليحموم[٢] ، حندسا . وجاء اخر بالماء للغسيل ـ ذلك انهم لم يسمحوا لي بالذهاب الى الخارج ، فالينبوع ، هو الآن في خضمّ ريح خلوج لاعبة شديدة . وأغلى أحدهم الماء للشاي ، على حين قام صاحبه بذبح الدجاجة وتفريشها . وأُغلي البيض الفائض حتى تصلّب واعدوه لرحلتي في اليوم التالي . واعتراني خجل من تصديع هؤلاء القوم السذّج الاصلاء ، وكنت أعلم ان ريبة مطبقة ستقابل أية محاولة مني في تنبيههم الى الحقيقة . ما الذي يتصورونه بشأن رجل لا سبيل للتفاهم عنده ، لا معهم حسب ، بل مع الناس في سورية طرا ، الا الكردية !؟ ومهما يكن من حال ، وجدت ان التقدير الذي أبدوه ، باعتداد الشاي والدُخينات (السكائر) ، وهي كماليات لا يعرفونها الا بالاسم ، عادل التبكيت الذي خامر نفسي . اما السائق المنكود الحظ ، والذي كانت تنتابه نوبات من المشاكسة ، واجدا من هو تحت جناحه مستقلا ، فقد غدا ، حينا من الوقت ، متجهّما ، ولم تقو تصرفات الاكراد اللائقة على

---

(٢) اليحموم : الدخان .

تبديدها ، لذلك انسحب ليخلد الى النوم ، ونام بين ارجل مذاكية[٣] .
ان الاكراد ، كشعب ، ذوو فطنة مازحون يحبون النكتة ، ويكلفون بالفكاهات الحقة حباً جماً ، لكن هذه المناسبة فاقت ما صادفته في بابها . وكانت استجابتها ضحكة مدوية مستدامة . وعلى الرغم من حبهم للتساؤل والاستطلاع ، وملاحظاتهم الشخصية ، وعادتهم التدخل في كل شيء ، فان سلوكهم العام اصيل ، لا لبس في ذلك ولا غموض ، ونيتهم حسنة . ومن المحتمل انهم يعتدون على أي شخص فيما عدا الاتراك ، وان انهالوا عليهم بالطعنات والويل وجعلوهم مادة لكثير من النكات والافكوهات مما لا يمكن ان تذكر . وفي نحو الساعة العاشرة امر (المختار) وهو شخص وسيم قسيم ، ذو خطر مضاعف باعتداده مالكا بندقية القرية ، كل واحد بالانصراف لكي اخلد الى النوم ، فانسحب الجميع يسوقهم اخمص البندقية القديمة .

وكنت اعد نفسي للمنام حين دخلت امرأة شابة وشرعت في كنس الغرفة بحزمة من الغصون . ليس من غير الطبيعي أن أجلس وأنظر اليها بشيء من الاستغراب ، ولم يقلل من ذلك اخراجها فراشا من فجوة ووضعه مني بمقربة . وما كنت في وضع أستطيع فيه أن اعلق بشيء على رغبتها السافرة في أن تشاركني الغرفة ، لكن ظهور أحد أصدقائي في الامسية الاولى أنقذ الموقف . لقد شاهدني جالسا ، وسألني لِمَ لمْ أنم ؟ وكأن ما جرى امر اعتيادي لا يتطلب التعليق ، ثم علمتُ ، عن طريق الاجابة عن أسئلة ناقصة الشكل ، انه رب البيت ، وان زوجه هي الكانسة ، وبالنظر الى سعة القرية ، التي لا تملك الا غرفتين صالحتين للمنام ، فانه وزوجه سيمضيان الليلة بجانبي . لقد أبان ان هذه هي الطريقة السوية في التصرف ، وكأنها السبيل المقرر . وتراءى انه هادىء في اجراء ذلك ، بحيث لم استطع التعليق ، على عادة الآباء الاولين الصرفة ، ولم ارغب فيه . والذي علمته اني لو كنت تركيا

---

(٣) المذاكي : الخيول .

أو عربيا لطلب مني أن أنام في العربة ، ولما كنت كرديا وضيفا فعلي أن أعفوهم في اشغال الغرفة التي كانت لي حصرا • وتراءى الرجل الفقير خجلا نوعما بصدد احتمال خرق بعض القواعد غير المسطورة المتصلة بالقِرى ، لكنني بذلت ما في وسعي لأجعله ، وزوجه ، مرتاحين ، وعلى ذلك اضطجعنا جميعا •

وأيقظتني الزوجة مبكرا ، وكان زوجها لا يزال نائما • لقد حملت ، بنفسها ، المتاع الخفيف الى العربة ، ثم جاء قرويان ، أو ثلاثة ، فحملا الاشياء الثقيلة • وظهر (المختار) أخيرا ، وما ان رحلت عربتنا الا تناهت الى مسمعي كلمات وداعه الساذجة القلبية ، واخذت ترن في اذني • انهم أول الاكراد الذين قُدّر لي لقاؤهم ، طلائع شعب عظيم يشغل رقعة من الارضين مساحتها ١٢٥٠٠٠ من الاميال المربعة الجبلية ، في تركية وفارس ، وهم ، على الرغم من ان قبائلهم النائية لا تبعد اكثر من ١٤ يوما من لندن ، معروفون بأكثر من أي شعب آخر في الشرق الاوسط • وعلى الرغم من انهم احد الشعوب الباسلة جدا ، المستقلة جدا ، واذكى الشعوب طرا ، تنزل عليهم اللعنة من جراء لطخة ثأر الدم ، وجنوح مرعب الى اللصوصية وقطع الطرق •

وكان طريقنا الى محطتنا التالية عبر واد متموج يسكنه الأرمن والاكراد المستوطنون من قبائل (ملّي) • وتدحرجنا ، لاميال ، على حقول محروثة ، وحيث بدأت الحنطة تدفع سنابلها الخضر ، فوق الثرى • ومن الشمال هبّت ريح حادة ، بدرجة حرارة واطئة ، بسبب من الثلوج التي كانت تكلل قمم التلال ، وعلى أكتافها تعلو سحب تتجمع لكي تجعل الارضين مبتلة ، شأنها كشأن المسافرين عليها ، بعد ايام قليلة • وفي الحق ، لقد هطل المطر فيما بعد الظهر ، ووجدنا انفسنا على سهل اجرد وسيع من طين ذي تربة لزجة غاصت فيها عجلات العربة وأرجل جواديها • وكانت محطتنا : (جارمليك) تتراءى على مسافة بعيدة ، وتبين لنا أن لا سبيل

الى اختصـــارها ، ذلـــك ان اللزوجة كانت عـــامة ، تنتشر في الجوانب كلها ، وكانت سرعة سيرنا ميلا واحدا في الساعة • وبدأت زخات مطر تنزل ويتطاير ضيضُها في الارجاء • وكان في مكنة المرء أن يحصيها وهي تنزل من التلال وتمضي معجلة (كالخيل خارجة من حبل مجريها) ـ حبال من المطر القاتم يتنزل من سحب جون (غرابيب سود) ـ وتدور حول السهول المبتلة• والظاهر انها كانت تقفل راجعة الى الجبال والى الكتلة المتماسكة من السحاب التي كانت تطبق عليها •

ومهما يكن من أمر ، وردنا (جارمليـــك) والشمس قد ودعت الدنيا لتقضي نحبها (وشوك باقي عمرها فتشحّشا !) ، فحللنا في غرفة صغيرة • وهذه القرية كردية ، وكان اغلب ما يدور من حديث فيها حول ابراهيـــم باشا ، وهو الرئيس اللص ، نابه الذكر ، الذي أرعب النـاس أمدا طويلا ، فالأحراس عنه غائبون :

قد ذهب الصياد عنـــك فابشري ورفـــع الفـــخ فماذا تحذري ؟!
خـلا لك الجو فيضي واصفري ونقـــري ما شئت أن تنقري

لقد كان شخصا مذموم النقيبة ، ذلك ان هذا الخارج على القانون (والذي امتهن صنعته انتقاما لخيانة الاتراك التي جعلت والده يلاقي نهايته التاعسة) ، أنكره الاكراد والعرب على حد سواء ، فالاكـــراد كانـــوا يؤكدون انه عربي ، والعرب يسمونه كرديا •

كانت جماعة الشقاة واللصوص التي التحقت به مؤلفة من جميـــع الأجناس : الاتراك والارمن والكرد والعرب • لقد خدم الجميع تحت رايته ، وباغفاله امر ممتلكات كل قبيلة وشعب أصبح عدوا لابناء جلدته أنفسهم ، أعني : الاكراد الملّيين •

لكنه على غرار كل لص فطن خبيث في الاراضي التركية ، استطاع ان يكسب عطف (السلطان) ، واستطاع ان يسخر من الحكومة المحلية التي أرادت القاء القبض عليه • واختلف في أغلب الاحيان الى التلال التي تقع

على حدود بلاد (ما بين النهرين) شمالا ، لكنه كان قوة في (قيران شهر) و (حران) في الجنوب ، حيث جعل كل انسان يرتعد منه فرقا • ولم يلق القبض على هذا الشقي القوي ويقتل ، وتبدد مجموعته من الاوغاد المتآمرين الا بعد تنظيم الاتراك أنفسهم على وفق دستور ، وكان ذلك عن طريق مكيدة •

قص فرويو (جار ميلك) كيف كان رجاله يتعقبون المسافرين حتى داخل القرية ليحلوا في أفضل غرفها ، وليطلبوا طعاما ، وما أن يستقروا فيها ويدخنوا غليونا أو غليونين الا تجدهم يمدون الى اخراج وحمل ممتلكات المسافر على عربته نفسها ليخلصوا بها ، الى أقرب مخيم لهم ، نجيا • لقد كان يشفق من ثأره كثيرا ـ ذلك ان الثأر من قرية كان معناه الحرق والابادة ـ ولذلك لم يكن أي فرد قادرا على أن يحتج عليه• لقد كان الموظفون الاتراك والضباط الاتراك ، خاضعين لمعاملته ، لذلك اكدت لي الذكريات المتزاحمة التي أدليت حول الثأر بان من الضروري ان يعاني أي شعب مستكره في مساومته •

وعلى الجملة ، كان ابراهيم باشا من انجح منظمي النوارة الاكــــراد وافضلهم ، ومن حيث عدد الاتباع كان اقواهم • ان اللفيف الآخر الوحيد ، الذي تجمع بقصد قطع الطرق واخذ الثأر حصرا ، هو (الهماوند) ، وهم الذين تعرفت بهم في كردستان الجنوبية بأخرة •

وفصلنا من القرية هذه صباح اليوم التالي ، وهو قر ، وما أن أخذت (آية النهار) تتكبد السماء الا وجدتنا نرقى تدريجيا ، خلال شقوق تلال كثيرة ، وممراتها • في البلاد التي ينهال عليها السباب كثيرا ، اعني فارس ، قطعت بالعربة مئات الاميال ، لكن علي ان أقول الحق : ءاسوأ المسارات في هذه البلاد التاعسة السيئة هي شوارع مبلطة ان قيست بطرق العربات في تركية • فهنا ، حيث الوصول من البحر يسير ، والنفوذ من القسطنطينية قريب ، يمر المسار من دون ان تتاوله يد احد من «الافندية» ،محبي الشراب الفرنسي ، المعنيين بمثل هذه الامور للغاية ، على حين توجد في فارس طريق ممتازة فتحتها التشبثات الاجنبية التي ترحب بها فارس في الاحيان ، وتركية

على النقيض من ذلك . وعندما لم يقم المهندس الاوربي بتمهيد الطريق قام الفارسي نفسه بذلك ، من دون قصد غير تخفيف الآم المسافرين . لقد قام بأفضل ما يستطيع فازاح الحجارة وشيد بها الطرق الجسرية .

ودأبنا على قطع الاخاديد ساعات طوالا ، وكانت تدحرج منا ، في الاحيان، وعلى سفوح التلال، صناديق وأمتعة مختلفة كانت تسمع لها قرقعة. اسمع مايجب ان يصنعه كل احد عندما يقفز متاع تافه منه ، او ماكول اواشياء صغيرة وتأخذ بالتدحرج ، اذ على مثل هذه الحال عسير جدا على المرء ان يضبط النفس من هذا الميل الطاغي الى تعقيب مايذهب (وراسه قبل رجليه) . سرت ، والسائق ، اميالا نساعد الدواليب على الحركة فوق الصخور، نسيّر العربة في زوايا الطرق الصخر المتمعّجة ، او نعاون الخيول وهي تجاهد في السحب وترقى المنحدرات .

وكنت تشاهد هنا وهناك قطعا صغيرة مزروعة بين الصخور ، وينبوعا بعث بقعاً ضيقة خضرا ، في كل واد تقريبا . وما ان تقرّبنا من (اورفة) ، وهي محطة التوقف التالية ، الا وقفنا على كهوف قديمة كانت مساكن يوما ما ، ولاتجد فيها اليوم ديّارا . كما تناثرت قطع من الصخر المنقوش هنا وهناك. وفي سهل منبسط ، عبر نحو ميلين ، بقايا بناية مربّعة ضخمة ، من الطراز الذي يوصل بالعهد الذي قبل الاسلام ، حين لم يصطنع البناؤون الطين كثيرا ، على ما هو جار في يوم الناس هذا .

ومهما يكن من أمر ، بلغت متاعبنا ، على حين غرّة ، نهايتها ، اذ ما ان درنا حول ركن سيء جدا الا وجدنا انفسنا على طريق حسن البناء يمتدّ حتى يبلغ اورفة . انه ، على ما اعتقد ، الطريق الوحيد الذي شيدته يد انسان في سورية ، وانه نتاج مشروع طريق عسكري ـ تجاري يفضي الى ديار بكر . وكان انذهب الجهد بعد قطع أميال قليلة الى الشمال ـ الشرقي من أورفة . وعندما كنا عليه رأينا ما يمكن أن يكون، لولاه، مصيرنا المحتوم. ولقد ايقنت بما قاله السائق من ان الممرّات كانت ، قبل فتحه ، عقبات ماتت في سبيل العربات .

وعلى الطريق شهدنا آية من آيات هذا الولاء العجيب الذي يدفع بالمسلمين من اقاصي زوايا آسية ، واركانها ، الى مكة . فلقد لحق بنا شيخ هم يرتدي ملابس ذكرتني بخراسان في فارس الشرقية ، ذلك ان سيره كان بخطى وسيعة ، وباسرع من سيرنا الوئيد . وسألته ، وهي مغامرة ، بالفارسية : من أين جاء ؟ فعلمت انه حاج عائد من مكة الى بخارى ، وعلى قدميه سائرا . لقد خمن أمد رحلته بنحو سنة ، أي : من اليوم الذي فصل من بلدته الى اليوم الذي رآها كرة أخرى . كان مظهره يدل على ان عمره خمسون سنة وزيادة ، ولكن من دون الوهن المرتقب ممن هو في سنه ، وكان يسير وكأنه لم يبدأ الا قبل قليل . لقد قطع في ذلك اليوم نحو ٢٠ ميلا .

اورفه

وماأن تقربنا من (اورفه) الا وجدنا ، قرب الطريق ، بقية «طريق جسري» قديم متهدم . انه الطريق الاصلي المفضي الى الغرب من اديسه (اورفه) والمعروف في الايام التي سبقت العهد النصراني . لقد مرت جيوش الرومان والفرث على طريق مبلط بالصفاح المربع في الايام التي كان الناس يعبدون فيها (الزهرة) و (أستارت) .

ان اورفه ، الواقعة عند أقدام السلسلة العظيمة ، قائمة فوق رابيات وما ان مررنا بمستقر (الحاكم) المرعب ـ المبني على الطراز الفرنسي ـ الا تجلت طبيعة المدينة العتيقة .

ان حلكة الجدر الضخمة البُنْيَة ، وأخربتها ، قائمة في كل مكان ، وطراز الجسر الذي يصل الوادي الكائن في قلب المدينة ، وتل القلعة ، كل هذه تحكي قصة (اديسا) المدينة . وفي التلال الكائنة فوق الصخرات ، ولونها أصفر فاتح ، تطل كهوف ـ مساكن ، لا تعد ولا تحصى ، متصلة بالقدامى ، واليوم يحل فيها ، مالا سبيل الى وصفه ، من اسر الأكراد المستوطنين .

وتقربنا من قافلة كبيرة سائرة على حافة الوادي الذي سلف القول عليه ،

واخذت صفا من الغرف الكائنة على سقفه الفسيح الذي يمكن من مشية يستطيع بها المرء ارسال النظر الى التلال التي تشبه خلايا النحل ، او يشاهد مجتمعات البيوت الكائنة فوق الرابية التي تؤلف الحي الارمني • وخلافا للعادة ، كانت الغرفة التي تفتح على السقف وتجيه الفناء ذات نوافذ ، تعدم الزجاج ، وهي مطلة على الشارع والمقهى • وليست هذه محوطه ، لكنها امتداد لغرفة القهوة ، الجانب الآخر من الخان • وعلى حافة الخندق المائي ، صفّت ارائك ، ويتّقى اوار الشمس وودقتها فيها بالشجر والبسط • وعلى طول الطريق المادّ بين هذه المقهى وجدر الخان ، يتمخطر منادو المدينة كل صباح يبيعون كل شيء يخطر على البال : من حفنة اطلاقات الى جواد •

وقدّم الضيوف في المقهى اليه الطلبات ، وهو يتمخطر جيئة وذهوبا ، وبما قدّم أخيرا يتغنىّ • وفي كثير من الحالات ، لا يبلغ السعر الاخير الذي يحدّده ، لذلك يرجع الحصان ، أو أي شيء آخر ، الى صاحبه ، فينصرف الى أمر آخر ، ثم يعمد ، في صباح اليوم التالي ، الى عرض الجواد الذي لم يبلغ سعره المطلوب ، كرة اخرى •

وعلى ما هو شائع في جميع مدن هذه (الانبراطورية) تقريبا ، ان نصف سكان الشوارع وتسعة اعشار المتسكعين في المقاهي والزوايا هم من (الافندية)، لابسي البزّات ، ممن لا يتراءى ان لهم ، في أية مناسبة ، أي نوع من انواع الواجبات • وفي الحق ، قيل لي ان لـ (اورفه) نسبة أكبر من أية نسبة أخرى في هذه الناحية ، وبمقارنتها بمدينة اخرى • ومن حسن الحظ انهم لم يزعجوني • لكني خبرت مهارتهم في هذا الباب أخيرا • ان مغريات المقهى ، هنا ، والفلايين أيضا ، تعادل على مايتراءى ، القروش المحتمل الحصول عليها من المسافر • ان السكان ، بصرف النظر عن آيات القوة التركية هذه ، هم من الاكراد والعرب ، وثمة عدد كبير من الارمن أيضا • ويأتي الاكراد من الشمال ، وجلّهم من تلال (معمورة العزيز) ، ويجيء العرب من سهول مابين النهرين ، ولعلهم على حق في دعواهم بانهم اهل

البلاد الاصليين . واللغة : كردية وعربية . أما الكردية فيفهمها الجميع ، ذلك انها فرضت نفسها على سكان غرباء جزئيا ، على ما فعلت في كل مكان ، اذ ازاحت لغات قديمة متمركزة ، ومرد ذلك الى حيويتها وفحولتها .

وليست البليدة بوسيعة ، لكن سوقها في شغل شاغل ، ودار الحكومة فيها مزدحمة بالناس دوما . وثمة ميدان فيه شجر قليل ، وتتناثر فيه بنايات ، ومنها ما كيّف للافادة العصرية ، والاخريات بنيت بجدر جديدة . وتحت التلال ، يرى المرء (بركة ابراهيم) والزعم الشائع ان قد كان لابراهيم شأن في هذه الارجاء . ومشروع اسالة الماء هنا ذو بركة ، والمناظر موثقة في وعورتها وغرابة تلالها ، وقيل لي ان هناك حدائق جميلة كائنة بمقربة . انها من الامكنة التي يشاهدها المرء في تركية الاسيوية غالب ، حيث الحياة هادئة فيما يحيط بها من امكنة موثقة وسعادة مضمونة ، لو لم يعكرها وجود الاتراك انفسهم وفساد حكمهم .

ان اورفه ، أو اديّسا ، على ما سمّاها الرومان ، قامت في أيام الاشوريين على حدود دولة آشور العظمى وعلى اراضي نيري ، وهي المرتفعات الكائنة الى الشمال توا ، المعروفة اليوم بالنهاية الغربية لكردستان . ان اسمها ، لا يظهر كمدينة ، حتى زمن الغزو الروماني . وعنده سمعنا انها عاصمة بلاد اورفه «اوسرهويني Osrhoene» التي كان يطلق على ملكها اسم : ابجر (ابكاروس Abgarus) غالبا ، وذلك بالنسبة الى تحريف الاسم السامي من قبل الرومان . وكان السكان من العرب ، وان (اديسّا) ، باعتدادها عاصمة ، كانت تمثل أقصى نقطة في الشمال . وفي الوقت نفسه كانت المملكة على تخوم بلاد ما بين النهرين الشمالية ، وهي دوما حدود بين الرومان والفرس والعرب والجبليين ، سواء أكانوا من الارمن أم الاكراد ، وان لم يعرف انه لو انتشر الاكراد الى مثل هذا البعد غربا ــ للاذت الى مجاوريها في الحروب جميعا ، وللعبت دور الخائن بازاء الجمع ، في جميع المناسبات .

وبعد انحلال امبراطورية الاسكندر ، في نحو القرن الثالث قبل

الميلاد ، وقعت بلاد ما بين النهرين بأيدي الامراء السلوقيين ، وما ان وهن شأنهم ، الا سقط القسم الشمالي من مملكتهم بازاء الرومان الزاحفين .
لقد عقد ملك اديسا ، (ابجر : ابكاروس) ، وملك شعب (اوسروهيني) ، معاهدة مع بومبي (٦٥ ق.م) ، وقبل بالتبعية الحقة ، ان لم تكن بالتبعية الشكلية .

وبعد ١٠ سنوات ، قام كراسس ، على ما ذكر آنفا ، بحملة بازاء قوة بلاد الفرث المتعالية ، وكان ان خدعه ابكاروس وتخلّى عنه ، بعد ان اغراه بالتقدّم الى موقع خطير . وعلى هذا غدت (اديسا) حليفة لبلاد الفرث ، وبذلك اتقت نفسها من التحطيم الذي يجيء عادة في اعقاب الفتح والاستيلاء (ومن يدن من نار الوقيعة يصطل) .

وبعد قرن ، نجد الانبراطورية الفرثية متشققة الكلمة بشأن قضية وراثة الحكم : ذلك ان مهرداتس ، وهو أمير فرثي ، يمضي بوحي من رومة ، للاستيلاء على مملكته من (كودارز) بحدّ السيف . ويمرّ ، في طريقه ، باديسا ، فيقوم ابكاروس ، الان ، باصطناع وسيلة واهنه من وسائل النفاق يحمله بها على اتخاذ طريق يعلم جيدا انه يفضي الى كارثة . ان نظرينه جاءت من اندحار المدعي في اربيل .

واثر وفاة هذا العاهل القُلب ، لا يسمع عن اديسا الا القليل حتى سنة ١١٥ بعد الميلاد ، حين استقرّ فيها الانبراطور تراجان ، استعدادا لغزو بلاد الفرث .

ان اديّسا بقعة رضية بقدر تعلّق الامر بالاستعداد لمثل هذا الغزو ، لأن الوصول اليها من البحر المتوسط يسير ، عبر حلب ، وانها تسيطر على الطريق الممتدة من سورية الى الشرق .

وما ان اعد جيشه الا سار مغرّبا : وما ان اخضع بلاد ما بين النهرين الجنوبية ، واستغل ابكاروس الحاكم غياب تراجان ، الا ثار على حين غرّة وطرد الحامية الرومانية المستقرة في (القلعة) ، التي كانت جدرها ومتاريسها قائمة على نهاية المدينة الجنوبية . وغلب الثأر على هذه المحاولة الرامية الى

الاستقلال ، فخلال السنة التالية (١١٦ للميلاد) قام قائد روماني يدعى (لوسيوس كوايتوس) بالاستيلاء على المكان وحرقه •

وعلى الرغم من ذلك نسمع ، كرة أخرى ، عن (اديسّا) ، قبل ان تغرق في بحر النسيان الماصر الذي جاء في اعقاب انهيار السلطان الروماني في بلاد مابين النهرين • ففي احدى المحاولات الاخيرة التي قامت بها روما لسحق الفرث (١٩٧ للميلاد) وجد سفيروس ، وهو من جاء من فرنسة يحاول استعادة الارضين (وبضمنها اديسّا) التي غلب عليهـــا وولغاش الخامس الفرثي في طريقه الى الشرق ، وابكاروس حاكمها ، على استعداد لان يدير وجها متسامحا الى الرجل الذي يمتلك السلطان ، فخضع من دون ان يتذمر او يتمرمر ، وسلّم اولاده الى الرومان باعتدادهم رهائن •

ولعل من العجيب ان (اديسّا) ، بعد ثلاثة أقرن من الكفاح بين الامبراطوريات العظيمة التي شهدت مدّ وجزر الشعوب الآشورية والفـــرس والاغريق والرومان والفرث ، والرومان والعرب تكتسح ، وهي تمتلك سكانا من الرومان والاغريق ، والعنصر الاخير منهم هو الاهم • وعندما أخـــذت النصرانية بالانتشار ، يسرّ قرب (اديسّا) من انطاكية للمطارنة الرحيل اليها في هاتيك الايام ، لذلك نجد ، نتيجة لمحاولات المتنصّرين ، قيام كلية في الازمنة المبكرة نسبيا •

ومما لا ريب فيه ان قد كان في القلعة هذه عدد كبير من الاغريق ، فقد قيل لنا ان الكلدان هم الذين اسسوها وجعلوها نابهة الاسم في باب سعة العلم ، والطب على وجه أخص ، ومما لاشك فيه ان الكلدانية والاغريقية والعربية كانت من اللغات التي يتكلّم الناس فيها هناك ، والاخيرة على وجه التحقيق ، ذلك ان الطلاب العرب في الكلية ، ممن كانوا يتجهّون الى مكة والمدينة كانوا من أقرباء الاولياء الاولين ، واخص بالذكر منهم : (ابا بكر) •

لقد بدد شمل هذه الكلية (زينو الايزوريني)[٤] ، ونقلها الكلدان من

---

(٤) Layard, Nineveh, Vol. I, p. 249 n Humboldt Cosmos Vol. II, ch 5.
[المؤلف]

دون حمية مفقودة الى (سوسة) في خوزستان ، في الجنوب ـ الغربي من فارس ، حيث اوفد المرسلون المشهورون من الكلدان الى الصين .

وفي سنة ١١٢٤ للميلاد غدت من الحصون الغربية التي يتصل اسمها بحسن الصباح ، واتباعه الاسماعيلية أو الحشاشين الذين لهم شهرة صليبية ، وعندما قضي عليهم نهائيا ، وذبح منهم في (اديسا) ، او على ما كانت تسمى ، عهد ذاك : (اورفه) خلق كبير ، ومنذ ذلك الحين اتخذت مكانا اعتياديا في تأريخ بلاد ما بين النهرين العام . لقد شاهت سمعتها في الآونة الاخيرة (١٨٩٥) بسبب من المذابح الفظيعة التي مُني بها الارمن بتحريض من الاتراك .

رفقة غريبة

وفي اورفة تعرّفت على ثلاث شخصيات ، هي نماذج من النتائج العجيبة لتمزّق رفقة غريبة الاجناس واختلاط صباباتها ، ذاك الذي جرى في آسية الغربية . ذلك اني لحظت ، مرتين او ثلاث مرات ، على طريقي البادىء من حلب ، عربة اخرى فيها ثلاثة ، وفي (اورفة) وجدتهم يحلّون في الغرفة المجاورة لغرفتي . لقد كان مظهرهم رائعا . ان اعلاهم سنا ، وعريفهم ، كان رجلا ذا محيا ينذر بالشؤم ، وانفه معقوف كبير ، وهو افوه ، ينفتح فمه في زاوية واحدة فتظهر فيها سنان ، البقية الباقية من اسنانه . وكان يعتمّ بعمامة ويرتدي معطفا ، أكل الدهر عليه وشرب ، وسروالا تركيا فضفاضا جدا عند الرجلين ، مشدودا شدّا وثيقا عند الكاحلين ، وهذا يتمّ ما يظهر من لباسه .

اما ثاني الثلاثة ، باعتداد الخطر ، فرجل يظهر انه كردي الاصل ، أسمر ، وفي عينيه الصغيرتين بريق دعابة . وكان لباس رأسه ذا طرز كردي أيضا وهو متأثر بالشعوب الشمالية . ويعلو رأسه شيء يشبه الـ(طشت) من لباد لفّ حوله قماش أزرق ، هو لباس الرأس عند هؤلاء القوم . لقد اتخذ النمط الخاص من (كفيّة الرأس) الشائعة بين الكلدان الجبليين ، اعني : بدلاً من ان يلفّ العمامة المعتادة ، لفّ القماش حتى استحال حبلا

غليظا ، ثم اداره حول هذا الذي كان يعلو رأسه ، واشبه ما يكون بالطست ، ثلاث مرات او أربعا . وكان يرتدي السترة الكردية ذات الشعر وسروالا فضفاضا . وفي الحق ، كان يتراءى ، بين الخبير المجرّب ، رجلا كرديا من صقع ارضروم . وثالث الثلاثة ، كان عن الاخرين مختلفا جدا . انه بدين شائن ، وجهه الخالي من الشعر اشبه بالقمر ، ويعلو رأسه طربوش صغير أحمر . وكان يرتدي رداءا يصل الى ما دون خصره قليلا ، وباعتداده سترة صنعت من حرير رصاصي أزرق ، وان اتساع النهاية العليا لسرواله بالغ في عرض جسمه الى حد صيرّه مسخرة مضحكة .

ان هذه المخلوقات العجيبة كانت تترنم ، في عربتها بانغام كرجية وتزجي بذلك الوقت. لقد كانت بلغة لم أفهمها ولم يفهمها الحوذي أيضا ، كما كانوا ، يغنون ، بين الحين والحين ، اغنية كردية ، او يتهاترون بالتركية قليلا . وكان حديثهم بالعربية والكردية ، واثنان منهم يحسنان اللغتين على حد سواء تكلمه أما الثالث ، الرجل الوسط ، الذي تراءى كرديا تماما ، فلقد كان يلزم نفسه بلغته حصرا . وعندما جنّ الليل وكنا في (الخان) ، قدرّ لي ان القي السمع الى الجماعة فسمعتهم يتحدثون بالكردية ، باللهجةالمسماة (كرمانجي) وبالعربية وبالتركية ، ثم بهذه اللهجة الخاصة بهم التي تحتوي على قدر عظيم من الكلمات الكردية . جلي ان ذلك من هذا الامل الذي يعذّب المرء . وفي اليوم التالي تعرّفت على الشخص الذي حسبته كرديا خالصا . لقد كان انسانا مترع القلب ، يتكلّم الكردية ، كما وجدت ان الجماعة تحقّقت من حوذي عربتي : اني حاج كردي جنوبي . وعلمت ، الآن ، انهم عائدون من مكة أيضا ، وانهم من اهالي (سرت) ، وهي بليدة تقع جنوبي (بحيرة وان). وما ان سمعت ذلك الا انكشف سرّ لهجتهم وبان . وتذكرت حكايات يرويها كلتان (أورمية) و (ديلمان) فارس عن (انكفاري) الاغراب الذين يأتون من مضائق الجبال الكردية التي يشق على الناس اجتيازها . ان هؤلاء القوم يدّعون انهم من النصارى ، لكنهم يهربون من (الكفرناي) المسلمين . وحل قضية هؤلاء مبسوط فيما يلي :

ان صقع (سرت) و (كفار) ـ أي : الصخرة ـ في كردستان هو من اشدّ الاصقاع التي يشقّ الوصول اليها ، بل هو زاوية مختومة مقفلة في تلك البلاد الجبلية ، وفيه وجد الذين نسلوا من الكلدان والاشوريين الهاربين من قطعان المغول ، في أوائل القرن الخامس عشر ، ملجأ أمينا بين القبائل الكردية .

لقد حلّوا في (وادي سرت) الموثق بـ (بدائع ما حاك الربيع من الزهر) واتّخذ كثير منهم، بين الاكراد ، الاسلام دينا لهم، وهرب آخرون من (سرت) من جراء ثارات الدم التي نجمت بينهم وبين بني جلدتهم . لقد تعلّم هؤلاء من الاكراد الاقدام والبسالة فغدا الواحد منهم (جريء متى يعزم على الامر يفعل) وهي التي لم يُعرف بها أسلافهم الذين كانوا يقطنون المدن والسهول ، ثم كان ان اندفعوا الى الجبال قدما . وفي وقت حديث تماما ، أُسّس قرية (خسراوا) ـ وقد غدت اليوم بلدة كبيرة ـ لاجيء كلداني ، أو لعله كان جوّابا من (وادي سرت) يدعى : (نيقولا) ، وكان ذلك في سنه ١٧٨٠ .

ان العبارة التي اضعها هنا مستقاة من مواطن ثقة من أهل (خسراوا) ، واتركها قائمة على ما هي ، وليس من دون تعليق . وعلى كل حال ، ان البليدة المجاورة المسماة (سالماس) كانت ، دوريئذ ، في الايام التي سبقت « العهد المحمدي » ، مركز مطرانية كلدانية ، حيث كان فيها ، بلا شك ، عدد كبير من النصارى ، لكنهم كانوا غير متزاوجين مع الارمن النصارى .

بقيت لغة هؤلاء الآشوريين ، التي تسمّى في الاحيان بـ (اللغة السريانية المحدثة) ، أو الارامية ، وساطة التحدّث ، وان عرفت اليوم ، ومن قبل قسم كبير من السكان المسلمين في سهل (سرت) بـ (لغة النصارى). وهؤلاء ، وان سمّوا أنفسهم أكرادا ، هم من أصل كلداني .

هنا ما كان عليه اثنان من معارفي ، من هو اعلى سنا ومن هو احدث سنا . وكان صديقي الخصوصي ، على الرغم من معرفته اللهجة ، من قرية جبلية ، وبالاضافة الى اثباته اصله الكردي ، كان يحمل بيّنة أخرى على هذه

اهني مخبرا وتصرفا . وغدونا اصدقاء على الوجه الصحيح ، وقمنا بسيرات خلال اسواق (اورفه) معا . لقد كان لسانه على استعداد للتحدث بأية واحدة من اللغى ، وعدتها اربع ، وضلمنا له في كل مكان ترحابا .

وفي (اورفه) جددت معرفتي بالدُخينة الكردية ، وهي على ما يخيل لي من طرز خاص . لقد ابتعث هذا النمط بنتيجة الحاجة ، من دون شك ، ذلك ان التبغ الذي يستنبت في كردستان لا يمكن لفه ليصبح (سكارة) اعتيادية . وبدلا من ضغطه وابقائه مبتلا ، ثم تقطيع ورقه أخيرا ، يعمد الاكراد الى تجفيفه وسحقه حتى يغدو مسحوقا خشنا ، وبذلك يكون ، بالنسبة للمدخن ، غير العارف به والراغب فيه ، والمزود بورق السكائر اللف ، عقبة كؤودا . وعلى ذلك اخترع نوع من الورق ، قام صنعه بتهيئة عمل الى مئات النسوة في دياربكر والموصل .

ان هذا الورق أثخن من ورق(السكارة) المعتادة ، وهو،في الاقل ،أطول بمرتين ، وفي العلب التي يباع فيها ملتصق ويشبه الانابيب . تؤخذ قطعة طويلة من ورق سميك ، عرضها انج واحد ، وتلف بشكل حشوة ، تدخل في النهاية الضيقة ، وهي معينها الطبيعي الذي يجعلها ثابتة في مكانها .. ثم يصب التبغ فيها من أعلى ، وبعد ملاينة وهز كافيين ، تدار نهايات الورق الى الداخل للحفاظ على محتوياتها . ان اعظم ضرر يتأتى من هذا النمط من أنماط الدخينات هو : انه لما كان التبغ جافا تماما ، ودقيقاً ، لذا فانه لا يتماسك عندما يدخنه المرء ، وبذلك تتساقط النهاية المتقدة دواما .

وهنا ، في اورفه ، لم يكن يُدخن غيره الا قليلا ، ولما كنت أعلم بأن عليّ أن أعتاد عليه أخيرا ، لذلك صممت على أن أقتني سكائر جيدة لاطول مدة ممكنة . لذلك فتشت ، هنا وهناك ، عن انتاج انحصار التبغ التركي (ريجي) ، وأخيرا عثرت على (دزينة) صناديق منه ، وكان ابتياعها مدعاة اعجاب اصحابي الاكراد العظيم ، فهذه هي البضاعة الوحيدة المحد د

سعرها في تركية ، فلا فائدة من وراء المساومة حولها ولا جدوى . وهي ، لو قورنت بامدخينات البلدية ، غالية جدا . كان سعر التي اشتريتها : ٣ بنسات لكل ٢٠ سكارة وهو ضعف او ثلاثة أضعاف سعر الدخينات الكرديه. ان شراءها مكنني من لقب التشريف : « افندي » الذي اطلقه علي مسارفي ، وهو لقب صحبني دوما حتى عهد توغلي في جبال الحدود الفارسية ، وبعدي عن الانظار .

ولبثنا في (اورفه) يومين اثنين ، وكان ثواء مسارفي الجدد من أهل (سرت) أطول من ذلك . وكان أن ودعتهم عندما افترقنا واتجهت تلقاء ديار بكر[٥] حيث الامل بان يجتمع شملنا فيها كرة أخرى .

ان الطريق بين (اورفه) و (ديار بكر) مسار واطيء بين سلاسل جبال الكرج ، في الجنوب الشرقي ، وسلاسل الجبال الكردية العالية الكائنة الى الشمال الغربي ، والتي كانت تدعى في الازمنة القديمة : (ماسيوس) و (نيفيتس) من قبل الرومان ، على التوالي . ويحمل المسار في كثير من المواقع المرء الى قريب من الفرات ، ويتخلل عددا من الاخاديد تتدفق فيها الروافد عارمة . ان طبيعة البلاد العامة ، على طول الطريق ، لا تعدو مرتفعات متموجة عظيمة تهب عبرها الريح ويهتن عليها المطر ، بسرعة فائقة ، وببرودة قارسة . وأعتقد ان قطع الطريق الماد بين (سيفيرك) و (ديار بكر) ، بين كانون الاول وشباط ، محاولة شاقة ومقتحم عسير . وعلى التحقيق ، كان الثلج مكدسا ، على مكان ليس ببعيد ، عندما مررنا به في اوائل نيسان . ان المشهد لعظيم دوما ، وان كان قفرا اجرد دواما . فعلى الرغم من وجود الماء في كل شق من شقوق هذه السهول الظليمة ، وهي لا تعد ولا تحصى ،

---

(٥) سماها بطلميوس (دوربيتا Dorbeta) لكن سيلاريوس يبين انها كانت معروفة باسم (المدينة الشريفة) في (آميدا : Amida) ويرجع تاريخ تأسيسها الى أقدم الازمنة التاريخية ، واسمها الاسلامي (ديار) وعند تمييزها عن الديار الاخرى في بلاد ما بين النهرين سميت (ديار بكر) . المترجم

وعلى الرغم من ان الارض خصبة بدرجة كافية ، فلسنة الاتراك ، على ارضها ، نازلة ، وعلى مبعدة ، الى الشمال بخاصة ، هناك الرواسي الكردية المتجهّمة التكدن ، وهي ، في مثل هذا الوقت من السنة ، تختفي ، جزءاً ، وراء سحب (غرابيب سود) . ويظهر ان ثمة سهولا لا نهاية لها تمالى ، شرقيا ، وتدريجيا . ومن اعلى قطة يشرف منها المرء على الصحراء المتموّجة يخامره شعور بانه نُبذ في العراء ، لا يقيه واق من ريح او مطر او ثلج ، وانه تائه في معزل مخيف ومحيط يطبق على صمت اشبه بصمت الأموات .

لقد كانت هذه السهول والجبال ، منذ ازمنة موغلة في القدم ، الحدود الطبيعية والسياسية للاراضي الجنوبية والشمالية . ان السلسلة السوداء العالية الشمالية منها ، ولنسمها (نيفتس) لانها فقدت اليوم اسمها العام — هي التي ينبثق منها (دجلة)[٦] — أو : السهم .

كانت هذه هي الحدّ الشمالي لـ (آشور) ، تحت ظل حكم العاهل الآشوري الاول العظيم : تيغلات بيلصر الأول (١١٠٠ ق.م) . وخلف جدرها المتجهمه تقع الارضون العجيبة لشعب (نيري) وهم الذين نجح الملوك الآشوريون في اخضاعهم (حتى اقرّوا وفي آنافهم رغم) ، بوجه يعظم ما فعله أي من اخلافهم ، ولعلهم وجدوا ان من الضروري معاقبتهم بين الحين والحين . ان اعظم ما كان الملوك الآشوريون يفخرون به هو استطاعتهم التغلغل في ارض (نايرا) وأخضاع ملوكها الصغار . وسُمّيت اراضي (نايري) بعد ذلك باسم (غوورديني) ، وهو (كردي) أو (اكراد) ، وهذه حقيقة تدعم الزعم الكردي القائل بامتلاك الارض هذه ، منذ أن جاء أول آري ، في موئد الزمن ، من آسية الوسطى ليسكن الغرب .

لقد رجع الى هنا الرومان والفرث والاغريق الغزاة وواجهوا هذه

---

(٦) ان اسم دجلة ، الذي اخذناه من مؤرخي الغرب محرّف عن الكلمة الميدية (تيكرا) وفي اللغتين الفارسية والكردية الحديثة (تير) اي : السهم .

[المؤلف]

السهول القاسية والمنخفضات . ان سفوح التلال المظلمة هذه تطلّت من عل الى الجيوش ، المتشتّتة الشمل ، جيوش جميع الامم الشرقية العظيمة ، باستثناء آشور ، وشهدتها زاحفة متجهة ، جنوبا وغربا ، ناقضة يدها ، يائسة من التوغّل في البلاد الصيرة لشعب (كوردئي) الضاري ، وهو الذي تسل من لا يغلبون عنه ضراوة : كرد يوم الناس هذا . ومن الغريب ان لا يتبوأ هذا الشعب القوي الصلب ، واسمه مقرون بالثورة والشجاعة والروح المتمرّدة، مكانه اللائق بين الشعوب العابرة التي لم تخضعه في يوم من الايام . وما لم يكونوا هم أنفسهم ـ أو على ما يُخيّل لنا ذلك ـ فليس لهم من دعوى بازاء المؤرخ المتحمّس . ومهما يكن من أمر هؤلاء الاكراد الغريبين ، ليس لهم من الميدين ذلك الشيء . انهم باقون ، على ما هم عليه دوما ، لا يقهرون ، ولا ينال منهم ، يتيهون فخرا ويشمخون كبرا ، ولا يخضعون لاحد ، ولا يشتّت شملهم الا ما قد ينجم بينهم من (خصام تلظّى ناره ويطاول) . انهم يجتوون الدولة التي تحكمهم اسما ، وانهم مطمئنون آمنون في مضايقهم وجبالهم ، والى لغتهم القديمة ، لا يتنازلون عن وحدانيتهم قيد انملة ، وعلى الغرب ان لا يضغط عليهم بشدة .

ان الخروج عن سياق (القصة) هذا مما يُسمح به على ما آمل ، ومردّ ذلك الى فقدان ما نمضي القول في ذكره ونفصّله تفصيلا يستأهل التقييد ، مما يتّصل بالطريق الممتدّة من دياربكرَ الى اورفه . وباستثناء النصف الاول منه ، ولمدة يومين ، حملت عبقرية شيطانية لدى مهندس تركي على نثر جلاميد ، وبعثرتها هنا وهناك ، ثم اطلاق اسم طريق على ذلك ، كما عمد هنا الى فرش ٣ أقدام من الصلصال على أرض مستنقع ، واطلق على ذلك اسم طريق أيضا . ان هذا (المسار) لا يستدعي تعليقا ما . وليس هناك من محطة ، ذات خطر ، عليه غير : سيفيريك .

وبالرجوع الى الملاحظات المدوّنة ، وجدت شيئين أثّرا فيّ باعتدادهما يستلفتان النظر لدى التقرّب من هذه البلدة القذرة القائمة في السهل :

احدهما بنية بيضاء مربعة الشكل ، فيها صفوف من نوافذ ذات زجاج في جميع جهاتها ، ومدخل يعلوه طاق كائن في الجهة الامامية ، يرفرف عليه علم تركي ٠ انه بيت الحاكم ، وهو مثال وضيع من أمثلة العمارة الاوربية ، معزول عن المحيط الصغير الذي يضفي عليه أهمية كاذبة ، بارد تاعس أجوف ، مزيف ، الى اللانهاية ، في مثل منظر السهل والتل القصي هنا ٠ أما الملمح الثاني فهو: التل ٠ وانه على غرار تل حلب ، تعلوه بقية بيت الحاكم الذي خلفه هناك ، وحل فيه حكام تعاقبوا عبر ٢٠ قرنا ٠ ان البلاد لتذهب النفس حسرات على قوتهم وعدلهم ويدهم الايدة ، لدى التطلع الى صنيع الماضي المتين ، وعلى هذا القليل الذي بقي في الحاضر الرهين ٠

ان سيفيريك الحالية بليدة وضيعة الشأن ، بيوتها ذوات طابق واحد يسكنها أكراد مستوطنون وأرمن، وهم على ما يُخيّل لي، متنافرون متنابذون دوما ، وعلى ما هو عليه هذان الشعبان دواما ٠ وليست ثمة شوارع على ما نعهد ، واكواخها متجمعة وتترك ازقة قذرة ، بوجه خاص ، بينها ٠ ويلزم المسافر على الأقامة في (الخان) الخرب ، قهرا ٠ انه ، لحسن الحظ ، على حافة البليدة ، ويمكن التطلع من بابه المتكسر الى البادية ٠ والناس ، بخاصة ، ذوو طباع سيئة ، كل منهم فظ غليظ ٠ وعلى الرغم من سعة المكان ، يتراءى ان ليس في الامكان شراء شيء ابدا ٠ وما ان وصلنا الا كان طبيعيا ان يصبح ما عندي من سكر نافدا ، لذا تركت غرفتي بعهدة امرأة عربية ، وهن العظم منها واشتعل الرأس شيبا ، وجدتها تحل في الفناء خارجا، ثم اتخذت السبيل سكتشفا ٠ وكشف أول سؤال وجهته الى البواب الارمني عن ان ثمة دكانا في ركن ما ٠ وعلى ذلك خضت في ذلك الركن وغصت في طين لازب فعثرت على الدكان أخيرا ٠ وكان هذا (كشكا) مفتوحا وهو دكان الشرق عادة — وما احتاجت بضاعته، لمعرفتها اجمالا، من لمحات الا ثلاثاء ٠ وكان ثمة صبي يلاعب كلبا ٠ وفي الخلف رف منحدر فيه عية مليئة بالحجارة ، تسمى جبنا في هذه الارجاء كلها ، وحيث يعد جبن السنة الماضية طعاما مفضلا ، على حين يعد ما انتج منه في هذه السنة شيئا يُزدرى ٠ ان

باقتين من البصل وقلة من علب الثقاب .كل ذلك يكمل ما في (البندر) تماما . لذلك رفعت سراويلي عاليا ، مرة أخرى ، واتخذت سبيلي في الازقة سائراً ، مزيحا أطفال الارمن من حاملات الطين ، منازعا حق الاكراد المسلحين ، حق المرور ، حتى وجدت نفسي في فناء المسجد أخيرا . وسرعان ما جيئني فيه روحاني وسألني عن ديني ، وما ان تلقى مني الجواب : « الاسلام » ، الا طلب مني ، (والقلب بين مصدق ومكذب) ، بان أكرر ذلك ، وما أن فعلت الا شاعت في نفسه الطمأنينة والرضى . لقد اتخذته منه دليلا مرشدا ، وبعون منه عثرت على دكان يشبه ذلك الذي عثرت عليه أولا ، لكن صاحبه كان أكثر تشبثا ، اذ لم يكن لديه (بسكت) يباع بسعر خيالي ـ حسب ، بل كان عنده شاي ودخنيات (سكائر) أيضا .

ووجدت الخبز أيضا ، وكان ذلك كله بفضل (الروحاني) حصرا . اذ بدافع من عطفه على هذا (الحاج) الغريب ، أخذ بيدي الى بيت أحدهم حيث يُختبز في تنور ، وحصل لي على عشرة رغفان بنصين اثنين .

ومن حسن الحظ كان الماء السائغ شربه في فناء السراي ، وفيرا ، وهناك ميزاب يتدفق منه ماء كثير ويملأ حوضا مهدوما ، ونصف الساحة أيضا ، والى هنا تختلف النسوة الكرديات للحصول على حاجتهن منه ، وامضيت ساعة جالسا بوصيد بابي أرقب بنتا شوهاء ـ فلم أجد واحدة أبدا . ولقينا عند الرحيل ، صبح اليوم التالي ، مشقة عظمى ، ذلك ان (البواب) الارمني طلب من الحوذي، لقاء علف الخيل ، (مجيديا) وعن غرفتي (شلنا) واحدا ، وكان الماء ينضح منها علي خلال الليلة كلها . وبددت ساعة عند الباب في هذا النزاع . وتكأكأ نحو ستة من الارمن المتمسكين على رؤوس الخيل ، ونحن نجاهد ان نطفيء سورة زمجرات صاحب المحل ووعيده . وكان ان دفعنا في النهاية غصبا (كما دفع الدين الغريم المماطل) ، والا بقينا حيث كنا . وكانت السلوة الوحيدة اننا استطعنا ان نلقي في ايديهم قطعة نقود رديئة ، من فئة خمسة قروش ، واتعبناهم بتصريف ليرة . وعلى ذلك سارت عربتنا ، ونحن نصب اللعنات ونشتم النصارى والوثنيين ، عموما .

والارمن منهم خصوصا . (كذا ! : المترجم) .

وعبرنا ، في اليوم التالي ، السهول العالية ، ودخلنا الصحراء الحارّة ، تلقـــاء : ديار بكر . وما أن تقربنا منهـا الا تعالت الجُدُر السود فوق الافق ،وتراءى ، بين الحين والحين، الشقُّ الجبلي الذي يمرّ منه (دجلة). وكان وجه الجدار الصخر الاصفر يتجلّى بازاء لون السهل الادكن لونا . وان تقرّبت من غربي ديار بكر لما بانت جميلة أو ملحوظة . وفي وسط صحراء كبيرة ، والنهر يختفي في جدرها الصخر ، تتراءى ديار بكر قطعة من حجارة غرابيب سود من دون اخضرار أو خضرة . وتعكس النظرات ، التي هي أدنى ، الانطباعَ الاول، فعلى المنحدرات والارضين المحاذية لضفتي النهر، بساتين ممتازة، وفي هذا الشهر (نيسان) أخذت الارض زخرفها وازيّنت بنور وورق طري (بدائع ما حاك الربيع من الزهر !) . ان المرتفع الشامخ الموثق الذي تقوم عليه : (القلعة) ، وتشرف منه على النهر ، لا ينيل ، بطبيعة الحال ، الى رؤيته من الغرب ، انه يواجه الشمس وهي تعالى في كبد السماء .

وقال لي سائق عربتي بأن أعدّ جوازي . لقد أكّد لي بأنه لن يسمح لنا بولوج الابواب ، والمرور من الاسوار ، من دون ان نبرز اوراق اعتمادنا . لذلك اخرجت جوازي وجعلته للاطلاع معدّا . انه الوثيقة الخائنة التي تعلن اني بريطاني المولد ، ونصراني .

وداخلني عجب من : كيف سيظهر هالحاج الكردي، أنو وجّهت أسئلة ما الى السائق ؟! ذلك اني اصطنعت أمامه كثيرا من التعابير الاسلامية النقية الخالصة ، وافصحت عن أحاسيس رشيدة ، بالاضافة الى حمل نفسي على التصرّف كأي مسافر آخر . وما كان ذلك حسب ، فالشرطة لن تؤمن ، على التحقيق، باني اوربي ، ذلك ان طراز سفري ، واللغة الوحيدة التي احسنها ــ الكردية ــ هما حجتان تناهضان مثل هذا الاحتمال . وعلى ذلك لم اك اشفق من اكتشاف أمري حسب ، بل من اعتدادي ، والاحتمال يجعلني ارتعش فرقا ، سارقا (جواز) غيري ، وهي جريمة نكراء جـــدا ،

وحقا . ان جوازات السفر الانكليزية ، والمراسلات الانكليزية ، لا فائدة من ورائها الا قليلا ، بين اناس لا يرون الانكليزي الا على الندرى ، ان سافر مثل هذا حقا ، وليس على مثل حالي متنكّرا . وقام الطقس بأفضل ما يستطيع في باب جعلي متنكرا أيضا . فلقد اسودت بشرتي بفعل الريح والشمس ، وان سبعة من الايام المتوالية ارسلت لحية سوداء على صدري ، وكان الصدر هذا ، بسبب من ثوبي الذي لا ازرار فيه ، عاريا . كما كان سروالي بالوحل ملطّخا ومتشققا ، وكنت ارتدي معطفا طويلا ، شبيها جدا بما ترتديه الالاف المؤلفة من رعايا الاتراك الذي يصطنعون لباسا شبه أوربي .

وعلى كل حال ، ما كان هناك عن مثل هذا بديل . اذ لا يستطيع المرء أن يقف في خارج السهل ، أو يدخل ، من دون أن يراه أحد . لذلك اتجهنا الى مكان قريب ، خارج الباب الكائن في الاسوار الضخمة ، عند مركز شرطة ، فطلب أحد الموظفين جوازي ، وسلّمته اليه وانا احبس انفاسي ! ولما كان الحوذي قد شهد أمثال هذا الاف المرات ، لذا لم يعره ، لحسن الحظ ، أي أهتمام ، واهتبل الفرصة للنزول وشراء دخينات من دكان قريب . وسألني الافندي ، وهو من طبقة المدنيين ، من اين أتيت ؟ وبأي طريق ؟ والى أين امضي ؟ وما ان سمع ان الموصل غايتي ، الا تراءى عليه عدم الاهتمام ، لكنه اخرج دفتر جيب واستعد لتدوين التفصيلات الواردة في (جواز سفري) . وعندما شهدته يحمله مقلوبا ، ويضع اشارات غير بيّنة في دفتره ادركت ان ليس ثمـــــة فن يصطنعه كاتب جوازات اصطنبولي كي يخدعني ، ذلك انه كان أميا محضا . وسأل عن أسمي ، فكررته وانا مشفق من الطارئات ، وكان ذلـك من دون افصـــاح تام ، فنقله:(علي السون)، وسار بعد ذلك كل شيء رخاء ، اذ حسب ، بادىء الرأي ، اني (حاج) ، وايّد ذلك الحوذي ، واعلمتــه اني من الرعـايا البريطانيين ، والحقيقة الاضافية اني مولود في فارس ، وهي مما زوّده بها السائق . وبعبارة « يوم سعيد » ، مهذبة اتخذنا السبيل راحلين .

الفصل الرابع

.. الى الموصـل ...

في (دجلة) نزلا

تسترعي (ديار بكر) نظر الغريب ، اول رؤية ، كمدينة رائعة ، نظيفة ، مشرقة ، وفي شغل شاغل ، بشوارع ، بالنسبة الى الشرق ، وسيعة ، وبأسواق عديدة غير مسقّفة ، على غرار غيرها من المدن الشرقية ، وهي محض صفوف من دكاكين ، لا نوافذ لها ، تنتظم على السبل . وهناك شارعان هامان يتقاطعان في المدينة بزوايا قائمة ، وثمة أبواب عند كل نهاية فيهما ، والكل محاط بسور ضخم من ال (بازلت) بناه على النمط الحالي: جستنيان. ويتراءى انجلّ السكان هم منالاكراد، طوائف رجال متوحشين ذوي اجرام ضخمة ، جاؤوا من الشمال والشرق ، يرتدون لباسا من لباد ، على غرار الفرس القدامى الذين يشاهدون في المنحوتات الساسانية . أما ستراتهم الزوف المصنوعة من جلد الضأن ، والشعر خارجا ، والاحذية الحمر ، فانها تؤلف أجزاء ملابس متميّزة . ان النظرية الضارية التي يتّسم بها الكردي دواما ، والوجه النحيف ذا العظام، والخطو الطويل هي التي تميّز أهل التلال ، وهم الذين يسيرون في هذه الشوارع المسالمة ، وان كانت عاجّة ضاجّة ، والواحد منهم يضع على بندقية أو خنجر يدا .

ونزلنا في (خان) ذي طابقين ، قرب الباب الشمالي . انه مكان نظيف وسيع ، يزهو بترف نوافذ ذوات زجاج ، وفي غرفة من غرفه أو

غرفتين : كرسي ومنضدة . وليست هاتان الغرفتان للحجاج الأكراد ، على كل حال ، وكان أن اتخذت غرفتي فيالطابق الاعلى وأنا أحمد وجود نافذة فيها أتطلع منها الى الافندي المتعالي ، وهو يعبر الساحة الى غرفته « الاوربية » . وعلى الارضية (وهنا ترف آخر في بلد كل ارضية فيه من طين) فرشت خرقة سجادتي والقيت عليها فراشي ، ثم سرت في أعقاب الحوذي الى (مقهى) ، في الخارج ، لاحتساء كوب من الشاي ، ولأقع تحت وطأة الاسئلة التي تنهال على الغريب .

وكانت المقهى أشبه بمخزن حبوب ، وقد اسودّت فحل (الناركيلات) التي لا تعد ولا تحصى ، فيها ارائك عريضة ، عالية ، بحيث اذا جلس عليها المرء ، فلن تمس قدماه الارض . انها مصنوعة ليجلس عليها الانسان القرفصاء . وكان المكان مكتظاً جداً ، ولزاما علينا أن نحشر أنفسنا على أريكة مشغولة . وكان أن وجدت نفسي قرب روحاني ، شخص أصفر السحنة في طيلسان ، تعلو رأسه عمامة خضراء هي رمز كونه (سيدا) ، من صلب النبي منحدرا . ان هذه القدسية تستدعي التحايا منا ، نحن الدهماء التافهين ، وكان ان نطقنا ، متصاغرين : « سلام عليكم » فجاءنا ، قبل أن نجلس الجواب ، « عليكم السلام » ، في نغمات جهورية . وجاءت الاسئلة الاولى معجلة :

من أين جئتم ؟ والى أين أنتم ذاهبون ؟ ما جنسيتكم ؟ ولم أنتم ترحلون ؟ وقد أجبت عن ذلك بالاجابات التي صممت على الالتزام بها .

« من حلب الى كردستان الفارسية ، مسلم شيعي ، عائد الى بلادي» : قلت ذلك بالكردية ، ذلك ان الرجل كان يجهل التركية ، وهي لغة أخذت تغدو أقل شيوعا وذيوعا ، كلما كنا نذهب شرقيا .

طبيب القلوب

أما هو فقد كان من أهل الموصل ، عربيا . وفي ديار الاسلام ، حيث المعرفة والدين متلازمان لا يفترقان ، يغدو المتألّه : الطبيب والمحامي والقاضي . فالروحاني محام صغير مهنيا ، ويحصل على قليل مما يقيم به

أود المعيشة عن سبيل حسم الخصومات . والى هذا يضيف حرفةالتطبيب من عضّات العقارب ، وهو يقوم بذلــك باصطناع الدهن المستخرج من العقـــرب الاســود في الجـــرح ، (وداوني بالتي كانت هي الداء) . وبحديث طبيب دار حـــول هـــذا العلم ، أخـــرج صندوق سكائر وأخـــذ يداعب غطاءه وكأنه يرقب انتهاء الكلام قبل ان يدخن . وانهى رسالته بصدد العقارب ، ثم فتح صندوقه من دون مبـــالاة ، ليعرض عقربين كبيرتين ملتويتين في داخله وهما تحكّان أرجلهما الشوكية ومخالبهما بازاء جوانب وهي من قصدير . وكان ان رفع واحدة منها.واخرجها غير آبه بضرباتها العنيفة على اصبعه ، وسمح للزاحفة هذه بان تدبّ على يده ، ثم كان ان التقطها وأعادها الى الصندوق وابتسم لي ابتسامة مشـؤومة أسفرت عن فم أدرد ، ثم انزلق من مقعده ، وغادر المقهى .

وراقب (حوذي عربتي) ماكان جاريا . وقال : انه يعرف الرجل جيدا ، وانه مارس مهنته في ديار بكر سنين طوالا ، وانه كان يشتري دوما العقارب السود الجيدة ، بسعر أربعة بنسات للواحدة ، ويبيع الدُهن بسعر مجيدي واحد لكل ١٠ قطرات . ان مردّ هذا الشيء الباهر الذي يجربه مع العقارب الحية الى ممارسته ، فعندما يمسـك بالعقارب ينزع منها الحمة التي في الذيل بواسطة مِقَصّ .

وكان ثمة نشاط متجدّد ، وشعور صميم في جو ديار بكر ، وقد أخذ بالخيال المنسرح. فلقد جاءالربيع بالحرارةالمعتدلة، لذا أخذ كل انسان يشعر بأنه على أفضل حال في سهول بلاد ما بين النهرين ، باعتداد الحرارة اللاسعة التي تأتي بأشدّ أنواع الفتور خلال الفصل الطويل .

وكان المحل مكتظا وفي شغل شاغل ، فالاكراد الذين انطلقوا من الجبال التي أطبقت عليها الثلوج ، سعوا لشراء ملابس الصيف ، أمـــا الارمن ، حرفيو (ديار بكر) ، فكانوا يتمتعـــون بحصانة من الرعب الذي طالما أحدق بهم .

وبدا على الشارع العريض ، الذي يتهادى منه النسيم ويســـمح

لضياء الشمس بالنفوذ ، الانشراح ، في موسم تفتقده كثير من المدن التي أخذ طين الشتاء فيها يتجمّد في الازقة الحالكة .

واهتبلت اولى الفرص للخروج من الباب الشمالي ، وما كان يبعد عن (الخان) الا ياردات قليلات ، ولفحص الصخر الغريب الموضوع في الاسوار ، وعليه صور طيور ووحوش . انه بقية جدار لعله كان يحيط بالمدينة قبل الازمنة النصرانية . وعلى الرغم من بيّنة خطرها وأبراج كنيستها العتيقة التي دالت الى منائر ، فاستبدلت النواقيس التي تدعو الى عبادة (الثالوث المقدس) بالاذان الداعي الى (الله) ، دام حكم الرومان الى أبعد من أي حكم آخر لهم فيمدينة في الشرق ، وبقيت للنصراني الكلمة العليا حتى عهد الاسلام ، الذي حمل رسالته العرب من الجنوب ، فطردوه وأخضعوه (كذا ! المترجم) .

ومع هذا كله ، لم تظهر ديار بكر الا أقل مما يجب في الحوليات القديمة ، بل أقل شأنا من كثير من القرى والتلال التي يمر بها الانسان من دون انتباه .

لقد حاربت جميع الامم التي مرت فوق الارضين هذه من أجلها ، وملكتها . وما عرفتها بلاد آشور ، ولو وجدت ، عهدئذ ، لما كانت الا من المراكز الخارجية في الانبراطورية . وحارب فوقها الارمن والفرس والفرث والرومان ، لكن المدوّنات لا تخبرنا عنها الا قليلا . وفي الازمنة النصرانية خربها القائد الفارسي المسمى (كواد)ـ الساساني ـ تقريبا . وفي سنة ٥٠٧ للميلاد و ١١٢٤ للميلاد ذبح ٧٠٠ شخص من الاسماعيلية الحشّاشين فيها . وسقطت بأيدي الاتراك سنة ١٠٥٦ للميلاد ، حين استولى عليها طغرل بك من السلالة السلجوقية الاولى .

وما كانت على الطريق الرئيس الممتد من سورية الى بابل ، أو الطريق الماد من أورية الى فارس . ان حشود الغزاة ، وحشود المقهورين مرت بها واوغلت نحو الجنوب كثيرا ، تاركة (آمد) في ركنها وهي ترتعد من جلبة المعركة فرقا ، المعركة التي كانت تدمرها أحيانا .

واستولى (تيكران) ، أحد الملوك الفرث ـ الارمن العظام ، على الموقع لدى اخضاعه شعب (كوورديني) ، ولا يزال واقعا على حدوده الجنوبية حتى الان ، وبنى عاصمة على بعد قليل ، مستقلا دعواها بالاهمية .

وللمدينة الحالية ، على ما وصفنا آنفا ، أربعة من أبوابها كائنة في أسوارها الضخام ، لكن الاتراك حفروا في السور الشمالي خوخة[1] ، سميت (يني قابو : الباب الجديد) . وحاول حاكم تركي ، وقد آذاه منظر تعصب كبير لشعب وثني ، أعظم من شعبه ، تخريب عمارة لايستطيع ولن يستطيع جنسه بناء مثلها ، فاستطاع أن يزيل وجيه قسم من السور الشمالي . لقد ثبت ان مثل هذا التعصب أمر أعظم مما يستطيع ، على كل حال ، تحقيقه مثل هذا البربري الوضيع ، فنبذه وسار في طريقه التافه .

ولا تزال قلة من الكنائس القديمة باقية ، وقد حيل دون رؤيتي لهـا بسبب من صبغتي المحمدية .

ان السكان المحدثين ، باستثناء الاكراد وعرب الموصل ، يتألفون من النصارى ، ومن هؤلاء صنوف تزيد على مافي مدن تركية ـ الاسيوية الاخرى جميعا . والاكثرية هم من الارمن ، ويؤلفون القسم الاكبر من العاملين في صناعة أواني النحاس التي تشتهر بها ديار بكر . وثمة بقية اغريقية من أيام حكم البيزنطيين ، وهي تنقسم الى ثلاث طوائف أو اربع : السريان ، أو النصارى العرب ، على ما يفضلون ان يسموا به ، ومنهم من ينتمي الى الكنيسة السريانية ، ومنهم من الكاثوليك . وهناك كلدان يزهون بانهم ينحدرون من نبوخذنصر (وليس هذا بمتهم) والاشوريين المتأخرين ، ويتكلمون بلهجة قديمة قريبة من لغة الكتابة ، وربما تكلمت بها طائفة أخرى .

وكان الرومان الكاثوليك ، من بين الطوائف الاخرى كلها ، في شغل شاغل واخص بالذكر منها : الارمن والكلدان هنا ، وكثير منهم يدين بالولاء

---

(١) الباب الصغير في الباب الكبير

(معاجيم اللغة)

الى البابا . ان كل طائفة من الطوائف ـ ولا يستطيع أحد عدّها ـ لعلى ثقة من خلاصها ، كما انها على ثقة من دمار الطوائف الاخرى كلها . ان الكراهية تطبق على هذا « المركز » النصراني وتشيع بين مختلف الطوائف المسيحية ، وهي تجعل نبذ كل مقت ، مهما كان مقداره ، بالنسبة الى الاسلام ، لازماً .

ومن سوء الحظ أن يكون النصراني الاسيوي ، على الاطراد، مخلوقا غير مرغوب فيه جدا ، واكثر مغالاة في أمور الدين من أغلب المحمديين المتزمتين ، وانه ، بقدر تعلق الامر بالكيد وعدم الوفاء ، على حال لاتشهد مثلها في الارضين الاخرى ، الا على الندرى . أما موقفه من الذين هم على دينه ، على اختلاف طوائفهم ، فلن يوصف بغير الخيانة . قد يحسب هذا قولا هرطيقيا ، لكن من يقطن الشرق ملزم بالاعتراف بان ، من بين القسم الاكبر من الشعوب التي تسكن آسية الغربية ، ينتج الاسلام انسانا يفضل الانسان الذي تنتجه النصرانية . ان مزاج السامي القاطن في الشرق الاوسط نفسي الى قصاراه ، وان « المُثُل » العليا التي وضعتها النصرانية أمام ناظريه لم تؤثر في طبيعته الا تأثيرا هينا يسيرا . ان طبيعته تهفو الى المادة ، وما تجود به الحياة اليومية ، بالايمان الغربي ، لا يتفق مع المزاج الذي ينشد قاعدة وحكما مقررين ، تنظمان قيامه وقعوده وأكله ونومه ، وبالالتزام بذلك يستطيع ان يجمع الصفات التي تمكنه من المثل العالية ، وهي عالمية تقريبا . ان الروح السنية التي تنشدها النصرانية لاسمى كثيرا من هذه العقول المادية ، وان المثل الاعلى الذي فهم على استعجال وضلّة ، لن يستطيع السيطرة على تشبّثاتهم على وفق ما تتطلبه الحياة ، ويتطلبه الحب الطاغي الذي تتميز به الطبيعة السامية. لذلك نجد ان العامل الروحي ، غير المحسوس والملموس ، الرأس الاعلى لدينهم ورمزه ، قد اضمحل في خضم الكفاح الذي يستشري في سبيل زعامه قديسيهم الصغار ، وحول نقاط عقائدية تجعل الطائفة النصرانية متمزّقة . ان الاسلام مادة (كذا : المترجم) ، ومثله العالية قوية يسيرة .

ان ثمة توحيدا في (القائد) و (الذي يقاد)» وهو أمر يقدّره القواحد، ونبي واحد ، وكتاب واحد ، وكلّ ذو علاقة عقلانية بالآخر • عقيدة هينة يسيرة ، قوية في الاستجابة المباشرة الى الوحدة ، والى قائد ، نبي ، يومن الطغيان الذي تعرفه الروح السلبية القديمة ، ويختط الشريعة التي تنظم كل شيء•• انها العقيدة التي تلمّس منها العقلية العربية كل ما هو محسوس وملموس ، ان كان مثل هذا التعبير جائزا ، شرعة للجميع وثوابا ينال بالتزام التعاليم الواضحة المحدّدة جيدا ، والتي لا تتطلّب شيئا كثيرا من المرء في حياته اليومية ، لكنها تمسك به ـ وعلى ما يجب ان يعرفه كل من خبر الشرق ـ بقوة غريبة غيبية تختلف الى حياتـــه حين تشاء ، فتجدها مهيأة للتضحية دوما •

ان الاضطهاد صيّر المسيحي ذا كيد ، وهذه تورد ، عذرا ، لكثير من الصفحات غير المستحبّة التي يتصفّ بها والتي لا يشاركه فيها المسلم • وينفرد عن هؤلاء النصارى :الكلدان أهل الشمال • ان زعوهم برسّهم ولغتهم قام بشيء ما في جعلهم في مكان أعلى من الارمن والسريان والاغريق الذين يزدرونهم جميعا • كما ان ذلك أبقى ، حيا نابضا في قلوبهم ، الاحساس بالجنس الحاكم الذي يقولون انهم منحدرون منه • ان ذلك يحفظهم من كثير من الصغائر التي أصبحت جزءا لا يتجزّأ من طبيعة النصارى الاخرين •

ان اضطهاد النصارى ـ وقد كانت ديار بكر ، في الغالب ، مسرحه . يثير الامم جميعا ، وذلك حق ، اذ مهما كانت تلاعباتهم ، فانهم تمسكوا بالنصرانية خلال جميع المذابح وأيام الرعب التي بعثها الحقد التركي ، ودفعوا ثمنها • أقول دفع ثمنها لان من الموضوعات الشائعة لدى العامة في كردستان الجنوبية وبلاد ما بين النهرين الشمالية والمترددة في مقاهيها هو مقدار ما دفعه السلطان ودفعته الحكومة للشقاة في المدن ليقوموا بعملهم القذر ، ومقدار ما قدم الاغوات الاكراد من عروض الى السلطات لتسمح لهم ، من دون عقبة ، بانهاء ثارات الدم القائمة بينهم

وبين الارمن الملتجئين الى ديار بكر وارمينيـــة . ان ظـــلا من الرعب يطبق على المدينة التي تتراءى آمنة مطمئنة زاهرة مزدهرة .

ولا يعلم أحد متى سيسمح الاتراك الى الشطر المتحلل من المسلمين القيام بالمذابح ، أو استدعاء الاكراد المرعبين الى النزول من التلال وهم الذين يجعلون النصارى والمسلمين ، على حد سواء ، يرتعدون فرقاً .

من المستحيل الا يلحظ المرء ، القـــانون العـــالمي الذي يلزم الضعيف ان يقلد مظهر القوي ، باعتداد ذلك من وســائل الوقـاية .
لقد اتخذ نصارى ديار بكر والبلدان القاصية لباس أهل المدن من المسلمين أعني : القميص الطويل وشد الخصر ، ولباس الرأس المصنوع من اللباد الذي تلف حوله كفية زرقاء ، والى درجة لا يستطيع الغريب ، بسببه ، بادىء الرأي ، أن يميز بعضهم من بعض ، لكنه قد يعلم شيئاً عن الفرق الطفيف بين تنظيم كفافي الرأس بعد حين .

ومثل هذه الحال في الموصل أيضاً ، حيث لا يختلف العربـــي النصراني عن العربي المسلم بشكل ظاهر ، ما لم يكن الاخير قد ارتدى طربوشاً . وفي كردستان الجنوبية والفارسية ، حيث يتشابه لباس الاكراد والكلدان تماماً ، من المفرح ان تقول انه على وفاق مع جيرانه القساة ، وحيث يحسن الكلداني التكلم بالكردية ، وان اولئك الجيران القساة لا يزدرونهم على ما يزدرون الارمن الكائدين .

ولقد نويت ان ارحل عن ديار بكر الى الموصل ، على (كلك) في دجلة نزلا . والكلك طوف من جلود منفوخة واصدة . والاوربيون الذين اصطنعوا هذه الوسيلة المسرة من وسائل السفر ، وهم قلة ، اعتادوا على تأجير نصف كلك ، واقامة (كشك) أو خيمة فيه ، كما حملوا على ظهره طباخاً ومسنين ، ليسافروا بهدوء ودعة ، من دون القيام بشيء ما ، فيما خلا الاستمتاع والاعجاب بالمناظر العابرة وتصويرها بشـــكل خاطف . ولما كنت متنكراً ، فلم اك قادراً على ان اصطنع هذا النمط المترف من أنماط السفر ، وكان علي أن افتش عن (كلك) يمضـي

باحمال ، وقد يسمح لي بان أجلس فوقها ، لاعتبار ما .

ومهما يكن من أمر ، كان عليّ أن احصل على (خيمة) ، وهذا ما جرى :

كنت أتناول غدائي المقتصد المؤلف من خبز يابس وخس ، ذات يوم في(الخان) ، حين صعد رجل(احدق قوس الاشياخ بناظريه) - يرتدي رداءً طويلا ومشد خصر من لباد من طرز كردي جنوبي - الى غرفتي ، وما أن دخل مسلّما ، الا جلس ، وقبل دعوتي الى المشاركة في الغداء . وقدّم لي نفسه باسم : (الحاج والي الاربيلي) ، واربيل على حدود كردستان الغربية . انه من الاكراد (البابا) وهو يعود من حجته الـ ١٧ الى مكة . انه ، مثلي يروم السفر الى الموصل ، وقد جاء بنبأ مفاده وجود (كلك) مهيأ ، ينضاف الى ذلك ان لديه عصوات وخاما ، يتخذ منها ملجأ ، وقد أعدت لـ (افندي) لا يستطيع السفر حاليا ، وفي الامكان ابتياعها بمجيدي او نحو ذلك . وكان (الشيخ) لا يعرف من الفارسية الا قليلا ، كما كان يتكلم ، الى لغته الاصلية ، الكردية ، وكنا نتخاطب فيها ، التركية والعربية . ان الثقة التي لازمته ، بأن مشاركته طعامي ، والاطمئنان الذي تراءى انه شاعر به ، الى اني سأكون شريكه في السفر الى الموصل ، كل ذلك مكّنني من أن اقف على أحد ملامح صنيعه .

لقد كان ذا خلق مستبد مبادر ، وكان يراوغ في تطمينه ، بخداع ، ولما كان قد اعتاد على الاحترام ، المتأتيّ من الـ ١٧ حجة الى مكة ، لذلك لم يكن ليستسيغ أي رفض لمقترحاته . لذلك ، عندما اقترح عليّ - وسمّاني : موسى ، وخاطبني بـ (ابنه الحبيب) - بان نشارك في نفقات الرحلة جميعا ، قبلت . وما ان حسم ذلك الا غادر ليعود ببضاعته ومتاعه ، ومنها اخراج ، واكياس صغيرة من الفحم ، وسماور صغير ، وحزمة من الرسائل واوراق أودعها اليّ ، باعتداد جيب معطفي آمن مكان لها . اذ لم يكن لديه جيوب في قميصه الطويل ، على الطراز الشرقي ، بل كان لديه (جزدانان)

متدليان على الجانبين ، ومن الضروري ان يحشر كل غال وثمين في صدره . وظهر (صاحب الكلك) ، مع (البواب الارمني) ، بإعتداده شاهدا ووسيطا في المفاوضات . كان (صاحب الكلك) كرديا نحيفا ، طوله ٧ أقدام ، يتراءى كعملاق شاحب ، فظهر ، لدى جلوسه على الارض ، رجلا سويا . ان تلكؤنا في الكلام ، وعينا شرسة ، يجعلانه شخصا راعياه وكان سمحا في المساومة جدا ، وبدأ يطلب ، لنقلنا الى الموصل ، ستة مجيديات اجرا ، وان نسمح لنا بإستعمال الخيمة ، التي ستصبح له ، عند نهاية الرحلة ، ملكا . وتمسكنا بخمسة مجيديات ، وبنصف ثمن مبيع الخيمة في الموصل . وفي خاتمة المطاف ، وبعد استهلاك كثير من السخينات ، وقيامه ثلاث مرات ونزوله الى منتصف سلم ذي درجات ، متظاهرا بالاشمئزاز والغضب من تصلبنا ، والارمن في ذلك وسطاء غير معنيين ، اتفقنا على السعر : مجيدين لكل واحد منا ، وان تكون الخيمة للكردي ملكا . وكان المقرر ان ينطلق (الكلك) عند الصبح من اليوم التالي ، كما كان علينا ان ننتقل وننقل ما عندنا الى خارج المدينة ، والى بقعة يعبر النهر عندها جسر من حجر ، في أسفل ديار بكر .

وكان علينا ، في الوقت نفسه ، ان نبتاع لنا طعاما لايام ، ذلك ان الرحلة تستغرق ، من دون معوّق ، خمسة أيام . ولكن لو هبت ريح عاصف وارسلت السماء صوبها مدرارا ، فعلينا ان نمضي فيها ١٢ يوما ، وقد تزداد . وعلى ذلك زرنا السوق : والخباز اولا ، حيث طلبنا منه كيسا مليئا بارغفة سميكة من خبز ، وان يختبزها عند الظهر وان « تقمّر » نصفا ، جاعلا الرغيف منها ، مفرنجياه على ماكان يُسمّى ، وهنا يحول دون ان يفسد (يقطّن) . ثم ابتعنا سكرا ، وفي هذه العملية احتج الى معلوماتي « الاوروبية » ـ على ما سمّى (الحاج والي) القدرة على معرفة الحروف اللاتينية ـ عند صاحب الدكان الارمني والذي حاول ان يمرّر علينا نوعا من السكر الاسترالي الرديء بأعتباده « سكرا انكليزيا » ، وكان دهشه

وسرور (الحاج) متساويين عندما اظهرت زيف ذلك عن طريق قراءة العلامة الفارقة الموجودة عليه •

ان شراء أي شيء لأمر مزعج جدا • وعندما كنت وحيدا لم اك قادرا على الزام البائع بخفض السعر الى آخر مبلغ ، فادفع ثمن بخس لمادة ما أكثر من صحيح سعرها • وما كان للحاج الوالي الهرم مثل هذا • ذلك انه كان يعلم سعر كل شيء ، في كل مدينة ، بين (المدينة) و (بغداد) ، والويل منه للنصراني الذي يحلف يمينا غموسا عن سعر كاذب • وعلى كل حال ، وفي خاتمة المطاف ، انهينا مشترياتنا حقا ، انها ، على ما اتذكر ، على الوجه التالي : كيس من الفحم لكل واحد منا ، وكيس من الخبز أيضا ، ١٠ باونات رز ، باون واحد من الشاي ، ثلاث (كلاّت) من السكر ، ست ملاعق شاي من قصدير ، سبعة باونات من الزبدة المتقاة ، وكميات من العدس والبازلاء ، وثلاثة حبال طوال من البامياء المجففة وقليل من الخضراوات ، وفلفل وملح وبعض الفواكه المجففة • ونُقلت هذه الى (الخان) وطويت تحت الأكياس والعباءات • واستغرق شراء هذه الاشياء وقتا امتد من الساعة التاسعة صباحا الى قبيل الغروب ، وتضمن كثيرا من الحديث والنقاش ، وعلى غرار ما يحدث في برلمان • وما ان ختمنا على مشترياتنا ، وحزمنا بضاعتنا ، استعدادا لنقلها في صباح اليوم التالي ، الا خرجنا لنلقي على ديار بكر نظرة أخيرة • لكن العجوز ، وقد اضناه السوق ، ادهشني بطلب لا يشبه ما يرتقب من ابن شعب لا يفصح ، عادة ، الا عن قليل من الاشياء الطبيعية وجمال العالم الذي نعيش فيه •

كرسي عاطفي

لقد أخذ بذراعي وقال :

« موسى ، يا بُنيّ ! بعد تعب نهار دعنا نذهب الى خارج الباب ، الى بقعة هادئة بين الاشجار على الشاهق الصخر نجلس فيها ، ونحلّق ، ونتملّى المنظر » •

وقبلت ذلك حامدا شاكرا ، واتخذنا سبيلنا من الباب ، ثم نيامنا ، وبعد ان مررنا بالمدرسة العسكرية المرعبة بلغنا الشاهق الصخر المطل على دجلة . ونزلنا قليلا من مسار ووجدنا شجيرات تتالى على طنف ضيق ، محجوبة عن نظر السلسلة فوقها . لقد كنا قادرين على ارسال النظر ، عبر السهل شمالا ، والى التلال السود الكردية ايضا . وجلس الشيخ صامتا وقتا طويلا ، ثم عبّر عن احاسيسه بعبارة طويلة : (الله أكبر) .

ثم كان ان اشار اليّ بان اتملّى جمال مجرى عظيم يتدفق ماؤه عارمه وضفتيه الملونتين بلون أصفر لاحب ، والشجر المخضوضر اخضرارا فاتحا ، نابضا بحياة سنة جديدة ، يتراءى ، من بعيد ، تحتنا .

وجلس صامتا كرة أخرى ، وارسل النظر بسنين ضيقتين الى الجبال القاصية عوما ان عاد الى الكلام الا تدفقت روح كردي وجبلي بكلمات خشنة وبلهجته الخاصة . ان : الله ، الله ، الله ، غير المنظور ، تتجلى عظمته وجلاله في اعيننا ، ورحمته في قلوبنا وعقولنا :

لعمرك ما الابصار تنفع أهلها اذا لم يكن للمبصرين بصائر !

ومع ذلك ، ياولدي ، يجب ان لا تتصور بأن هذه الجبال ـ التي يطوف عليها الجسم ، على حين تكون الروح مُحلّقة عاليا ، فتلتقي بـ (المجهول) في وسط نقي كمثل ميدان الثلج الممتد في الاعالي ـ انها آياته ، تعالى . وفي الحق ، انها ، كهذه التلال الابدة ، هي من اعظم صنيعه جلّ وعلا ، لكنها ، مع ذلك ، لا تعدو ان تكون حصى صغيرة على جنبيها ، ان قورنت بصنيعه في السماء .

« انظر الى هذا الصنيع ، كيف يقوم ؟! من نحن حتى نزهو بالقوة التي منحنا اياها ، والتي يستردها منا بعد اربعة ايام من انتقالنا ؟ انظر الى اسوار المدينة هذه ، لقد شاهدها عظماء من بيننا ، وستهاوى في زمن ما . انها في نظره تعالى لصغيرة الى أبعد مدى ، لكن الصخر الذي شُيِّدت به من صنع يده ايضا . لقد استدامت طويلا ، شأنها كشأن هذه التلال أيضا . وعندما تنور الاسوار سيعمد احدهم الى اشادة ما يدل على طموحه ، بخراب

ما بناه آخر ، مستخدما الصخر نفسه ، متذكّرا باني الاسوار الاول .

« آه ، يجب ان لا ينسى صانع الصخر الدائم ، والتلال التي ، على الدهر ، ستبقى » .

وكان الرجل العجوز يتكلم بهدوء، لكن عينيه الزرقاوين كانتا تخبوان، وصوته يهتز ، وهو يتكلم . حقا ان ثمة شذوذا في هذا العالم ، وشخصيات مزدوجة بين ظهراني ابناء الشرق ، لا يتأمل فيها المرء ابدا .

ان هذا الشيخ قضى حياتـــه في حرفة ، نعتدها هرطيقية ونســخر منها- ذلك أنه كان الى مكة يعمل دليلا، وعلى حين كان يحمل الثقل بيد من هو غير مبتكر - استطاع ان يبلغ الميزة العالية . لا تزال في قلبه العجوز بقعة يحتلها الشعر الذي يتلج في صدر الآري ، فينطلق ناسبا كل شيء الى الله تعالى ، هو الذي يخاف ويخشى ، ويعبده المحمديون جميعا .

لقد لقيت هذه (الشخصية المزدوجة) في فارس غالبا : الرجل الصلب الحذر الذي يهبط الى هاوية كل حيلة وخداع ، بل حتى الى الجريمة ، ولأوضع الغايات ، لكنك تجده في سورة الشعور ، يعلن نفسه وينظر اليها ، على ما ينظر الاخرون ، بلغة شاعرة هي (اصفى من دمعة) ، ويفكر يفصح عن أجمل احساس ، ثم تراه يهوى الى الارض كرة اخرى .

الجبال هي الجبال دوما ، لقد امسكت بنظرة العجوز المرسلة . انها تأسر الخيال ، ولا يتطلب ذلك ان يكوّن المرء كرديـــا أو فارسيا . ان الانصاب الرصينة المتخلفةعن النهرالثلج والمقذوفات البركانيـــة ، صبابات الارتجافات التي أخذت بزمام القارات ، والتي كانت ترتفع من الارض المسطحة ، ومن الســهول المنبسطة مباشرة ، لتمتلك لب كل انسان وتبعث شيئا في ايده يحمله على الرغبة في النفــوذ الى التي اتخذت تيجـانا من جليد ناصع البياض ، وفي أسرار ودياتها العميقة ، والى النظر الى العالم .

حقا ، ان ديار بكر ، التي تطلع من شاهقها المونق على أرضين كانت لاربع من الانبراطوريات ماضي :الاشورية في الجنوب ،والارمنيةفي الشـمال،

المادية في الشرق ، والرومانية في الغرب ، ـ لتجد كثيرا مما يتأمل فيه، ان مكث من الوقت اللازم لمثل هذ التأمل ، وهي في خضم الثورةوالاضطهاد المستدامين ، واللتين تمزقانها تمزيقا .

ان الغروب ، ويعني ايصاد الابواب ، اضطرنا الى العودة من حيث أتينا ، وما أن كنا داخل الابواب ، الا ّ نسي (الحاج) ما كان عليه من مزاج ، وعاود حديثه عن الرحلة ، وأسعار مشترياتنا المختلفة ، وعن رعونة الارمن ، وابتزاز الاتراك ، الذين جعلوا سعر كل شيء يرتفع عاليا .

وفي الصبح المبكّر من اليوم التالي نهضنا . وبينا ذهبت الى الشوارع أبحث عن حمال ، كان(الحاج)مشغولا بترتيب البضاعة واعدادها لتحمل . ووافق كردي قوي وجدته في المسجد على حمل ما لدينا بأجر مقـــداره خمسة قروش (١٠ بنسات) ، وحملناه صندوقا واخراجا ووضعنا فوق ذلك فراشنا . أما بقية متاعنا فكان علينا حمله شخصيا . ذلك ان (الحاج) الذي كان حريصـــا على عــــدم الصرف الا ّ في أقل حد ممكن ، لم يكن ليسمح لي بأن ابدد أية قطعة نقد يمكن اقتصادها .

وفي هنيهة استطعنا أن نقنع الارمني الحارس بأن شلنين اثنين يكفيان أجرا للاقامة في غرفته لمدة خمسة أيام ، وما أن تمّ ذلك الا ّ ساعدنا على تحميل ما عندنا ، وكان أن رحلنا أخيرا .

وحمل (الحــاج) كيس الفحم وعلبــة تحتوي عــلى الرز وبعض (الخفائف) على حين حملت على كتفي الخبز وعلّقت على منكبي العيبات الحاوية على الشاي و (كلاّت السكر) وأشياء أخرى ، أفانين وشكولا ، ومنقلة فحم كانت تنال شيئا من جسمي، كلما أصابني أحد أركانها الحادة. لقد أجهدنا قطع أرض (دياربكر) كلها ، فالباب الجنوبي فيها كان الذي عنه ننشد واياه نريد ، ولم أدرك سعتها حتى بلغناه .

وتراءى لنا ان الشارع المستقيم كان ممتداً الى ما لا نهاية له ، وكان أن

ظهر الباب (وهو شبيه بالباب الذي يفضي من « ونجلسي » الى « بطماح رومني ») أخيرا ، وبعناية الهية خارقة لم يأبه رجال الشرطة بنا . وكانت الشمس ترتفع من الافق سريعاً بالسرعة التي ترتفع فيها في الشرق دوما ، واني لعلى يقين من انها أسرع في جريها من أي مكان آخر أيضا . وأخذ العرق يتصبب من جسومنا ويساقط ، ونحن سائرون ، وقد انحنينا تحت أحمالنا ، وسبقنا الحمال ، بالقوة المشهودة لدى بني جلدته ، وبسيره الدائب ، سرعان ما اختفى بين الاشجار التي تقوم على حافتي الطريق المتمعج . وهنا تقطعت أنفاس (الحاج) ، فكان لزاما علينا أن نستريح . وأخيرا بلغنا ضفة النهر فألقينا أحمالنا فوق بعض أكياس المشمش التي كانت بسبيلها الى الموصل .

والآن ، وقد بلغنا الى حيث (الكلك) ، لا معدى عن وصف لهذه الجارية الاصيلة ، وباختصار أقول : لقد انتظمت ٢٠٠ من الجلود المنفوخة على أساس : ١٠ × ٢٠ منها ، وشدت الى جذوع رفيعة متقاطعة من شجر الحور ، قائمة فوق الجلود المنفوخة . وفوق هذه ثمة ٧ أو ٨ من جذوع الشجر ، لا يزيد ثخن الجذع منها على ٧ انجات صفت عرضانياً ، وعلى هذه ، وضعت طبقة من البالات ، باعتدادها سطحا . وبين زوجين من البالات ثبت ما يشبه السلة ، وهي وتد من الاوتاد مشدودة ، تكون مسند المجذاف الساذج . ويتدلى فوقها شادوفان ضخمان ، وقام الجاذفون الجالسون فوق البالات ببناء ما يشبه الجسر من الأغصان ، يمتد عبر الصف الآخر ، وكانوا يديرون الشواديف القائمة . وتحت الشواديف فسحة خالية تترك دوما عبر الجارية ، وحيث تتراءى منها الجلود المنفوخة بين الاعمدة .

ان الكلك ، بحكم شكله وبنائه غير قابل للدفع ، وسبب وجود المجاذيف فيه هو لادارته ذات اليمين وذات الشمال ، ولكي يضمن سيره في المجرى الصحيح ، ولانقاذه من خطر الصخور القائمة فيه ،

وهو خطر يتعرّض له غالبا . وفي أعالي النهر ، بين ديار بكر والموصل ، وخلال الربيع على وجه أخص ، يستحيل ، اذا جن الليل ، مسراه ، ذلك ان التيارات الجانبية التي تدور حول الضفاف الصخر معجلة ، بسرعة حصان ينطلق عاديا ، قد تحطّم (الكلك) ولا تبقي على أمل من ورائه ولا جدوى . كما ان الريح ذات قوة دفع عظيمة توقّمها ، بطبيعة الحال ، على الكلك ، ولا يزيد غاطسه على ثلاثة انجات . ان قوتها أكبر مما تتحمله المجاذيف للوقوف بازائها ، وهذا يلزم الكلك على التوقّف .

ولدى وصولنا ، كان الحمالون الاكراد يحمّلون الكلك بآخر حمولة ، أعني المشمش المجفّف والرز ، وهو من جوار اورفه في الغالب الاعم . وكانت جماعة الكلك ناشطة في نفخ الجلود ، وقد اخلي منها الهواء جزئيا ، وبواسطة انبوب مدّ في رجل من أرجل الجلد بارزة . وكانت خيمتنا ، أو (التنه)[٢] على ما يسميها العرب ، قد حشرت بين جدارين من البالات ، وما أن دخلناها الا وجدنا فيها أرضية من ألواح قائمة على جذوع الشجر التي تؤلف قوام الكلك .

وكان معنا رفيقا طريق : أحدهما تاجر عربي من الموصل ، وهو رجل ذو ورع وتقى عظيمين ، وكان يمضي وقته كله في التدخين ومناجاة الله تعالى . وكان الثاني ، على النقيض منه في الخلق ! انه جندي شاب في الـ ٢٣ من عمره راجع من سكة حديد الحجاز ، حيث كان أحد الاحراس ، من الانضباط العسكري ، الى بلدته : كركوك . انه ذو فم ينفث بالبذاءة ، ويجدف بالكفر ، ولص ، لا يملك شروى نقير ، ويأمل

(٢) وكانت تسمى في عراق تلك الايام : (العرشة) ، كما انالجلود المنفوخة في الكلك ، (الجربان) بلغة عامة العراق ، هي (الاوطاب) . وكانت الاكلاك لا تسير الا في النهار للسبب الذي ذكره (المؤلف) ، وثمة أمر آخر هو ان اوار الشمس قد ييبس الجلود المعرضة لها فتنفجر ، والكلاك كان يحتفظ باوطاب احتياط لمثل هذه الحال ويدأب على رشها بالماء ترطيبا لها . (المترجم)

منا القيام بأوده . انه من هذا الطراز الذي يبوخ[٣] اليه التركي عندما يصوغه الجيش بقالبه المياري : الاوشابية والفوغائية .

وكانت جماعة الكلك تتألف من كرديين ، صغيري الجرم من (زازا) وهي قبيلة تقطن الجبال التي يكاد الطرف يحيا دون قممها ، حول وداي دجلة الاعلى ، ومنابعه . ويختلف هؤلاء القوم ، في المظهر والاخلاق ، عن جميع الاكراد تقريبا . انهم قصار القامة ، ذوو مزاج حيي سريع التأثر وهم صنّاع ممتازون يتكلمون لهجة ، هي على كرديتها ، موغلة في القدم ، بارهاصاتها . من المستحيل أن يكون هؤلاء سليلي قبائل التلال التي شقّ على الآشوريين كثيرا فرض السيطرة عليهم ، والذين لم يستطع الفرث والرومان في عهد متأخر اخضاعهم . ان غطاء الرأس العالي المدبّب المصنوع من لباد ، والاحذية ذوات الاصابع الطويلة ، وهي التي لا يزالون دائبين على المحافظة عليها ، وكجزء من اللباس التي يشيع في التماثيل الموجودة في جبال أرمينة الجنوبية بتغيّر . وكان (كلاكنا) معروفا بأنه من أمهر من على النهر طرا ، ولقد طابق منه الخُبْر الخَبر حين غدا الجو راعبا مرعبا .

وانطلقنا من سيف النهر في الساعة العاشرة ، وكان ذلك غدوة يوم مشمس . وهب نسيم من الشمال ، فكان معوانا لنا على الجري قُدُماً ، كما أبقى درجة الحرارة معتدلة ، راحة لنا ويسرا . وعلى مثل هذه الاحوال ، حيث الجو رائق والنهر وسيع يجري دائبا ، دؤوبا من دون عوائق الزوارق والتيارات السريعة الكثيرة ، ليس ثمة واسطة من وسائط السفر ما هي أحلى من الكلك . والكلك هنا في سيره يدور ويدور ونيدا ، وبذلك يستطيع المرء ، وهو عليه ، أن يرى الجوانب جميعا .

ولا يستطيع غير من سافر برّا ، واعتلى ظهره وشيكا ، أن يقدّر ما هو عليه من راحة ويسر دواما . وأول مسرّاته هذا الماء البارد الوفير الذي هو على طرف الثمام من يد راكبه ، طوال رحلته . وذلك على النقيض

(٣) يبوخ أي يتغير الى فاسد وهي عامية ــ فصيحة في العراق .
(المترجم)

مما يتجشّمه المسافر من صعاب ان سار برا ، والماء على طريق مسافره نادر غالبا ، ولا يمكن الحصول عليه الا بجهد يدوي قد يكلفه رهقا . ناهيك بالغبار والاقذار وبعد الشقة والمراحل المتعبة ، وصعوبات وضع الاحمال وتحميلها ، وايجاد القوت في الاسواق الحالكة ، والمرء يكاد يهلك نصبا . ضف الى ذلك الاستيقاظ من نوم غرار قصير في حلك الظلام ، وقبل (أن يتبيّن الخيط الابيض من الخيط الاسود) ... كل هذه قد مضت وانقضت ، وما بقي الا أن تضطجع وتتمدّد فوق (البالات) وتصرف النفس الى ترف الكسل ، وتسلّي المنظر والاستمتاع به .

ومضى علينا يومان والكلك ينحدر بنا بين ضفتين منبسطتين ، مارا بقرى صغيرة ، كردية كلها . وكنا نشدّه للمبيت ليلا ، كما كنا نجمع عصوات ونوري بها نارا ، ونطبخ رزا . وكنت و (الحاج) معتدّين مسافرين من الدرجة الاولى ، ذلك اننا كنا نملك خيمة ، ونقتات على طعام مطبوخ . وما كان لدى الأخرين الا الخبز الجاف ، والجبنة الجافة ، وكانوا قد جاؤوا بكمية كافية منها . ولما كان العرف الاسلامي بعامة ، والكردي بخاصة ، يريغ قيام رفقة أخوية بين المسافرين ، فلقد كنا نقوم باستضافة السُّفَر الأخرين ، وجماعة الكلك ، عند تناول عشائنا ، كل ليلة . وتجلّى التمايز الطبقي ، الذي يفرض نفسه في كل أرض من أراضي الدنيا ، منبثقا من (المولد) و (المركز) و (المال) ، في الامسية الاولى . كنت قد نظّفت الرز وغسلته ، ثم غليته ، فأعددت (بلاوا) وأفرغته في ماعوننا ، وما كان هذا الا غطاء قدر كبيرة من نحاس . ودعونا (الرفقة) للاسهام فيه ، رافضين الأكل تحت أية حالات اخر . وكان كل من (جماعة الكلك) (مريض الناظرين من الحياء) ،وهي حال تؤكد انها على حال من التفه ، وانهالت تصيب من الطعام بأخَرَةٍ . وامتنع التاجر العربي بعبارات مهذبة ، لكنه لزم على المشاركة أخيرا . وما كان الجندي بحاجة الى من يهيب به ، ولعله كان على استعداد للجلوس والبدء بتناول

الطعام من دون أن ينتظر أن نمد أيدينا الى الصحن و (ما أكثر الساعي الى القاعد) . انه لخُرْق مخيف . ولسبب ما ، أزاحه العربي والكردي ، اللذان كانا يجتويانه كثيرا ، قائلين انه ليس من طبقتنا ومرتبتنا وعليه أن ينتظر ويأكل بعدئذ . ان شهوة عارمة ، يُساعدها احساس بالاشفاق من التبدّد ، لكفيلة باختفاء الوجبة الغذائية بين المسافرين في الشرق ،براونهراء كليا . لذلك لم يبقَ من الطعام شيء أبدا ، وكان غسل الماعون الوحيد على يد (جماعة الكلك) دوما . وكنا نعد الشاي على ظهر (الكلك) صباحا وعصرا ، وكانت الاسبقية في الفراغ منه تلحظ بدقة وصرامة . كنت الاول ، لأن الجميع أطلقوا عليَّ لقب (الافندي) ، وذلك بقوة من الطربوش والمعطف اللذين كنت أرتديهما ، وكانوا يعدّونني ارستقراطي القوم ، ثم يأتي بعدي (الحاج والي) صاحبي ، فالعربي ، وبعد أن يحتسي كل منا ثلاثة من (استكاناته) يحتسي جماعة الكلك اثنين ، أما الجندي فكان ينال نصيبه في خاتمة المطاف .

جو عاصف

وفي اليوم الثالث أخذت تتراءى أمام ناظرينا رواس ضخام ممتدة ، محاذية مجرى النهر ، بعيدة كائنة في الشرق والغرب . وشددنا الكلك في الليلة الثانية عند قرية كردية ،وذلك قبيل بلوغ شواهق عالية ، هي بمثابة أحراس الشق المائي الذي علينا المرور منه أخيرا . وهنا أدار لنا الحظ ظهر المجن . فلقد علمنا ان شطرا من القبيلة الكردية القاطنة في التلال التي كنا نتبيّنها أمامنا قد ثار ، وهو أمر معتاد تماما . ولكي يظهر هذا الشطر تحدّيه للسلطة ، أخذ يصلي المسافرين في النهر نارا . ان هذا يثير القلق على التحقيق . وقد يطغى قلق حاضر على احساس بخطر مرتقب . فلقد نسينا في خضمّ المطر الذي هطل عند مغيب الشمس كل ما يتعلّق باللصوص والثوار . وهب اعصار شديد ، وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ، بلّل خيمنا ، وهدّدها بالتمزّق والاطاحة بها كليا . وكانت

(جماعة الكلك) تشفق من تركــه الى نقمة الريح ، والتيـــار الذي كان يشتد بقوة (مالها من فَوَاق) ، وقد يدفع به ذلك بعيـدا فيتمـزق ، بارتطامه بالصخور،تمزيقه لذلك التزمت(الجماعة)بالمبيت فوقه فاضطجعت، والبرد القارس يعضها بنابه ، وابتلّت ، والماء يتسيّب من ملابس آحادها الخفيفة ، وحاولت النوم . وما كنا في الخيمة بأحسن منها حالا . ذلك ان فراشنا كله أصبح مبتلاً ، كشأن اللحفان المصنوعة من قماش قطن خفيف ، وهذه تتطلّب ، للجفاف ، ساعات طوالا . وأصبح ما لدينـا من رز وفحم ، على التابع ، لبّا وطينا . وأخـذت مجار تســاقط من برك ماء فوق السقف المصنوع من الخام ، علينا ، تارةعلى وجوهنا ،وتارة على رقابنا . وتجمّعت برك من الماء على أغطيتنا فتشبعّت به . وما كانت ملابسنا بقادرة عـلى أن تمتصْ أكثر مما امتصّت ، شأنها كشأن فراشنا ، فغدونا ، في خاتمة المطاف، جسوما ترتجف ، شأننا كشأن اولئك التاعسين في الخارج ، وكل منا ملتف يشبه الاسفنجة، وان مردّ الفَوَق الوحيد الذي كان لنا، بالنسبة اليهم، هو الى دوء صغير يقينا ، لساعات ، الريح. وفي ذلك الحندس الحالك كان علينا ، ان أردنا بلوغ بيتنا المتواضع، أن نزحف فوق بالات الشمش خارجين ، وقد أصبحت زلقا ، بنتيجة عصير أخذ ينضح منها . وكان علينا أن نجد محلا جديدا ، بين الفينة والفينة ، لمثل هذه الاشياء القيمة : علب التقاب . وهذا المحل الجديد المتبدّل دواما كان يدهمه المطر بعناد شديد ، كلما اتخذناه لها .

ولم يأت الصباح بما يزيل الغمّة ، وفي الحق لقد ازدادت حالنا على سوئها سوءاً . ولو لبثنا في القرية لاستطعنا أن نجد في بيوتها ملجأً لنا . وبتهكّم من هذه العناصر ، وقفت الريح عنــد مشرق الشمس . وعلى الرغم من المطر الهامي انحدرنا . وبعد ساعة أخـذ النهر يضيق مخترقا التلال والشواهق الشمالية . ثم هبت الريح تجرفنا كرة اخرى ، فقمنا بشد الكلك الى رقعة من الشاطىء عند اقدام منحدر ، وبذلك جعلنا أنفسنا في

معزل عن فرصة الحصول على أي ملجأ . ودأبت السماء ترسل صـوبها مدرارا ، والريح تهب لمـدة ثلاثة أيام بلياليها . وحتى الخبز ، قوتنـا الوحيد ، استحال لبّا . واصيب (الحاج) بداء المفاصل الـ(رومانيزم) ، وأصبح مزاجه سريع التأثر ، فاضطررت الى أن أهجر مكاني الى البالات الموجودة في الخارج ، ونمت ليلتين فوق المشمش ، وغطيت نفسي بأشياء مبتلّة لَزِجة بومي، على انها تدفع غائـلة الريـح ، لكن برودتها تجعل فائدتها معضلة .

ومهما يكن من أمر ، كان الصباح الرابع مشرقا لطيفا ، وفي غضون نصف ساعة تمزّقت السحب فأصبحت أباديد وقطعا ، واندفعت الريح عالية تقذف بالغيم بسرعة هائلة ، وفي أسفل ذلك كان النهر الأزرق جاريا بين شواهقه الصفر ، وهي تتعالى الآن بـ ٢٠٠ قدم ، والدفء قد لقي من قلوبنا ترحابا ، ورأينا ، الآن ، كيف غيّرت المياه الهاطلة كالسيول أوضاع الامور تغيرا . وكانت مجاذيفنا غاطسة في الماء بنحو قدمين . وكان النهر ، ومن هنا يجرى في شـقّ جبلي ، يضيق دواما ، ويندفع بسرعة فائقة . وكان أن انطلق (كلاكا) القدام بجاريتنا تسبق . والنهر ذو مجرى رائع ها هنا ، فهو يمتدّ مستقيما ، وعقيقته قصيرة ، وبالنظر لتشابه الضفتين المتقابلتين فمن المستحيل أن ترى العطفة فيه ــ وفي الغالب هي أقل من زاوية مستقيمة ــ ما لم يبلغها المـرء تماما . وتتعالى تلال ضخمة وراء منحدراته الخفيضة ، مكسّوة بالشجر ، وفوق ذلك كله كنا نشاهد ذرى مجلّلة بالجليد . وفي هذه الشعاب المتبدّية ، وهي ذات رواء كـرواء الربيع ، وعظمة تند عن الوصف ، خُيّل لنـا ــ وهو حق ، بأننا كقطعة صغيرة تطفو مندفعة في النهر . وعند كل عطفة فيه ، كان النهر يدور ، متجها تلقاء الضفة البعيدة ، وله « دويرات » بإزاء الصخور التي تتراءى قاسية ، وعندها تمسك الايدي بالمجاذيف لتحول دون اندفاع الكلك اليها فيتمزق اربا اربا . والنهر اذ يضيق ، بين شـاطئيه ، في الاحيـان ، يعلو

صخورا غاطسة في أحيان اخر ، ونراه ينفسح وتتضاعف سرعة تياره • وفي مثل هنا خبرنا أعظم اصطخاب ، ونحن نوجّه الكلك الى وسط الموج المتدافع المتعالي ، والانطلاق من بينهما بسرعة عظيمة فوق الاضطراب الفائر حيث تلتقي • والكلك يتموّج ، وقوامه غير الصلب يحول دون تحطيمه ، وقد تتعالى الموجات فتبتل ، وبضاعتنا ، بها ، كشأن ملابسنا ، نصف الجافة ، بينا يسمع له صرير يشير بخير • وعند مثل هذه الحال كان (الحاج) و (التاجر العربي) يمسكان بأقرب شيء صلب ويهتفان بحميه (يا ربي ••• سهّل ••• يا ربي) وما أن نجاوز بقعة الخطر الا يهتفان ، بحمية أيضا ، بالحمد والشكران •

وبعضنا ، غدت التلال والشواهق الصخر متعالية ومنحدرة بوتتالت سفوح جبال ضخمة، تراجيانحدارها متعذرالارتقاءهانالنظر الى مرتفعاتها يدور برأس انسان • وتقع ، هنا وهناك ، قطعة من الارض ضيقة ، يتلوى حولها المجرى ، وعلى كل منها قرية كردية صغيرة ، بيت (المختار) فيها حسن البناء بالصخر ، فيه برج ذو مزاغل ، يعلو أرضا مرتفعة قليلا • وسمعنا دويّ اطلاقة أو اطلاقتين ، لكننا جرينا بعيدا عن مرمى القوم اللاعبين كثيرا ، وكان ذلك قبل أن يعاودوا حشو بندقياتهم بالاطلاقات ، تقريبا • وبرؤية هذه التلال العظيمة ، والمنحدرات المستدامة ، يتيسر كثيرا فهم السبب في ان جيوش الدول القديمة في (بلاد ما بين النهرين) التزمت دائما بطرق السهل الغربية ، نابذة هذه التلال ، تاركة اياها الى القبائل التي قطنتها منذ أن قذفت آسية الوسطى بقطعان الآريين ، في السنين التي سبقت التاريخ كثيرا ، والى شعوب العالم الغربي طرا •

وذات عصر ، وقد حيينا بجو حسن ، انتهينا الى مضيق طويل فقام أمامنا منظر من أروع مناظر دجلة • لقد كانت الضفة اليمنى ترتفع الى حالق من صخر شاقوليا ، وتعلو علوا كبيرا ، وكان يقابلها ، عبر النهر العريض ، شاهق ليس بمرتفع كثيرا ، فيه مساكن أشبه بخلايا النحل •

وكان الشاهق على الجهة اليمنى (وهو نتيجة شقّ في سفح التلّ أحدثه النهر) متقطّعا في مكانٍ واحد ، ثم يستمرّ ، والاخدود الذي لا يبعد الا ياردات قليلة ، عبره ، ينحدر حتى يلامس حافة الماء . وعلى القمّة من هذا الشطر الدائب كنا قادرين على رؤية مدينة عظيمة ، عالية يتراءى الناس فيها صغارا . وخلف الكل تتعالى سفوح جبال تنحدر الى هاوية ، ويمكن أن ترى ، بين مضائقها ووديانها ، شقوق وقمم أشدّ ايحاشا . وفي القرية ، أو البليدة ، كان يتعالى برجان أو ثلاثة أبراج ضيقة عالية ، بأبعاد مدخنة معمل ، وهذه تتراءى أشدّ نحافة من المُستَشرف الذي تقوم عليه . وأشدّ من كل هذا روعة ، عقود عظيمة تخلّفت عمّا كان ، في يوم من الايام ، جسرا ضخما ، بانبثاقه من نقطة خفيضة في الشاهق الصخر ، أو بالاحرى من نقطة تقسم على منحدره الى مقدم الشاطيء ، يصل المسافة حتى الشاهق الصخر المقابل ، مقرّباً دجلة الى الغرب ، وبأكثر مما يأتي به أي جسر صخري قائم . والمجرى هنا وسيع عريض . وان العقود الضخمة التي تعلوه ، وترمي ظلالها على المار في (كلكه) المتواضع ، لتفصح ، بما لا تستطيع أن تفصح عنه مجلدات ضخام ، عن صبر الشعب الغابر وموهبته ، وتقارن بين صفاته وبين صفات العثمانيين نسبيا . وعلى الجانبين ، على الضفة اليسرى أو الشرقية ، حيث يتهاوى الشاهق الصخر حتى يلامس النهر ، وفي الغرب حيث يتراجع تاركا شاطئا خصبا ، تعرت الواجهات منه فغدت مساكن الكهوف وقلاع الصخر ، التي تصل بعضها ببعض . انها لحجرات غريبة عجيبة ، مفتوحة من جهة النهر ، لاتعدو أن تكون مواطن مخيفة تطلّ على النهر ، ولا يكشف عن طرز الوصول اليها الا بتقرّب كبير ، وهو ممرّ ينفذ في الصخر . ومن القرية العالية شق درج متمعّج ، الى واجهة الشاهق الصخر وحيث يلمق النهر الجدار الصخر الصلب .

ان هذا المكان الرائع ، البعيد عن مسار أي طريق ، الناجي من

أضعف نفوذ تركي ، بسبب من محيطه الجبلي ، يدعى : حسن كيف . ان الاسم حديث ، ويذهب التواتر الى ان حسن كيف[4] كان شقيا كرديا استقرّ فيه وأخذ يجبي الاتاوة من جميع المسافرين براً ، محصّناً نفسه في مكان لا يحتاج الى أية حماية مصطنعة تقريبا ، ذلك ان الطبيعة سوّرته تسويرا حسنا . وأغلب الناس يقولون : ان الجسر روماني ، وقال الخبراء المتأخرون ، من الذين ابتدعوا النظرية ـ لفقدان ما هو أفضل منها ـ انه بندقي ، وانه بقية الطريق القديم الممتد الى الشرق . وفي الحق اني لأعتقد ان آثار البندقيين عثر عليها في البلدة أيضا ، حيث ثمة أخربة . ومن المحتمل ان البندقيين عرفوا المكان لاشتهاره ، ولتأريخه ، قبل أن يستقروا فيه . ولعل السكان كانوا من الاكراد دوما ، وكان الارمن الذين وجدوا قبل المذبحة الارمنية فيه ، قد هاجروا اليه . أما الآن فالموقع للاكراد كرة اخرى ، في ظل حكومة بلغ ، اليوم ، فسادها وضعفها أبعد مدى ، لذلك عادت اليه شهرته الاولى . وهنا ثمة يزيدية أيضا ، اولئك القوم الاصلاء الذين ، بدلا من التزلّف الى الله العلي العظيم ، يعدون قوة الشيطان أشد كمونا في هذه الحياة ، ويصبون الى مسالمة (الشيطان) ، ولعل هذا شيء واحد باعتداد التأثير في حياتهم اليومية . ولم نلبث هنا ، بل سمحنا لانفسنا بأنْ نجرف مارين نُزُلا في مجرى وسيع حيث تنفتح التلال . وباعطاش الليل شددنا (الكلك) الى مكان اتسع عنده النهر كثيرا ، واستدار الى اليمين استدارة حادة[5] .

---

(٤) من نكد الطالع ان هذه الاسطورة منقوضة على الوجه الواضح بتهجئة الاسم . فحسن ليس من الاسماء المعروفة لدى جميع المسافرين في دار الاسلام ، ولكن كلمة عربية تدل على « قلعة منيعة » ، وهو اسم يلائم القلعة القديمة القائمة على نشزها الصخر . والدراس الشرقيون يقدرون الفرق ، ان علموا ان الحرف الصائب هو (صد) وليس (سن) (المؤلف)

(٥) ان الاسم العربي القديم للموقع (راس القول) وكان في القرنين الـ ١١ والـ ١٢ تحت حكم ماردين . وفي سنة ١٢٦٣ للميلاد الحق باحدى القبائل الكردية : (الايوبيين) قبيلة صلاح الدين الذي نبه شأنه أيام

وهتن المطر في الليل ، كرّة اخرى ، فابتلت ملابسنا وأغطيت وغدت بمائه غرقى. وبلغ ماامتصته الاحمال قدرا من الماء كبيرا بحيث تراءى ان الكلك أصبح غاطسا . وعندما بدأنا رحيلنا كانت القرب خارج ماء النهر نصفا ، وكان لزاما أن ترش دوما بآلة تشبه الملعقة لكيلا تيبس وتتشقق ، لكنها ، خلال اليومين الاخيرين ، غدت لا تُرى ، والآن ، حتى العمد التي تغطيها ، أخذت عن الأعين تتوارى . وانتفخ الشمش الذي تشرّب بماء المطر الاول ، وتضخّم ، فأصبح يتراءى كاللب المنفوخ . وان شمس نهار يبّست ظاهر الاكياس جزئيا وابتعثت رائحة كريهة جدا . ولقد أصبح كل شيء بالماء مليئا ، حتى بلغ نقطة الاشباع كرة اخرى . وعند هذا هبّ نسيم ، عرفنا السبب فيه عند ابلاج الصبح ، ذلك ان التلال تكلّلت بجليد جديد .

وانطلقنا عند الساعة الثانية من اسفار الصباح ، وجرينا طائفين في بحيرة ذات دوامات تندفع دفّاقة ، ماحقة الارتجاجات المحدثة بالتقاء المجاري ، ساحقة لها . وهنا يصب (بوهتان صو) ، وهو أعظم المجاري التي تكوّن دجلة على تمامه . ان مصبه في مكان عريض ، خليج بين تلال تعلى على حين غرّة . ويستمر مجرى النهر لمسافة ميل أو نحو ميل ، ويغدو بالتقاء الانهر وتجمّع مياهها ، وسيعا عميقا ، ثم انه يضطر الى اتخاذ المنفذ المتيسر الوحيد من خلال مضيق ضيق ، فتكون السرعة فيه طائشة نزقة . وما ان تقرّبنا من دورة النهر الا ظهر عدد من الاكراد وهم يركضون في أحد الوديان الى النهر نزلا ، وما أن أصبحوا منا بمقربة الا رمونا ، فلم يصيبوا الا بالة أو بالتين . وكان أن استرعى انتباههم ، في وقت مناسب ، الى ابعد مدى ، فريق آخر ، اذ ما ان تراءى هؤلاء مستشرفين الا شرعوا

(الصليبيين) . ان هذه قريبة قبيلة (حكاري ؟) العظيمة القاطنة في هذه الاصقاع . ومنذ ذلك الحين بقي الموقع بيد الاسرة وابنائها . والظاهر ان القلعة ترقى الى تأريخ أقدم بكثير ، وذلك على الرغم من اننا نعلم بان الايوبيين عاودوا بناءها .

(المؤلف)

باطلاق النار الحامية موجّهة الى مهاجمينا . ومن نكد الحظ جدا اننا لم نكن بقادرين على التوقف ومشاهدة التطورات التي استجدّت ، لكننا ما ان درنا في عطفة الا رأينا ان احترابا نشطا كان جاريا . وكان يشوقني كثيرا ان الحظ تصرّف رفقة سفرنا . تراءى ان (جماعة الكلك) كانت تذهب الى ان الامر شيء مألوف جدا ، ولم تتوقف عن الجذف ابدا . وفي الحق ان من المستحيل التخلّي عن السيطرة على (الكلك) في مثل هذا الممرّ المليء بالصخر . لم يضطرب (العربي) ولا (الكردي) الا قليلا ، ولقد عُني كل منهم باتخاذ البالات درعا له ، وكان ذلك بعناية تامة ، وانهما يعلمان باننا سنجاوز الخطر سريعا . لكن دم الكردي العجوز فار بمجرد تصوّره انه لم يكن مالكا بندقية يجيب باطلاقاتها على اطلاقات مهاجمينا . واختفى الجندي التركي لدى أول اطلاقة ، اذ حشر نفسه بين أكياس المشمش وجماعة الكلك ، ومن مكمنه خرج أخيرا ، مبتلا موحلا !

وما كان علينا ان نبعد في ذلك اليوم ، ذلك ان المطر والريح العاصف جاءا كرّة اخرى ، فوجب ان نشدّ كلكنا . ولكن الصباح كان لطيفا ، وعلى الرغم من وضع (الكلك) المرتجّ ، وهو الان يسير تحت سطح الماء ، عقدنا العزم على أن نصل (الجزيرة) ، وهي بليدة عند اقدام الجبال . وكان أن بلغناها ، بعد الظهر ، مبتلّين تماما وننغطس الى ما هو اعمق فاعمق ، كل دقيقة .

وهنا دفع لجماعة الكلك اجرهم وجاء آخران ليحلاّ محل الناهبين . ان عملية التسليم والتسلّم كانت تقضي بأن يحسب كل ما على ظهر الكلك ، وبضمن ذلك المسافرون . وعندما اخذ الرجل الجديد الذي يوشك ان يتسلمّ الزمام بادارة بصره ، والمرتقب منه القيام بجميع الاصلاحات الضرورية ومعاودة تنظيم الاحمال وحال المسافرين على الوجه الملائم . ولم يضع وقتا ما ، اذ نزل في الماء البارد جدا ، واخذ يسحب القرب التي خرج الهواء منها ، وينفخ اخرى ، مستبدلا التالف منها بالصحيح ،

ويتظم الامور بلمة حتى (نزلت الشمس تجر الى الغروب ذيولا) •

وكان مقررا أن نرحل عند الصبح من اليوم التالي ، لكن الطقس دهمنا كرة اخرى • ان زخات اسوأ من سابقاتها طردت جميع المتسكعين ، وتركتنا على الشاطىء وحيدين ، حيث اتخذنا من ثقب في سور القلعة الضيقة الخرب ملجأ •

جزيرة ابن عمر

ان (الجزيرة) ، أو (جزيرة ابن عمر)[٦] ، التي كانت في يوم ما ذات خطر ، لقرية وسيعة ، قذرة للغاية • انها خربة يسكنها العرب والاكراد والنصارى ، على اختلافهم • والدليل على أهميتها وجود بعض الشُرطة وسرعان ما وعينا ذلك •

وعندما وصلنا ، اول مرة ، ولما كنا نفتقد اشياء قليلة ، اتخذت سبيلي الى السوق مستطلعا ، فوجدته حسنا ، باعتقاد سعة المكان ، وبالميرة مليئا • وثمة حمام عامة ، أدخلت أنفي فيها ، فوليت منها فرارا • وفي السوق يباع الحبل (واشتهر به محليا) ، وتباع تمور ، وجبنة مجففة ، وفواكه يابسة وزبيب ، والمواد المستوردة المعتادة • وكنت اريغ تمورا ، على ما أتذكر ، ومرَّ عليَّ وقت غريب في الحصول عليها ، فالاكراد ، وهم جلّ السكان هنا ، ما كانوا ليؤمنوا بأني غير تركي • ذلك ان الطربوش والمعطف كانا لاينفصلان عن الجنس التركي ابدا ، في اذهان اناس يرتدون (الشراويل) الفضفاضة البلدية ، والقمصان من القماش المحلي الواحد ، ومشدات الخصر من لباد ، دوما •

والمت ، الآن ، بالتركية على وجه يمكنني من التحدث بها ، لكن الكردية كانت تنال من لساني على حال أكثر يسرا ، لذلك ما ان بلغت

---

(٦) القديمة ، كانت تدعى عند الكلدان (بيزاركا Bezarta) أو (غيزورتا Gesurta وعند الرومان (بيزابده Bezabda

[المترجم]

أول دكان ، وشهدت التمر فيه للبيع معروضا ، الا سألت عن سعره بالكردية، ولكن الجواب جاء بالتركية • ولدى ذكر السعر بينت اني على استعداد لدفعه ، لكنني طمئنت باستحالة ذلك ، وبالتركية ايضا ، وكان ذلك بلهجة التأكيد ، ولم تكن لتخلو من زهو ، ومحصلها : ان المتكلم يعرف هذا اللسان •

ـ قلت : « حسنا جدا ، ولكنني لا اعرفها •

ـ « كيف ذلك ؟ الا تعرف غير العربية لسانا ؟ »

ـ « كلا ، لا اعرف العربية ، وعليك ان تتكلم بالكردية »

ـ « ومن اين جئت يا صاح ؟ »

ـ « من ديار بكر وحلب ومدن الغرب » •

ـ « ولا تعرف العربية ؟ »

ـ « كلا ، ولن اتكلم بها ، لو عرفتها ، وانا اخاطب كرديا » •

ـ « اذن يجب ان تكون كرديا ، لكن لسانك ليس بلساننا ، اين بلادك ؟ » •

ـ « انها بلاد لم ترها ـ انها فارس » •

«فارس» ـ بتعجب ـ ثم هتف مناديا رفاقه : « هنا فارسي » ! وكان ان تجمع عديد من القوم مشوقين الى رؤيتي ، ذلك ان من الغريب ان يوجد فارسي على طول نهر دجلة حتى بغداد ، كما لم يقدم فارسي الى هاته الربوع أبدا ، فالفرس غرباء في هذا الركن المنعزل ، وبأشد من الاغريق •

وسرعان ما تحلق حولنا حشد من الناس ، وبانشغال حاجتي الى التمر ، اخذ الذين وقعت في السويداء من قلوبهم بيدي الى (مقهى) ، وابقيت فيها ، ساعة او ساعتين ، اجيب على اسئلة تتصل بفارس ، ولا اتطلع عن (الجزيرة) الا قليلا • ان الملمح الرئيس فيها ، على ماكانوا يحسبون ، هو جسر القوارب ، عبر النهر ، خلال الصيف حصرا ،

والتل الذي يقال ان (سفينة نوح) قد استوت عليه ، وهي في طريقها الى ارارات[٧] • وكان أن نجوت في الاخير ! وما أن اشتريت تمورا وحبلا الا اتّخذت الى (الكلك) سيلي راجعا ، حيث التقيت بكلا كنا الاخير . ونشد ان يفارقني مودّعا ، ذلك انه سيعود الى ديار بكر ماشيا •

وكنت انوي أن اعطيه مدية كنت امتلكها ، لكنه لم ير ان لديه

---

(٧) ما من شك في ان قصة رحلة السفينة غير صحيحة شانها كشان قصة يونس وغيرها من الروايات الاخرى ، التي لا سبيل الى استيعابها ، ومن (الاسرائيليات) اصلا • ان (مؤلف) سر ويليم ويلكوكس في التحري عن المجاري المائية في وادي الفرات سيطير ذكره ، كل مطار ، قريبا • لقد اثبت تقريبا ان طوفان نوح جاء في موسم شاذ فغمر الماء السهول المنبسطة الكائنة في حوض دجلة والفرات الادنى ، وهي منطقة يعمها الفيضان اليوم ، كل سنة ، اطرادا • ان ارارات التي نزل اليها لم تكن الا (أور الكلدان) • وهي تقع على تل يعلو الماء المتبطح الذي يتراءى في موسم الفيضان وكأنه بحر لا حد له • ولا معدى عن ان يظهر التل على مثل هذه الحال بارزا شاخصا • ينضاف الى ذلك كله ، وبرفض أي احتمال لرحلة ارارات ، ان الريح القوية التي تهب وتسود ، هي ريح جرت على ذلك خلال الآف من السنين ، في الربيع ، ومن الجهة الشمالية ، وانها ابقت (نوحا) في الجنوب ، وذلك حتى لو اننا استطعنا ان ننكر الحقيقة القائلة باندفاع الماء جنوبا الى الخليج الفارسي (بالاحرى العربي : المترجم) ،ولم نقل شيئا عن الجبال العاليات في كردستان ، وعن ارمينية بلاد الكلدان وارارات•
(المؤلف)

قلنا : وردت قصة الطوفان في القرآن الكريم من دون تعيين (المواقع) التي كثر الحدس والتخمين بشأنها ، قال تعالى : « حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن ، وما آمن معه الا قليل • وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ، ان ربي لغفور رحيم • وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين • قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين • وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين » • والقرآن الكريم لا يسوق القصص لذاتها وتفصيلاتها وانما للعبرة ، تذكرة وذكرى لكل عبد منيب • وشأن قصة نوح كشأن قصة يونس (عليهما السلام) سواء بسواء (المترجم) •

ما يعادلها قيمة ، فلن يقبل الا حفنة من التمر المجفف ، بادلني بها كمكا مهارة وخبرة وبصيرة ، وكان مقدارها : شلنين .

وفي اليوم الثالث اضيف الى (كلكنا) صفان من (الجربان) وثلاثة من الكلاكين ، وقبل نصف ساعة من الوقت الذي كان مقررا ان نرحل فيه ، مشى ٨ من جنود وحدة عسكرية تركية في خربوط[٨] بهدوء الى الكلك ، وضربوا الكلاك لئلا يحتج على مثل هذا . سيّر هؤلاء المخاليق ، بتصرفهم وبجبنهم الذي ظهر بآخرة ، وبقسوتهم ، النفس منا متقززة متبرمة ، الى حد لو كان عندنا نظر مسبق في حماقتهم وطيشهم وما تسببه لنا ، لغادرنا (الكلك) واتخذنا السبيل من الجزيرة الى الموصل على الاقدام مشيا .

ومهما يكن من أمر ، كنا نحاول اغراءهم على الجلوس بوضع لا يعرض توازن (الكلك) الى خطر ، وعند ذلك مثل رجلان يرتديان البزة الرسمية على السور الخرب ، كما جاء آخر وعليه سيماء الجد الخفي وقال : ان الشرطة تطلبنا . وكان ان تسلق (الحاج) و (التاجر العربي) و (الجندي) و (أنا) السور ، فأمرنا بصلافة بان نبرز جوازاتنا . وما كان لدى الآخرين جوازاتهم ، لكن جوازي كان معي حاضرا ، فابرزته ، وانا آمل ان تسير الامور على ما سارت عليه في ديار بكر رخاءا .

وما كان ذلك هو الواقع ابدا ، ذلك ان الشرطي قرأ كل ما ورد فيه ، ثم انثنى الي بحدة وقال : لقد سرقت جواز سفر سائح انكليزي ، واني ، على ما هو جلي ، شرقي ، والا فلم هذا الاسلوب في السفر ، وهذا اللباس والمعرفة بالكردية هذه . وكان احتجاجي على ذلك كله

---

(٨) تقوم على سفح تل مخروطي الشكل ، وقد شهد موقعها معارك طاحنة بين الرومان والفرس لانها كانت تقع على حد الامبراطوريتين ، وكان سكانها في ايام (الكتاب) في الدرجة الاولى من الارمن الذين شهروا بصناعة النحاس والحديد والفضة .

(المترجم)

عبثا من دون جدوى . ثم سألني عن أسمي ، وهنا سمعت صوت (الحاج) ، وقد ملئت رعبا ، يجيب ، اثر وصوله توا :

« هذا موسى افندي ، ماجد فارسي ، واشهد : انه صديق وزميل حسن جدا ، وانه رفيق طيب ، ومسلم صادق مؤمن » .

ولف الشرطي جواز السفر ، وعليه سيماء الانتصار ، وأمر رجليه بان يقوداني الى دائرة الشرطة . وانتابت على الحال فكرة ، جاءت على حين غرة . فلقد هتفت : « اني من الرعايا البريطانيين ، فان مسستني بسوء فانك تسكب لنفسك خطرا : حمدا لله لدينا قنصل في الموصل هو بانتظاري . فان لم اصل فسيدفع الشيطان الحساب » .

وشاع في القلب حبور حين دعم الجواز العبارة الدالة على الرعوية البريطانية . ثم بدر الشرطي وقال : ولا يخامره شك في اني مسلم ، « اذن لم لا تحمل اسما محمديا ؟ فانت موصوف بـ (بروتستانتي) ؟ والكل يعلم انه نوع من النصراني ؟ » .

وكان أن أنقذتني أضعف خدعة ، ولعلهم شكوا في حقيقة التفصيلات المدونة في الجواز أيضا .

وقلت : « بقدر تعلق الامر بالاسم ، ان القانون الانكليزي لايعترف الا بالاسم الاول ، فان كنت من أهل الموصل ، الا تسمى (مصلاوي) اينما تكون ؟ الا يسميك الغرباء بـ (المصلاوي) ؟ لذا فانا اعرف باسم (اليسن) ، وهذا هو اسم موطني . وبقدر تعلق الامر بما يؤكده (الحاج) من اني فارسي ، انه الحق ، اليس ثمة الآف من الفرس ولدوا رعايا بريطانيين ؟ والله وحده يعلم لم وصفني ذلك الارمني الكافر ، كاتب دائرة جوازات السفر في اصطنبول ، بـ (بروتستانتي) ، ولعله رآني من الرعايا البريطانيين ، والشعب البريطاني كله بروتستانتي ، فحسبني من هذا المذهب ايضا .

كان الشرطي الرئيس يرى ذلك كله غريبا ، لكنني حصلت على

عون غير مترقب من مساعده ، والظاهر انه ممن ذهبوا الى القسطنطينية ، ولتوضيح الحقيقية اكد انه يعرف جيدا العادات الإنكليزية ، وقوانين الانكليز وان ما قلته محتمل تماما . وكانت عند (مهاجمي) ، والبقية صامتة الآن تقريبا ، ضربة اخرى باقية ، ولعلها ، على الجلي ، ورقة اللعب التي يريد كشفها ، فلقد رفع عقيرته بانتظام قائلا :

« ان كنت انكليزيا بالتبعية ، فابرز جوازك الانكليزي اذن ! »

وفعلت ذلك ، وفي صمت مطبق أخرج المستند الذي كان يترامى جبارا ، فاتجاني . ومن دون اية كلمة اخرى اعيدت الي (التذكرة) التركية ، ولما كان شعور بالنصر المضاعف يخامرني الآن ، لأني استطعت ان اخفي العادات اللغوية التي اتخذتها ، والى حد التمام تقريبا ، واني ، في الوقت نفسه ، استطعت ان اعرض على انظار حشد من الاتراك ، الشرسين الاوغاد ، بان ارعابي لا يؤدي الى ابتزاز المال مني ، وهو ما كان (الشرطي) يهدف اليه حصرا .

وبعد نصف ساعة ، جاء (الحاج) و (التاجر العربي) ، وهما يكيلان الشتائم للاتراك كيلا . فلقد كان لدى العجوز جواز سفر أعطي له عندما ترك الجيش قبل ٣٥ سنة ، ايام السلطان عبدالعزيز ، وقد اجبر على دفع (مجيدي) لأنه على هذه الحال من القدم . وكان لدى (العربي) مثله ، فالزم على دفع المبلغ نفسه .

وبشعور من الارتياح العظيم ، لم يعكره حتى وجود الجنود العثمانيه ، انطلق بنا (الكلك) فبدأنا رحلتنا الى الموصل .

ولا معدى عن كلمات قليلة تتصل بـ (الجزيرة) . لقد حل فيها الرومان امداً طويلا ، وبنوا (قلعتها) . وقبل ذلك صيرها « موقعها » عند سلسلة جبال (ماسيوس Masius) ذات شأن عريض ، باعتدادها « مركزا خارجيا » لـ (نينوى) ، ايام الآشوريين ، وبقيت لها اهميتها هذه حتى عهد قريب جدا . وما ان اطبق عليها النفوذ التركي الا اجهـر

عليها، ومرّ منها ، وهو يمضي جنوبا ، ذو الطالع النكد المدّعي : (مهرجاتس) في سنة ٤٩ للميلاد • وبعد قرن من ذلك جعلها (الامبراطور تراجان) مستودعا للخشب المقطوع في الجبال ، والذي كان يصطنع في بناء سفن الحملة على بابل ، وهي ، عهدئذ ، بيد الفرث • وقيل لنا انها قاست على يد الكرد المتوحشين كثيرا ، ثم غدت بآخرة مسرحا لكثير من المعارك الدامية • ودأب خانات (قبيلة حكاري) الكردية العظيمة ، على امتلاكهـ وحكمها وكانت ابان حكمهم مركزا كلدانيا • وفي عالم الادب الشرقي يقال انها مسقط رأس (ابن الاثير) ، وهو مؤرخ عربي عظيم ، ولد فيها بسنة ١٢٣٠ للميلاد • ويشتهر أهلها اليوم ، وهم اخلاط من الناس ، بالشقاوة والكيد وحالهم فوضى لاغطه •

هنا يأخذ السهل العظيم ، بالتقطّع ، بين حين وحين ، بتلال لا حظ لها من خطر • وأخيرا ، وفي أسفل سلسلة جبال سنجار ، جنوبي الموصل ، يهوي الى صعيد سهل بلاد ما بين النهرين ، وهو سهل لا تعكّره حتى رابية ، ممتدة حتى الخليج الفارسي (بالأحرى العربي : المترجم) •

تقطع الرحلة من الجزيرة ، ابان الربيع ، في غضون يومين عادة ، لكننا لم نكن ذوي طالع حسن في هذا • لقد كان (كلكنا) في الانسياب ، ثقيلا جدا ، كما كان ذا سطح وسيع معرّض للريح ، وبعد يوم من مغادرتنا الجزيرة هبّ نسيم قوي قذف بنا الى ضفة النهر • لقد اصطدمنا فحدث من جراء ذلك دوي سببه تكسّر جذوع الشجر ، كما انبطّت[9] بعض الجلود • ان ضررا خطيرا لم يحدث حقـــا ، لكنه كان ، بالنسبة للعسكر ، كافيا • لقد انهالوا ، بصوت واحد ، بالشتائم على النهر وعلى الريح ، واندفعوا الى حافة (الكلك) القريبة من سيف النهر ، وعلى الرغم من انه كان يرتفع بـ ٥ أقدام (وكنا نمرّ منه بسرعة فائقة) فلقد قفزوا اليه مخلّفين المعاطف والاحذية والطعام ظهريا • وبشق الانفس نجا الثان

---

(٩) ابط يعني شق وهي عندنا من العامي الفصيح •
(المترجم)

او ثلاثة منهم فلم يكونوا من المغرقين ، وغطس كلهم بالماء ، وكان بيرودء الجليد ، جزئيا • وبالزحف الى اعلى حاولوا السير في اعقابنا ، كما ارتفع زعيقهم منادين علينا بالوقوف ــ وهم يحسبون في خيالهم الضال ان ذلك كان ممكنا ــ لكن السرعة التي كنا ننطلق بها سرعان ما جعلتهم على يقين من عدم جدوى الاسراع ، لذلك كفّوا عن ذلك وخلّفوا واقفين في القفر اليباب ، ينهالون علينا بهجر القول والسباب •

••• واصطدمنا باليابسة

وما خرجنا من ذلك كله من دون ضرر تماما • فلقد تحطّمت أحدى زوايا الكلك تحطيما ، وأدّى فقدان القِرَب الى أن يغطس جزء عظيم منه تحت الماء • ينضاف الى ذلك ان « حاكم المجناف »[10] قد خرج من مكانه فصيّر الجذف عسيرا مصرا • واسوأ من ذلك كله غدا التيار قويا جدا ، ولم نستطع ايجاد مكان ماؤه رخي يسمح بالارساء • والى ان غربت الشمس كان علينا ان نمضي قُدما • وعند ذلك جاء تيار جانبي ، لحسن الحظ ــ وكنا نحاول جهدنا الجذف فيه خطلا ــ فقادنا الى ركن هو أشبه بالبركة الهادئة فشددنا الكلك الى الضفة ، قبالة المكان الذي خلّف فيه الجند ظهريا •

وقضينا الليلة كلها في اصلاح ما تضرر وكنا نشارك في النزول الى الماء ونقل الاكياس الثقيلة المليئة بالمشمش المتنفخ كالاسفنج الى الشاطيء ، تعبين مجهدين ، لكننا كنا آملين بلــوغ الموصل عصر ذلك اليوم عينه سالمين • ورحلنا ، لكن تيارا جانبيا خارق القوة امسك بنا وقذف بنا الى صخرة ، وكان التيار يرتطم بها ويتكسّر مزمجرا • لقد اندفع التيار الى الجانب العريض من الكلك ، فقلب خيمتارآما على عقب ، شأنه شأن (السماور) الذي كان فيه الماء ، لاعداد الشاي ، يغلي • وقفزت أكواب

(١٠) في الاصل (Thole-pin) وهو عبارة عن قطعتين من خشب تثبتان في جانب الكلك يكون بينهما المجذاف حتى لا ينزلق •

(المترجم)

الشاي والصحون ، وما جرى مجراها من أدوات صغار للشواء ، الى مجرى النهر ، كما تدحرجت اليه احدى البالات ، وذهب في اعقابها صندوق لي . وأخذت (القـرَب) تطفوا بعد انفلاتها ، وتحطّم أخشاب الكلك . لكننا كنا نسير من دون ان نستطيع الى المقاومة سبيلا ، ونحن غرقى تقريبا . وكان رجال (الكلك) ، والمسافرون مشغولين بانقاذ ما يمكن انقـــاذه من الاحمال ، وهي تهدّد بالتدحرج على ظهر الكلك . واستحال الجذف ، ذلك ان احد المجاذيف قد اصيب بضرّ ، وما كان في مكنتنا الا الجلوس وانتظار الصدمة المحطّمة التالية ، وكنا على يقين من مجيئها ، آملـين ان تكون في ماء ضحضاح غير ذي غور .

ونجونا من ذلك أيضا ، اذ بينما كنا نتقرّب من الشاطيء ، خطر ببال (الكلاك) ان يسبح اليه ومعه حبل ، فالمسافة لم تكن لتزيد على نحو ٥٠ ياردة . وما كانت قوة رجل واحد او رجلين بكافية ، لذلك قـسم ثلاثة منا ، الكلاّكان واناا ، فخلعنا ملابسنا واخذنا الحبل ، من دون ان آبه لاحتجاج علي ما كنت افعل ، لأنه كان يرى ان ذلك لا يليق بافندي ، كما انه كان يعجب كيف ان شخصا ذا خطـــر نسبي مثلي ينتظر منه أن يقوم بمثل هذا ، في حالة طارئة كهذه . واستطعنا أن نحصل على موطيء قدم على بعد نحو ١٠ ياردات من الشاطيء ، وعلى الرغم من اننا كنا نسحب قُدما ، استطعنا أن نجرّ الكلك ونربطه أخيرا .

وعملنا طوال اليوم كله ، نفرّغ الكلك ونصلحه ثم نعيد تحميله ، ولا يقف في سبيلنا الا الجنود الذين جاؤوا ورفضوا ان يمدوا لنا عونا ، وكادوا يضربوا (الكلاّك) لو لم نتدخل بينه وبينهم .

وأخيرا ، وبعد أن أتهمونا بسرقة أحد الاحذية ، وكان قد سقط من ظهر الكلك ، اخذوا يتبادلون اللكمات ، ولما طمأناهم باننا سنقضي ثلاثة أيام أخر في اصلاح الكلك غادرونا الى الموصل يكيلون لنا اللعنات والسباب .

ووصلنا الموصل في اليوم التالي مجهدين ، وكلكنا غاطس . وبعد ساعة او ساعتين من مشاهدة اول بساتينها مررنا بعين الكبريت وسور المدينة القديم واتجهنا الى المرسى الاسفل فوق الجسر المؤلّف من حجر ومن قوارب . وناديناالحمالين واتخذنا السيل (الا) و (الحاج) الى خان في السوق ، حيث حللنا فيه بعد سفرة استغرقت ، من ديار بكر ، ١٢ يوما .

الفصل الخامس

الموصل ، المدن الآشورية ، واليزيدية

من السداد ، لدى الكتابة عن الموصل ، على ما أرى ، أن يطنب في عراقة نينوى ، لكن ما كتب في الموضوع كثير ، منـذ أن أزاح (لايرد) النقاب عن أطلالها ، وجيد ، لذا فان أية محاولة ، في مثل هذا المقام ، تصب في هذا الباب لا تعدو أن تكون ضربا من الاقحام . يكفي أن نقول : ان حول الموصل ، المدينة الحديثة القائمة قبالة نينوى القديمة ، عاصمة آشور في يوم ما ، توجد البقية الباقية من (نِيْنَوى) ، قديمها وحديثها ، على حين توجد بمقربة : كالح ، وآشور[1] ، والحضر[2] ، وخرسا باد[3] (دارشاروكين) ، التي يقوم بالتنقيب فيها الالمان النشـطون ، ذوو الهمة ، وينشرون ، في كل سنة ، سردا مصورا ممتازا عما يفعلون .

---

(١) اقدم العواصم الآشورية ، وتعرف خرائبها اليوم بقلعة شرقاط ، واسم (شرقاط) لا يعرف معناه على التحقيق ولعله من اسم آشوري قديم مركب من لفظين احدهما (شرو) أي الملك ، كما ان من المحتمل ان معنى الاسم (القلعة الشرقية) : (المترجم) .

(٢) كتبها المؤلف Hadra وهي الحضـر ، وتبعـد خرائبها نحو ٣ كيلومترات من الضفة الغربية لوادي الثرثار . والمرجح انها اسست في مطلع القرن الاول للميلاد . وقد حكمت فيها سلالة عربية لمدة ٣ اقرن كانت موالية للفرث في المدائن . وأول حكامها ، على ما نسترجح هو أمير عربي اسمه (سنطروق) المسمى (ملك العرب) ، واسم ابيه (نصر) : الكاهن الاعظم . ولعله هو الذي شيد معظم بنايات الحضر . (المترجم)

(٣) خرائبها على بعد ١٨كم من الموصل وعلى الطـريق المؤدية الى قضاء الشيخان . اسـمها الملك الاشوري (سرجون الثاني ٧٢١ـ٧٠٥ ق.م) وسماها (دور شروكين) أي (مدينة) أو (حصن سرجون) بعد ان ترك العواصم الآشورية الثلاث الاخرى : نينوى وكالح وآشور . (المترجم) .

ويطلع أهل الموصـــل ، المسافر ، اليوم ، على (جامع النبي يونس) ومنارته ، وقد شيد في العصـــر المحمدي على يد المسلمين ، وهم الذين عنوا موقعه بموقع نينوى .

ويجل المسلمون واليهود والنصارى ، (المزار) ، على حد سواء ، اجلالا كبيرا ، على ان النصارى واليهود لا يسمح لهم بالدخول اليه أبدا . والجميع يؤمنون بالقصة ، المتواترة محليـا ، ايمانا أعمى ، قـد يهتز له المتشككون المحدثون هزا . ومن نكد الطالع أن يؤمن في مثل هذه الايام ، أيام الخوارق المفسرة في (سمكة يونس) ، وهي اما انها تزحلقت عبر اليابسة أو على ما يلحظ (فريزر) ، أن تكون سمكة ماهرة بحيث استطاعت أن تعبر مسافة ٢٠،٠٠٠ من الاميال .... في ثلاثة أيام ليلا ونهارا ، وما لم تكن السمكة ، على مايذهب اليه بحصافة ... ، وعلى ماتقول الكتب المقدسة ، مؤهلة تأهيلا خاصـا ، أو لعلهـا كانت مخدرة Doped على ما تسمى في أمريكة . .

ان التوراة ، بغموضها الواقي الذي لا يفارق دائما قصصها الاكثر عجبا ، تروي ان يونس ركب من (طرشيش) . وطرشيش هو الاسم الفينيقي لاسبانية ، وهي الاتجاه الحق الذي يهرب فيه يونس الـكاره ، ويتفادى بذلك الرحلة الصحراوية المتعبة الى نينوى . لم تخبر الى أي مدى ذهبوا حين هب الاعصار ، ولكن ليس ثمة سبب ، على ما يتراءى ، لعدم الاخذ بالزعم القائل بأن ذلك حدث حالا ، وان الاعصار اكتسح السفينة وعاد بها الى الشاطىء السوري ، حيث نزل يونس ، على ما يحتمل ، الى البر ، ان أغفلنا شأن السمكة نفسها . ان السمكة ، على التحقيق ، ولسوء الحظ ، تتسم باثبات الذات ، وان صنيعها العجيب في نقل يونس الى نقطة تبعد عن نينوى مسافة ثلاثة أيام لا يمكن أن يفسر الا بتكتب من خطر عظيم ، على ما يذهب اليه (فريزر)(٤) . يضاف الى ذلك ، ان

(٤) راجع : David Frazer: The Short Cut to India
(المؤلف)

دجلة ليس بضيق ، فوق تكريت حتى بالنسبة للكواسج ، وهي على مبعدة أميال عديدة من بغداد •

ومهمايكن من أمر، فانتفسير ماهو صالح ، هو كتفسيرغيرالصالح، سواء بسواء ، وذلك كله بالنسبة الى تأريخ توراتي • ويتراءى ان من المعقول أن يزعم بأن يونس ، وقد وجد نفسه في سورية ، كرة اخرى ، وبعد تحطّم السفينة به ، اتخذ السبيل الى نينوى ، في رحلة لا معدى عن انه استغرق في قطعها مدة تتراوح بين ٢٠ ـ ٤٠ يوما •

وهنا ، لو قبلنا النظرية التي سلف القول عليها ، سنجبه بصنيع رائع آخر في باب السفر ، ذلك ان « نينوى كانت مدينة ممتازة عظيمة تقطع في رحلة تستغرق ثلاثة أيام » ، وقد فسّر ذلك بأن نينوى كانت على مبعدة ثلاثة أيام من المكان الذي تقيأت فيه السمكة يونس •

ولكن ثمة حقيقة حرية بالذكر هي : ان عظمة المدينة تروى ، وتنقل، بسعة ، وتقاس من مكان ما ، وهذا يدعم نظرية نأخذ بهـا ها هنا ، بتواضع جدا •

ان من لم يحط بالعامية الشرقية خُبْرا لا يؤمّل منه أن يعرف ان في بلاد يُسافر فيها بالجمال والبغال ، تمتد وحدة السفر : يوما واحدا • ولما كانت الاميال والفرلونكات معدومة الوجود ـ والفرسخ مقياس فارسي وليس بعربي ـ فان يوما واحدا يعني نحو ٢٠ ميلا • أليس من المعقول أن نقول ـ ولا ننسى ان اسم المدينة ينطوي على ما حولها من الاراضي المزروعة ـ « ان نينوى كانت مدينة عظيمة جدا ، امتدادها : ٦٠ ميلا ؟ أي ان ذلك يضم الاراضي المرويّة ، وحولها ، كانت ، وليس على ماهي عليه اليوم ، صحراء لا ماء فيها •

فالآية الآتية تقرأ على الوجه السديد ، اذن ،[٥] أخذ يونس يدخل المدينة في رحلة تستغرق يوما ، لقد شرع يدخل الارضين المزدرعة ،

---

(٥) سفر يونان (٣/٣) (المؤلف) •

وبعرض كون المدينة في المركز ، فانه بالغها في اليوم التـــالي ، فلو كان يونس ، على ما قيل لنا ، لا يزال على بعد يومين من نينوى حين تنبـــأ ونادي : « أربعين يوما باقية .... » وما الى ذلك ، فان النتيجة الجلية تكرّم يونس بصوت عظيم الغاية ، ولعل ثمة مراسلة تحمل كلامه مسبقا ، أو ان لا معدى عن أن تصوّره شخصا ينادي في البرية حقا .

وعلى كل حال لو زعمنا انه اخترق الحقول والمزارع ، لمدة يوم واحد ، لبلغ المدينة في صباح اليوم التـــالي ، ولوقعت صرخته في آذان سكان المدينة ، بالطبع ، مباشرة[٦] .

وثمة ملمح في المسألة كلها هو ان اسم (يونس) غير مذكور في جميع النصب الآشورية ، اذ لا معدى عن أن يذكر من قبل اولئـــك المؤرّخين الواعين ، حكام آشور ، لو استطاع الحصول على خطر ، أمام مالك نينوى ، وعلى ما هو مذكور في سفر يونان (٣/٦) .

ومهما يكن الأمر الذي يتوصل اليه في هذه (القصة) ، فان ذلك النبي نابه الذكر ، والذي أفصح عن مزاح يدعو الى الرثاء في أثناء تقدمه على نينوى ، يتمتع باحترام أهل الموصل الصالحين واعجابهم . وفي سنة ٨٠٠ للميلاد أوحت لهم القصة المذكورة في الانجيل والتوراة والقرآن ، على حد سواء ، تشييد الجامع الحالي .

---

(٦) يذكر الاستاذ (راكوزن) في مؤلفه الممتاز في تاريخ (آشور) تفسيرا محتملا لـ (السمكة) ، لو قبل لحسم أمر هذه القصة العسيرة كليا . انه يقول : « ان هذه الاسطورة التي تقوم عقبة في طريقة قراءة ذكية للسفر كله ، تغدو جلية ، على ما هو غير مرتقب ، الى ابعد حد ، وبالنسبة الى غموضها الحالي الذي لا سبيل الى اجتلائه ، حين تعلمنـــا الاساطير الاشورية ان اسم « المدينة العظمى » الاشورى هو (نينوى) وهي كلمة تشبه كثيرا كلمة (نونو) التي تعني « سمكة » . والصلة ، بالاضافة الى ذلك ، يدل عليها اقدم اشارة تبين الاسم كتابة ، وهي جمع سطور او اسافين تمثل ، على الوجه اللاحب ، سمكة في حوض او خزان .. ان السمكة الكبيرة التي التقمت (يونس) ليست الا (المدينة السمكة) نفسها حيث اكتنفته فيها ، على التحقيق ، اخطار حملته على ان ينادى طالبا الانقاذ . (المؤلف)

ان أهل الموصـــل ، والنصارى منهم بخاصة ، جـد فخورين بـ (مدينتهم) وعراقة ما حولها . ويعدّ النصارى أنفسهم المنحـــدرين المباشرين من حكام آشور العظام ، ويتّخذون سيماء الطاغية بازاء الأرمن العوام (كذا : المترجم) في صلاتهم ، وهو أمر ، على ما أرى ، لا ينكره من يعرف (الرّسين) حقا .

ان الموصل نفسها ، وهي على تلّتهـــا وما حوله ، مدينـــة قذرة ومتناثرة ، توحي الى الزائر الحديث باحترام الى عراقتها الظاهرة ، ولا تقل عن ذلك شأنا روائحها العجب . واني لأذكر انيّ لحظت ظاهرة أشد ما تكون مسرّة وتتّصل بالترتيبات البلدية ، اذ انها تهيىء نوعا من البرك في احدى الشوارع الرئيسة تُرمى فيها محتويات الكنف تفريغا . ولا تدّعي عـلى غـرار مـا تدعيـه مدينـة أصـغر منهـا شـأنا . انهـــا لم تصبح نابهة الشأن الاّ في العصر المحمدي حين تبوّأت في اقتصاديات بلاد ما بين النهرين مقاما .

يذكر مؤرّخ فارسي وبلداني فارسي محدث : الحاج زين العابدين شيرواني الملاحظة التالية بشأن الموصل ، في مؤلّفه الموسوم (بســـتان السياحة) ص : ٥٦٩ : « الرأي الشائع ان أول من بناها هو (سويد بن سودة) وسميت في الفارسية : (اردشير) . وبعد الاسلام هاجمها عرب حمير واستولوا عليها ، وبنوا فيها بنًى من حجر ، وســـورا يحميها ، وأجروا الماء اليها وغرسوا بساتين فيها . »

ان ما تفخر به ، باعتدادها مدينة عربية ، هو عدم وجود مدوّنة تقول انها سقطت في أيدي الفرس ، وهي حقيقة ، على ما يظهر ، لا يتطرّق الشك اليها . ولكن يجب أن يُتذكّر ان الفرس ، عندما امتلكوا هذه الارضين ، كانت الموصل ، ان وجدت اواتئذ حقا ، مكانا على حظ قليل من خطـــر .

ان أشدّ مَنْ يوهن من شأنها اليوم لا يستطيع أن يقول هذا .

فعلى الرغم من القذارة ، وضعة أسواقهـا ، وجوها غير المستحب ، والاتراك ، هي مكان عال حظ كبير من خطر ، آهلـة بالسكان ، تبلغ عدتهم ٩٠٠٠٠ نسمة[٧] على تعداد أخير موثوق به • ولو كانت الغـاية من هذا (الكتاب) الكلام في التجارة ، لأمكن التطرق الى صناعة الجلود فيها ، وصناعة ورق السكائر ، وتجاريها والبنائين فيها • ويحق للنصارى أن يقولوا ان مرد ما لها من أهمية تجارية الى جهودهم ، والى جهودهم حصـرا •

ومن بين جميع مدن سورية وبلاد ما بين النهرين ، يتمتع النصارى فيها بحرية وهم بمنجاة من الاضطهاد ، وعلى الوجه الذي يتمتع به بنو جلدتهم الذين اضطروا (كذا : المترجم) الى السكن مع المسلمين ، جنبا الى جنب • انهم يردون هذه المزية ، والحـال المستحبة ، الى ان المسلمين والنصارى عرب في الاحساس واللغة، وفوق كل شيء هم يرتبطون برابطة التساكن في مدينة ، وهي رابطة قوية في الغالب ، وملمح تراص في مدن الشرق المنعزلة • على كل الاحوال ، ان الذي يدعم هذا الزعم هو هذه الصيانة من التحرش التي تمتعوا بها ابان المذابح التي مني بها النصارى ، خلال القرنين الأخيرين •

انهم ليؤكدون بأن الأتـراك ، في احـدى المرات ، حاولوا حمل المسلمين القاطنين في المناطق المجاورة على الدخـول الى المدينة وذبح النصارى ، وبذلوا قصارى جهدهم في سبيل استفزاز أهل المـدن من

---

(٧) لايعرف، على التحقيق متى بنيت الموصل• وذكر زينفون (٤٠١ ق•م) اسم (مسبلا) ولعلها كانت في موقع اسمه آشوري النجار (مشبالو) الذي يعني المدينة الخفيضة • ولقد تم فتح الموصل في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٢٠ للهجرة) وعرفت الموصل بأسماء مختلفة في أيام الساسانيين منها (نو – اردشير) أو (بوار دشير) ، وسماها النصارى القدامى الذين كانوا يحلون فيها باسم (حصن عبرايا) • وتلقب الموصل ب (أم الربيعين) و (الحدباء) و (الفيحاء) و (الخضراء) ، وعدة نفوسها (احصاء سنة ١٩٥٧) ١٧٩٦٤٦ نسمة ولا معدى عن زيادة كبيرة طرأت عليها من ذلك التاريخ • (المترجم)

المسلمين لمدّ يد العون في المذبحة المرتقبة ، لكن ماسعوا اليه لم يلق اذنا صاغية ، كما انهم أُنذروا بأن أيـــة محاولات من هذا القبيل ستجعل المسلمين والنصارى يقفون جنبا الى جنب ، صفا صفا ٠

الموصـــل

واليوم ، اذ يجرى الحفاظ على الموصل مستتبة الأمن ، وليس القتل في الشوارع الا من الحوادث الاسبوعية حسب ، هي مليئة بالاتراك الذين ينشدون في المدينة مستقرا ٠ لا يستطيع الأكراد المعادون ، ولا الاعراب ، المساس بكرامة التركي ، وان احتقروه ، ولا تعريض ذاته الى خطر ما ، وان كانوا يحملون بندقياتهم العتيدة دواما ٠ ولغة (الموقع) هي العربية ، والتركية فيه مفهومة ، شأنها كشأن الكردية ٠ ذلك ان كردستان ليست منه ببعيدة ٠ وان الشخصيات المتبدّية التي يقابلها المرء في الاسواق ، أحيانا ، لتدلّ على ان القبائل قريبة ٠

ان سوء الحكم وخضوع البلاد الى اضطراب ما له من فَوَاق ، كل اولئك حدّ من قيام الناس بمحاولة تشييد بنًى مستدامة ٠ ونتيجة ذلك هي : ان كل سوق ، أو مسجد ، أو خان ، هو اليوم أخربة وركام ٠ وفي الحق ان الموصل تتراءى للغريب مدينة قذرة ، وعلى حافة التداعي ٠ ولو جاوزها المرء قليلا نفدا في بيداء ما بين النهرين ، وتراءت له الموصل فيها تلا في صحراء وعلى غرار ما شُهرت به لدى الشعوب الغربيـــه ، باعتدادها مدينة مطمورة في برية قاصية قاسية ٠ ولو تقرّبت منها من أيه جنبة ، فيما خلا ديار بكر ، ونهرا ، لوجب عليك أن تقطع ، في أيام عدّة ، طريقا صحراويا ينعدم المـــاء فيه كليا ٠ وليس من أرض خصبة الا في الجنوب ــ الشرقي ، وهذا يجعل المرء يدرك : لِمَ قامت بلاد آشور الحقّة في هذه الجهة ٠ واليوم تؤلف جبال زاغروس البعيدة ، وأكرادها المجهولون المرعبون عقبة كؤودا ، وعلى غرار ما عرفهم الناس القدامى حقا ، وهم الذين كنت أروم أن أتخذ اليهم سبيلا ٠

وكان أن حللنا في غرفة فوقانية من (خان) يدعى (حمد قدّو) ، ولما كانت سبلنا واحدة ، وحتى اربيل في الأقل ، فلقد قرّ رأينا على أن نداوم على الرحلة معا . لكن (الحاج) وجد له ابنَ عم ، سحبه الى بيته ، لذلك حسمنا أمر حساباتنا ، وافترقنا . وتراءى ان الرجل الكبير يعطف عليّ ، خلال الرحلة ، عطفا كبيرا . قال : « لم يكن لي ابن في يوم ما ، اذ انني لم أتزوج أبدا ، فالنساء همُّ يحرق » . وأحسست وقدة بين ضلوعه ، اذ اشتعل الرأس منه شيباء فأنا أدرك معنى أن يكون للمرء ولد ، وألعن انضاد بازاء قوانين الله التي يجب ألاّ تخرق ، ثم انه استعبر ، مديدة ، وبكى وطرح من الدمع ثقلا . ثم احتضنني ... ومضى .

وما أن خُلّفت وحدي في غرفتي المبنية بالصخر الاّ شرعت أفكر في ايجاد أحد (البغّالة) ليحملني الى السليمانية ، ولما كانت (المقهى) هي « وسيط الاعلان » في الشرق ، لذا إتخذت سبيلي اليها متحرّياً عن (بغّال : قاطرجي) ـ على ما يدعوه الاتراك . وكان أن وجدت نفسي غارقا في خضمّ السياسة البلدية ، ثم كانت خاتمة القصة انهم اتجهوا الى حاجتي لبغـــل .

في الموصل نفر من أهل السليمانية يعملون في التجارة ، بالاضافة الى غيرهم من الناس الذين يسافرون في الشرق من بلد الى بلد شغفا ، على ما يظهر ، بالسفر ذاته . وثمة جنود عـــدّة أيضا ـ وهم مخاليق مجردون من أي نوع من أنواع ضبط النفس ، وحسن السلوك وسمو الاخلاق . انهم لعنة تحلّ في أي مكان يلوثونه بوجودهم . وكان أن تعالت جَلَبة مبعثها اعتـــداء جنـــدي ثَمِل على امرأة كردية من أهل السليمانية . ولما كان الدم الكردي ، وحتى دم أهل السليمانية منه ، وهو متلف ، جارا ، فلقد غلى وقُتل من أهل الموصل ، بنتيجة ذلك ، خلق كبير .

ان قوانين هذه الارجاء ، وهي بدائية ، تجعل الثأر للدم المسفوك

في المقام الاسنى • وقد كان ذلك هاهنا كافيا لجعل المدينتين تنطويان على الرغبة في الثأر سنين طوالا • وما كان أحد من أهل الموصل ليجسر على الشخوص الى السليمانية ، وما كان أحد من أهل السليمانية ليجسر على الظهور في الموصل ، سواء بسواء ، وان كان هو أسلم في مدينة يسودها الأمن والنظام مما يحول دون قتله ، فيما خلا ما قد يحدث تحت ظروف استفزازية •

ينضاف الى ذلك كله ، وحتى في حالة عدم وجود هذه العقبـ القائمة في سبيل الاتصال الحر ، ان ثمة قبيلة كردية تدعى (الهماوند)[٨] عمدت الى قطع جميع المواصلات على طريق السليمانية ، وقتل جميـــع الذين حاولوا اجتيازه ، وسلبهم •

هذا هو السبب في انني لم أستطع الحصول ، لا على بغل ولا على بغل ، وكان علي أن اجبه أمر البقاء في الموصل الى ما لا نهاية له • وما كنت بمستطيع أن أحمل نفسي على هذا ، لذلك أخذت أسعى الى طريقة أستطيع بها بلوغ السليمانية عن طريق اخرى •

وأمضيت يومين اثنين عاطلا ، أقضي الوقت في غرفتي وفي المقهى • وتيسّر أمر الطعام عن طريق التمر الممتاز وقيمر الجاموس الموجودين في السوق • وعليهما ، وعلى الخبز ، عشت ، وأنا لا أرغب فيما يفضلهما •

وفي صباح اليوم الثالث تيسّر ثلاثة أو أربعة من التركمان ، أهل كركوك[٩] ، وحاولوا حملي على استئجار (بغّال) الى ذلك الموقع ، وهو

---

(٨) موطنها (بازيان) وهي قبيلة باسلة وقد اقلقت بال كل من الحكومتين : العثمانية والايرانية في تلكم الايام • وعجز حتى والي بغداد المشهور المصلح (مدحت باشا) عن تأديبها ، وكانوا قدموا العراق من ايران سنة ١٧٠٠ للميلاد • (المترجم) •

(٩) اسمها في السومرية ، على ما نسترجع : (كنكهار) وفي اللغتين : البابلية والاشورية (ارابخا) ، وفي الارامية (كرخ سلوخ) ، وفي الاغريقية (ارانجيوش) ، وعند الكتاب العرب (خرخيني) ، وورد على لسان بطليموس (كرخورا :Gor-Khora) أو (كوركورا Kor-Kora) ، وهذا يفسر أصل اسمها الحالي : كركوك • (المترجم) •

كائن في منتصف المسافة الى السليمانية • انهم رجال ذوو جزم كبير وخشونة ، كالأكراد تقريبا ، ويتكلمون الكردية بطلاقة • ولقد تبسّطوا في الحديث بشأن أخطار الطرق الاخرى واستحالة الذهاب الى السليمانية عن سبيل (كويسنجق)[١٠] ، وحيث كنت أعلّق عليها في أمر الرحيل أملا • انهم لن يجودوا عليّ بواسطة نقـــل الى السليمانية ، لكنهم يتعهّدون بايجاد البغال ان ذهبت • انه لاتفاق آمن بالنسبة اليهم لو رضيت به • لكنني صممّت على الانتظار لمدة أطول ، وكان يدور في خلدي انهم لو وجدوا الاحمال نزرة قليلة لوافقوا على أخذي على الطريق كله •

وكانت عاقبة صبري الجميل ، جميلا ، ولم يكن ذلك على ما كنت آمل • ففي عصر ذلك اليوم عينه وبينا كنت عائدا من المقهى ، ناداني شخص تبدو على محيّاه امارات الأسى ، وتبيّن انه من أهل السليمانيه ، وبغّال أيضا • وتراءى ان قد اتفق معه على الاتيان بتاجر من هذا المكان • لقد جعل (التاجر) هذا من نفسه شخصا مكروها من السكان بحيث كان يفضل أخطار الموصل على أخطار السليمانية • وكان (البغّال) ، على عدم تعرّضه لخطر حقيقي ، متوتّر الاعصاب من بقائه في الموصل ، ولما كانت جميع ضروب التجارة متوقّفة بين المكانين ، فما كان يأمل الحصول على أحمال • ان جميع هذه الاعتبارات صيّرته على مثل هذا الاطار الفكري وجعلته على استعداد للرحيل في أي وقت ، وقبول أربعـــة مجيديات ، (نحو ١٣ شلنا وأربعة بنسات) ، أجـــرا على رحلة تستغرق ستة أيام معدودات •

وعلى ذلك دفعت مقدّم أجره ، مجيديا ، وختمت الاتفاق بـ (استكان) شاي في المقهى • وأنكر التركمان نوعمّا هذا الاتفاق ، عندما سمعوا به ، وتنبأوا بوقوع جميع المحن والرزايا ، لا سيما السرقة والقتل على يـد (الهماوند) ، وأقسموا على اننا لن نستطيع اجتياز موطنهم أبدا •

---

(١٠) تقع على السفح الجنوبي لجبل (هيبت سلطان داغ) البالغ ارتفاعه ٣٩٥٨ قدما • (المترجم)

ومهما تكن من حال ، لقد فصلنا فيما بعد الظهر من اليوم التالي .
وكانت البغال على الجهة المقابلة من النهر ، لذا وجب على الحمّالين نقل المتاع ، عبر الجسر المحمول على قوارب وامتداده الصخر ، حتى الشاطىء المنبسط الكائن على الجانب الآخر ، حيث تكدّس الاحمال بانتظار البغال القادمة من (كركوك) و (كوي سنجق) . وظهرت البغال هذه في نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر ، فرحلنا . وكان حصاني يحمل صندوقين ، يتدلى كل منهما على جانب من جانبيه ، ولقد وضع عليهما فراش ، وربط الكل بحزام طويل . وكان أن اعتليت ذلك كله وخبرت ، مرة اخرى ، مباهج الجلوس على فراش منحدر طوله نصف ياردة ، نفذت منه عقدات سرج الحمل جميعا . وعلى مثل هذا المقعد وجب الجلوس لمدة ١٢ ساعه تستطيل غالبا . ومن لا خبرة له بالتوازن تنصبّ العناية منه على رض ما تحته من القطع .

ومما أدهشني اننا ، بدلا من أن نتّجه الى الجنوب الشرقي ، أخذنا نمضي تلقاء الشمال ، وتبيّن لي ان ذلك للوصول الى محل نخيّم فيه ليلا . وسرنا لمدة ساعة أو نحو ساعة ، خَلَّل اجمة ، وأخيرا نفذنا منها الى سهل صغير كان الحشيش يتعالى فيه مخضرّا ، فأنزلت أحمالنا ، وقيدت البغال الى الماء لتسقى . وكان ركبنا صغيرا ، وآحاده من أهل السليمانية جميعا ، فيما خلا بغّالا واحدا ، هو كردي من (حلبجه : هه‌له‌بجه) ، وهذا مكان قدّر لي أن أراه أخيرا . وكان للبغّال ، واسمه : (رشيد) مساعد ، وهو شيخ عصبي المزاج ، كان ، بدوره ، يفخر بالتصابي الدني‌ء . وكان هناك مسافران آخران ، أحدهما : خادم يرتدي معطفا طويلا أخضر اللون ، وسراويل تشبه لعبة الاطفال المسماة بـ (المصرع)[١١]

(١١) في الاصل Peg-top وهي لعبة من خشب كمثرية يلف عليها خيط ، وتلقى بقوة فتدور على سن في نهايتها المستدقة . (المترجم)

وأحد الباعة المتنقلين • واقترح الاخيرون عليّ بشدة أن أنزع الطربوش واستبدله بـ (عرقجين) وعمامة ، زوّدوني بهما •

وتراءى ان في ارتداء غطاء الرأس القرمزي البارز تعريضا لنفسي ولمن في صحبتي ، الى خطر ، فالاكراد الذين يمقتون أي شيء ، وكل شيء ، يتصل بالاتراك ، على استعداد لاعطاء الاشارة ، عندما يرون هذه الامارة ، باعتدادها هدفا يرمى • وحتى المعطف الذي كنت أرتديه كان موضوع استهجان ، ذلك اننا كنا مقبلين على أرض يعاب المرء فيها ، ما لم يكن تركيا ، ان أرتدى أي شيء لا يقرّ عادة وعرفا •

اهل السليمانية

ولا يمكن أن تسمى ملابس السليمانية بملابس كـــردية ، وان أطلق لابسوها على أنفسهم اسم : أكراد • ان درجة صحة هذا الاطلاق ستتبيّن باخرة •

من العادة اصطناع القماش الحلبي المخطط المسمّى : (شـــيطان بيزي) في اللبس ، وبدلة السليمانية هي على الوجه التالي : سراويل من قطن أبيض فضفاضة عند الرجلين جدا ، ثم تبدأ بالضيق حتى تصـــل الكاحلين فتشتد عليهما • ولا يرتدي القوم الجوارب ، وانما يحتذون أحذية من جلد أحمر ، وطرف الحذاء بارز من الامام ومدبّب • ويرتفع مؤخر الحذاء الى حاشية مستدقة طولها عدة انجات • والقميص التحتاني من القطن الابيض أيضا ، ويصل حتى الوركين • ويُشدّ عند العنق باكرة من قطن تجعل في زر • أما الاردان ففضفاضة تصل الى الارض ، وتستخدم لطي الاوراق والنقود ، وتنشيف الوجه من المـــاء والعرق ، وتنظيف الانف ، بعد أن يفرّغ ما فيه باستخدام الاصـــابع ، وبشخير عنيف • وفوق هذه الملابس يرتدي القوم زنارا طويلا من قطن ، ينفتح من قدّام ويصل الى أخمص الاقدام ، ويشدّ بمشدّ صدر أو بحزام • وأكمام هذا تنفتح من الرسغين الى قرب المرفقـين ، وبذلك تترك الحرية

لهما لتلتف الى وراء وتطوى عاليا وذلك عندما يلف القميص الخارجي ويربط حول الذراع العالية •

ولو جاء البرد ارتديت صدرية من دون أكمام مصنوعة من اللباد الثخين ، وعباءة من صوف الجمل ، وهي شيء يملكه كل شخص ، مهما بلغ حظه من خطر • ان عباءة الطبقات الواطئة من قماش خفيف لونــه رمادي أو أصفر • أما غطاء الرأس فيتألف من عديد من الكفافي الزرق والبيض ملفوفة حول (عرقجين)[11] من قماش قطني أسود مزين بأزاهير من حرير • ان نمط غطاء الرأس يبيّن ، الى حد بعيد ، القبائل الكردية على اختلافها • ويكمل اللباس كله خنجر ضخم مثبّت في الحزام ، وذلك بقدر تعلّق الأمر بساكن المدينة • هذا لباس أهل السليمانية ، والهماوند ، والجاف ، والقبائل القاطنة في أقاصي الجنوب ، وهم قد نبذوا الملبـاس القديم الغريب • ان اللباس الكردي الحق ، وهو ما سنصفه بعد هذا ، شيء مختلف عن ذلك جدا •

ومهما يكن من امر ، لقد جاز لباسي نوعما ، وجاء (البغال) وابدى ملاحظة مفيدة ، محصلها ان لو اتخذ غريب لباس بلد جديد فانه يفقد اعتبار الذين لقيهم على الطريق حالا • انها ملاحظة صحيحة جدا •

وكان الشاي معدا عند المغيب ، فدارت اقداحه الصغار • وكان ان وضعنا خبزنا وتمورنا على كفية واحدة واخذنا نتناول عشاءنا • ثم ان كلا منّا التف بعباءته واضطجعنا تحت ظلال نينوى القديمة للنوم • وما كان احد من رفقتي يعلم ان تحت مضاجعنا اسوار قصر سنحاريب •

وقبالة الموصل بقايا مدينتين عظيمتين • ان اقدم مدن القصور الأشورية : هي (آشور) مدينة تيغلات بيلبصّر الذي ورد اسمه في (التوراة) غالبا ، متلف الاسرائيليين العظيم ، وهم الذين حكموا لمدة ١١٠٠ سنة قبل المسيح • ان اخربتها ، المسمّاة اليوم (قلعة شرقاط) ، واقعة على الضفة الغربية من

---

(١١) نسترجع ان معنى الاسم ، وهو تركي - فارسي النجار : (جامع العرق) [المترجم] •

دجلة ، على مبعدة من الموصل • والى الاسفل منها ، حيث يلتقي الزاب الاعلى بدجلة ، تقع اخربة نمرود او (كالح)[١٢] المدينة الملكية لآشوربانيبال الذي حكم آشور من سنة ٨٨٤ حتى سنة ٨٦٠ قبل الميلاد والذي انتشرت حملاته ، على غرار حملات كثير من الملوك الآشوريين ، الى ساحل البحر المتوسط •

والى الشمال ، والشمال الشرقي ، من الموصل الموقع المسمّى : خرساباد ، وهو اسم كردي يعني (مكان الدب) ، أو لعله اسم محرّف من (خرسواباد) الذي يعني (موطن خسرو) • انه معروف في العالم الآشوري بـ (دار شاروكين) ، قصر سرجون ، وهو حاكم عظيم ، حمل اليهود الى (آشور) واحلهم في الحلة ، وفي (حابور) ، نهر غوزان ، وفي مدن الماذيين ، أي فيما هو الشطر الغربي مما يعرف ببلاد آشور الحقه • ويسمّى النهر (حابور) اليوم بالخابور ، وهو أحد روافد الفرات ويقع في بلاد مابين النهرين الشمالية والوسطى •

وبقيت من بين المدن الآشورية العظمى : اربيلا (اربيل) ، وسنتكلم عنها فيما بعد ، وعن (نينوى) ، ولعلها اشهر هذه المدن جميعا • انها واقعة ، شطرا ، على تل يعلوه مرقد (يونا)،وشطرا على (قوينجق) الذي يبعد عن الاول ميلا أو ميلين ، وعنده خيّمنا • والاخير هو نينوى الاولى ، فيها بنى سنحاريب سنة ٧٠٠ق•م قصرا ، وفي المدينة القديمة نفسها ، وعلى النمط الذي اتخذه اسلافه • لقد أمضى شطرا من حياته في محاربة اليهود وهو الذي دعا (القدس) الى الاستسلام ، وحاصرها ، وبذل افضل ما في وسعه لاخضاع (شعب يهودا) كرة اخرى ، لكن الطاعون ازاحه ، على مايسجله شعيا • لقد شنّ الحرب ، على غرار ما فعل اباؤه ، من سورية الى فارس ومن ارمينية الى الخليج الفارسي ، واخضع الاراضي التي دأبت على الثورة • ثم انسحب أخيرا الى قصره ليقتل على أيدي ابنائه •

---

(١٢) اسسها شلمنصر الاول سنة ١٣٠٠ ق•م [المؤلف] •

وخلفه ابنه الرابع الاثير عنده : اسر حدون في سنة ٦٨١ ق٠م ٠ وفي سنة٦٧٠ شرع هذا ببناء قصر (نينوى الجديدة)، تل النبي يونس، على الجانب الآخر من ترعة كوثر ، التي عبرناها فيما بعد الظهر ، وكانت موجودة في هاتيك الايام ٠

وفي هذه التلال ، جرى التنقيب في اربعة منها جزئيا ، فزودتنا بثروة من المعلومات الدقيقة وبمنحوتات رائعة ، ومع ذلك يوجد منها مايملأ مجلدات كبيرة ٠ ان اربيل وهي قديمة ، قدم كل واحدة منها ، لم تمسها يد بعد ٠

اليزيدية

ونهضنا في الصبح المبكر ، وحملنا دوابنا ، واتخذنا مساراً يتجه الى الجنوب تقريباً ٠ وعبرنا ، أولا ، الترعة التأريخيـــة المسماة (كوثر) ، ومررنا من تحت ظلال (تل النبي يونس) ، وعلى جوانبه تقع قرية كبيرة ، وكان امامنا سهل كبير متدحرج ، وما ان ولجناه الا كنا في أرض بلاد آشور الحقة ٠ وكانت على يسارنا سلسلة من التلال الخفيضة ، وبين ثناياها عدد كبير من القرى ، مكونة من مجموعات بليدة من الاكواخ المبنية من طين ، انها مطمورة الى النصف في الارض ، لكنها تضم جنسين من البشر تأريخهما على حظ تام من المتعة ٠ ولا يقطن هذا السهل مسلم ، ذلك ان من فيه هم من الكلدان واليزيدية ، «عبدة الشيطان» الذين اتهموا لا بعبادة (ميفيستوفينس Mephistophanes) بل باتخاذ شعائر (سميراميس) وممارستها ، ان سمير اميس كاهنة النحلة المسماة (لاسيفيوس Lascivous) التي تعبد الاعضاء التناسلية (كذا : المترجم) ٠

لهؤلاء اليزيدية ان يبرؤا طبيعتهم من الاتهام الاخير ، اذ ليس هناك من سبب يحمل عليه حقا ، فيما خلا كره الملتقين المحمديين والنصارى ، وقد كان هدفهم الأوحد الايمان من شأنهم ، وتنوير القراء العموميين ٠

واليزيدية ، اذ تقرّ خالقا اعظم ، تلمّح اليه بانه بقوة الشيطان • ان الشيطان أو رأس الملائكة ، هوى الي عذاب مؤقتا لكنه سيعود الى ما كان لا حد له ولا نهاية • فان لم يكن هناك معدى عن ذكر اسم الشيطان ، استعملوا تعبير (ملك طاووس)[13] و (مليك الكوت)[14] • انهم يعتقدون ان الشيطان، أو رأس الملائكة ، هوى الي عذاب مؤقتا ، لكنه سيعود الى ما كان عليه في خاتمة المطاف [15] •

ويأتي بعد (الشيطان) كل من : (جبريل) و (ميكال) و (رفائيل) و (عزرائيل) و (ددرائيل) و (اسرافيل) و (شمكيل) ، وهم (٧) من الملائكة الاقوياء ذوو حول وقوة ونفوذ في شؤون العالم •

انهم لا يرفضون اي كتاب من كتب العالم المقدسة لدى الاديان المختلفة • وعلى حين يثقون بـ (العهد القديم) ثقة تامة ، يعتدّون (العهد الجديد) و (القرآن) من الكتب المقدسة التي تستأهل التبجيل ، حسب • انهم يعتدّون المسيح ملكا ، وينكرون صلبه[16] ، ويرون ان محمدا وابراهيم

---

(١٣) يذكر (لا يرد) صورة الطائر ، والعرف البلدي ارتكن عليه كدليل على عبادة الاصنام ، لكن لم يره أي رحالة جاء من بعده ، أو يعلم اكثر عن استعماله فيما خلا ارساله من مكان الى آخر (باعتداده شيئا حقيرا) تصحبه رسائل على حظ من خطر يتداولها رجال الدين من ذوي المقام الرفيع • (المؤلف)

(١٤) في الاصل Melikulkut ولعله يريد (مليك الكون) (المترجم) •

(١٥) هذه هي النظرية المقبولة عادة • لكن يزيدية تفليس اجابوا احد الباحثين المتاخرين بما يخالفها ومحصلها : ان الشيطان بعد انهالت منه الدموع الكافية في سبع سفن بغية اطفاء ٧ من الجحيمات ، لنفيه الذي استطال ٧ آلاف من السنين ، أعيد الآن الى مقامه الاصلي في السماء • انستطيع أن نزعم ان هذه الحادثة المهمة وقعت منذ سنة ١٨٣٩ حين أخبر لا يرد بالنظرية الواردة في المتن ؟ (المؤلف) •

راجع الفصل الخاص عن اليزيدية في كتابنا المترجم الموسوم (في بلاد الرافدين ـ صور وخواطر) [المترجم] •

(١٦) هـا هنـا اتخلوا سنة المسلمين • راجع (القرآن الكريم) (١٥٦/٤) (المؤلف) يريد : (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) الآية • (المترجم) •

والبطاركة في عداد الانبياء • ينضاف الى ذلك كله : انهم يرقبون ظهور عيسى المسيح والامام المهدي •

واسم الطائفة غامض الاصل ، لكن (لا يرد) يميل الى النظرية القائلة بامكان وصله باسم فارسي قديم يدلّ على (الله)[17] ، ان النظريه التي تقدمها الشيعة المحمّدية ، على وجه اخص ، تذهب الى ان مؤسس الطائفة هو (يزيد)[18] قاتل الولي الحسين ، ولامراء في انها غير واردة • لقد خُلقت النظرية لايهان شأن الطائفة أكثر ليس غير • ان الاصل الحق لها غير معروف تماما ، وان طبيعتهم المريجة ، بقدر تعلق الامر بعقيدتهم ، تصيّر البحث عسيرا •

ان (الأفستا) كتاب الزرادشتية المقدّس (في نحو القرن السادس للميلاد) تذكر طائفة من عبدة الشيطان ، وكانت لزرادشت نفسه حملة بازاء شعب ، كهذه الطائفة ، يقطن شمال فارس • وهناك في عقيدة اليزيديين الحاليين دلائل خاصة تشير الى قيام علاقة مع الشعوب القديمة وانواع من عبادة الطبيعة • لكن هناك دلائل أيضا تدل على بقاء عبادة الشمس الكلدانية القديمة او البابلية لها ، واخصّ بالذكر منها تبجيلهم الشمس ، المسماة لديهم (شيخ شمس) والقمر ، (شيخ سن) ، المقابلين لـ (شماش) و (سن) في الاساطير الاولى •

ان ازياءهم ، على غرار معتقداتهم ، تفصح عن كتلكة رائعة • انهم يعمّدون ويختتون ويجلّون الشمس والقمر ، وينقرون النصوص الاسلامية على قبورهم ، ويقتبسون من (العهد الجديد) ، ويسمحون بتعدد الزوجات ، ويبيحون الشراب ، ويحرّمون بعض اللحوم • هذا مزيج من العادات الزرادشتية والاشورية ـ البابلية والعبادة المحمدية والمسيحية لا تسايرهم فيها أية طائفة أخرى • انهم يجتوون اللون الازرق ، ولا

---

(١٧) يزد ، يزدان (المؤلف) •

(١٨) ان (يزيد) غدا من مقدسي الطائفة (المؤلف) •

يستعملونه في لباسهم ، ولا يعرضونه في بيوتهم .

ان مركز هؤلاء القوم ، وكرسيهم الاصلي ، على ما يظهر ، كائن على مقربة من الموصل . وفي واد من وديان التلال الكردية يرقد الولي اليزيدي ، النبي : (الشيخ عدي) (كذا : المترجم) ، وقيل انه عاش فيالقرن التاسع وفي القرن الـ ١١ على اختلاف في الاقوال .

ولا يعرف حتى يوم الناس هذا عن الشيخ عدي الا القليل ، وتأريخ حياته مختلف فيه ، وهويته لم يلمّح اليها ، فيما خلا ماورد في نظريـــة محلية ، ظهرت قبل سنين عديدة ، تصل بينه وبين (عدّي) احد حواريي (ماني) .

وعلى ذلك اكتفينا حتى يومنا هذا بما ورد في مؤلَّف فارسي من انه سليل الاسرة المروانية ، التي كان منها (الخلفاء) ، وهي غلطـــة يسير الوقوف عليها .

وارى ان التفسير التالي ، على كل حال ، أمر يطمئن اليه ويقبل . انه ثمرة تحريات في مؤلفات محمدية عديدة اعرف اصحابها جيدا .

من هذا يستخلص (كاتب هذه السطور) ان الشيخ عديا هو ابن مسافر الزاهد الاموي ، من أهل بعلبك في سورية . وفي ايام حكم مروان (اوائل القرن الثامن) «نقل الى الموصل»[١٩] واقام في مدن القبيلة الكردية العظيمة المسمّاة : (حكارى) حيث اكسبته حرمته اتباعا كثيرين من بين الناس القاطنين فيها .

وكان ان مات فيخلال ايام نفيه ودفن فيواد يسمّى (وادى لاش)[٢٠]

---

(١٩) ورد في الاصل : (وتنقل بالموصل) ــ طرايق الحقـــايق (المؤلف) .

(٢٠) قمت ببحوث ، عندما كنت في الموصل ، وفيما بعد ذلك ، بشأن هذا الموقع المسمى (كيوى لاش) أي : ــ جبل جسم ما ــ او جثة مـــا . واعلمني أحد رجال الدين في الموصل ان الشيخ عديا ، على التحقيق ، مقبور فيه ، وبعض المسلمين يبجلونه . لكن هؤلاء يجنحون الى تجنبه بالنظر الى صلته باليزيدية . (المؤلف) .

ومعناه في الكردية « موطن جسم» ، ولعل هذا الاسم أطلق عليه بعد دفنه فيه •

وهناك اربع مرتبات في السلك الكهنوتي اليزيدي هي : بير ، وشيخ ، وقوّال وفقير • والاسم الاول كلمة كردية وفارسية تدل على «كبير» أو « قدّيس » ، وتطلق على أشخاص على حظ كبير من الحرمة والزهد • اما الشيوخ فيقابلون الكهان المقيمين ، على حين يعدّ القوّال في عداد المتجوّلين وينتظر منه أن يغني ويرقص في الاعياد التي تتطلب مثل هذه الشعائر •

وآخر مرتبة هي مرتبة (الفقير) وصاحبها يقوم بأعمال وضيعة في خدمة مرقد الشيخ عدي الكائن في واد بهذا الاسم ، قرب الموصل •

اما اللغة المستعملة لدى اليزيدية فهي لهجة كردية ، وتستعمل العربية في تراتيلهم ومزاميرهم •

ويكتنف اصلهم غموض كثيف ، ولما كانت القراءة والكتابة تعتداں جرائم بينهم فليست هناك مستندات تساعد على الحدس والتخمين • وخيلّ ل (لايرد) انهم كلدان أصلا ، اتخذوا مظاهر كثير من الاديان الاخرى ، باعتداد ذلك اجراءا وقائيا ، ولهذا وقعوا ، بقدر تعلق الامر بمعتقداتهم ، متخبّطين في حال فوضى •

لقد رموا ، منذ أقدم الازمنة ، ومن قبل المسلمين والنصارى ، على حد سواه ، بالزيغ والمروق وعاشوا على عداء مع جيرانهم • وكانت لهم في يوم ما قوة عددية ، ودوّخوا اعداءهم ، لكن زعيما كرديا استطاع اخضاعهم واجهز على قوتهم عن طريق مذبحة عامة • ومنذ ذلك الوقت هم يعيشون بين ظهراني النصارى والاكراد ، ومنهم من يعيش في سلسلة جبال سنجار الممتدة من الموصل غربيا • وهم موجودون في القفقاس ، قرب تفليس وبايزيد •

ومنذ أيام (لايرد) أيضا منوا باضطهاد آخر ، وكان ذلك على يد الترك

والكرد والنصارى . وهم اليوم على حال من الفاقة زرية . وفيما خلا عدم ارتدائهم اللون الازرق، هم غير متميزين عن السكان : الاكراد، والتركمان والكلدان ، الذين يعيشون بينهم ، وثمة امارات صغيرة لا يستطيع الوقوف عليها الا من كان في البلاد من المتوطنين .

وفي جنوب السلسلة التي مررنا بها في اليوم الثاني لمغادرتنا الموصل ، وفيما وراء نهر الخازر ، لا يوجد منهم احد . وكان ان عبرنا هذا النهر ، واتجاهه ، بالنسبة الى مسيرتنا الصباحية ، شرقي ، ولقينا صعوبة كبيرة في خوضه . وتأرجحت البغال مرات عدة فجعلت موازنة الراكب غير آمنة ضعفين . والنهر المذكور من روافد الزاب الاعلى يصب فيه قرب المكان الذي مررنا به تماما . وفي الحق ، ان مسارنا ، وكان باتجاه نهر الزاب الكبير ، يقع عبر نقطة الارض الكائنة بين النهرين وعرضها اميال قليلة . وبلغنا الضفتين العاليتين لهذا النهر التاريخي فيما بعد الظهر ، وفي الوقت نفسه كان در السحاب يساقط . ولما وجدنا طريقنا على ممشى صغير ، في وسط صخوره ، لذلك رمينا أحمالنا على بقعة عرضها نحو ١٠ أقدام واتخذنا من صخرة ناتئة ملتحدا .

الزاب

وعبر النهر شهدنا السهل المنبسط للاقليم القديم المعروف بـ (حدياب Adiabene)[٢١] لدى الفرث والماذيين ، وهو أشد السهول في بلاد آشور خصبا وطيبا ، انه بلاد آشور الحقة . وفي هذا الوقت من السنة لا يعدو ان يكون عبقريا اخضر متدحرجا .

وتحتنا كان النهر ، في فصل جيشانه ، يدوي ماؤه ويدور حول صخوره وينبسط في مجراه العريض . وان نظر المرء اليه صعدا شاهد

(٢١) لعل الاسم مشتق من كلمة (زابن) فان الزاب في الآرامية يلفظ (ذب) . وسمي هذا الاقليم (آثوريا) وسماه العرب (حزة) ، ولعله مصحف مع اختزال من (حدياب) (المترجم) .

قمم جبال كردستان وقد جللتها الثلوج ، تمزق السحاب اربا اربا .
وكانت قرية (زيلان) في الجهة المقابلة . ويسكن هذه القرية فرع قبيلة كردية غريبة يرتدي ابناؤها الملابس العربية ، وهم اناس متوحشون ذوو لغة وعادات متبدية . هاهنا ، وفي هذه البقعة عينها ، خاضت النهر جيوش الآشوريين والفرس والرومان ، ويقع الطريق القديم الممتد من نينوى الى اربيلا (اربيل) ، ألتي كانت مدينة الآشوريين المقدسة . وعلى هذا الطريق ذاته كان ملوك تلك الامة القوية يعودون لتقديم التبجيل والشكران وذبح القربان الى (هر : Her) الهة النصر في أربيل[٣٢]. وعلى هذا الطريق كنا نتخذ سبيلنا المتواضع ، وعلى غرار كثير ممن سبقنا عليه ، اوقفنا عند (المعبر) من قبل الفيضان . وفي عهدنا كان ثمة معبر صغير شبيه بالمعابر التي على الفرات ، وسبق وصفها ، ينقل الركاب عبر النهر . وما ان بلغناه الا وجدناه مكتظا ببعض الحمير ، كما ان أصحابه لم يكونوا راغبين في محاولة القيام بعبرة اخرى في جو عاصف . وبينا كانوا على هذا سمعت مناديا يناديني ، وانا تحت صخرتي . انه شيخ المكان وهو شخص يرتدي عمامة من شعر بيضاء . وكان ان حاول التكلم معي بالتركية فالعربية ، وتحادثنا بالاولى من الوقت لأيا . وقال لي : سواء أكان الفيضان أم كان الصيهود ، وسواء أكان الجو عاصفا أم كان ساجيا ، وسواء أوجد العبور أم لم يوجد ، علينا أن ندفع ٦٠٠ ليرة الى حكومة الموصل سنويا ، باعتداد ذلك ضريبة واجبة الدفع ، وجزءا من وارداتها . ينضاف الى ذلك :

(٣٢) لعلها المدينة الآشورية الوحيدة التي بقيت مستوطنة ومحتفظة باسمها القديم ، عبر التاريخ ، وحتى يوم الناس هذا . جاء اسمها في المدونات البابلية ـ الآشورية بصيغة : « اربا ـ ايلو » اي اربعة آلهة . وشهرت بأنها مركز عبادة الالهة عشتار ، ونسبت اليها فسميت (عشتار اربيلا) ، كما كان فيها معبد للاله آشور . وجلب سنحاريب الماء اليها من وادي باستورا ، كما اشتهرت بالمعركة التاريخية الفاصلة بين دارا الثالث الاخميني وبين الاسكندر الكبير عام ٣٣١ ق.م ، اعني معركة كوكميلا التي مهدت للاسكندر احتلال العراق يومذاك . (المترجم) .

ان لو رفض الاهالي العمل في مشروع ما ، وهو في الغالب غير ذي جدوى ، عوقبوا من قبل الجهة العسكرية . وعلى ذلك فان ما يستوفى عن الركاب كان باهظا ، كما كان يدفع عن الحمار (شلن وثمانية بنسات) ، وعن البغل ٣ شلنات . ويتراءى ان هذه الاعتبارات لم تؤثر في الاكراد ، ذلك انهم ، بالنظر الى جبلتهم ، كانوا يعملون كالعفاريت الشرسة ، يوجهون جاريتهم العتيدة ويسحبونها ، وضحكاتهم وصرخاتهم متعالية . وعلى الرغم من تسميتهم بالاكراد ، وظهور بعض الشبه بهذا العنصر عليهم ، فانني اعتقد ان ثمة خليطا قويا من العرب فيهم .

وجمعنا كومة من العصي وجلسنا متحلقين حول نار لاهبة ، مرتجفين. واعقب غروب الشمس هبوب الريح وتساقط المطر ، لذا ، ما ان لف الظلام الكون بشملته الا التحفنا بكل مالدينا واضطجعنا على الارض المزججة للنوم . وربطت البغال الى الكتة ، وكان يستيقظ أحدنا بين الفينة والفينة وعلى حين غرة ليجد منخارا ضخما ينفخ في وجهه نفخة المتحرّي ، او ان ينقذ لحافا ، أو معطفاً ، أسقط على الارض من قبل جيرانه «المطرين» .

الفصل السادس

الزابان ، آشور القديمة ، حدياب ، اربيلا (اربيل) وكركوك

.. يظهر الرجوع الى خارطة ما للمرء رقعة ، على شكل (شبه معين) ، ذات حدود طبيعية قائمة على جوانبها كافة • ان دجلة يؤلف حدّها الغربي ، ومنه ينبثق الحدّان الآخران ، اعني الزابين : الاصغر والاكبر ، اللذان يجريان على زاوية ليلتقيا بسلسلة جبال زاغروس الموازية لنهر دجلة ، والمكوّنة للحد الرابع • ضمن هذه الحدود تقع أرض ، شطر منها سهل ، وشطر آخر تلال ، مرويّة ارواءاً حسنا ، وذات طقس لطيف وهي خصبة للغاية • كانت هذه بلاد آشور الحقة ، ثم صارت (مملكة حدياب) التي وقفت ، على ما تقف اليوم حدودها الشرقية : جبال زاغروس ، في طريق قطان من أهل التلال المتوحشّين ، فكانت عقبة ومبعث خطر ، حتى بالنسبة لملوك آشور أنفسهم •

ان النهر الشمالي الذي كنا نخيّم عنده هو الزاب الاكبر ، وهو الذي عرفه الرومان باسم : (ليكس : Lycus) • ان قربه من العواصم الآشورية (وكانت كالح عند مصبه) صيّره في بقعة من الارض محميّة خلال الازمنة الآشورية ، وأول معركة دوّنت ودارت على ضفتيه وقعت سنة ١٢٨ قبل الميلاد ، حين كان الآشوريون مجرد ذكرى عابرة • وفي البقعة التي كنا نخيّم فيها التقى (انديتس : Indates) وهو قائد جيش (فرافارطيش : Frafartiah) الملك الفرثي ، نُزُلاً من التلال المادية (زاغروس) ، بانطيوخس ، وهو ملك سورى نابه الذكر •

ودارت هنا رحى معركة ضارية اسفرت عن انهزام (انديتس) ، وقام

انطيوخس بتشييد نصب في موقعها تخليدا لظفره وتثبيتا لاندحار الفرث الافوياء .

وشُهر الزاب الاسفل ، وهو أصغر من سابقه ، وعلى فَوّت رحلة يوم ، عبر السهل ، في باب المعارك ، وفي التأريخ . فتغلات بلصرّ الاول (سنة ١١٠٠ ق.م) يذكر على اسطوانة شهيرة وجدت في آشور : « الى ٤٢ من البلدان مجتمعة ، ومعها امراؤها ، من وراء الزاب الأصغر ، ابعد المناطق ذوات الاجمات عند حدود أرض خطاي[1] ، فيما وراء الفرات ، وفي داخل البحر الاعلى للشمس الغاربة[2] ، امتدّت يدي وغلبت ، منذ بداية حكمي حتى السنة الخامسة منه »[3] .

وفي السنة ٥٢ للميلاد ، خلال ايام المنازعات الفرثية الرومانية شنّ ونغاش Volgases الملك الفرثي حملة بإزاء (ازات : Izates) وهـو ملك فرع في اقليم حدياب ، « أرض ما بين النهرين » ؛ وما ان خيّم على الزاب الصغير الا استُدعي للرجوع ، على حين غرّة ، تلقاء الجنوب ، وذلك أثر نجوم ثورات في مدنه .

ومهما يكن الامر ، فان المعارك التي اشتهر بها الزاب الأصغر ، فوق كل الحوادث الاخرى ، هي المعارك التي دارت بين قوات خراسان ، قوات ابي مسلم العباس (كذا) وقوات عبدالله بن مروان سنة ٧٤٩ الميلادية ، وبين الخراسانيين ، أنفسهم ، ومروان نفسه سنة ٧٥٠ للميلاد ، بعد خمسة أشهر ، وقد دُحر في جميعها مروان آخر سلسلة الخلفاء الامويين الطويلة . ان خطر هذه المعارك عظيم عظم اية معركة اخرى من معارك التأريخ الشرقي الحديث ، ذلك أنه بالنصر الحاسم الذي أدرك هناك انتهى عهد خلافة عربية ايدة قوية وحلّت معها أسرة فارسية (كذا : المترجم) من بيت

---

(١) الحيثيون (المؤلف) .

(٢) البحر المتوسط (المؤلف) .

(٣) راجع : راكوزن بلاد آشور ص ٥٧ (المؤلف) .

العباس الخراسانية[4] ، وخراسان كائنة في فارس الشرقية » .

« يصح القول بأنه قد أخذ ثأر القادسية ونهاوند على ضفتي الزاب ، وعلى ما يذهب اليه احد الاثبات الكبار (كذا : المترجم) وبذلك يلمح الى المعارك التي جرت قبل ١١٠ من السنين ، حين انهارت فارس الزرادشتية أمام العرب الذي اعتنقوا الدين المحمدي الجديد ، والذين قُدّر لاحفادهم أن يصبحوا رعايا اولئك الفرس الذين اطلقوا عليهم جهلا وضلالة ووحشية اسم (العجم) ــ أي : البرابرة » [5] .

من موقعنا على (الزاب الاعلى) مرحلة يوم (١٠-١٢) على صهوات الخيل الى (اربيلا) أو (أربيل) ، على ما تسمّى اليوم[6] . لقد عبرنا النهر مبكّرين ، وما ان نزلت الشمس الى مغربها الا وصلناها . وموقع المدينة في فجوة خفيضة ، عند اقدام سلسلة من التلال الصغيرة ، وخلفها تعالى (زاغروس) . وعلى ذلك لا يمكن مشاهدتها عَبْر السهل المتدحرج ، لولا الرابية العظيمة التي تكفّن ثراها اخربة مدينة الالهة عشتار .

ان العصر الذي بلغنا خلاله المدينة يمثل الربيع النمطي . وكان ان انهالت علينا في السهل زخّات مطر خفيفة ، وما ان تقرّبنا من الجبال الا بدأنا ندخل في المنطقة التي تدور بها العواصف المرعدة وتعصف . وكانت ثمة سحب ثقال تندفع فوق الجبال ، ويتساقط منها دفق غيث شديد ، فيغمر

---

(٤) هذا خلط من المؤلف وجهل، فالعباسيون ينتمون الى(العباس)عم النبي (ص) ، والعباس هاشمي قرشي عربي ، (المترجم) .

(٥) هذا وهم وتخليط وجهل آخر من قبل (المؤلف) ولا نعلم من هو (الثبت الكبير) ــ أو (الجاهل الكبير) الذي نقل عنه هذا (النص) . لقد بنى ذلك على وهمه السابق في اعتداد العباسيين من الخراسانيين ، وليست كلمة (عجم) دالة على البرابرة في اللغة العربية ، وانما معنى (اعجمي) من لسانه غير عربي ، وفي القرآن الكريم مصداق ذلك : (لسان الذين يلحدون اليه اعجمي وهذا كتاب عربي مبين) وفي الحديث الشريف (لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى) .

(المترجم)

(٦) يسميها الاكراد (هاوريل) وفي الاحيان (هاولير) (المؤلف) .

ماؤه الأرضين . وكان البرق الخاطف ينير تموجات التلال وهي بين السحاب ... والمشهد كله :

يطرّزه (قوس السحاب) باخضر
على أحمر في أصفر ، اثر مبيّض !
كاذيال خود اقبلت في غلائل
مصبّغة والبعض أقصر من بعض !

وكنا نسعى الى رؤية البليدة بين ذلك المريج من زخّات المطر حين مرّت سحابة كثيفة يساقط درّها ، تاركة شعاع شمس راحل خلفها ، وعلى غرار ما تفعل ستارة مزاحه ، وبرعد مدمدم ، فتجلّت أمامنا أربيل مشعّة بشعاع أحمر من ضياء الشمس ، وكان ان شهدنا رابيتها ، غامضة غير واضحة ، وخلفها وعلى جانبيها سحب غرابيب سود ، والمطر يتساقط بينها مدرارا . لقد رأيناها على هذا الوجه هنيهة ، ثم كان ان افرغت سحابة فوق رؤوسنا ، درّها . ان الغيوم النازلة ، وكانت على شكل قمع ، وماؤها كالطوفان ، اخفت الرابية ، ودوّى رعد ، وخطف برق بالابصار ... وكل هذه عناصر تكوّن في روعتها شيئا يليق بالالهة العظيمة ، بل أعظم الالهات : عشتار اربيل .

كنا ، في الوقت الملائم الحق لرؤية البليدة الصغيرة في ضوء النهار . وليست ثمة امارات تدلّ على عراقة ما حولها اليوم ، فيما عدا بعض أخربة محمّدية . وكل مايتصل بآشور مخزون في حرز حريز من رابيتها العظيمة ، وقد شاد عليها التركي المحدث قلعته . وعلو الرابية عظيم ، وهي ترتفع فوق سقوف أعلى البيوت وتتراءى ، بعظمتها ، طبيعية ، ولن يصدّق انسان انها تضم صنع بشر لو لم نرَ ، هنا ، تصور المعبد العظيم الذي دأب الناس ، على اختلاف جنسياتهم وملوكهم ، على تبجيله واجلاله طوال ألف سنة . وهناك كل الاسباب التي تحمل على

الاعتقاد بان التوشية والعطايا جعلته مزارا منقطع القرين والنظير ، ولعل ذلك في آسية كلها .

وما ان وصلناه الا (فتحت أبواب السماء بماء منهمر) ، وفي حلكة الظلام كنا نتساب خلال الازقة في مدينة شرقية حديثة ، ثم فوق رابية الى خان خرب ، حيث وجدت غرفة رطبة غمرها الماء الى النصف ، محلا لمتاعي . ولما لم يكن في الامكان العثور على شيء ما ، حتى الحطب ، فلقد اقتصر عشائي تلكم الليلة ، على الشاي والتمر المجفف النزر القليل ، ثم كان ان نمت في بركة . وتفرّق (رفقتي) في الظلام ، ووجدوا غرفا في مكان آخر . ها هنا الحدّ الغربي لكردستان الجنوبية ، ويقطن (أربيل) اكراد البابا وهم قبيلة مستوطنة ، يتكلم ابناؤها لهجة متباينة من اللهجة المكرية[7] . والتركية فيها مفهومة أيضا ، أو لعلها التركمانية ، ذلك ان (التون كوبرى) وكركوك ، وهما مدينتان تركمانيتان ، ليستا عنها ببعيدتين .

في الفصل العاشر من (سفر الخليقة) (١٢/٨) نقرأ ما يلي :

« أحدث (كوش) (نمرود) وغدا عظيما على الارض . كان صيّادا ايدا بازاء الرب ، وعلى ذلك كان يقال ، حتى كنمرود الصياد الايد بازاء الرب . وكان مبدأ مملكته : بابل و (اريخ) واكّاد وكالح في أرض شنعار . وخرج من هذه الارض آشور وبني نينوى ومدينة (ريحيبوت)[8] وكالح ، وريسن ، بين نينوى وكالح ، وهذه أيضا مدينة كبيرة . »

والآن ، يرجع تأريخ بناء مدينة آشور ، في الاقل الى ١٨٠٠ ق.م وتلمّح (الآيات ١١-١٢) الى صقع آشور الحقة الصغيرة ، بمدنه الثلاث : كالح ونينوى واربيلا . وفي خلال جميع عهود الممالك الآشورية اتخذت أربيل عاصمة الملك الحاكم ، على غرار صلة (كانتربرى) بـ (لندن) ، في

---

(٧) كانت ، فيما مضى ، من اهم الاسر القومية المشهورة في كردستان الجنوبية (المؤلف).

(٨) ريحيبوت اور هي قلعة شرقاط ، واور بمعنى النار ، وفي هذا يقول لمياتوس ان السبب في اضافة النار اليها وجود منابع القير على مقربة منها . (المؤلف)

التأريخ الانكليزي . لقد كانت العاصمة الدينية دوما ، ويتزايد خطرها دواما ، ففي بلاد آشور كان (الملك) ، بالنسبة لدين آشور ، هو الكاهن الاعظم ، غير مدافع وغير منازع . ومن المحتمل ان (عشتار : الهة بعلاث) لـــدى الكلدان القدامى ، قد نقلت معبدها شمالاً عندما قامت بلاد آشور منفردة ، واختيرت لذلك اربيل (ويعني اسمها : اربا ايلو : الآلهة الاربعة) ، ولعل السبب يرجع الى انها كانت مزار معبود، كان يومذاك قائماء وعلى ذلك فان اربيل اليوم لها من العمر ٣٠٠٠ سنة في الاقل ، وقد كانت الكرسي الثاني للالهة عشتار التي سلف القول عليها في (الفصل الثالث) من هذا (الكتاب). ان الحيوية التي ابقت عليها منذ تلكم الايام الخوالي لم تفارقها في أي وقت ابدا ، ذلك أنها كانت تستأهل الذكر مرة في الاقل خلال أيام العز والسؤدد التـــي شهدتها الامم التي حكمتها بنجح ، اعني : الآشوريين ، والماديين ، والفرس ، والاغريق ، والفرث ، والرومان والارمن ، فالرومان كـــرة أخرى ، والفرس والعرب . ان الحوظات قليلة مرتبة زمنيا تظهر ذلك جليا :

ان آشور ناصربال (٨٨٤ ق.م) ، وهو ملك كان يؤثر المدينة ايثارا عظيما ويسميها « مدينته » ، جاء اليها بملك أسير ثار بازائه ، « فسلخ جلده حيا ، ونشر جلده على سور المدينة » . وان سنحاريب ، وهو ملك أعظم ، ولعله أشهر ملوك آشور طرا ، حج اليها في سنة ٦٩٢ ق.م ليصلي فيها الى الالهة عشتار فيصيب ظفرا في حملة قابلة يشنها بازاء البابليين . وكان أن أوتي سؤله . وبينما كان ابنه (اسرحدون) ، بعد ٢٤ سنة ، وهو في الجبال الشمالية يسعى الى الاقتصاص من قتل أبيه الغادر ، وصف بأنه اتصل بالالهة عشتار فتسلم من معبدها في اربيل رسائل تشجيع وتطمين بالنصر المبين[٩] .

وبعد سنوات قليلة ، في سنة ٦٥٦ ق.م ، حج اليها (آشور ناصربال) ـ ساردانا بالوس ـ وهو يعد العدة لحرب بازاء عيلام (عربستان الحديثة

---

(٩) راجع : Ragozin's Assyria, p. 161. (المؤلف)

الكائنة في الجنوب الغربي من فارس) ، فكان حجاً أكبر ، وصلّى راجيا أن تريه الالهة امارة ، فجادت بهاعليه . وكان المعبد،عهد ذاك، من أروع مافي بلاد آشور . وكان أن دحر الملك المنتصب (تيومّان) وجيء الى اربيل بكثير من الاسرى ، فسلخت جلودهم وهم أحياء على غرار الطريقة الوحشية المتبعّة في هاتيك الايام .

وفي نهاية ذلك القرن - في سنة ٦٠٨ ق.م - قلبت معركة نينوى (الانبراطورية) العظيمة رأسا على عقب ، واستولى (الماديون) عليها ، وسقطت (اربيلا) بأيديهم . ولا بدّ من ان قدسية المدينة ضمنت لهـا بعض الصيانة من الاجتياح والتدمير ، ذلك انها بقيت على حظ من خطر لمدة ٨٠ سنة تالية حين صلبّ (دارا) ملكا صغيرا ، وهو من ساكارشيا نفسه .

وخيّم عليها السكون الى أن غزا الاسكندر ، بجيشه ، آسية ، وان معركة عظيمة جرت عندها سنة ٣٣١ ق.م صيرّتها بلدة اغريقية .

ومهما تكن الحال ، لقد غلب ارشاق الاول ، بعد ٨٠ سنة على حدياب . انه محررّ الانبراطورية الفرثية ومؤسسها . وعلى ذلك احرزت قدسية اربيلا لـ (الاقليم) امتيازا ، اذ غدت مقابر لملوك الفرث الارشاقين . لقد كان للملوك الاغريق ، والسوريين من بعدهم ، خلفاء الاسكندر ، من الهيمنة الكافية على (الاقليم) ما الزم الفرث على القتال في سبيله . وكان أن استطاع (ميثريدات) ، وهو عاهل فرثي ، في نحو سنة ١٣٦ ق.م أن يغلبّ آخرهم ويستحوذ على البلاد التي كانت تسمّى يومئذاك (حدياب)، بلاد آشور القديمة الحقة . وأصبح (الاقليم) تحت حكم الفرث يحكمه ملك صغير أو (فيتاكسا : Vetaxa) .

واستحوذت على اربيلا وحدياب ارمينية في سنة ٨٣ ق.م تحت حكم تيكران الاول ، وهو أمير حاكم استمتع بقوة عظيمة حينا من الدهر ، لكنه طرد بعد عشر سنوات من دخوله اليها وكان ذلك على يد الرومان

والفرث اللذين تظـافر سعيهما وانصب بازاء هذا العصامي المتطـّرس •
وتعالى شأن اقليم حدياب تحت حكم الرومان ـ الفرث وعلا علوا كبيرا •
انه اقليم كانت ترنوا اليه الابصار لغنائه دوما ، وكان الرومان يصبون
الى امتلاكه مطلقا ، وامتلاك (عاصمته) أيضا •

وعلى ذلك رحل (مهردات) ـ وهو أمير فرثي منفي في رومة،سنة ٤٩
للميلاد ، اثر دعوة تلقاها من الفرث لطرد الطاغية : غودارز وانطلق من نينوى
الى اربيلا لملاقاة المغتصب ، يشجّعه على ذلك ولاء (ازات) ، ملك حدياب •
والتقى بـ (غودارز) قرب اربيلا ، وبعد معركة طويلة اندحر ، وكان الذي
حسم المعركة على هذا الوجه تخلّي (ازات) عنه ، شأنه كشأن غيره من
الصدقان المذبذبين •

وبعد ١٣ سنة ، أي : في سنة ٦٢ للميلاد ، حاول (تيكران الخامس)
، ملك ارمينية المعيّن من قبل الانبراطور نيرون ، غزوها يحدوه على ذلك
غناء حدياب وغياب الملك الفرثي ولغاش الاول • لقد أزعج النـــاس
التاعسين كثيرا ، فأرسلوا الى (ولغاش) يشكون ويهددّون بالحصول على
السلم لانفسهم ، بإعلان الولاء لرومة • وجاء جواب الملك الفرثي فورا ،
اذ أعلن الحرب على ارمينية والرومان ، وعيّن (مانوباز) ، ملك حدياب ،
قائدا على جيش استطاع أن يطرد (تيكران) ويغزو بلاده •

ومنذ هذا الوقت غدت (حدياب) سببا في النزاع ، الى أن نهض
الفرس وضربوا الفرث والرومان ، على حدّ سواء ، وأسسوا انبراطورية
آرية ، كرّة اخرى •

وفي سنة ١١٥ للميلاد احتلّ الانبراطور تراجان الاقليم اثر مقاومة
باسلة ، لكن خلفه (هدريان) لم يستطع الحفاظ عليه ، اذ أخلاه بعـــد
سنتين • وأهاب الطموح المتأجّج في نفس (سفيروس) ، وهو من أعظم
الاباطرة الرومان المتأخرين ، ودفعته الرغبة في الاقتصاص من الحديابيين ،

الذين خلقوا له متاعب جمّة عن طريق مساعدة الدول في الوقوف بوجهه ، الى مهاجمة البلاد ، لكن (ولناش) استطاع طرده منها في سنة ١٩٦ للميلاد . ومهما يكن من أمر ، قام (سفيروس) ، بعد سنة أو سنتين ، بمحاولة نهائية ، فالحق ، في هذه المرة ، (حدياب) بالانبراطورية الرومانية، وأقرّ حقه في اتخاذ لقب (اديابنيسوس) ، وقد كان اتخاذه له في سنة ١٩٢ للميلاد مُبْتَسَرا .

وعانت (اربيلا) تحت حكم الرومان ، من اعتــداء فاضح مدنّس للحرمات على يد المدعو (كاراكلّس) ، اذ ما أن عاد هذا من حملة على بابل في سنة ٢١٦ للميلاد الا انتهك حرمة المقابر الفرثية الملكية ، فأخرج الجثث منها وسحبها ورماها بعيدا .

وقدّر أن تبقى تحت حكم أجنبي لمدة ١٠ سنوات اخرى ، ذلك ان ارتحشتا (اردشير) الساساني استطاع أن يتغلّب عليهـا ويطـرد منها ، ومن غيرها ، الفرث والرومان معا . انه من الفرس ومن الاســرة الساسانية الجديدة .

تحت حكم هذه الملكية الأثير ، وهي ملكية نيرّة متمدينة ، خطـا النصارى خطوات قدمــا ، وحصلوا على الحماية والتشـجيع مـن الملوك الفرس الزرادشتية . وغدت حدياب في سنة ٥٠٠ الميلادية مستقرا لمطرانية كلدانية ، تضمّ الموصل واربيلا ، حيث زالت حرمة عبـادة عشتار ، التي بقيت معبودة لألفين من السنين ، سريعا .

وفي القرن السابع اكتسح العرب المتعصّبون البدائيون (كذا : المترجم)[١٠] الثقافة الفارسية التي كانت تتشبّع سريعا بالنصرانية ، وسقطت (اربيلا) و (حدياب) وهوت في تلكم الاعماق التي أطبقت على مدن أكبر ، وأقاليم أعظم ، وهي كثر . ومهمـا يكـن من أمر ، كانت اربيـلا على حظ من خطـر

(١٠) هذا من جهل (المؤلف) او تجاهله دوافع الفتح العربي ـ الاسلامي وما جاء في اعقابه من نشر دين الله ، دين التسامح والعدل . (المترجم)

بحيث ورد ذكرها ، باعتدادها احدى المـــدن الوسيمة التي اكتسحت وخرّبت على أيدي المغول البرابرة بقيادة هولاكو في القرن الثالث عشر للميلاد • ومن حسن الحظ ان أخربة معبد عشتار والمدينة القديمة كانت مخفية تحت الثرى الذي خلفته الايام ، وان الطبيعة قد حفظت ذلـــك للفحوص الغربية ، فنجت من (وباء بشري) ماكان يجلّ نصبا لاله أو نصبا لانسان •

وخلال القرون المتتالية أشغل الأكراد ، الذين طردوا كثيرا من الشعوب ، المدينة التي لا تزال أهم ما في الاقليم • ان اللغة الكردية قوية الى درجة انها استطاعت بحكم أيدها ووضوحها أن تحلّ محل لغى كانت سائدة في أماكن تقطنها شعوب ليست من الاكراد أصلا ، وعلى غـــرار السليمانية التي يسكنها شعب خليط يسمي نفسه كرديا •

وكنا ندخل اربيل ، والشمس تغرب :

وقد صبح ان الأفق يشجيه بعـــدها

بما قد عـــلاه من لبـــاس الغياهب

فما كانت لديّ فرصة ، لمشاهدة مظهرها الحديث تقريبا ، لكن رايتها بقيت مرئية الى ما بعد قطعنا ، على السهل المنبسط ، أميالا كثيرة • وبدأنا الرحيل في الساعة الرابعة صباحا فبلغنا (الطون كوبري) عنـــد العصر • وفي شمالي هذه البليدة تحلّ التلال الخفيضة محل السهل ، وأوديتها في هذا الفصل من السنة طرزت بالزهر العميم • وبينا كنا نمرّ بمحاذاة البساتين المونقة خارج البليدة أدركنا المطر كرة اخرى ولبّد درّ السماء الارض • هنا يخترق (الزاب الأسفل) السهل من الشرق الى الغرب ، محدّدا تخوم بلاد آشور الحقّة ، و(حدياب) المتأخرة • (الطون كوبري)[١١] موقع لاحظ له من تأريخ معين ، وهي تقوم على جزيرة

---

(١١) يعني اسمها بالتركية (قنطرة الذهب) ، ومنهم من يذهب الى ان معناه (قنطرة الزاب) وسماها الاتراك بـ (قنطرة الـــذهب) للتشابه اللفظي بين (زاب) و (ذهب) ، و (الذال) تلفظ عند الاتراك (زايا) • والبليدة اليوم فيها جسران حديثان على ذراعي الزاب (المترجم)

بين فرعي النهر . وينفذ اليها من الشمال من جسر طويل ذي عطفة في الوسط ، كانها المرفق . وما ان يصل المرء هذا المدخل الآ يتحداه شخص يخرج من تعب في سور ويبدأ بعد البغال ، ثم يناوله بطاقات لقاء دفع رسوم. ان هذه البطاقات تخول عبور الجسر ، والجانب الجنوبي منه من دون كلفة اخرى . والموقع ذو رواء ، يقوم فوق جزيرة ، وقد بُنيت بجدر البيوت باعتدادها امتداداً لواجهة الشاهق الصخر الادنى ، فاعطتها مظهرا حصينا . ويخترق المدينة شارع طويل فذ ، ويسميه عرب الانهار ، ومن في بغداد ، بالقنطرة . وثمة سوق صغيرة تُشغل نصف طول المدينة ، تنتهي بمقهى (جايخانة) كائنة في ادنى البليدة،ثم تليها الثكنات ، تحل فيها قلقمن الجند بين الفينة والفينة، واخيرا (دائرة البرق) ، يمر منها المرء ليبلغ مقهى كبيرة اخرى ، فاقدام الجسر الذي اطلق اسمه (قنطرة الذهب ـ الطون كوبرى) على الموقع نفسه .

ولعل اسم (الجسر السنامي) اصح من اسمها الحالي ، كعنوان واصف. والركوب صعدا ونُزلا يعتد امرا مستحيلا ، اذ من الضروري ان تدفع البغال والجياد المحمّلة بعناية وتقاد على منحدراتها المائلة .

كمثال من الامثلة على التجربة الباسلة في تخطيط الجسر ، انه لممتاز . ومن الضروري ان يكون مظهرها الخارق قد أثّر في (بانيه) الى حد كبير جدا ، بحيث حصل على اسم «قنطرة الذهب» . انها من النوع السوي غير المتناسق المبني بالحجر والطلاء .

ووقفت بأخَرة على معلومات اكثر عن الموقع ، لكننا في هذه المرّة مررنا منه مباشرة ، وعلى وقع شؤبوب انزلنا الاحمال في باحة تقع بين بيوت قليلة كائنة على شاطىء النهر الجنوبي . وذهبت (رفقتي) الى مقهى صغيرة قريبة ، اما انا فلقد وجدت غرفة في ركن من الباحة يشغله درويش ، يتخذ حياكة البسط حرفة ، وهي حرفة غير معروفة في هذه الارجاء . ووافق على أن اشاركه السكن في هذه الغرفة ، مشيرا عليّ بالا اجلس من

الباب قريبا جدا ، فلقد دأب على السقوط بين الحين والحين • ولما كنت احل" في بلدة ، وغطاء رأسي الكردي مبتل" وثقيل جدا، لذلك نبذته واستبدلته بطربوشي ، وبذلك حصلت على لقب «افندي» على لسان الدرويش ، على حين لم أكن قبلا الا أخا او «حبيا» • ينضاف الى ذلك انه شغل نفسه بالقيام على خدمتي ، واخذ يسألني في الوقت نفسه عن الجهة التي أقصدها ، وكان سؤاله بالكردية • واخيرا توقف ، في وسط نفخ نار يتعالى يحمومها ، وتطلّع الي ، تعلوه تصف ابتسامة ، وخاطبني بالفارسية • لقد وقف على كلمة فارسية او كلمتين استعملتهما اليه تأييد ما ذهب اليه الا" بَدَر الى كلمة فارسية أو كلمتين استعملتهما في تكلمي باللغة الكردية • وما ان سمع فارسيتي الا اظهر معرفته بالالسن ، مصر"ا على أني شيرازي ، ما الى الشك في ذلك من سبيل • وما ان تناهى اليه تأييد ما ذهب اليه الا بدر الى استبدال «الافندي» التي استعملها بـ (الاغا) ، وهو اسلوب مهذب في الخطاب بالفارسية • وما كان مطمئنا الى مثل هذا التكيف للامور ، لقد نهض واخذ يدي وقبل وجنتي" ، وسبّح :

« بحق أمير المؤمنين [١٢] ، اكتحلت عيناي بالنور ، وغدت ايامي في هذا البلد الغريب كلها سرور » •

ولم ادرك في يوم من الايام بجلاء صحة القولة الكردية : ان الفارسية اعذب الالسنة ، أو الشيرازية القائلة : « أن كلمة فارسية في ارض غريبة افضل من شربة ماء في البادية • » فبعد اسابيع من عربية جافة ، وتركية خشنة ، ان لم تقل كريهة ، جاءت الفارسية الكردية كصوت الولي الحميم يتناهى بين ظهراني الاعداء • وكان درويشي من أهل نيسابور ، مسقط رأس عمر الخيام ، طائر الصيت ، وقد سبق له ان رحل منها مشيا على

---

(١٢) لا يستعمل هذا التعبير بالنسبة الى الامام علي الا الشيعة أو المسلمون الفرس (المؤلف) •

قلنا : هذا وهم آخر من اوهام (المؤلف) ، فالمسلمون قاطبة يطلقون على الخلفاء الاربعة الكرام ، ومنهم الامـــام علي بن ابي طالب رضي الله عنه ، لقب (امير المؤمنين) (المترجم) •

الاقدام الى مكة ، وعلى الرغم من مضي ثلاث سنوات على ذلك لم يعد اليها . انه يطوّف متدا مثدرّجا ، ويحصل على ما يقيم به اوده عن سبيل حرفته . انه لايسمح لي الآن بان اشعل لنفسي (سيكارة) ، وكان يبعث بي الى المقهى الـ (چايخانة) حين يقوم بكنس الغرفة، ويعدّ الشاي، ويطهو بعض البيض ويحصل على شيء من الجبنة والخبز .

لذا اتخذت سبيلي خارجا وولجت المكان الصغير حيث كان يجلس رهط من رجال متحلّقين على تخوت عالية . وكان ان أخلى كردي مكانا لطربوشي ، لا الى شخصي . لقد ميّز كرديته غطاءُ رأسه ، ووجدت ان رفقتي قد تحدّثوا عني ، وعلى ذلك قدّمت باعتدادي فارسيا من شيراز باسم (غلام حسين) ، وهو اسم لم يستطع الاتراك تبيّنه ، لذلك كنت اسمى حسين غلام افندي ، اوحسين افندي . لابدّ ان رفقتي في السفر اعلنوا عن مكاني وظرفي ، فلقد جيء بالشاي ، وكان ان نهض الكردي الجالس بجانبي وأخذ منضدة صغيرة من أمام أحد البقّالة ووضع عليها (استكاني). ومن المتعارف في تركية ، في آسية وفي أوربة أيضا ، الترحيب بالقـــادم الجديد بـ (مرحبا) مع رفع اليد الى العينين [١٣] . ان هذا العرف ، الى كونه من فعال التهذيب ، هو مقياس الخطر النسبي للاشخاص الذين يقابلون حديثا . وبعد «مرحبا» التي يلقاها الغريب يستطيع اقرار المكان الـــذي يحتله بين المجتمعين . وبهذه المناسبة حُيّيت من قبل كل فرد ، وبضمن المحيّين تركيان يرنديان البزّة الرسمية ، فرددت على الجميع على وفق العرف الشائع مربّتا على جبهتي باتجاه كل فرد مرددا بصوت مسموع : « مرحبا افندم ! » ، وكنت بها للترك مخاطبا .

ووجدت ان جاري الكردي يعرف من الفارسية قليلا ، وقد سبق له ان حلّ في طهران وفي كاشان أيضا . وكان ان قدّم نفسه بوصفه كرديا

(١٣) هذا الفعل هو اختصار لحركة معقدة ، والظاهر انها تبدأ برفع تراب خيالي ووضعه على الفم والراس (كذا) [المؤلف] .

من (مكري) ، من أهل ساوجبلاق عاصمة مكري تحديدا ، وندب حظه لبقائه في الاراضي التركية يصلح الأحذية . هنا بدأت أتحسس العواطف التي وجدتها تفصح غالبا من قبل النصارى والاكراد على حد سواء ، في جميع اراضي كردستان الجنوبية واراضي تركية الشرقية ، وتجنح الى الحكم الفارسي وعاداته وتنأى عن كل ما هو تركي . ومثل هذه الاحاسيس بين الاكراد قوية الى حد تحمل الكثيرين منهم على دراسة اللسان الفارسي واستعماله في جميع المعاملات التي تتطلب الكتابة مع عدم استعمال التركية ما لم يكن ذلك قسراً .

وكان نصف من في المقهى من التركمان ، من اهل الطون كوبري ، وهي احدى المستوطنات التي نجمت اصلا في أيام السلاطين السلاجقة ، في القرون الوسطى . انهم شعب طيب ، يزهو باصله ، وهم يظهرون تعاطفا كبيرا مع الترك العثمانيين الذين يعدونهم من الدهماء ، ولا حد لازدرائهم بسبب تحريفهم التركية ، وما يرتكبونه من أخطاء في نطقها . ويسمّون لغتهم ، وهي لغة اذربايجان في فارس ، التركمانية . انها خشنة تصدر عن لسان مشدد ، حلقومية على ماكانت عليه التركية أصلا .

وبعد ان احتسيت استكانين من الشاي ، نهضت وعدت الى (درويشي) فوجدته جالسا وراء (سماوري) الصغير ، والشاي معد ، والغرفة قد كُنست . لقد حصل على عدد من ارغفة الخبز ، وعلى كاسة كبيرة مليئة باللبن ـ (عيران) على ما يسميه الاتراك ـ وهو (الروب) مخلوط بماء .

وعلى عادة فارسية ، قام الدرويش بمجرد دخولي ، ويداه مشتبكتان الى قدامه ، ولم يقعد الا بعد ان جلست على قطعة البساط ، ورجوته ان يفعل ذلك .

ذكريات فلوصية

ومثل الآن (البقال) العائد الي ، كما مثل (قادر) ، وهو أحد رفقة سفري أيضا ، وكلاهما من الاكراد . وجلس هذان الرجلان بوصيد

الباب ، وعلى ضوء شمعة شاركنا في احتساء الشاي جميعا ، وما أن سمع الرجلان انني والدرويش نتكلم بالفارسية الا قدماني وصاحبي الى الابيات الشعرية التي يدأب القوم في كردستان على انشادها ، ومحصلها :

العربية رنانة

والتركية منجزة

والفارسية سكرة

والكردية كريهة

وغدوت والدرويش مستغرقين في الذِكر الفارسية ، وغرقنا فيها بحيث نسينا وجود الكرديين بيننا . ودأبنا على الحوار الى ما بعد انطفاء الشمعة وتلاشي صبابتها على الجدار الطين . وعلى ضوء مشعل من عصا تحترق قام الدرويش بمد فراشنا فاخلدنا اليه . واخذ الدرويش يتمتم من تحت ردائه : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، الى ان احتضنه النوم ولفه بشملته .

واستيقظ صباح اليوم التالي واخذ يتمتم بلطف في اذني : « اغا : اغا ! » . ان ايقاظ نائم باحداث ضوضاء مما يخرق المواضعات[14] بين الفرس .

وكان ثغر الغلس قد تبسم أو كاد ، حين كنا نزحف على طول الطريق الصخر المفضي من الطون كوبرى الى كركوك . هناك ثلاثة طرق بين الموضعين ، واحوال البلاد هي التي تقرر ايها تسلكه القافلة . وكان علينا في هذه المرة سلوك اطولها ، ذلك ان على يسارنا ، وهو الشرق ، تقع ديار الهماوند . انها بعيدة على التحقيق ، لكن منها كانت تخرج عصابات الاكراد المتجولة للغزو . وبالاستدارة الى اليمين ، وعلى بعد نحو ١٠ اميال من الطون كوبرى ، كان علينا ان نجوس خلال سلسلتين

(١٤) آثرناها ترجمة للكلمة الواردة في الاصل etiquette [المترجم]

من التلال الخفيضة الطويلة واقعة بين الموضعين ، ونحتمي بهما من الجهة الشمالية ونحن نمضي نلقاه كركوك جنوبا . انها آخر السلاسل تقريبا ، وهي اذ ترتفع وتتعالى بالتقرّب من المرتفعات الكردية ، تمتدّ كالديدبان بالنسبة لسلسلة جبال زاغروس ، وهذه‌هي، نفسها، سور‌الهضبة‌الفارسية. وكنا نشاهد من‌بعيد، على‌طول‌الطريق‌والى‌أن أصبحت‌التلال،الكائنة‌بيننا وبين الشرق ، قمما مجلّلة بالثلج واقعة فيما وراء رواندوز(١٥) ، في الاراضي الفارسية . ووجدنا طريقا يخترق السلسلة ، ولا يزيد ارتفاعها على ٥٠٠ قدم ، وخرجنا منه الى مكان متكسّر من اقدام التلال ، ترعى فيه قلة من الغنم الكردية ، وفي الاسفل من ذلك بعض الاعراب تحصد الشعير الأخضر ، لو ترك لمدة أطول لاصفر وشوّط ، اذ هنا الصقع الحار . وكركوك على السهل الذي تقع عليه بغداد ، نفسه ، وهي تعاني من طقس اسوأ ، فالريح الحارة تلسعها خلال اشهر من الصيف عدة . وما ان جاوزنا التلال هذه الا أصبحنا في صحراء منبسطة تمتدّ غربي دجلة ، وفيما وراءها حتى الفرات ، ثم فيما ورائه ، كرة أخرى، حتى‌سورية . انها أرض قفر مرت تسفي عليها الريح الحارة في الصيف ، كما ان في اواخر الربيع ، وحين تركد الريح وتغدو لافحة ، يستطيع المرء ان يختبىء في القفر الذي لا ظل فيه . وعلى مبعدة أربع ساعات من كركوك ، وبساتينها تتراءى كخط أسود على صفحة الأفق ، مررنا بخان خرب ، اكدّ لي (كركولي) كان يمتطي حمارا انه بقية خان بناه (الشاه عباس الفارسي) قبل نحو ٣٠٠ سنة .

وكانت الحنطة مستتبة على طول جانب الطريق ، لكن جحفل جراد أسود صغير كان مطبقا عليها ، تتقافز ملايينه وتعيث بين سيقانها الطرية فسادا وتدميرا . وروّعنا اذ شهدنا ، من بعيد ، بعض الخيام السود ،

---

(١٥) يتألف اسمها من (رواند) وهو اسم عشيرة كردية و [ودز] وتعني في اللغة الكردية القديمة : القلعة [المترجم] .

منزل الرحّالة ، ولم يهدأ روعنا حين ظهر فارسان من وراء تية في السهل. لقد كانا ، في الملبس والمظهر ، كرديين ، لكنهما اصرّا على التكلمّ بالعربية وهما سائران ، ولعل ذلك لاخفاء لهجتهما . انالشك الذي خامرنا جعلهما ، بطبيعة الحال ، من الهماوند حالا ، وان الواحد منا او الاثنين ، ممن كان عنده بندقية ، عمد الى وضع اطلاقة فيها . لكنهما ، اما ان يكونا قد سمعا اشارة ، او رأيا امارة ، في التلال التي كنا نجتازها ، غادرانا على حين غرّة ، وأطلقا لفرسيهما العنان فانطلقا يعدوان بهما ، وسرعان ما تلاشى أي اثر لهما بين التلال . وكنا قريبين من كركوك تماما بحيث الطرق ، طويلها وقصيرها ، ذوات ميل ، وما ان وصلنا المفرق ، الا قال لنا عربي جاء من (الطون كوبري) متخذا السيل القصير ، ان الفارسين كانا من أفراد عصابة سلبت في التلال قافلة في ذلك الصباح نفسه . وتراءى ان هذه العصابة ، وهي من الهماوند ، كانت تقوم بما تقوم به الدورية على الطريق الطويل في يوم ، وعلى الطريق القصير في اليوم التالي . ان حظنا الحسن جعلنا نسير على طريق خال منها ، لانها كانت مشغولة في غيره .

... وبلغنا كركوك

ان كركوك الواقعة عند نهاية هذه السلسلة لا ترى الا بعد أن يدنو منها المرء تقريبا ، ذلك انها ، بسبب اضطرارها الى ان تكون قريبة من معين ماء ، اتخذت موقعا عند مجرى نهر (يجف خلال نصف السنة) ويختفي بين التلال المحيطة به ، فيما خلا الجهة الشرقية حيث تنحدر الارض باتجاهه تدريجيا . وفي كركوك رابية يقوم عليها شطر من المدينة ، اما الشطر الباقي فيقع حول الجهة الجنوبية من قاعدتها .

وكان ان دخلنا قرية خارجة ، ومررنا خلال بساتين ، حتى بلغنا ثكنة ضخمة تحلّ فيها الحامية ، ثم مررنا بصف من المقاهي يجلس فيها احلاسها[١٦] من العاطلين الذي يلبسون البزّات الرسمية . وعبرنا قنطرة

(١٦) احلاس [جـ . حلس] وهم الذين لا يبرحون مكانا ما ، [وهنا المقهى] ويبددون الوقت ، عاطلين كانوا ام متعطلين [المترجم] .

طويلة من حجر ، فانعطفنا يمينا ودخلنا في خندس سوق قصير ذي طوق ، وعلو وعرض خارقين ، وخرجنا منه لنسير في شارع ضاج عاج ، حتى بلغنا (خانا) جديدا نظيفا .

انه ، على غرار كثير من الخانات الكائنة في مدن بلاد ما بين النهرين ، ذو طبيعة مركبة . ان باحته ، والاسطبلات الدائرة حولها ، للحيوان ، على حين يحل في الغرف العالية الكائنة على ثلاثة من جوانبه ، المسافرون ، والنزلاء ، والغرباء من دون نسوة . وكان مدخل هذا الخان بين مقهيين ضخمتين ، وخلفهما يقع الفناء ، وفوق هذا المدخل دائرة رئيس البلدية ، ووكيل شركة سنجر لماكنات الخياطة ، وهي حاجة تغلغلت حتى الاصقاع النائية في كردستان . وتنفتح هذه الدوائر على شرفة تتصل بالغرف المعدة للمسافرين مباشرة .

وتشتهر كركوك بتركمانها ، وفواكهها ، ونفطها الخام ، وكلها جمة . ولابد ان تكون عدة اهل المدينة ١٥٠٠٠ في الاقل . انها من المدن الكائنة على حدود كردستان ويتكلم أهلها ثلاث لغى . فالتركية والعربية والكردية يتكلمها كل إنسان ، وتستخدم الاولى والاخيرة في الاسواق ، على اختلاف . وعلى انها مدينة تركمانية تجد العرب الرحالة ساكنة في الجنوب والغرب منها ، وفي الشرق تقع أرض الهماوند الاكراد . ان السطوة التركية الساطية ها هنا ، ظاهرة جداء ولما كانت قريبة من بغداد ــ سبعة أيام ــ وسكانها يتكلمون التركية فهي قادرة على ان تجود بعدد كبير من الشبان على المدارس العسكرية ، وهذه ، بعد ان تربي الصبيان تربية ناقصة ، تخرجهم عاطلين فاسدين لا يستطيعون الحياة من دون البزة العسكرية . وتكون النتيجة : انهم جميعا يحصلون على وظائف في البريد والبرق والشرطة ودار المكس (الكمرك) أو ينخرطون في الجيش غير المتماسك السطحي ، باعتدادهم « ضباطا » ، ثم يعودون ، بعد ذلك ، الى مساقط رأسهم ، للتسكع في (الجايخانات) ، وهي لا تعد ولا تحصى ، ويقيمون اودهم بارعاب من

يمكنهم منه مركزهم ، مهما كان تاعسا ، وبالتهديد والاضطهاد • وعلى ذلك فان كركوك مليئة بالبزّات التي تحتوي حثالة البلدة ، وهم في الغالب من الاشرار السكارى ـ يمتصّون ماء الحياة فيها ، ويندفعون الى ابعد مدى من الشقاوة في سبيل الحصول على ما يقيم اودهم ، فهم ، في العادة ، لا يحصلون على معاش ما • وعلى الرغم من هؤلاء الشرطة المكتظّين لم يمسني سوء ، ولعل الجمع المركّب الذي يشهده سوق كركوك يجعل الغريب غير ملحوظ الى ابعد مدى فلا يسترعي منهم انتباها •

وعمارة المكان عربية محضة ، ويلحظ التأثير الفارسي في بغداد والموصل وديار بكر ومدن أخرى من بلاد ما بين النهرين وسورية ، ولا يلحظ ها هنا • وبناياتها من صخر مصمّت ولا حظ لها من رواء • وثمة مساجد قليلة واهنة الشأن ، ومنائر ، وهي قوية جدا ، ولكنها من دون زينة • كما ان هناك سوقا عظيمة ذات طوق تجود بالملمح العمراني على المكان •

اهالي كركوك

وفي الامكان المقارنة بين السكان التركمان ، أو بالاحرى الطبقة التجارية منهم ، وبين سكان بغداد والموصل ، ووجه المقارنة حسن جدا • فالغريب يحظى بتقدير كبير ولا يتقاذفه الناس ، ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يزعجه احد ، على غرار ما يفعل العرب في المدن الكبرى • وحين كنت اشتري الطعام وغيره في الاسواق ، وجدت امانة تدعو الى الدهشة ، وكان ذلك في كل مكان ، ينضاف اليها حسن نية ساذجة تمتلك قلب الغريب ، وهذا على الرغم من انهم حسبوني فارسيا ، ومحمديا شيعيا ، والسنة لا تتعاطف مع مثله الا قليلا (كذا ! : المترجم) •

وفي مكنتي أن أروي مثلا يظهر كيف تجلّت هذه الصفة الكريمة المضافة غالبا •

بعد أيام من وصولي وجدت ان نعل حذائي يخفق وانا اسير ، لذلك

اختلفت الى دكان في الاسواق تباع فيه الاحذية البغدادية • وكان أن اخترت زوجا وشرعت بالمساومة عليه ، ولما كنت أجهل السعر فلقد تحيّرت نوعماً في تحديد الاعلى من سعري • وطلب صاحب الدكان مجيدين ، أو ٤٠ قرشا ، فاقترحت ١٨ قرشا ، ثم اخذت بانزال ما طلب الى ٣٢ ، وما ان جعلت السعر ، على درجات ، حتى بلغ نصف ما طلب أصلا وتقريبا ، الا وجدت ان ذلك يكفي ورضيت به • واخرجت من جيبي مجيديا وشرعت ابحث فيه عن القرشين الباقيين ، وعند ذلك مدّ صاحب الدكان يده وقال :

« المجيدي هو السعر الحق ، انك غريب ، الم يوصنا نبينا باحترام الغريب[١٧] ؟ خذ الحذاء ، ولن آخذ منك أكثر من مجيدي • ان السعر لـ (كركوكلي) هو ٢٥ قرشا ، لكن الربح العظيم بيننا لا اهمية له ، على حين اكتفي منك بالمجيدي وآمل ان ترحل من كركوك حاملا ذكريات طيبة •

لقد صادفت مثل هذه الاحاسيس في كل مكان في كركوك ، ولا استثني الا النصارى ، لكن ذلك لا يعدو ان يكون طبيعيا ، فهم رأوني ، كمحمدي ، متنكّرا • وقدر لي أن اجرب لطف الكلدان وعطفهم على النصارى الغرباء في المدينة أخيرا •

وينضاف الى (التركمان) وغيرهم من المسلمين ، عـــدد كبير من الكلدان والنصارى السريان ، من أهالي بغداد • وثمة قلة من الارمن أيضا تعمل في الحكومة وفي الامور التجارية ، لكن هؤلاء من أهل ديار بكر أو ارمينية • ان مستوطن الكلدان عريق في القدم ، فلقد هاجروا اليه ، على ما تقرره اعرافهم ، في أيام (الب ارسلان) ، في القرن الحادي عشر • ذلك ان كركوك ، على ما يصرّ عليه اهلها ، هي اثارة من الملوك السلاجقة •

---

(١٧) وفي الاثر الشريف [من غشنا ليس منا] وبمثل احاديثه الشريفة هذه اراد نبي هذه الامة الهادى اشاعة الثقة ، وهي الاساس في التعامل التجاري ، والتعاطف واعلاء شان الامانة •

وفي الاثر ايضا (تركتكم على الواضحة ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى الا هالك) [المترجم] •

وقد يكون هذا أمرا ممكنا أو محتملا • وعلى النقيض من كلدان الموصل ، لم ينس القوم الحروف السريانية ، وعلى حين لا يتكلمون الا التركية فانهم يستخدمون هذه الحروف عندما يكتبون الى بعضهم بعضا • لا يسكن بين ظهراني الاكراد الا الكلدان ، وهم الذين احتفظوا بلغتهم ، كتابة وتكلما • وفي الموصل ، حيث تعدّ معرفتها شطرا من التعليم الجيد ، لاحظ لها من ذيوع وشيوع ، وعلى المرء ان يتّخذ سبيله الى القرى ان اراد سماعها •

وفي كركوك كنيسة يرعاها رجال دين من الموصل ، والكلدان ، وعلى غرار جميع مَنْ في الاراضي التركية ، هم من الروم الكاثوليك ، ذلك ان الكنيسة الكلدانية العتيقة قد زالت تحت وقع هجمات طائشة قام بها الروم الكاثوليك ممن اتبع سياسة مكيافلية في جعل الكنيسة القديمة خاضعة للبابا ، وهو تحول لم يسفر عنه الا ما هو اردأ(١٨) •

وهم في كركوك يتمتّعون بحرية أكبر ، بقدر تعلّق الامر بالاضطهاد ، وذلك على الرغم مما يعمد اليه رجال الدين المسلمون ، بين الحين والحين ، من اثارة شعور العداء بازائهم • ان وجودهم ضرورة لازمة لصالح البلدة ، وان مذبحة ما لا تؤدي الا الى كارثة بالنسبة للتجار المسلمين ، وهم الذين حملوا ، بسبب من استقامتهم ومقدرتهم ، على وضع ايمانهم وثقتهم فيهم ، وعلى ايداع مبالغ ضخمة لديهم غالبا • انهم ، بهذه الصفات الامينة ، وفي قدرتهم على مسايرة المسلمين بمحبة ، ومن دون أن ينزلوا عن أي شيء في

(١٨) لكيلا تتراءى هذه العبارة غير واردة رأيت ان ادعمها برأي الكلدان انفسهم • انهم في اغلب الحالات شاعرون تماما بالظروف التي امتص فيها اسلافهم ومعاصروهم من قبل الكنيسة الكاثوليكية الرومية ، وان قليلا منهم سمعته يبدى عطفا ما على الامر ، فيما خلا الندم العميق ، واكثر من هذا انهم ليعلمون الان امكان الحصول على التربية الممتازة التي تجود بها الطائفة الرومية الكاثوليكية من دون امكان الحصول على التربية الممتازة التي تجود بها الطائفة الرومية الكاثوليكية ، اي من دون ان ينشقوا عن كنيستهم ، ذلك ما علمتهم اياه (البعثة) التي أوفدها (رأس اساقفة كنتربرى) • [المؤلف]

تصرفهم ، كنصارى متمسكين بنصرانيتهم ، على طرفي نقيض والسريان والارمن والنصارى العرب .

وهم لايتميزون بلباس رؤوسهم وقمصانهم حسب ، ذلك انهم يلبسون القباء الطويل المخطط الذي يصل الى الكعبين ، و (السترة الزوف) أو (سلطا) وكلاهما ، على كل حال ، غير موشى بالذهب والفضة ، وعلى غرار مايعمل الاكراد .

ويشد القميص عندهم حول الرسغين ولا يظهر من تحت الأردان الطويلة لسترهم ، هذا على حين يتألف غطاء الرأس عندهم من كفية زرقاء لفت حول (عرقچين) ، وهو وسيع عريض يحف بالرأس تماما ولا يبرز على غرار ما في عمامات المسلمين .

والى سنين متأخرة لا يزالون يميلون الى الاردية المخططة الصفر ، فاقع لونها ، وهذه آثاره ، ولا مراء ، من الزامهم باختيار لون معين في أوائل القرون الوسطى على يد خلفاء بغداد الذين يأمرون غير المسلمين بارتداء لباس متميز ، وبلون العسل عادة .

وفي كركوك طائفة من اليهود كبيرة ، هي طليعة جموع هذا الشعب الذي وجد من هنا وسرقا ، حالا في كردستان حتى سنا الكردية ـ الفارسية ، وهمدان .

ويحتمل ان ابناء هذه الطائفة قد نسلوا مباشرة من يهود (السبي الثالث)[١٩] الذين نقلهم (نبوخذ نصر) الى بابل في القرن السادس قبل الميلاد ، بعيد انهيار الانبراطورية الآشورية .

انهـم يصطنعون الحروف الارامية ، ويتكلمون ، في كردستان ، العبرانية ، وثمة حقيقة رائعة : فالكلدن في سنا الكردية واليهود فيها ، على

---

(١٩) في السنة الثالثة من حكم يواكيم ، ملك يهود ا، جاء نبوخذ نصر ، ملك بابل الى القدس وحاصرها . واوقع الاله يواكيم ملك يهودا في يده ، مع شطر الاوعية السموية لبيت الله ، فحملهما الى ارض شنعار (سفر دانيال[١] (١ـ٢) . المؤلف]

ان كلا منهما ينحدر عبر احقاب شتى ، يتكلمون باللهجة السامية القديمة نفسها ، وهذا دليل قاطع ، ان احتاج الامر الى دليل ، على أصل الكلدان السامي .

وفي كركوك ، كما في كردستان كلها ، يحترف السكان ، في الدرجة الاولى : صناعة الجوخ وتجارة الحرير ، هذا وان تجارة الاقمشة القطنية وطبعها بيدهم حصر . لقد تقدم ابناء دينهم في بغداد الى درجة ان قطنيات كردستان اخذت تجهز من مانجستر على يدهم فيها .

وعلى ذلك فكركوك مؤلفة من مجموعة أجناس تركية الشرقية كلها . اليهود والعرب والسريان والارمن والكلدان والترك والتركمان والاكراد . وعلى ذلك تتمتع المدينة بحرية عظيمة من التعصب ، وذلك الى ان لحاكمها التركي قبضة شديدة يصطنعها في حفظ النظام فيها ، فعنده قوة عسكرية كافية للهيمنة على كل عنصر من عناصرها . ان الاكراد هم العنصر الوحيد من بين السكان الذي يتسم بصعوبة المراس ، وهم يجتوون جميع أنواع الحكم ، والنظام ان لم ينبثق عن (خاناتهم) . ومن نكد الطالع ان هذه الحال الممتازة لا تمتد الى أكثر من ميل أو ميلين ، خارج المدينة ، حيث تجد كلا من العرب والاكراد على حال من ترحال ، ومتحدين الناس جميعا .

قنصل فارسي

وفي الاسواق يشاهد المرء ، بين الفينة والفينة ، اناسا قتاما مهلهلي الثياب جدا ، يصطنعون لهجة لا يميزها الا المسافر في الجنوب - الشرقي من فارس . انهم اللور الفيلية ، رعايا فارسية ، ويتطلب وجودهم هنا تعيين قنصل فارسي . لقد فرض هذا الرجل نفسه علي على الوجه التالي :

---

(٢٠) يلحظ القارىء الكريم اننا نستعمل بعض الكلمات الدائرة على السنة العامة عندما تكون ادل على المعنى المقصود ، وارجو الا ينسى ان اماما من ائمة البلاغة ، واعني به الجاحظ ، لم يتحرج من استعمال بعض الفاظ عامية . [المترجم]

لقد عرفني الذين كانوا يختلفون الى (الجايخانة)[20] الكائنة قرب الخان ، خلال الايام القليلة الاولى من حلولي فيه ، باعتدادي فارسيا من شيراز • ولما كان الفرس في كركوك لا يوجدون الا على الندرى ، فلقد سمع القنصل بوجودي سريعا • وذات يوم مثل أمامي كردي يحمل (شارة الاسد والشمس) ، ولكن من دون امارة أخرى تدل على انه موظف قنصلي • وطلب مني جوازي الفارسي ، ولم استطع ان اطمئنه باني من الرعايا البريطانيين ، وعلى ذلك لست بخاضع الى قوانين جواز السفر الفارسي • ولم أستطع بجميع ماقلته له بأن أقنعه بذلك، وبأني أحمل الرعوية البريطانية ، ذلك ان مجرد تكلمي بالفارسية بطلاقة ناقض ما كنت اؤكده ، لكنني كنت صلبا لذلك انصرف عني أخيرا •

وجاءني بعد يومين اثنين ، لكنني في هذه المرة كنت على استعداد لاثبات هويتي الفارسية واني احمل الرعوية البريطانية • فلهذه الغاية رتبت جواز سفري الصادر من (وزارة الخارجية) ، وهو يحمل سمات القنصلين : التركي والفارسي في لندن • وهذه تحتوى على مقدار معين من المحررات باللغتين ، وتحت كل منهما كتبت ، بحبر هندي يمكن مسحه عن طريق اللعق أخيرا ، الكلمات : « ميرزا غلام حسين شيرازي » ، وتحت السمة الفارسية بخط « شيكاستا » الفارسي ، وتحت السمة التركية بالخط الذي يصطنعه الاتراك • والان ، لقد ابرزت هذا ، مزهوا منتصرا ، الى الرسول والى تلك القلة من الناس الواقفين الذين تعرفت عليهم ، وله الشعار الانكليزي وتوقيع سر ادورد كرى • ثم ادرت ذلك الى الخلف حيث توجد السمتان : الفارسية والتركية ، واسمي تحت كل منهما • لقد اصاب ذلك النجح التام ، وغدا (الموظف) مهذبا وغير من لهجته وكان تأثيره في الحضار اني حصلت على كثير من (المراحب) وقد ترددت في المقهى بعد ذلك •

وشغلت في صباح اليوم التالي بقليل من الخياطة ، ذلك ان معطفي

أصبح يبعث حرارة شديدة ، أو بالأحرى ان الطقس أصبح حارا بالنسبة لارتداء معطف كهذا ، وما كان لدي رداء طويل يكفي لاظهاري بالمظهر اللائق فيما خلا القفطان الرقيق ، لذلك لبسته مضطرا . وكان ان نزعت منه الاشرطة الكثيرة ، وشد الخصر ، وخطت بعض الازرار ، فاسفر ذلك عن لباس سمي ، بعد ذاك ، (لبادة) أو سترة طويلة ، يرتديها طلبة العلم وتجار اذربايجان .

وبينا كنت اخيط الزر الاخير ، اذ بالباب يطرق ، وكان خادم القنصل الفارسي هو الطارق . وشهدته واقفا عنده منحنيا ، وقائلا : « اتريد الذهاب لمقابلة القنصل الفارسي باعتداد ذلك زيارة ودية ؟ » . انه في الخان وشديد التوق الى التعرف « عليك » . وعلى ذلك ارتديت لباسي الجديد وسرت في اعقابه على طول الشرفة .

وكان ان وجدته في غرفة كائنة على الباب الكبير ، جالسا على النهاية العليا ، فوق سجادة صغيرة ، وتحته ، أي بازاء الجدار الجانبي الطويل وقرب الباب ، كانت ثمة مجموعة من أكراد شتى ، من صاو جبلاق ، وسنه ، ومريفان ، وغيرها من المدن الكردية . ان الكفافي التي يلبسونها كغطاء رأس دلت على اصلهم . وكان يقف بقرب القنصل شيخ ثخين ذو لحية كثة يرتدي سروالا فضفاضا وقميصا متينا ، زي البقالة الفرس من أهل الحدود ، لكن قبعته كانت تدل على انه من (مكري) . وكانت الغرفة مشغولة جزئيا بثلاث مناضد عليها آنية واحواض من نحاس وتحتوى على أطعمة منضجة شتى . وكان هناك ماعون مغطى بقليل من الحلوى ، تم انضاجه لساعته ، وقد قام بقرب فرن من اديم كائن في زاوية ، كما كان ثمة شاب يعنى بوضع ماعون جديد مليء بحلوى لم يتم انضاجها بعد . وكانت (كلات السكر) موضوعة بازاء الجدران ، معلقة بدسر ، كما كانت هناك منضدة أصغر ، قريبة من النافذة مظللة بقناني فيها مواد ملونة وجهاز من أجهزة الحلويين . وكان القنصل يجلس بين ذلك كله .

انه يتراءى شرسا ، أسمر اللون ، ويرتدي اللباس الكردي ، لكنه كان يضع على رأسه قبعة اللباد وكفيه ضيقة يصطنعها أكراد كرمنشاه عادة .

والى هذا المجلس دخلت ، وكنت أمشي بدقة لاتفادى الثقبات العديدة الموجودة على أرضه . وكان ان قام الجميع يردون على تحيتي : (سلام عليكم) ب (عليكم السلام) المدوية ، كما اضاف اليها الرجل الملتح : (ورحمة الله وبركاته) .

وافرغ (القنصل) مكانا لي بجنبه ، واجاب عن تحاياي بلغة فارسية ممتازة . واخذ الاكراد المتجمعون ، وما كانوا ليفهموا منها الا قليلا ، في بحث ثأر قبلي نجم في مكان ما ، وتركونا نتحاور . وكان ان شارك في حوارنا الرجل الملتح الذي تبين انه تاجر الحلوى ، واحد الرعايا الفرس من (صاو جبولاق) . وكان الحاج رسول درويشا من طائفة الشيعة المسلمة وشيخا تنفس به العمر حتى وهن عظمه ورق جلده .

ولا معدى عن ان ينثني نقاشنا الى السياسة ، ولما كنت اذهب الى ان رفقتي كانوا من القوميين ، وعلى غرار جل الفرس اليوم ، لذلك شرعت بوصف بعض أفعال (المجلس) في طهران ، خلال سنة ١٩٠٦ و ١٩٠٧ ، فألقت الرفقة السمع الي في صمت :

والصمت أجمل بالفتى من منطق في غير حينه !

وكان ذلك لحين من الدهر ، ولم يبد احد منهم رأيا . وما ان انتهيت الا بدأ القنصل يثني ، منطلقا بحماس كبير ، على محمد علي شاه ، ويلعن بلغة حادة جدا الحركة الثورية التي تميل الى وضع السلطة بأيدي رعاع وهراطقة ، متآمرين ، وضعاء ، سفلة . وكانت حججه ترتكن الى أساس من العصبية ، واشفق من ان اغلب حجج الملكيين ، المقدمة في تلكم الايام ، كانت على هذه الشاكلة . وبثا للحرارة في موضوعه قرأ علي عظة تتصل بالشر الذي ينجم عن السماح لمقلبي النظر بان يقاد بحجج منوعة يدلي بها اناس يلجأوون الى الاولياء ليشهدوا على صحة فعالهم الشريرة . وفاض قلبه بكلام الله فجرى على لسانه ، وهو يزداد هياجا ، ثم توقف على

حين غرّة اخيرا ، وقد انقطع منه النفس ، وانقذ ، وعندت الى ان اثنيه عن الموضوع ، فلخذ يقصّ الصعوبات التي يجيبها ، وتأنيب الضمير الناجم عن قضية زوجه الاخيرة ، التي كانت تعاني من مرض خطير داخلي ، وكان قد اخذها الى الموصل لعرضها على طبيب انكليزي فيها .

قال : « ان هذه القضية مبعث قلق مستدام بالنسبة اليّ ، ذلك اني لم اعلم مطمئنا ان الله يقرّ النتائج التي تدرك في النهاية ، ذلك ان المنية انشبت اظفارها فيها . » لقد اخذتها من السليمانية الى الموصل محمولة على محفّة ، ووضعتها أمام الطبيب الاوربي ، ومعها هدايا من ذهب وفضة وبطل من (البراندي) ، اشتريته خصيصا ، وانا اعلم ان مثل هذا مقبول عند النصارى . وهزته الاريحية لانه رجل سميذع ، وان كان كافرا . لقد رفض الهدايا وادخلها . وسعى اياما طوالا مصطنعا كل ما لديه من معرفة ينشفيها . وعلى الرغم من العيب الذي يجيء من جراء رؤيتها عارية ، وما ينثال علي ، بسببه ، من هزء وسخرية ، فاني ثبتّ ، لكن الله العليم اخذ حياتها :

تجلّدت حتى حطم الكظم اضلعي   وكاد من البينين ينثر الجمر !

ومع ذلك ، فاني أرى لعل في موتها ما يفصح عن عدم رضاء الله جلّ وعلا ، ذلك انها ولو كانت امرأة فهي مسلمة وزوج مسلم ، وما كان الاسلوب المتبع محتشما . »

وتراءى ان قد سُرّي عنه حين رويت له حادث زوجة روحاني كبير من شيراز ، وقد شفيت على يد طبيب اوربي .

وبعد هذا انفضّ الاجتماع وغادر المكان ، وانا في اثره . وعلمت ، بعد ذلك ، انه كان يجمع ، الى وظيفته ك (قنصل) ، مهنة تصليح الساعات، لذلك كان يدعى (مرزا ساعجي)، وكان لدى الشيخ الهرم، صاحب دكان الحلوى ، ما يقوله قبل ان انصرف ، لذلك خاطبني بفارسيته الضعيفة الممزوجة بالكردية :

« انا رجل وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا وقد طوّفت في كثير من المدن ، من سلانيك الى البصرة ومن طرابزون الى مكة ، لكنني لم افتقد أية فرصة سنحت لي للتعرف على فارسي ، أو شيعي ، أبدا . دعنا لا ننسى بعضنا بعضا . كلانا غريبان ، وكلانا من تلك الارض التي هي اجمل أرض في الدنيا ، حيث يعامل المسلم المسلم باعتداده اخا لا عدوا ، وعلى غرار ما يفعله اولئك الترك دوما . لذا ، يجب الا يقول قائل : اني الحاج رسول ، وان كنت لا اعدو كرديا فقيرا ، فقد خرقت عرف الاسلام وفارس والاكراد على حدّ سواء . اني اعمل هنا نهارا ، واجلس في الشرفة ليلا ، وحيدا . ساعدني على ابعاد الوحدة عني بصحبتك المستدامة ، مادمت هنا باقيا » .

لقد كان العجوز مخلصا الى حد لا لبس فيه ولا غموض ، وكان يفصح عن مكنون نفسه بحمية ، مما حملني على أن اعده بالعودة في تلكم الامسية ، واراه خلالها .

كانت ثمة اريكة طويلة في الشرفة التي كنا نستطيع ان نستشرف منها على حشد الناس الموجودين في اسفلها ، وعلى حركات الشرطة ، وكان مقرّها امامنا تماما . وكان يقام هنا صباح كل يوم (مزاد) في وسط حشد يجلس على ارائك عالية تظللها اشجار عارشة ويحتسي آحاده الشاى او القهوة ويبحثون في السياسة المحلية ، ويدبرّون ، بآراء جيرانهم ، المؤامرات الخفية .

ان الجمع الذى كان يختلف الى تلكم المقاهي – ومن بينهم اربعة رجال كانوا حول باب الخان – لايعدو مجموعة من اشدّ خلق الله عطالة وتعطـــلا .

ولما كنا بقرب دائرة رئيس البلدية ، ومحكمة الشرطة ، ودائــرة أخرى من الدوائر الرسمية أو دائرتين ، فلقد كان وجود ذوي البزّات الرسمية الطفيلين غالبا ، كما كـان حضورهم في نحو الساعة الـ ١٢ (وهي آنئذ الساعة السابعة مساء) ، كما كانوا يجلسون حتى الساعة

الثانية ، ثم ينصرفون ، بعدها ، الى بيوتهم في (البليدة) ثم يعودون الى الظهور ، قبل ساعة من مغيب الشمس ، فيجلسون مثرثرين مداعبين حبّات (سُبحاتهم) ، على وجه مستدام ، وحتى وقت متأخر من الليل •

ان القادم الجديد الى كركوك ، ان أراد ان يشتري خبزا ، عانى صعابا ثقالا ما لم يعثر على باعته الخاصّين وهم يحملون هذا القوت اللازم في سلال غير ذات غور ويطوفون به هنا وها هنا • ولما كنت اروم الحصول على تمر فلقد اشتريت شيئا منه في اليوم الاول من وصولي في دكّان ما ، ولحظت ، عند الباب التالي ، سلّة خبز ، فحاولت ان اشتري رغيفين ، لكن اصحابه كانوا غير راغبين في بيعه • وماكانوا ليرعوا القضية اهمية ، ما لم اشتر من دكانهم شيئا آخر • وكان ان رفضت هذا ، وشرعت بصب جام الغضب بازاء عادة كهذه ، وهي تزعج الغريب وتحرجه ، وتتركه في بلد غريب جائعا • وهذا حملهم على ان يقدّموا قطعتين ، على سبيل الهدية ، ولم يسرني ذلك الا في الاقلّ ، ثم كان ان وافقوا اخيرًا على ان يبيعوني ما أروم ، وهم في ذلك كارهون جدا • ان بيع الخبز وحده من قبل ارباب الدكان امر نادر في جميع بلاد مابين النهرين السنية ، شأنها كشأن بلاد التركمان ـ وأهلها ، وعلى غرار هذه الحالة يعطونه ولا يبيعونه • ولعل مردّ هذه العادة ، في هذه الأرضين الابوية ، الى ان الخبز يختبز في البيوت ويعطى الى جميع من يطلبونه مجانا • ان بيع مثل هذه الضرورة اللازمة ينظر اليه نظرة الازدراء والمهانة •

وذات مساء ، والشمس الى مغربها ، انضممت الى الحاج رسول حيث يجلس على أريكة في دوّامة من دوامات التأمل ، سابرا مُتعمّقا • وكان عنده رفيق ومساعد ، يقوم بالاعمال ، المتّصلة بحياتهما اليومية ، ومنها : الطبخ ، وتنظيف غرفتهما ، ونشر اغطية الفراش والطنفسة التي يجلس عليها • وكان هذا الشاب من اهالي ازمير ، صبيا تركيا ساذجا ، وافضل نموذج من نماذج هذا الجنس عرفته • انه نادر في البلدان المحمدية ،

سنّي أصبح شيعيا ، ف (الحاج الشيخ) هو الذي صيّره على هذا . وعلى الرغم من صنعته لم يكن ليتكلم اية لغة غير التركية .

درويش وقطه

وثمة رفيق مستدام لهذين الرفيقين الغريبين هو قط ابيض ، وكان كلاهما يكلفان به كلفا شديدا . ولما كان القط معهما مذ كان صغيرا فلقد كان يتبادل معهما احساسا باحساس ، لذلك استتبت فيه ذكاء على درجة كبيرة من السمو .

وكان الحاج الشيخ قد اشتراه في حلب ، وكان له قفص صغير يرحل فيه . وكان طعامه يطبخ له خصيصا من قبل التركي الشاب ويطعم في أوقات منتظمة .

لقد كان نظيفا من دون وضر ، انوفا لا يروم الاتصال بالقطط التي تجتاح سقف (الخان) ، بل كان يطردها من جواره .

ان الفرس والاكراد يحبون القطط حبّا جمّا ، وفي المدن الفارسية الكبيرة من المؤسف انْ لا تملك أسرة قطة أو أكثر ، باعتدادها من صنف الحيوان الاليف ، وعلى غرار ما يحدث في أوربة .

ومنظر غريب ان يشاهد الاكراد الافظاظ الذين كانوا يأتون لمشاهدة الحاج وهم يدحرجون الاطلاقات له ليقتّبها ، او يضربون على قفاه الصغيرة بيد خفيفة ، ولا يحملونها على أي شيء آخر ، وهم يتحدثون اليه بجد وبلسانهم الخشن .

والحاج رسول نفسه يتكلم العربية والتركية والكردية وقليلا من الفارسية . لقد حصل على ذلكَ خلال تجواله الذي استطال ٢٢ سنة . لقد بدأ رحيله من ساوجبلاق قبل ٢٢ سنة وسار منها عبر كردستان والاناضول الى اصطنبول . وهناك تعلم صنعة الحلوى . وتوافر لديه نقد قليل فسافر الى جدة ، ثم كان أن أدّى فريضة الحج العظمى . ومن المدينة سار الى دمشق ماشيا ، وما ان وجد عملا الا استقرّ فيها . ثم انه

رحل الى سلانيك أخيرا ، ومنها الى ازمير حيث لبث بضع سنين يجمع مالا يمكّنه من القيام بالرحلة الطويلة الى الكاظمين وكربلاء ، قرب بغداد ، وهما اقدس العتبات عند الشيعة المحمدية طرّا .

لقد امضى ستين ، وهو يسعى على مراحل ، ليصل ، من ازمير ، الى كركوك ، ويحاول جمع نقد يكفيه للوصول الى بغداد . ومهما يكن الامر ، ما كان ليستطيع المضي اليها ، عندما رأيته ، ذلك ان الهماوند كانوا قد قطعوا ، بغاراتهم ، طريق بغداد .

لقد كان متعصبًا الى ابعد حد ، ونادرا ما رأيت أحدا على مثل تعصبه .لقد كان يرعى ما تفرضه الشريعة حرفيا ، بقدر تعلّق الامر بالنصارى ، وكان يُعنى الى ابعد حد ، بالاّ يكون له شأن معهم ، لكنني وجدته رجلا عادلا محسنا ، ذا قلب طيب جدا ، ويتوق الى ان يعاني ، الى قصاراه ، ليعينني على أن أكون مرتاحا . ولو حيّاه نصراني ب (سلام) فلن يردّ عليه بالتحية نفسها ، وبذلك يفصح عن اقصى درجات التعصّب لدى الشيعة ، لكنه ، على غرار كل مسلم مخلص ، كان يأسو من تفسّخ الاسلام وينزل اللعنات بعنف على المتخلّفين عن دينه ، وبأكثر من الخلعاء بين النصارى . قال : « ان لدى هؤلاء الشريعة والكتاب ، ونور الاولياء يتألّق أمامهم ، على حين كان اولئك على الطريق غير المستقيم دوما ، ولا يعرفون ما هو افضل ابداً » .

لقد كان في جميع معاملاته صادقا ، وما كان يفضل المسلمين على النصارى في قضية تجارية ابداً .

واعتاد ان يغوص في دوّامة من التأمل . وذات ليلة سألني عن اسمي ، وما ان سمع (غلام حسين) الا اخذ يردده كرات عديدة .

كان يتمتم : « غلام حسين ، غلام حسين ، عبدالحسين ، انا فداه . آه ياحسين! هل لاتنهض وتوقع بالسنة (كذا ! المترجم) الذين ذبحوك ! هو الطاهر النقي الذي خانه الشرير وذبحه ــ آه ! ما اعظم الاسم :

عبدالحسين وما اجمل الحياة التي تعاش ، حسين ، حسين ... ، ثم انه كان يهوى في اغماءة ويتمتم ، بين الفينة والفينة ، «حسين» ، مستعرضا ، ولا مراء ، تفصيلات فاجعة ذلك (الروحاني) الذي تشبه اخلاقه اخلاق أي قدّيس نصراني (كذا ! المترجم) ، وما كانت تضحيته بنفسه (والجود بالنفس أقصى غاية الجود) واباؤه بأقل من ذلك بطولة .

هو كردي ، لكنه ينكر طيش الاكراد الذين يولعون بالرقص والغناء كثيرا . فالبغّالة كانوا يجتمعون ، كل ليلة ، فوق سطح بعض الغرف في الفناء ويغنون (الكوراني) ، او الاغاني الشعبية ، ويرقصون على نغمات المزمار ، ويزداد هياجهم ويتظمون في جماعات مرتلّة صاخبة . وفي الاحيان كانوا يقيمون مباريات في المصارعة ، ويرمون ، فوق اديم الباحـــة ، بعضهم بعضا ، وتختتم التمرينات في الغالب بما يفصح عن مزاج فائر حار ، اذ تستلّ السكاكين ، ولا تنفد الا بعد ان يرسل احد المتفرجين نكتة يتعالى في اعقابها الضحك من قبل الجميع .

وتأخّرنا في كركوك ، وكنا في ذلك يائسين . فالهماوند قد قطعوا الطريق الذي خلفناه ظهريا ، واتخذناه سبيلا ، شأنه كشأن الطريق المفضي الى بغداد ، والى الشرق ، حيث طريقنا ، تقع بلادهم الخاصة ، وعبْره لا تستطيع حتى سرايا الجند ان تسير .

وكان يعلن في كل يوم ان محاسبا معيّنا من محاسبي الجيش الذين يعدّ وجودهم في السليمانية ضرورة لازمة ، سيحاول المرور بمئة جندي مسلحّين ببندقيات (موزر) ، وقد استُخدم لذلك عدد من البغال ، لكن الرجل الصالح لم يظهر عليه انه يفكر في الذهاب . وكان رشيد (بغّالي) قد استخدم جميع بغاله التي استطاع التخلّي عنها للحكومة ، لهذه الغاية عينها ، وكان ان اعد تاجر كلداني مقدام ٥٠ حملا من السكر للسليمانية المنعزلة . وانتظرنا لمدة ١٦ يوما ، واخيرا جاء الأمر بالتحميل عند منتصف الليل ، والتجمّع خارج كركوك ـ على معنى الالتحاق بالقافلة الرئيسة

والاحراس . وكان رأس القافلة شخصا يدعى : شفيق افنـــدي ، وهو كردي من الـ (شوان) ، أي : الرعاة ، وهي قبيلة كبيرة تسكن التلال الكائنة في اراضي الزاب الاسفل . وبناموسه ، وبناموس المئة جندي ، كنا نأمل ان نمرّ من الهماوند المرعبين ، بأمن وسلام .

لقد كانوا ، بنظر القانون ، خارجين عن القانون ، وكانت ثمة أوامر تقضي برمي كل من يدخل المدينة منهم بمجرد ان يرى ، لكن كانت لهم سمعة في باب الجرأة بحيث اني كنت اراهم في سوق كركوك يتخطّون جيئة وذهوبا ، ولا يأبهون للجند التركي الذين كانــوا يسـيرون في اعقابهم ، ويشفقون من التصدي لهم ، ذلك ان اهل كركوك ، وان كانوا مسلّحين ومحميين من قبـل كتيبــة من الجنود ، يشفقون من هجمـــة انتقامية فاجئة من هذه الحفنة من الاكراد .

وما ان سمع الحاج رسول انني مصمّم على الرحيل الآ بذل كل ما في وسعه لاغرائي على البقاء . قال : انهم اكراد ، والاكراد اشد بدائية من الجاف (كذا ! المترجم) ، او الكوران الذين هم أكثر اقداما من الـ (مكري) أنفسهم . وكان أن أخذ بيدي ، يغريني على البقاء ، والآ اعرّض الحياة التي حباني بها الله في سبيل اعتبارات زمنية طارئة .

وقال : ان الحياة طويلة وحياتك غضة ، فما الضرر في بقائك لمدة شهر آخر ، او سنة ، ان استطعت الحفاظ على الجسد الذي جعله الله لديك أمانة . ألم أكُ مطوّفا ، خلال عشرين سنة ، ولا أشكو من اني لم أعدْ ، بعدُ ، الى مسقط رأسي ؟

وكنا نجلس متحلقين حول خليط من (الصيدة) في ذلك الوقت عينه ، وكنا نغمس خبزنا فيها ، ونأكله بايدينا .

وقال : انظر ، اني لا آكل هذه اللقمة لاني اتلذذ بها ، فهي من اردأ نوع ، وليس لاني من اهل البطنة ، لكنني اقوم بهذا الواجب المفروض

علينا جميعا ، لا يستثنى منه الكافرون ايضا ، واعني به الحفاظ على لحم الانسان ، وقد وهبه الله لنا للحفاظ على عقولنا .

مختتم الربيع

وعلى الرغم من أن الروح الغربية القلقة قد استقرت فيّ امدا طويلا ، فلم يُقض عليها . وهنا أقفت ، ذلك اني مكثت في كركوك لمدة ١٦ يوما . ان الطقس اذ يتقدم فجأة الى الحرارة والبرودة التي تبدو على هذه السهول الجافة ، غدا شيئا لايطاق ، فالسهل ، كان حين وصولنا ، اصفر ، والسيقان يابسة ، كما ان ذهاب البغال الى السهل للمرعى يوميا كان أمرا مضحكا نوعما . وعلى الوجه الخاص الذي يومىء الى تقرب الصيف بزغت الشمس معجلة من وراء التلال القرمزية تلقاء كردستان، ثم أخذت تتعالى الى سمتها وتتراءى معلقة عنده لمدة ١٢ ساعة او نحو ذلك ، ثم انحدرت ، بعد ذلك الى مغربها بالسرعة نفسها . ان الساعات الباردة في النهار لا تعدو ثلاثا ، وعند المغيب ماكان في المكنة تقدير الخفض في درجة الحرارة ، فالعالم كان يتقد . ومضت ساعة او ساعتان والظلمة تطبق على الدنيا الى أن أصبح الجو باردا نوعما . وعلى ماقلنا آنفا ، تقع المدينة في مكان نطلق عليه في طقسنا تعبير «مطبق عليه» ، ويعني ذلك ، في مثل هذه الارضين ، حرارة مفرطة خانقة . وتقربت ساعات الظهيرة بحيث تحمل حرارتها على الاخلاد الى القيلولة ، خلف ابواب موصدة . وفي حالة واحدة دعاني العمل الى الخروج ، في نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر ، فشهدت المدينة خالية خاوية ، وخبرت اوار شمس ايار المحرق في كركوك .

يضاف الى ذلك، ان(فين) اي الطربوش ـ وهو اشد ما يدعو الى السخرية من اغطية الرأس التي ابتكرها الانسان ـ لا يحمي لا من الحر ولا من البرد ، بل يعمل بقوة حرارية تجعل الجمجمة في غليان دائم فيتصبب العرق منها تحت سهام الشمس الحارة .

وكان الذباب يتوالد أيضا ، وعلى ما تتوالد الحُييات[٢١]. ان اختلافي اليومي الى السوق جعلني امرّ على بعض دكاكين الجزّارين ، ولحظت ، ذات صباح ، ان الاعمدة ، التي لم تنظف في يوم من الايام ، والتي يعلّق عليها اللحم ، قد استحال لونها الى اسود ، فالذباب قد وقع على الذباب متكدّسا متراصا لا يتحرك ، وعندما امرّ الجزار سكينه الطويلة عليه كشط مئات منه ثم أخذ ، بعد ذلك ، يقطع اللحم من دون أن يقوم حتى بمسح شفرتها .

ومن حسن الحظ ان عادة البلاد ، ولا مراء ، تمنع شيئا كبيرا من المرض الذي قد ينجم عن مثل هذه الحال ، اذ تفتح دكاكين الجزارين منذ الصباح الباكر حتى الساعة الثانية من بعد الظهر ، ولا يذبح في كل مرة الا احد الخراف ، وما لم يتمّ بيعه فلن يظهر خروف آخر . وعلى ذلك ، وبالنظر لقصر المدة التي يستطاع خلالها شراء اللحم ، ثمة اندفاع كبير من قبل الشارين ، فلا يبقى لحم الخراف والمعز طويلا ، فيما خلال طبقة شفيفة منه يستهلكها الذباب .

وأخذ الماء يشحّ أيضا ، فالنهر الذي كان يجري به ، لدى دخولنا البلدة ، غدا الان نزرا قليلا ، وأصبح الاعتماد على ماء الآبار كليا . وان تبديد مثل هذه الضرورة اللازمة من قبل غريب يثير عليه سخط جميع من في (الخان) ، لذلك لا يمكن ان يفعل شيئا ، باستثناء غسل قليل لليدين والوجه ، ولم أكُ أستطيع القيام حتى بهذا الا عن طريق سحب جرّة مليئة به خلسة ، ونقلها الى غرفتي سرا . وهناك على التحقيق حمامات عامة في كركوك ، لكن أهلها ، وهم ممن يعلون من شأن المؤسسات المحلية ، يقرّون بانها ليست بحمامات مليحة جدا . وعلى كل حال ، لقد دهشوا من انني لا اناصر (الحمّام) ، لكن الذي ازعج جيرتي هو اني كنت احلق

---

(٢١) في الاصل Microbe وقد آثرنا ترجمة هذه المفردة ب (حيي) لان ذلك ينطبق تماما على معنى الاصل . (المترجم)

وجهي بنفسي، وكنت أعمد الى ذلك خفية لاني كنت أعلم ان القوم ينكرونه، في الشرق يعتد الحلاّق انسانا وضيعا جدا ، وأن يحلق المرء بنفسه ، ان كانت اللحية هي التي يسلّط عليها الموسى ، فيه تجاوز على الشريعة القرآنية ، وان كان الرأس ، فهو باطل خطير (كذا ! : المترجم) .
وسواء أكان ذلك نتيجة الانكار لهذه الحرفة ام انه طبيعة خسيسة تخضع للكره ، فالحقيقة باقية هي ان الحلاقين الشرقيين ، باعتدادهم طبقة متمايزة ، هم من أشد خلق الناس ضعة ، (كذا ! المترجم) .

روحاني كركوكي

وبواسطة صديقي (القنصل ـ مصلّح الساعات) أُخذ بيدي لمقابلة وجيه كركوكي ، اسمه رضا ، ويسميه المسلمون : شيخ رضـا ، كما يسميه النصـارى الذين يجتوونه بالملا رضا ، وهـو لقب حقير (كذا : المترجم) .

ان هذه الشخصية هي شخصية الروحاني الرئيس في المكان ، وعلى الرغم من انه سني ، ومتعصّب للسنّة ، فلا اعتراض لديه على مقـابلة الخارجين على الاسلام ومعاملتهم بادب ولطف ، ومن هؤلاء المنشقّون الشيعة التي تنضمّ اليها : اعني القنصل ـ مصلح السـاعات وأنا .

انه يسكن في بيت كائن لصق الجامع الذي يقوم على واجباته الدينية ، وانه من افضل البيوت في كركوك طرّا . لقد رصفت باحته على الطريقة الفارسية ، وكست قلة من شجر التوت جدرانـه العاليـة العاريـة . لقد استقبلنا في غرفة طويلة ، مفروشة بطنافس ، فرشا جيدا ، وكان فيها

---

(٢٢) نسترجح انه الشيخ رضا الطالباني المولود في ناحية بازيان ـ قضاء جمجمال ، وهو شاعر مكثر في اللغى الاربع المذكورة ، في قصائد شتى : اجتماعية وهزلية وهجوية وفلسفية ومدائح ، واخر ارتجـالية يسيرة اللفظ عميقة المعنى . توفي في غرة المحرم سنة ١٣٢٨هـ ، ١٣ كانون الثاني سنة ١٩١٠ م ودفن بجوار الشيخ عبدالقادر الجيلي (الكيلاني) ـ قدس الله سره . (المترجم)

وحيدا • انه لسيد محترم حقا ، وان تغطية الحرمة تعلو حاجبيه حالكة ، ولا تنيرها بياض عمامته ابدا • وكان عند مرفقه (الحاكي – غرامافون) يتناهى من بوقه صوت عربي غليظ ، انقطع لتوّه من ترتيل آيات القرآن (الكريم : المترجم) • ان مثل هذه التكيفات يستخدم الابداع الاوروبي • وما انسجم اتي من شيراز الا بدر فاخذ ينشد لحافظ وسعدي، فهو يتكلّم الفارسية على وجه ممتاز ، ثم انه عمد الى اخراج مخطوطة ، وقرأ منها شيئا من شعره • وهو مطلع على أربع لغات ، هي : التركية والعربية والفارسية والكردية ، لكنه كان يفضل الفارسية عليها جميعا ، وهو يزدري ، بحق ، الشعر التركي ، المؤلف كله من العربية والفارسية تقريبا •

واشتكى بمرارة من التقدّم الذي يدركه النصـــارى ، ولا مراء في انهم مدركوه في ظل حكومة دستورية • وكانت عيناه ، وهو يتكلم ، تبرقان ، ثم أخذت حميته تتصاعد ، وغلى في نفسه مرجل العصبية الكامنة ، وكان يتوق الى رؤية دم هؤلاء الكفرة مسفوحا • وبزمجرات التقزّز من مشاعر التركمان الدافئة كان ينكر حال التركمان والنصارى على حدّ سـواء ، وأفصح ، بصراحة ، عن انه يصبو الى أن يرى رؤوس الأخرين تزيّن جدران الثُكنة • حاول هذا المخلوق ، وهو لن يحصل على شيء ، فيما خلا سوء الذكر ، من مثل هذه الفاجعة ، مرات عديدة أن يضع النصارى في مأزق حرج ، لكنهم وجدوا الحماية الكافية ، وعلى ذلك أسقط في يديه ، ولم يلق مقترحه ، عندما كان يعمد الى اثارة الخواطر بازاء هؤلاء الناس الذين لا ضرر لهم ، الا اذنا غير صاغية • وتطلب اسكاتنا جيشانه من الوقت اللازم مايكفي لشرب ثلاثة استكانات من الشاي ، واستأذنا منه وانصرفنا من دون أن نبدي ، بصدد مشاعره ، رأيا •

وأراني (مصلّح الساعات) نموذجا من مزاجه الفائر ، وذلك حين جلسنا في المقهى بعدئذ • فلقد زاره في بيته تركي اصطنبولي يلي (المتصرّف) مرتبة وصرف الحديث في أثنائها الى الشعر ، وكان الشيخ الذي يجري

في جسده الدم الكردي يُعلي من مزايا الشعر الفارسي وحتى الكردي ، ويبدي ازدراءه للتركي . واعترض الموظف التركي على مثل هذا ، بطبيعه الحال ، وسرعان ما أنشد قصيدة طويلة مختتمة بالكلمات التالية :

« فروخته أم بي شمعو كافر او سن سن ! »

وهنا هتف الشيخ ، وقد اهتبل فرصة تامة ، وقال : (فروخته ام) «فارسية محضة» (شمعو كافر) عربية ، فما الذي بقي في البيت من التركية غير ما هو تافه تاعس ؟ ذلك ان (او سن سن) التي يختتم بها تعني (انت ، انت) – وهي الشيء التافه التاعس نفسه[٢٣] .

وفي نحو اليوم العاشر من ثوائنا هنا ، جاء البغال رشيد يسعى ، ويطفح بشرا ، ويقول : علينا أن نرحل عند الصبح من اليوم التالي ، وعليّ أن ادخر « زاد مسافر » للرحلة ، وذلك على الرغم من انه يلحظ : « الله يعلم ان كنا سنأكل الزاد هذا أو تأكله الهماوند » .

وجاء أربعة من أطباء الوحدات العسكرية من الموصل وقد جرى تعينهم في السليمانية ، وكان لزاما أن يعيّن لهم حرس مؤلف من (طابور) (اي : فوج – المترجم) عدته ٤٠٠ جندي . وحدثت المهزلة المعتادة التي تحول دون رحيلنا ، ذلك ان الجيش الذي لم يتسلّم معاشه لأشهر ، اضرب ، وال ٢٠٠ جندي الذين عيّنوا محل المضربين رفضوا المضي بصراحة ، مشفقين من أن يلاقوا الهماوند ، وهم من يتعطّشون بوحشية الى دماء القطعات التركية ومدافعها ، ولديهم المقدرة على ارواء عطشهم منها . وهكذا قدّر لنا البقاء .

وكمثال على الواجبات التي يضطلع بها الضابط التركي غير الملتزم ، تلقائيا ، أروي الحادثة التالية :

كنت ، والحاج رسول ، جالسين في الظلمة ذات مساء ، ندخّن

---

(٢٣) لا معدى عن شيء من التحوير هاهنا ، فلقد كانت كلمات الشيخ على الوجه التالي : (لقد بقي احد الباشوات خراه ، أنت أنت !) .
(المؤلف)

سكائرنا ، ونبحث في الموضوع المعتاد أعني : السياسة الفارسية ، حين مثل شخص يرتدي بزّة عسكرية سنية ، وبين فواقات أطلق حشرجة غليظة : « سلام عليكم » • ومن دون أن يدعى جلس بيننا ، وقدّم نفسه باعتداده رائدا في احدى الوحدات العسكرية ، ثم شرع بارعاب (الحاج) واحراجه• وتراءى ان كان للشيخ مناوشة كلامية مع أحد الناس ، ممن كان يستخدمهم لبيع حلواه ، وما أن سمع بها هذا الشخص الضابط الا ّ فرض نفسه حكما بينهما • طبيعي أن يرفض الحاج أن تكون له صلة بمثل هذه الامور ، لكن ها قد تراءت لغريمه فرصة سانحة ليحصل على ما يريد ، فأخذ يكيل الوعيد للضابط ، وعلى ذلك غادر الشيخ الهرم لَقِس ّ النفس ، تاركا الاثنين، وعرض قضيته على محافظ المدينة •

وكان الرائد ، في الوقت نفسه ، قد حسم القضية مع الخصم الآخر ، اذ نظّم أمر الحصول على مجيديين كأجر ، ولما وجد ان الحاج لا يرضى بتوسّطه ، جاء يحاول تهديده ليقبل بالمصافاة • ومن نافلة القول أن نبيّن ان جميع وسائل تخويفه لم ترعب الحاج ، اذ هدّده هذا بأن يلقيه من فوق السلم أرضا • وحسم القضية نفسه اذ أخلد الى النوم مضطجعا وذلك بعد توقّف للتفكير في حاله المريحة وقد جعلت الامر أعسر • هؤلاء هم بعض ضباط السلطان وآمل الا ّ يكون جميعهم على هذه الشاكلة • لقد أنهى هذا الضابط دراسته في المدرسة العسكرية ببغداد ، لكن حاله ـ بعد أن سمعت أخيرا كيف اتمها ـ لا تزيد على حال اجتياز أحد الاشخاص المحظوظين لمؤسسة ما • وهكذا أدركت كيف أصبح ضابطا عسكريا •

وذات صباح وردتني رسالةمهذبة ، مكتوبة بالتركية ، من (مدير البريد) ـ وهو شخص لم تكن لي به معرفة سابقة ـ يرجوني فيهـــا أن أذهب لمقابلته • لذلك اتخذت سبيلي على رمضاء المسار المترب ، مارا بالمقاهي التي لا تعدّ ولا تحصى ، والمليئة بأحلاسها من الضباط الاتراك محدودبي الظهور ، حتى استطعت العثور على الدائرة • ولما كان اليوم ليس بيوم

البريد لذا جلس المدير متكئا على كرسي ذي مسندين ، خلف منضدة ، يدخن • ولدى وصولي حياني بتحية مهذبة ، ذاكرا اسمي ومتحدثا بالتركية • طبيعي ألا يذكر شغله الشاغل الى ما بعد دوران حديث قصير ، لذلك تحادثنا في موضوعات شتى ثم ساق الحديث الى موضوع العاديات ، وكان متحمسا • «العاديات» في هذه البلاد تعني النقود والاسطوانات الآشورية ، وهي قطع صغيرة اسطوانية من حجر عليها صور ، وثمة رسوم منقورة فيها• لقد دعاني ليستفيد من رأي كونته بشأن قيمة العاديات ، ففي بلاد الفرنجة، التي ، على ما يبدو له ، يعني نصف الناس فيها بالعاديات ، لذلك ، فان أي شخص حل فيها ، وأنا أحدهم على ما تناهى اليه ، يجب أن يعلم قيمة اللقط التي يعثر عليها قرب كركوك •

وما أن أعدني للامر على مثل هذا ، الا غلق الباب وأخرج ، وهو مضطرب ، كيسا صغيرا من النقود والاختام من (القاصة) التي يحفظ فيها طوابعه • انها في الغالب من النقود المحمدية والعربية الاولى ، وفيها نقود آشورية قليلة • ان كنزه العظيم قطعة نقد من فئة ٥ باونات مضروبة باسم جورج الثالث وقد جعل لها سعرا خياليا • ولم أستطع أن اساعده بأكثر من ذكر التأريخ المحتمل لعادياته ، لكنه تصور ان عدم رغبتي في ذكر الاسعار يرجع الى فكرة شراء • وكان أن أصر كثيرا فاقترحت بعض القيم فوجدت ان ذلك سره وأرضاه رضاء عظيما • وفي هذه الارجاء توجد سوق حسنة للعاديات ، وينشط فيها الاتراك والنصارى فيشترونها تدريجيا ويكدسونها ثم يأخذونها الى اصطنبول آملين بيعها والحصول على ثروة ما •

وعند عودتي ، في ذلك اليوم عينه ، تذكرت اني اشتريت خسا من رجل عجوز كان يقوم بتنظيفه وغسله لمن يشتريه • كان السعر ، وهو يعطي فكرة حسنة عن أسعار الخضراوات والفاكهة ، هو ٣ (بولات) لكل رأسين

من الخس ، و٧ منه تعادل (قمري) ، وهو يساوي ثلاثة فارذنكات[٢٤] ، لذلك كان سعر الراس من الخس ١/٢٤ من البني Penny

ان هذا يفسّر روح الثبات التي يعمد اليها شخصان يساومان لمدة ساعة على كسور مبالغ ، فما يشترى بالفارذنك يعني قسطا كبيرا من أكلة يحصل عليها .

وغادرنا كركوك

وذات صباح ، جاء البغال رشيد مبكرا وأيقظني من نومي . فالافندي الذي رتب لنا أن نسافر تحت جناحيه ، قرر في الأمس الدابر ، السفر على حين غرة ، وهو الآن مستعد له . وعلى ذلك أخذنا نحمل أثقالنا معجلين ، ولم تكن لدينا فضلة من وقت لموادعة الحاج رسول الذي أودعني الى الله والأولياء . اتخذنا السبيل ، خلل الشوارع المقفرة ، الى مكان اللقيا ، خارج المدينة . وما أن بلغناه ورأينا أمامنا مجموعة من البغال والمسافرين المشاة والجنود ، الا انفجر النهار ، فودعنا هذا الركن التركي القصي ، لحين من الدهر .

---

(٢٤) الفارذنك (Farthing) عملة انكليزية صغيرة تساوي ربع بنس Penny انكليزي ، أو نحو نصف سنت امريكي .
(المترجم)

الفصل السابع
الكلدان

يفضي مساق الحديث بنا الى ذكر كردستان ، والى اناس يختلفون عمن لقينا خلال رحلاتنا من البحر المتوسط والحدّ الشرقي لبلاد ما بين النهرين. لقد سنحت الفرصة للحظ ، ابان رحيلنا ، شعوبا وارساسا شتى ، من بينها جميعا اولئك الذين لهم الحق الأعلى ، بسبب عراقة الأصل ، في أن يوصعوا وأعني بهم : الكلدان . اننا لم نرهم ، حتى الحال الحاضرة ، الا الحوطة عابرة . ولما كنا نوشك على الخروج من أرض آبائهم الاولين وندخل تلال وجبال الاكراد ، شبه المستقلّين ، فلا معدى عن عدم اغفال هذه الفرصة لابداء الحوطة مناسبة تتصل بالكلدان ، وهم اناس لا يعدمون المتعة .

ما أن يجاوز المسافر اليوم اورفة ، ويشرّق ، الا يلقى ، بالاضافة الى الأرمن والاغريق النصارى ، أعدادا كبيرة من الشعب غير المحمّدي ، تطلق عليه ، في أماكن شتى ، من الاسماء أنماطا : النساطرة ، والنصارى ، والكلدان واليعاقبة والكاثوليك والكلدان المحدثون ، وانكليزي وأمريكاني وبروتستاني(*) ـ والاسماء الثلاثة الاخيرة تشيع في الشمال الغربي من

(*) في تعداد الاسماء تخليط ، ذلك نصارى العراق ، في الاصل ، لم يكونوا سوى فرقتين رئيستين هما : النساطرة ، اتباع نسطور ، واليعاقبة وهم السريان الارثوذكس .

وفي القرن السادس عشر للميلاد ، انتمى الى الكثلكة بعض النساطرة ، ثم تبعهم غيرهم بمضي الزمن . فعرف هؤلاء الكاثوليك بالكلدان ، تمييزا لهم عن النساطرة . وهم في جملتهم يتبعون ، على التقريب ، طقسا دينيا

فارس . ان هذه الملل المختلفة فروع من شعب الكلدان والآشوريين ، وهي تنحدر من الامتين اللتين احتلتا وادي دجلـــة ، من فم جزيرة ابن عمر شمالا ، حتى وادي الفرات الادنى أو أرض بابل ، جنوبا .

لقد مضت على ذهاب ريح الامة الآشورية ٣٥٠٠ سنة ، وأقل من ذلك بقليل بالنسبة لاختتام آخر صفحة من صفحات العهد الكلداني الثاني، على يد الاسكندر الكبير . ومنذ ذلك الوقت ، خضـــع الآشوريون ، أو الكلدان (لانهما كانا شعبا واحدا) الى حكام غرباء ، وذلك على الرغم من ان طبيعة الكلدان الصلبة الثابتة ، مكنتهم من مقام علي في الحيـاة المدنية خلال العصور كافة . انها اليوم الوسيلة التي تهيىء لشطر كبير من آسية الغربية طبقة من التجار والقرويين على مستوى اعلى من مستوى المدينة والثقافة ، بالنسبة لمستوى الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها .

لقد أطلق كثير من الكتاب ، ومن المقيمين في الارضين التي يحل فيها النصارى «البلديون» عنان أقلامهم في وصف طبعتهم ، التي تقزز منها النفس ، وختلهم ونفوسهم الصغيرة وعدم اخلاصهم ، وما جرى هـذا المجرى . ولا يستطيع أحد أن ينكر ان هذا حق في حالات كثيرة ، «ابعده من حق ، فعلى التحقيق ان النصراني الذي يتصل بالاوربي هو في الاغلب الاعم ، شخص ذو طبيعة غير مستحبة (كذا : المترجم)» ولكن من الانصاف له أن نذكر أيضاً ، ان أمكن ، ان أي فرد من أفراد أي شعب شرقي

واحدا هو الطقس الكلداني ، الذي يتلى باللغة السريانية المعروفة اليـوم بالكلدانية .

وفي القرن الثامن عشر للميلاد ، انتمى الى الكثلكة ، جماعة من السريان الارثوذكس ، فعرفوا بالسريان الكاثوليك ، وهم جميعـــا يتبعون الطقس السرياني ، الذي يتلى باللغة السريانية الغربية .

أما المذهب البروتستنتي ، فحديث النشأة في العراق لا يتجاوز أمره اواخر القرن التاسع عشر ، واتباعه القلة ضئيلة بالقيـــاس الى الكلدان والسريان .

ومثل ذلك يقال في فرق النصرانية الصغيرة الاخرى في العراق .
(المترجم)

أو دين ـ والساميون على التخصيص ـ لم ينحط معياره الخلقي بالتعامل مع الاوربين ، والتقليد المتاد للرذيلة الاوربية ، وهو الذي يستتبع الفكرة المغلوطة بشأن الكتلة الغربية والتقديم الغربي ، ويمكن ، بادىء الرأي ، من تقدير الحقيقة القائلة بأن النصراني يتّبع هذا الخطّ السلوكي ، طبعا ، وعلى وجه ايسر من سلوكه من قبل المحمدي ، ذلك ان ترفّع دين الاخير الجوهري يمنعه من اتخاذ العادات الغربية فورا ، سواء أكانت حسنة أم كانت سيئة ، وأخص منها حالة المحمدي السامي .

النصارى البلديون

ولسوء الحظ ، ان مصادر معلوماتنا عن أصل الكنيسة النصرانية في بلاد ما بين النهرين ، نادرة والى أقصى حـــدّ ، فبالرجوع الى الحوادث العابرة الواردة في المؤلفات الدنيوية المحضة ، حسب ، نستطيع متابعة مجرى انتشار تعاليم المسيح عيسى (عليه السلام : المترجم) في الشرق الاوسط . وان تأريخ الكنيسة الكلدانية أو الشرقية ، بنظر أتباع الكنيسة الانكليزية البروتستانية ، ذو أهمية خاصة ، ذلك ان الكلدان القدامى اتبعوا معتقدات أكثر شبها بما لدى الكنيسة الانكليزية ، وذلك بالنسبة الى أية طائفة أخرى من طوائف الدين النصراني المتقسّم كثيرا . يلحظ السر هنرى لايرد الذي أقام بين ظهراني كلدان الموصل في سنة ١٨٤٠ ، في كتابه الموسوم بـ «نينوى»: قد تكون عقيدة النصرانية البدائية وشعائرها ، بنظر البروتستانت الذين بقوا من دون أن يصطبغوا بأساطير روما[1] ، على حظ كبير من خطر » .

وليس لدينا من أساس نرتكن اليه في مثل هذا الزعم ، على ما ذهب اليه ، والقائل بأن النصرانية قد نقلت ، عبر الطريق القديم ، من الرها الى نصيبين ، فآشور ، وان ذلك جرى على يد تابع لـ (بارنباس) و (بولص)

---

(١) ان يوم هذا التعبير المزهو قد ادبر ، وكذلك الشطر الاعظم من الكنيسة الكلدانية . لقد غلبت « الاساطير الرومية » على الكلدان واشفق من ان لايكون ذلك نتيجة مباراة عادلة .

(المؤلف)

الى نينوى ، أو الى مدينــة اخرى لا تزال قائمة على مواقــع العواصم الآشورية القديمة .

وعلى كل حال ، كانت النصرانية ، عندما ولي يزدجــرد الاول الفارسي الحكم ، سنة ٤١٠ للميلاد ، تشد جزءا من الكيان الاجتماعي لآشور وفارس . وجلي أن يمضي قدما على مثل هذا ، مما صيّر النصرانية دينا في تلكم الاصقاع مقبولا . وهذا يدل على الحقيقة القائلة بان الوعاظ ورجال الدين لا معدى عن أن يكونوا قد سلكوا نهجهم قبـل سنة ٤٠٠ للميلاد بأمد بعيد .

لقد كان الآشوريون ، أو الكلدان ، ممن اعتنقوا مقوّمات الـدين الجديد دراكا . ومما لامراء فيه ، ان عبادة (بعل) و(عشتار) المعبودين القديمين ، بعد ذهاب ريح بلاد آشور ، ثم بلاد بابل من بعدها ، قد ذهبت الى عالم النسيان ، أو حتى كليا ، فكان أن التزمت البقية الباقية من الامة بالدين الجديد لاشباع الحاجة الروحية ، وهو أمر خبره كل شعب . ان رجال الدين ، ومتقدمي (الملة) ، أصبحوا جزءا مهما من النظام النصراني، ومن الممتع أن يلحظ اهتمام ملوك الفرس الساسانيين بالـــدين الجديد ، والنجح الذي أصابه الجهد النصراني في صفوف الفرس . كان هذا الشعب العريق ذو المدنية الراقية ، والذي ينطوي طبعه على قدر كبير من التأمل ، على استعداد دائب للنظر في دعاوى النظريات الالهية الجديدة ، وقد وجد ، في الأزمنة المحمدية ، مُتَنفساً لميوله التأملية فاصطنع الشيعية ، التي صيّرت جزءا فارسيا من الاسلام محضا (كذا : المترجم) . لقد نظر النصارى الاولون ، ولعل النظرة كانت مشبعة بأمل مرتجى ، الى ميدان فارس ، اذ لم يكن فيه من صنيع ينجز ــ فلم تكن ثمة (ديانا) أو (يهوه) أو (الزهره) تنازع مع المسيح في ميدان عبادة الناس .

لقد وجدوا في فارس رحابة صدر ، تشبه رحابة سهولها الوسيعة الايدة ، ونظرية ثنائية تجود بمبادىء الخير والشر ، حسب ، محددة

على غرار ما هي عليه تلالها الجُرْد ، وعزلا فكريا راقيا يعلو على خضم العواطف المتردية التي كانت تُمثّل ، عهد ذاك ، ب (وحدة الوجود) التي عرفها الاغريق والرومان والآشوريون أنفسهم . ان المثل العـــالية والاهداف الروحية ، والتي كانت على درجة من السمو ، هي غير معروفة عند الماديين الغربيين وقد وجدت نفسها منسجمة مع الفكرة التصوفية النصرانية الاولى .

علينا أن ندرك ان من بين جميع الامكنة ، القاصية منها والدانية ، كانت فارس وشعب زرادشت ، اعنى الفرس ـ الاريين ، ولعل الماديين أيضاً ـ أو الارساس التي سكنت كردستان الحالية ـ هي التي رحّبت بتعاليم سيد المسيح وأعلت من شأن تأثيراتها الصفيّة مشفوعة بالبهجة التي ـ في نفس المبتدىء بالرهبنة ، وهو من تتراءى له خلل سيده : المعرفة . وعلى ذلك خبّرنا من قبل مطران كلداني ، كتب في سنة ٤٠٠ للميلاد ، ان يزدجرد الاول ، ملك فارس ، كان انسانا رؤوفا رحيماً وصالحا :

وان من الاعمـــال : دونا وصـــالحا
فصالحهـــا يبقى ، ويهلك دونهـــا

وانه كان عادلا وعطوفا[٢] . وعلى ذلك عُرف ان عطف الفرس وعونهم هما اللذان حصلا للكنيسة اسم « حزب فارس » .

لقد اعطي هذا الاسم أخيرا ، بعد نسطور المحرّم من قبل الكنيسة البيزنطية ، نفسه ، والذي استجار بيزدجرد فأجاره . ان العون الذي أسداه هذا (الملك) امتد على يد ابنه فيروز (٤٥٩ـ٤٨٤م) أيضا ، وهو الذي استظل بحماه المنشقون الآخرون من الكنيسة الغربية .

في سنة ١٤٠ للميلاد نجم خلاف عظيم بين نسطور ، بطريرك

---

(٢) « ان الملك الرؤف الصالح يزدجرد ، المبارك من بين الملوك ، يذكر بالحمد ، وليكن قابل ايامه عدلا والصافا بالنسبة الى حياته الاولى . انه يعمل كل يوم عملا صالحا يسبغه على ذوي المتربة فيحيي مكروبا » .
راجع : Browne: Lit. Hist. Vol. I, p. 135
(المؤلف)

القسطنطينية ، وبين القديس قورلّس ، ودار حول نقاط شتى ، واسفر عنه الانقسام الذي ولد الطائفة النسطورية الجديدة . لقد كان المطارنة الشرقيون، طوال أمد الخلاف الذي أسفر عنه (مجمع افسس العام) المنعقد في سنة ٤٣١ ـ يمدّون يد العون الى نسطور ، ومن الطبيعي ان يصبح الكلدان ، الذين أوفدوهم بعد الانقسام ، في صفوف النساطرة ، أو ان يصبحوا هم النساطرة انفسهم .

وما كانت عقائد النساطرة ، بأي وجه من الوجوه ، محدثة ، وليست هي ، بنظر من يعتد النصرانية وحدة متكاملة ، على حظ من الخطر الكافي بحيث تحدث انشقاقا ، أو تنفث سمّا ، على غرار ما يحدث بالنسبة الى الطوائف المحاربة لدين السلم ، مع الاسف . وكان مطران طرسوس ديودور Diodorus قد نشر التعاليم النسطورية بين الآشوريين الغربيين . وبينا كان يجري تقبّلها تدريجيا ، حصل الذين يتمسكون بها على (الحزب الفارسي) ، ومرد ذلك ، شطرا ، الى مركز الطائفة الجديدة ، وشطرا الى العطف الذي كان يسبغه ملوك فارس عليها .

ومن هذا الوقت فصاعدا ، اصبح اتباع نسطور يقرنون بالامـــة الكلدانية حصرا ، وقامت أول كنيسة نسطورية ، أو آشورية ، في نحو سنة ٤٥٠ أو قبل ذلك . ان اتباع نسطور قضي عليهم في سورية وآسيه الغربيـــة .

ومن الآن حتى ظهور محمد (النبي محمد صلعم : المترجم) ، يصح القول بأن الكنيسة أخذت بالازدهار . لقد طرأت عليها ، على التحقيق ، تقلّبات ، ذلك انها لم تكن في وضع يمكّنها من فرض ارادتها على الحكام والملوك . ثم ان منْ الملامح التي تدعو الى الاسف في النصرانية ما قيل لنا عنها خلال هذا الزمن من ان جميع الاضطهادات التي منيت بها كانت على يد الانبراطورية البيزنطية النصرانية ، وان جميع ضروب العطف والحماية حباها بها الملوك الزرادشتيون في فارس .

ومن بين هؤلاء شذّ (قبـــاذ) ، ملك فارس ، والـــذي يصفه

رجال الدين الكلدان بالمسخ المجرم • ومنيت الكنيسة بويلات الحزب أيضاه لكن ليس لدينا من سبب يحمل على الاعتقاد بان عبدة الاصنام لم يمنوا بها على ما مُني بها الفرس ، سواء بسواء • فلقد اجتاحت جيوش الفرس ارض بلاد ما بين النهرين على وجه مستدام ، وكانوا ، على وجه الثبات ، من غير دين أي شعب من الشعوب المكتسحة ، وان مالوا الى تعاليم الكنيسة النصرانية ، على ماشهدنا قبل قليل •

وفي هذه الايام انتقلت كلية اديسة (الرها) انعطيمة – التي اغلقها (رينو الازوري) بسبب من اخذها بالتعاليم النسطورية – الى جنديسابور، قرب مدينة ششتر الحالية ، في أرض عيلام من فارس ، حيث كان الكلدان على ثقة من انهم ينعمون بالعطف والحماية من شعب اتجهت موهبته تلقاء الادب والمعرفة دوما • ولقد تحققت آمال رجال الدين المنفيين على وجه حسن • وغدا المنفى وطنا رغدا ، ونمت كلية الطب الاديسية في جنديسابور ، فاصبحت مركزا تبشيريا وتربويا عظيما •

ومن جنديسابور ، الكائنة في اراضي الملوك الفرس ، بعث المرسلون الدينيون الى كل بلاد شرقية • انهم كلدان بالمولد واللسان ، يتكلمون الفارسية ، وقد حملهم تشبثهم على الشخوص الى الهند وتركستان والصين• وأصبحت قبضة النصرانية على فارس قوية بحيث انقسمت البلاد منذ ايام مبكرة ، الى مطرانيات •

انوشروان : العادل

لقد تأسست هذه (الكلية) في نحو سنة ٥٥٠ على يد انوشروان العادل ، ملك فارس ، وهو واحد من الملوك الزرادشتيين الاخيرين ومن السلالة الساسانية • انه موضوع ذكرى حميدة تردد ، عبر عهود فارس وبلاد العرب الاخيرة ، وعلى لسان النصارى والمحمديين معا • ذلك ان عدله الكبير ، وهي فضيلة يُعلي من شأنها في الشرق باكثر من اعلائها عندنا ، كان أمرا نادرا جدا • وعلى الرغم من انه لم يكن نصرانيا جهرا ، لكن عواطفه تلقاء النصارى حملته على أن يصير ، من امرأة كلدانية ، ملكة

وزوجا • ورُبّي ابنها نصرانيا ، وبحميته ابتعث من ابيه وعظا ونصحا ، حيث تراءت سياسته آمرة باتخاذ موقف الحياد من الاديان كلها •

ولو كانت صلته بالنصارى وموقفه منهم غير كافيين للحصول على تقديرهم وشكرانهم[٣] ، لاستطاع الحصول على ذلك باضطهاده المذهب الخاص : المزدكي الذي كان النصارى يجتوونه ويرتجفون منه رعبا •

عسير ان يصل المرء الى تقدير حقّ لطبيعة مزدك وتعاليمه ، ذلك ان كل ما تعرفه عنها مدوّن من قبل اتباع المذهب والاديان الاخرى ، اعني : النصرانية ، والزرادشتية، والمحمدية، وهي متحيّزة طبعا (كذا : المترجم)•

وعلى العموم انه ذو فكرة شيوعية ، منطوية على طقوس تألهية ، فما يملك الانسان ، حتى الزوجات ، مشاع بين بني الانسان • وفُرضت انظمة معيّنة على الحياة اليومية ، واخصها بالذكر الامتناع عن أكل اللحم وسفك الدم ، وقد اثار الاخير استكار رجال الاديان الاخرى •

ونجم المذهب فحياه (تاد) ، أيام حكمه ، بالعطف ، وقد سلف القول عليه • لقد انهالت عليه لعنات النصارى والزرادشتية ، بسبب محاباتـــه المزدكية ، على حدّ سواء ، ولعله حُمل على ذلك بأمل القضاء على قـوة رجال الدين الزرادشتية وهي قوة كانوا حصلوا ، أوانئـذ ، عليهـا •

وفي الوقت الذي كان فيه انوشروان وليا للعهد اختطّ سياسة تنصب على(قمع«انوشروان العادل») فذبّح بسببها اتباع المزدكية واعدم مزدك نفسه ، وقد حضر ذلك بعض رجال الدين النصارى وطبيب القصر، وهو كهنوني نصراني • لقد حدث ذلك بعد ان اظهر انوشروان (وكان يعرف انذاك بـ « كسرى ») الى أبيه الوسائل التي كان يصطنعها مزدك في خوارقـه • وتقدّم النصارى ، خلال حكم هذا (الامير) الطويل الزاهر ، تقدّما كبيرا • ولعله كان أكثر عهود ذلك العصر سلاما واسماحا • وعلى الرغم من ان

---

(٣) يروي (براون) ، في كتابه (التاريخ الادبي) (١ : ١٦٨) ،شكران (انوشروان) • ذلك انهم ابدوا حمدا محسوسا ملموسا له بعد قرن حين لم يعانوا من مخلفات (سليله) ،تكد الحظ : يزدجرد الثالث •• فيبقى جثمان احدهم ملقى على الارض ، لا يوارى» (المؤلف) •

(انوشروان) لم يلتزم بشيء ، بقدر تعلق الامر بمعتقداته الخاصة ، فقد جاء الى كليته بالفلاسفة الاغريق من اتباع نسطور ، وذهب الى حد عقد معاهدة مع البيزنطيين تقضي باسباغ الحماية عليهم .

وعلى هذا فاننا نملك ، في أواخر القرن السادس للميلاد ، صورة مثيرة لفارس ، فيها الملكة وابنها الاكبر من النصارى ، وفيها رجال البلاط والاطباء والمستشارون معدودون منهم ، والكلية الرئيسة التي تعد مجد حياته ، مؤسسة نصرانية . فليس بعجيب ان يتطلع الكلدان بأمل كبير الى المستقبل ، حين ترحل الزرادشتية وتخلي المكان للنصرانية الفارسية [٤] .

ظهور الاسلام

وبينا كان انوشروان يحلم بالامبراطورية ، ويحلم النصارى بالفوق الديني ، ولد من يكتسح الامبراطورية الفارسية وكهنة الزرادشتيه ، ولا يبقى الا على قليل من مجال حكمهم الاصلي . ذلك ان محمداً مصطفى .. النبي (المصطفى عليه افضل صلاة وتسليم : المترجم) ولد في نحو هذا الوقت ، وقد ذكر ذلك بنفسه اخيرا : « ولدت في أيام الملك العادل انوشروان ، شاه فارس » .

وقضى انوشروان نحبه في سنة ٥٧٨ للميلاد ، وجاء في اعقابه عدد من الملوك الضعاف ، كان آخرهم ذا الحظ النكد ، يزدجرد الثالث آخر ملك زرداشتي فارسي . انه الذي دُحر في (القادسية) على يد العرب في سنة ٦٣٥ للميلاد ، ومات في منفاه ـ خراسان سنة ٦٥١ للميلاد .

انها من أهم «نقط الاستدارة» في تأريخ الشرق ، وفرصة ظهور عقيدة يدين بها عدد كبير من سكان العالم ، لذا فمن السداد أن ننصرف ، لحظة ،

---

(٤) طبيعي ان لا يستطيع احد ان يقول ما الذي تكون عليه حال الشرق الاوسط لو لم يظهر محمد (صلعم : المترجم) ؟ على ان من المحتمل جدا أن يكون نصراني الصبغة ، من نوع منحط جدا . فحتى في تلكم الايام ، وقبيل ظهور الاسلام ، كانت الكنيسة النصرانية ، حيثما جالت وصالت ، فاسدة على وجه مروع ، وان المعتقدات التي تسربت اليها استلت منها الحق في أن تدعي بانها «نصرانية» حقه (المؤلف) .

عن تأريخ نصارى الشرق ، لتحقق من وضع الكنيسة في هذا الوقت عينه • ان اغلب المطلقين على الاسلام والمسيحية في هذا العهد ليتفقون على أن كنيسة عيسى المسيح ، باتخاذها آراء متنافرة شتى ، انقسمت فغدت لا تزيد على دين منتشر انتشارا وسيما ، وهي ، وان كانت تمثل بالأسم دينا وهدفا واحدا ، لكنها ، في الحق ، لا تعدو عددا من الطوائف المحربة فيما بينها ، ومحور الاحتراب نقاط عقائدية ، لذلك غرقت في لجة من الفساد • هذه ، على التحقيق ، هي حال النصارى في الغرب تحت ظل الاباطرة البيزنطيين والنصارى العرب السريان في بلاد العرب الغربية ودمشق • انها على مثل هذه الحال ، وهي حال فوضى عمت الارجاء كلها •

لكننا لا نعني الا بالنساطرة حصرا ، فمن بين جميع المذاهب والنحل كانت النسطورية اقلها فسادا ، بقدر تعلق الامر بالفكرة الاساسية ، واننا نجدها تقرن مقارنة طيبة ، من حيث وحدة القصد والتنظيم ، بالطوائف التي هي وثنية تقريبا ، أعني الكنيستين : السريانية والقبطية •

وحدث الانشقاق ونجمت الهرطقة في مليار وسقطرى وديار بكر ، والظاهر ان الفكرة النسطورية الاساسية قد احتفظ بها ، واعني بها طبيعتي المسيح الانسانية والالهية ، ورفض اطلاق اسم «أم الله» على مريم العذراء التي قالوا عنها انها وعاء طاهر تقبل البذرة المادية النقية المرسلة بمعجزة ، وعلى ذلك فهي أم المسيح الانسان •

ومهما يكن من أمر ، يتبين ان هذه العقائد ، وهي نتيجة الحدس والتخمين نفسها ، لا يتحتم ان تكون افصاحا نهائيا عن الحدس والتخمين اللذين لا ينفكان عن المضي قدما • ومن العجيب الملحوظ ان نظريات ثانوية ولدت بين ظهراني الكلدان • ومع ذلك نلحظ انالكنيسة الكلدانية وجدت متجانسة خلال أغلب أيام عظمتها ، من سنة ٤١٠ الى نحو القرن السابع عشر ، وهذه حقيقة تفصح ، بما لا تفصح عنه حقيقة أخرى ، عن وحدة الفكرة والتعاليم ، وذلك ان قورن حالها بحال المؤسسات السريانية والاغريقية المتردية ، وهي حال تدعو الى الاشفاق حقا •

وفي ايام الاسلام الاولى كان ثمة يسر واسماح بالنسبة للنصرانية ، وبأكثر من الايام المتأخرة ، شأن النصرانية فيها كشأن اليهود سواء بسواء . وحتى الزرادشتية كان لها شيء من اعتبار ، بالنظر لاحترام محمد (صلعم : المترجم) الجزئي لنبيها . وعلى العموم ، كان النصارى واليهود ، من « أهل الكتاب » ، وعلى ذلك فهم يستحقون معاملة رحيمة وباكثر ممن لا دين لهم ، وعبدة الاصنام .

وجوابا عن اتهام عربي محصله انه تلقى عونا من اجنبي ، فان العبارة الواردة في سورة النحل (كذا في الاصل ، والصحيح الآية الكريمة : المترجم) قد « نزلت » : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلّمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين »[5] .

وعلى ذلك ، وعلى حين كان يبدي محمد (النبي صلعم : المترجم)اكبر مقت لجميع الرموز النصرانية وينكر الصلب منها على أعظم وجه ، فانه لم يكرههم على التخلّي عن معتقداتهم . ولقد نظّم قانونا خاصا في معاملتهم ، وعلى وجه اخص الاعفاء من الخدمة العسكرية الالزامية ، على أن يدفعوا لقاء ذلك « الجزية »[6] .

وفي المدن والبلدان التي خضعت للجيش الاسلامي ، عقد قادة محمد (النبي صلعم:المترجم)،في بعض الحالات،مواثيق حماية،وتعهدوا بحمايتها مادامت تدفع الضريبة،وثمة أساس يرتكن اليه في صحة المعاهدة المعقودة بين محمد والكنيسة وقد نشرت نسخة طبق الاصل منها سنة ١٦٣٠ للميلاد[7] ، ولكن « صحتها » تتقاذفها الريب ، وان وجدت على شكل من الاشكال . وبموجب نصوص هذه

(٥) ترجمها (المؤلف) واثبتنا الاصل ، النحل ١٦/١٠٣ (المترجم) .

(٦) اثير حديثا شعور عنيف بصدد هذا الموضوع في البلاد التركية ، وذلك بسبب تصميم (المجلس التركي) الجديد على الغاء الجزية وجعل النصارى واليهود خاضعين للخدمة في الجيش (المؤلف) .

(٨) Testimentum Mahometi (Paris: Sionita 1630. (المؤلف) .

المعاهدة اسبغت الحماية على النساطرة واعفوا من الضرائب المرهقة .

وولج الكلدان ، الآن ، من باب عهد ثان من عهود الرخاء ، استطال أمده ٢٠٠ سنة ، ورقوا خلاله ، تحت ظل الخلفاء الاولين ، مراكز رئيسة في ميادين الفلسفة والمعرفة وحتى السياسة ، وبذلك حشوا ، أكثر من مرة ، بالشكوى ممن هو أقل موهبة منهم ، وبالتالي من المسلمين العرب الذين ليس لهم الا الاقل من الحظوة . وكان القرن الثاني من هذا العهد ، أعني تأريخ (موقعة التراب)حين حكمتاسرة فارسية[٨] ، هو العصر الذهبي للخلافة ، شأنها كشأن الكنيسة الكلدانية المتأخرة . وتحت ظل حكم الخلفاء العباسيين الاولين الزاهي (ومن بينهم هرون الرشيد والمأمون وكل نابه الذكر) نقلت البطرركية الى بغداد[*] ، وتم تأسيس مطرانية جديدة في الكوفة ، وهي قلب الاسلام ومركزه الحق . وتحت ظل حكم المأمون وهرون الرشيد ، على وجه أخص ، وجد الكلدان انفسهم على حظ كبير من الحظوة . ذلك ان كلياتهم كانت تتمتع بالحماية ، ولما كانوا على حظ كبير من معرفة كثير من الفنى والعلوم ، فلقد عهد الى رجال الدين والفلاسفة فيهم ترجمة الكتب من الاغريقيه والفارسية والكلدانية الى العربيه، ان الاسلام مدين (كذا : المترجم) الى كلدان هذا الزمان بقدر تعلق الامر بكثير من مؤلفات المؤلفين الاغريق ، وارسطو من بينهم على وجه اخص ، وهم من شاعت اراؤهم الفلسفية وذاعت بين العرب منذ هاتيك الايام .

ومما لا مراء فيه ان الرسائل العربية والكنيسة الكلدانية بلغت القمة واوفت على الذروة فيالمدة الواقعة بين سنة ٨٠٩ـ وسنة٨١٣م، أي في خلافة المأمون ، ولنا ان نعلق هاهنا على سعة الكنيسة في هذا التاريخ عنه .

---

(٨) «يريد البرامكة» على الراجح ، وما كان هؤلاء الا وزراء العباسيين الخلفاء ، ونكبتهم معلومة» (المترجم) .

(*) كان مركز البطريركية في (المدائن) جنوبي بغداد . (المترجم).

كانت فيه ، أو بُعيده، ثمة ٢٥ مطرانية تنتشر فيآسية(*) ، ذلك انالمرسلين الموفدين في القرن الخامس للميلاد لم يكونوا عاطلين ، وفي ضوء ما سنرى بعد هذا .

ومهما يكن من أمر ، اطبق على هذا العهد ، وهو ابهى عهـــود الاسلام والنصرانية طرا ، ظلام يبعث الاسى ، حين استحوذ على دير تأريخي للعرش الخليفي . ذلك ان المعتصم ، وهو حاكم نابه الشأن أيضا ، جاء بعد الخليفة المأمون ، ونقل العاصمة الى سامرا ، على دجلة صعدا ، وعن بغداد بديلا . ثم جاء من بعده الواثق ، فالمتوكل في سنة ٨٤٧ للميلاد ، وهو الذي جعل مركزه المرموق يهوى ، على النقيض من اسلافه الذين رفعوا من شأنه فعلا علوا كبيرا .

وكان أول فعاله اسباغ الحظوة على الجند التركي الغلاظ ، وعـــلى كل فظ غليظ يعمل فيخدمته،فاخزى الفرس والعرب الذين خدموا أخاه ، وسلفه،وماكفاه ان يحط من قدرالخدام المخلصينالمحيطينبه لكنه مضى ـ يحدوه فيض من حماس سني كان يظهره تستّرا على سكره وفسقه (كذا : المترجم) ـ فنبش قبور شهداء الطائفة الشيعية ودمرها وأثار كل مايبعث على

(*) كانت المطرانيات هذه في : (١) عيلام (عربستان فـي الجنـوب الغربي من فارس) (٢) نصيبين (في الشمال ـ الشرقي من بلاد ما بين النهرين) (٣) البصرة (الخليج الفارسي ـ بالاحرى العربي : المترجـــم) (٤) آشور (الارضين بين نهرى الزاب) (٥) بيت قرنا في آشـــور (٦) حلوان في فارس الغربية (وتسمى الان زهاب وهو اقليم كـــردي) (٧) فارس (٨) مرو (٩) هرات (١٠) بلاد العرب (١١) الصين (١٢) الهنـــد (١٣) ارمينية (١٤) سورية (١٥) اذربيجان (شمالى غربي فارس) (١٦) الرى وطبرستان (فارس الشمالية) (١٧) الديلم (الساحل الجنـــوبي لبحر قزوين) (١٨) سمرقند (١٩) كشغر وتركستان (٢٠) بلخ وطخارستان (٢١) سيستان (فارس الشرقية) (٢٢) خان بالغ (بكين) (٢٣) تانكوت (٢٤) جاسيمكارا ونوشيتا (من كتاب لا يرد نينوى وبقاياهـــــا) . ومن المطرانية الـ ١٢ انحدر نصارى القديس يوحنا المليارى . وضمت كنيســة فارس مطرانية هرمز في الخليج الفارسي وقيل ان مؤسسها هو المدعـــو نيوقيلس في نحو سنة ٣٣٠ للميلاد . (المؤلف) .

السخر من ذكرى (علي)ويحط من شأنها ، وعلي (رض : المترجم) من أولياء الله ، تجله السنة والشيعة على حد سواء . لقد قتل ما لا يعد ولا يحصى من المعجبين باولئك الشهداء ، ولم يدخر شيئا يحط من قدر اليهود والنصارى الا اصطنعه . لقد الزمهم بارتداء الغيار ، وشارات ذوات الوان ، ولباس رأس وزنارا ، وكلها من انماط زرية ، كما الزمهم بركوب الحمير والبغال حسب ، ومهاميزها من خشب وسروجها من قوام غريب ، وبان يضعوا فوق بيوتهم تماثيل الشيطان(٩).

وسلب من (كلية جنديسابور) التي اسسها انوشروان جميع حقوقها ونفي مديرها المسمى : بختيشوع الى البحرين . وهدمت كنائس النصارى أو اتخذت مساجد ، ومنعت أحكام شتى تنصب على اظهار دينهم بشارات ، وهم على قيد الحياة ، أو بشواهد القبور عند مفارقتها .

ومن العجيب جدا ان يجد من يستعرض السجل الطويل الذي يضم اسماء الفلاسفة والأدباء والمؤلفين في عهود الاسلام الاولى صفحة خالية تقريبا بين سنة ٨٤٧ وسنة ٨٦١ ، حين قتل المتوكل ، وهو في غيوبة سكر ، على يد الترك ، وهم الذين اصطفاهم على الناس طرا .

ان كل الاضطهاد الذي مني به النصارى في هذا الوقت لم يكن كافيا للقضاء على نفوذهم ، ولقد استعادوا مركزهم جزئيا في القرن الـ ١١ تحت ظلال السلاطين السلاجقة . والى زمن الوباء المغولي المرعب ، تحت قيادة جنكيزخان وهولاكو ، كانوا يحتلون مراكز على شيء من خطر ، وكانت كنيستهم متمائلة الى حد ما . وكانوا ، خارج حدود الاسلام بمدى بعيد ، على حال شغل ، يشغلهم مخطط يهدف الى تحقيق املهم بسحق الاسلام واعلاء شأن النصرانية في آسية كلها ، من بكين الى سورية . كان هذا المخطط ، ينصب ، في الاقل ، على اجتياح ملوك التتر آسية . ان هؤلاء الملوك هم من (قره قروم) ، وكانت سطوتهم في نماء سريع ، كما

---

(٩) راجع : Muir's Caliphate, pp. 521-2.
[المؤلف]

كان تعطشهم للاراضي يزداد حدة على حدة . هذا وكان النصارى ، في الوقت نفسه ، يسعون جاهدين الى جعل دين عيسى المسيح (عليه السلام : المترجم) الدين القومي ، قبل ان ينصدع عمود فجر الفتح . ولقد مضوا ، على التحقيق ، قدما ، بين ظهراني ضروب شتى من الشعب المغولي ، وذلك حين انساحت جموعهم غربيا .

ويذكر ان المرسلين ، منذ الايام الاولى ، أرسلوا الى الصين وتركستان ، فاستطاعوا ان يحصلوا على نفوذ كبير عند الخانات التتر ، وقيل ان منهم من اتخذ النصرانية دينا . ان برستر جون ، النابه الذكر ، وهو الذي رانت على أسمه الاساطير الكثيرة السخيفة فطمسته ، لم يكن الا احد هؤلاء الحكام[١٠] .

اصابت الحملة التي شنت من (مرو) ، مركز مطران التتر الكلداني ، نجحا الى حد ظفر النصرانية بعدد كبير من الاناث في الاسر الحاكمة في قبيلة رحالة على حظ من خطر ، تدعى (الكريت) ، وعاصمتها (قره قروم) في جبال الطاي . ومع ذلك لم يتسن الظفر باحد من الغزاة الحقيقيين ، ذلك انهم ، على الجهر ، ممن لا دين لهم ، ويصطنعون سياسة ترمي الى تمكين الاديان كلها من الحرية على أساس من المساواة ، هذا على انهم لم يلتزموا بدين منها . وعلى ذلك ، وعلى حين كان كثير منهم من امهات نصرانيات ، وقد عمدوا في الصغر واتخذوا أسماء نصرانية ، لم يبقوا أية دلالة على اصلهم عندما تسلموا زمام السلطة ، وكان ان استبدلوا اسماء طفولتهم بالقاب تترية ، ونسوا دينها ايضا .

واصاب المرسلون في الصين نجاحا ماثلا ، وعلى مايتبين من الرقيمة[*] التي عثر عليها في (سي ـ كان ـ فو) والتي تصف الحظوة التي ادركتها عقيدتهم من قبل الملك واهل البلاد . انها تذكر اسماء المطارنة

---

(١٠) ثمة رسالة تتصل بمعال هذا (الخان) وزهوه مقبوسة في كتاب لا يرد الموسوم بـ (نينوى وبقاياها) : ١/٢٥٠ـ٢٥٤ (المؤلف) .

(*) هذه الرقيمة مكتوبة باللغة الكلدانية وقد عثر عليها في بعض انحاء الصين في القرن التاسع عشر الميلادي . (المترجم)

الصينيين النصارى وأقطاب ذلك الدين أيضا ، لقد تحقق من هذه (الرقيمة) المنمقة انه ، حتى سنة ٧٨١ للميلاد ، وهو تأريخ كتابتها ، مضى الكلدان في الصين قدما ، وهي تظهر وجود كنيسة معترف بها . لقد ادهش ذلك النقدة وأوهن من شأن التعصب لحين من الدهر[١١] .

وعند سقوط الخلافة ، وعندما رأى الكلدان ان كنيستهم في فارس قد زالت من الوجودتقريبا وانها في بلاد مابين النهرين قد احيط بها وانها تذوب بفعل الامتصاص الاسلامي التدريجي، لذلك اتجهوا بأبصارهم ،وبشيع الامل في نفوسهم ، الى هذه الدول المغولية راجين ان يجدوا عندها السلاح الذي يطردوا به الاسلام . اما ان ذلك فعل فعلته بازاء الاسلام ، وضربه ضربة قاضية تقريبا ، فذلك شائع معروف ، لكن النصارى المتعطشين للدماء الى ابعد حد لم يأملوا ان يكون ذلك على ايدي اثنين من خانات المغول ، احدهما نصراني معمد ، وان الكنيسة النسطورية ستمنى بالاضطهاد والذبح ، وستضطر بقيتها الباقية الى النجاة بنفسها بالهروب الى الجبال الكردية التي يشق بلوغها . ذلك انها لم تكن حماسا للنصرانية هذه التي دفعت المغول قدما ، وذلك على الرغم من ان تقارير رجال الدين الكلدان من ذوى الميسرة الغربية قد حفزت الخانات الجشعين . وقبيل عهد الغزوات الكبرى ، في مطلع القرن الثالث عشر ، تضاعف جهد المرسلين ، وظهر الروم الكاثوليك على المسرح ، أول مرة ، واقدم كثير من الرهبان الشجعان على الرحلة البحرية الخطرة ، من اوربة الى الشرق المجهول . ان الروح السمح عند جنكيزخان ، أول اباطرة المغول ، هي السبب في تجدد هذا الحماس ، الى حد كبير . ان هذا الحماس كان بنمره تعطش

---

(١١) راجع (Layard, Nineveh, Vol. 1, p. 245) بغية الوقوف على وصف تام للنصب وشطر من الترجمة . ان اكتشافات احدث جرت في القرن العشرين وأيدت هذه الكتابة التي شوهدت لأول مرة في سنة ١٦٢٥ للميلاد (المؤلف) .

أكبر الى الدم وحين يتذكر ان الاسلام لا تبشير فيه[١٢] .

الكلدان في بلاد المغول

لكن هجمة (هولاكو خان) المرعبة الراعبة التي اكتسحت، أمامها كالمؤمنين والكافرين ، كبارا وصغارا ، كسرت شوكة النصرانية والاسلام على حد سواء ، وانزلت على قلب كل فرد من اتباعها ضربة ماحقة . وكان ان استحالت بغداد الى اخربة وركام في خضم مشاهد لا انسانية مروعة لم تشهد من قبل[١٣] . ماكان هولاكو ، وهو من لادين له ، ليقر سطوة بشرية أو فوق البشر، غير سطوته . ولقد اتخذ أعقابه البوذية أولا ، ثم الاسلام ، دينا . وأنبه هؤلاء ذكرا : (غازان خان) ـ ١٢٩٥م ـ وهو من أجهز على آلاف مؤلفة من النصارى في بلاد التتر ، وفارس وبلاد ما بين النهرين جميعا .

والآن ، ملك "الاسلام"، التتر المجتاحين ، وأخذ بالانبعاث كدين ، وذلك على الرغم من ان الثقافة التي بلغت مستوى رفيعا في الأيام الخوالي لن يبحث عنها تحت حكم البرابرة ، وعلى ما هو واضح جلي (كذا : المترجم)، وأخذ نجم النصرانية المضطهدة المحتقرة المكروهة من قبل المغول ، والعرب (كذا : المترجم) ، على حد سواء ، بالافول ، وأصبح أتباعها في غمرة من النسيان وضعة الشأن (والدهر فيه تصرم وتقلب) . وعلى الرغم من ذلك كله ومن ان الكنيسة الكلدانية العظمى لم تبق على ماكانت عليه آنفا ، فان آحادها،

---

(١٢) ل (دين الله العالمي الحق) قرآن وحديث وسنة ان سمعها السامع وتدبرها احس بان ثمة ينبوعا الهيا يفيض على القلوب الموات فتحيا وتنتعش ، وعلى النفوس الجديبة فتخصب وتجود ، وعلى العقول الخامدة فتنشط وتنتج ، ولا اكراه فيه ولا تبشير ، وسبيل الله فيه الموعظة الحسنة، والجدل بالتي هي احسن ، لذلك دخل الناس فيه افواجا ، وكان في مقدمتهم (المغول) من أحفاد الطاغية المخرب : هولاكو . (المترجم)

(١٣) مما روى عن غزوة هولاكو : نقف على تفصيلات جمة تتصل بالقسوة المغولية التي لا نظير لها ، والتي ظهرت للعالم طرا . انها موصوفة على وجه التمام في كتب :
Planocarpini, Guillaume de Ruyabroech, d'Ohasson,
(المؤلف)

المنفصلة في الصين والهند ، باعتدادها منعزلةعنالكنيسة المركزية وان مقرّها العام قد هدم وتبعثر قسانها أباديد ، فان عددا كبيرا من النصارى دأبوا على العيش في الاراضي التي يهيمن عليها أباطرة المغول حتى العهد الثاني من الاجتياح ، حين قام تيمورلنك بمغالبة الغزاة القدامى ممن لا دين لهم أبدا . ومن بين كثير من أعمال القسوة التي ارتكبها : ذبحُ النصارى . لقد اختط ، منذ طالعة الامر ، (١٣٨٠م) اضطهاد هذا الشعب ، ومن الجلي ان مخططه كان ينصبّ على ابادة هذا الرس وهذا الدين . ولم يكفه الاجهاز على ما بقي من هذه الكنائس ، بل تعقّبه في كل رجا من أرجاء فارس وبلاد الكلدان وأرض بابل حتى استطاع أن يطرده من أراضي أسلافه ، واستطاعت بقيته الباقية ، وقد ملئت رعبا ، أن تجد في الوديان القاصية والتلال الكردية ملجأ ، وحيث لا يستطيع فيها حتى تيمورلنك الى الوثوب عليهم سبيلا .

جولمرك

ان البطركية ، التي نقلت الى الموصل قبلا ، جرى الآن نقلهـــا الى (جولمرك) ، وهي قرية في قلب كردستان لا تمتدّ اليها يد غير يد الاكراد وهم الذين كانوا يعيشون ، مع بعضهم بعضا ، على وفاق وصداقة حتىجاءهم الاتراك والرهبان فازاحوا الامراء القدامى الطيبين الذين كانوا يحكمونهم فيها واغروهم على أن يقلبوا ظهر المجن للكلدان ، وكان ذلك في سنة ١٨٣٠ .

لقد شعر الروم الكاثوليك(*) ، عن سبيل مرسليهم ، بوجود الكنيسة الكلدانية العظمى ــ ويجب أن نذكر ،الآن،شيئا يخزيهم علىوجه مستدام ــ فلقد عقدوا الخناصر مع الاتراك حقا واضطهدوا الكلدان الذين مازالوا باقين عند أقدام التلال وفي السهول القريبة من الموصل ، جميعا : (ان الزمان ، كاهله ، غدّار !) .

وبسلسلة من الخيانات المفضوحة ، الى ابعد حدّ ، حصل مرسلو

(*) يريد بالروم اتباع الكنيسة الرومانية ، ومركزهم روما (المترجم) .

الروم الكاثوليك على مستندات تؤلف لقب البطريرك الكلداني واعطوه حجة ، يُعترف به بموجبها ، باعتداده رأس الكنيسة الكلدانية ، من قبل السلطات التركية . ان تظاماً من الاضطهاد والعنف[١٨] لم يكن في الحسبان الا قليلا وهو الذي اضطر كلدان السهل على نبذ دينهم والاتحاد بكنيسة رومية .

ومهما تكن الحال ، تطلبت هذه الحركات ، وهي غير حلوة المذاق ، حيناً من الدهر للابتعاث ، كما تطلبت ، في الوقت نفسه ، أن تتقدم الكنيسة المتحررة وهي الان على شنآن مع المسلمين والنصارى ، على حدّ سواء ، وليس لها من ملجأ يقيها اعداءها الا الاكراد غير المتمدينين ، واسمهم المرعب صيّر الاتراك بعيدين عن الجبال .

وكانت البطرركية في القرن الخامس عشر في (القوش) ، غير بعيدة عن الموصل ، لكن الاضطهاد كان يزداد حدّة وعنادا ، وكثير هم الذين اضطروا الى الانضمام الى صفوف الكثلكة . واغفل الكلدان الارثوذكس شأن البطررك القائم : مار الياس ، وانتخب مار شمعون في (جولمرك) ، ودأب الذين نسلوا منه على اتخاذ اسم (شمعون) ، وهم اليوم قادة الكنيسة الكلدانية العتيقة ، الزائلة عن الوجود تقريبا .

وما ان استطاع الروم الكاثوليك في القرن السادس عشر اخضاع الكلدان ، وهم كاثوليك اسما ، وبواسطة الاساليب التي اصطنعوها على الوجه الوافي ، الا سمّوا بطرركا ، وأسّوا خطا بطرركيا متسلسلا باسم (يوسف) جعلوه في ديار بكر ورفعوه فوق الكلدان الكاثوليك ، ومن دون ان يقفوا على رغباتهم باية وسيلة .

وعلى حين استمرت طائفة الكلدان الكاثوليك ، بفضل جهود المرسلين ، على تسجيل مجنّدين أكثر من كلدان السهول ، كان الحزب الارثوذكسي في الجبال يزداد أيدا وثقة . لقد عُدّ اتباعه ، بين ظهراني الاكراد

---

(١٨) Layard, Nineveh and its Remains Vol. 1, p. 259
[المؤلف]

الغلاظ الشداد ، من محبي الاحتراب ايضا . وكان ان اتخذوا اللبوس الكردي واصطنعوا عادات الاكراد بحيث استحال تعريفهم عن أهل الجبال المتوارثين ، وكان ان عاشوا معهم على افضل مايكون من وفاق . ان قراهم وقلاعهم لعسيرة على من يروم الوصول اليها ، لذلك اضطر الاتراك الى تركهم مستقلّين ، وذلك على الرغم من اعترافهم بالسلطان (سيدا) ، على الارضين التي قطنوها ، اعترافا اسميا . ولم يستطع موظفو الحكومة التركية ، حتى سنة ١٨٣٩ ان يشجعوا روح الثأر لدى نور الله بك ، وهو كردي حكاري ، كان له مع بعض الكلدان ثأر دموي ، وعدّ بدرخان بك ذكراه افضل من ذكرى الرجل الاعظم .

وثمة حقيقة بارزة جدا تورد لدعم القول بان الاكراد استفزّوا للوثوب واعني بها معاملة بدرخان بك ، حين اضطر السلطان ، أثر احتجاجات متكررة وضغط عظيم ، الى القبض عليه . ان الضابط الذي انتدب للقيام بهذه المهمة ، واسمه عثمان باشا ، اشترط شروطا هينة لينة على الزعيم الكردي مما حمل على الايقان بانه لايقوم بذلك من دون رضى الاتراك .

كما لم يجر غزو اي شطر من الارض الكردية ، فيما خلا الحملة التي شنّت بازاء (بدر خان بك) ، وقد سُحبت ، اثرها ، القطعات التركية . ان اراء الكلدان المعاصرين ، على ما افصح عنها في رسائل قديمة رأيتها في الموصل ، تؤيد هذه النظرات وتقول بان الاكراد ، على الرغم من شعورهم الحي الدائم بان للكلدان ثروة ، وان كانت مزعومة ، كانوا على وفق تام معهم . حقا انهم ، على ماشهدنا خلال ٤٠٠ سنة وزيادة ، عاشوا جنبا الى جنب ، ومن دون ان يقع بينهما حادث يعكّر الصفو .

وهرب (مار شمعون) ذلك العهد ، خلال المذابح ، واتجه الى اورميه حيث كان يحل فيها نفر من الكلدان ، لكنه عاد الى (جولمرك) بعد ذلك ، فمنحته الحكومة التركية معاشاً تقاعديا ، وبذلك نُبذ آخر مظاهر الاستقلال التي احتفظ بها شعبه . واضعف خلفاؤه انفسهم أكثر من ذلك حين اطلقوا الاهواء العارمة في ميدان حبك المؤامرات ، ولانشغالهم بهذه

الحركات الهوج، والتي حاولوا ان يورطوا المرسلين الامريكان والبروتستانت فيها ، فقدوا قبضتهم على الكنيسة ، وتركوا الميدان مفتوحا لهجمات يشنها الكاثوليك ، وهم اكثر نشاطا وهمة .

مذبحة الكلدان

وفي كانون الثاني من هذه السنة (١٩٠٩) حدثت مذبحة جديدة كان ضحيتها الكلدان القدامى ، وكان منطقها قرب سعرت ، القريبة من بتليس، وهي صقع هوى فيه الكلدان الى الحضيض الاوهد ، ماديا ومعنويا ، بحيث لم تعد حالهم الا فوق مستوى المتبدّين قليلا . وكان رجال الدين فيهم ، في بعض الحالات ، على حظ من التعليم غير كاف لاقامة الصلوات المعتادة، وروي ان الناس كانوا يشتكون بمرارة من انهم لايعرفون معبودهم ، وما هي أهمية كلمة « نصراني » . وبقيت هذه الحال مدة طويلة وحتى الان . لقد سمح للاكراد ، لسنوات طويلة ، تحت نظام الحكم التركي الفاسد، أن يفعلوا ما يحلوا لهم، بقدر تعلّق الامر بممتلكات الفلاحين الكلدن ولم يتخذ الاتراك أية اجراءات بازائهم ، والاولون كانوا على حال خوف وخنوع . وثمة حقيقة ملحوظة محصلها : ان الكلدان تحت ظل الحكم الشيعي في فارس ، ازدهر حالهم ، وان المخاليق التعسة التي كان يطلق عليها اسم : « كافارني » والتي جاءت عرايا جياعا وواحدهم (فما فيه الا العظم والروح والجلد) هاربة من الاراضي التركية منحدرة من الجبال و (تقبل مثل البرق يتبعه الرعد) ، تنتمي الى رس مختلف تقريبا عن كلدان اورمية وسلماس بخاري المثقفين المتقدمين .

وربما عدد الكلدان الروم الارثوذكس في الاراضي التركية منذ الانشقاق الذي حدث في سنة ١٥٥٠ ، وكان كل من يقطن حوالي الموصل وديار بكر من هذا المنزع . ومهما تكن الحال ، تلقت الكثلكة الرومية في سنة ١٨٦٩ صدمة حين صدر قانون « البابا لايمس » . وقاد طائفة توماس رونكوس ، مطران ملوس ، والقس يعقوب نصان الذي غدا ، بعد ذلك ، رأس اساقفة بغداد ــ والتي سميت بالكلدان المحدثين ، وهو انشقاق من

الروم الكاثوليك .

واحكام (الوثيقة) [١٩] التي اعترض عليها هؤلاء القوم هي :

١ - لا يرسم مطران ما من دون مصادقة البابا .

٢ - يجب ان يتقدم الى رومة ثلاثة مرشحين لمقام رأس الاساقفة يختار (البابا) واحدا منهم ويرد الاثنين الباقيين .

٣ - يجب ارسال جميع واردات الكنيسة الى رومة .

يتراءى ان المطران ملّوس الذي ارسله (البطريرك يوسف أودو) الى رومة ، أول مرة ، قد قبل « الوثيقة » ، ولكن ، بناء على انشقاق حدث في الكنيسة الارمنية الكاثوليكية بشأن هـــذه القضية ، تراجـــع البطرك يوسف أودو ومطارنته واتخذوا سبيلهم الى (القوش) ، وعينوا في (دير السيدة) اربعة مطارنة من دون سؤال رومة . ومهما يكن من أمر ، لقد ترك احدهم ، المسمى (ايليا) ، اصحابه وذهب الى الدومنيكان في الموصل حيث « رسم » قساً تاما ، ثم غدا ، بعد ذلك ، مطرانا على جزيرة ابن عمر . وفي سنة ١٨٧٥ عاد يوسف أودو الى الكنيسة الكاثوليكية الرومية تاركا الطائفة الكلدانية الجديدة تحت ظل المطران ملّوس . وبعد وفاة يوسف أودو ، وقد حدثت بعد قليل من تركه الكلدان المحدثين ، عين (ايليا) محله ، فوجه جهوده الى معاودة تجميع الطائفة الصغيرة في النطاق الكاثوليكي مباشرة .

وقد سوعد على ذلك ، نوعماً ، برحيل ملوس الى (ملبار) ، وبعد عودته ورؤيته شعبه مذبذبين ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلائك ، اتخذه وإياهم ، السبيل الى الموصل فعاود الدخول في الكنيسة الرومية الكاثوليكية .

وكانت تلكيف من معاقل هذه (الطائفة) الرئيسة . انها قرية كبيرة كائنة قرب الموصل ومن أولى القرى التي اصبحت كاثوليكيـــة رومية .

وبذل الكلدان القدامى محاولات عديدة لاحياء الكنيسة القديمة ،

---

(١٩) في الاصل Bull وتعني مستندا رسميا يصـدره (البابا) ، وهو ، عادة ، كمرسوم أو بيان مختوم (المترجم) .

وراجعوا انكلترة ، في كل حالة ، طالبين منها المعونة ، ذلك انهم كانوا يعتدّون انفسهم متعاطفين مع الكنيسة الانكليزية ، باكثر من أية كنيسة أخـــرى •

وفي سنة ١٨٤٣ ، وهي سنة آخر المذابح التي جرت تحت ظل بدرخان بك ، فتح باب المراسلات مع رئيس الاساقفة هاولي ، لكنها لم تسفر عن شيء ذي جدوى • وقبل ذلك زار سيدان ماجدان (اورمية) بايعاز من (جمعية ترقية المعرفةالنصرانية) و (الجمعية الجغرافية الملكية) بغية تقديم تقرير عن أوضاع الطائفة النسطورية •

بعثة رئيس الاساقفة

ولم يصل جواب جوهري عن طلباتهم ، لذلك مني الكلدان بخيبة أمل ، وقدّر ل (رئيس الاساقفة : تيت) ان يتسلم الرجاء التالي • وبعد أن أوفد أحد رجال الدين ليقدم تقريرا ، عاد فأرسل ، في سنة ١٨٨١ ، أحد رعاة الكنيسة • وبعد سنوات عديدة اتخذت بعثة رئيس الاساقفة شكلا محدداً ، ووردت (اورمية) هيئة كاملة ، فرُحّب بها ، من قبلالكلدان ، ترحيبا ملؤه الجذل والشكران ، ذلك انها لم تقدم لتجذبهم الى عقيدتها بالقوة والاغراء ، وانما جاءت لمد يد العون اليهم في سبيل بعث الحياة في الكنيسة العتيقة ، وعلى اساس من عقيدتهم واعرافهم • وفُتحت كليات ومدارس ، للتعليم المعتاد ، وللقسان وللشمامسة •

ومن قصص التضحية الذاتية والمشقّات الثقل ، التي حمّلت باشعاعات من القرحات ، ما تلألأ فيها اسم رجل الدين المحترم : براون ، وهو الذي قابلته السيدة بيشوب الرحّالة في سنة ١٨٨٧ في قرية (جولمرك) ، وكان متنقلا ، من قرية الى قرية ، مهانا مُحرجا من قبل الاتراك ، عائشا في ضمة الفاقة ، سائرا في الغالب بين الجبال عُريان تنتابه العُرورواء[٢٠] • لقد صبّ رجل الدين هذا محاولاته في سبيل مسألة الكرد ، وهم من كانوا يظهرون اشدّ العداء بازاء الكلدان ، واستطاع ان يحول دون وقوع مذبحة •

هذا وماكانت هيئات تبشيرية لتقف ، في الوقت نفسه ، مكتوفة اليدين

(٢٠) الرعدة من البرد والانتفاض (المترجم) •

عاطلة . فلقد مثل [٢١] الامريكان في أورمية والاراضي التركية ، في نحو سنة ١٨١٨م ، وكانت لهم بعثة من المرسلين في منطقة اورمية ، هي فرع من بعثتهم في طهران ، وتركت هيأة من الكلدان الكنيسة العتيقة واتبعت المبشرين الامريكان ،حصلت لنفسها على أسم (امريكاني) ، بين ظهراني الطوائف الاخرى . وتميزت البعثة في (اورمية) بقدرتها على الحفاظ على وفاقها مع الاكراد ، بحيث ان احدهم ، وهو من كان وليا حميما للدكتور كوشرين سنة ١٨٨٠ ، استطاع ان ينقذ اورمية ، ابان غزو الشيخ عبدالله الفارس ، وكان ذلك بشفاعة (البعثة التبشيرية) .

واثر الامريكان ، جاء (العازارية الفرنسيون) ، ولم يكن ذلك بعد امد طويل ، فاستقروا قرب (سالماس) . وعانى القسان الاصيلان : الاب كلوزيل والاب دارنس شيئا من الصعاب ,وكادا يُطردا ، ذلك ان الروس حملوا الشاه على أن يصدر « فرمانا » يمنع فيه النصارى من تبديل دينهم . ومهما يكن من أمر ، لقد دأبت (البعثة) على البقاء ، وعندها ، اليوم ، مدارس وقسان في اورمية ، وخسروا ، قرب ديلمان .

وفي الموقع الاخير ، حيث السكان يدينون كلهم تقريبا بالكثلكة الرومية ، كانوا يأسون على تلكم الحياة ويؤكدون ان الاساليب التي اصطنعها المرسلون كانت خادعة مدلسة ، والى درجة لا تضاهيها الا اساليب اسلافهم في تركية . وفي الحق انهم ، بالارهاب وباللعب على الخلافات الشخصية ، وبوسائل أكثر ضعة من ذلك ، استطاعوا الاستحواذ على سكان المكان وملكوا لانفسهم افضل البساتين والبنى ، وجعلوا من انفسهم وسطاء محكمين ،وسادة على اسالة الماء ، وهو الذي كانوا لايسيلونه الى الـ ٥٠٠٠ من السكان الا بعد ان يستخدموا منه ما يضمن نجاح محصولاتهم الوسيعة ويؤمن السعر العالي لها ، بالتالي ، على حين تمنى محصولات القرى بالخسران المبين .

هذا ، باختصار ، هو تأريخ الكلدان والاشوريين منذ ان ذهبت ريح

(٢١) مثل أي ظهر ، ويقال مثل القمر اذا بزغ . (المترجم) .

امتهم . انهم ، اليوم ، موجودون ، على مارأينا ، في أورميةفارس وفي كردستان الوسطى وفي الموصل ، وفي المستعمرة الجديدة في الاهواز (الاحــواز : المترجم) ، أخيرا .

ويجب ان نذكر ، على وجه اخص ، تلك المستعمرة القائمــة في عاصمة امراء اردلان الكرد . ففي (سنه) وجدوا ، في الأصل ملتحدا تحت ظل العائلة العتيقة ذات الحكم المنوّر ، ثم كان ان اسبغت عليهم الحماية ونالوا التشجيع مما صيّرهم ، على ماهم عليه الآن ، موسرين اقوياء ، وان لم يكونوا أكثر نفرا ، يعيشون مع اكراد الاقليم الفارسي : اردلان على اعظم مايكون من حال ، بين الموالين والصدقان .

ولديهم هنا مدرسة حسنة ، وقد تبرع بالجزء الأكبر من مالها : النبلاء الاكراد في (سنه) ، وفيها يتلقّى كثير من صبيان الاكراد تعليمهم ، جنبا الى جنب مع زملائهم النصارى .

وثمة ناقلات (جاليات) كبيرة في تفليس ، واستقرّ عدد كبير من ابنائها في امريكا ، حيث اصابوا ، على العموم ، نجحا كبيرا .

عقيدة الكلدان

اشير قبلا الى عقيدة النصارى ، واعني بها : الوجود المزدوج ليسوع المسيح (عليه السلام : المترجم) ، وسنعمد هنا الى تلخيص تعاليم الكنيسة الكلدانية العتيقة ، فنقول ان عقيدتها هي : [٢٢]

« نؤمن باله واحد أحد ، الاب الاعظم ، خالق الاشياء كلها ، المنظور منها وغير المنظور .

« وبرب واحد : يسوع المسيح ، ابن الله ، المولود قبل كل الدهور . انه لم يخلق ، وانه اله حق من اله الحق ، ومن مــادة ابيــه نفسها ، الذي خلق العوالم بيديه ، وخلق الاشياء كلها . لقد نزل من السماء الينا ، نحن البشر ، ولخلاصنا ، وقد تجسّد بالشبح الالهي فغدا سويا . لقد حملته مريم العذراء وولدته ، عانى وصُلب في أيــام

---

(٢٢) Layard, Nineveh and its Remains Vol. I pp. 262-3. (المؤلف)

(بيلاطس البنطي) ، ومات ودفن ، ثم نهض في اليوم الثالث ، على ماتقول الكتب المقدّسة ، وصعد الى السماء وجلس على يمين ابيه ، وسيأتي ليفصل بين الاحياء والأموات على حد سواء •

• ونؤمن بالروح القدس ، روح الحقيقة ، الذي سرى من الآب ـ الروح ، بالنور •••

• بكنيسة الهية عالمية واحدة •

• ونقرّ عمادا واحدا يزيل الخطايا ، ويبعث الجسد والحياة السرمدية • •

ويتراءى أن ثمة شكا في عدد القرابين المقدّسة (العشاءات الربانية) ، والزعم أن عددها (٧) •

وبقدر تعلّق الامر بالطقوس ، وما يصطنع فيها ، يتراءى ان ثمة قربا فيها ، بالنسبة الى ما تمارسه الكنيسة الانكليزية ، وبأكثر من أية كنيسة أخرى •

الاعتراف والتجسيد ووجود (المطهر) وظهور الصور ، هي النقاط الرئيسة المستكرة الممنوعة عندهم ، وبالنسبة الى متاولي (العشاء الرباني) وهم من أقرّ أمرهم • وكان يسمح لرجال الدين ، فيما مضى ، أن يتزوّجوا ، ولم تنبذ هذه (العادة) الا اسمى طبقة فيهم •

وهناك ثماني مراتب من مراتب الكهنوت ، هي :

البطريرك ، رئيس الاساقفة ، المطران ، رئيس الشمامسة ، القسّ، الشمّاس ، مساعد الشمّاس ، وقاريء الصلوات • ومنصب البطريرك ، على ما رأينا ، وراثي ، وثمة تنظيم يلتزم به في تغذية الام وليدها قبل ان يولد ، شأنه كشأن غذائه طوال حياته ، فاللحم ممنوع •

وعدد أيام الصوم والاعياد كثير جدا ، والكلدان جميعا : الروم الكاثوليك والارثوذكس وغيرهما ـ يلتزمون بهذه الايام التزاما دقيقا ، كل حسب طائفته ، كما انهم مُسبتون [٢٣] •

---

(٢٣) المسبت : من لا يعمل يوم السبت (المترجم)

الفصل الثامن

بسبيل ديار الهماوند .. الى السليمانية[1]

وذا صباح غادرنا كـــــركوك (وابيض الفجر يبدو بعد اسوده) وانضممنا الى قافلة وسيعة كانت تتخذ الى السليمانية سبيلا ، تحتمي بحمى احدهم المسمّى (شفيق افندي) ، وكان هذا « عسكر كاتبي » محاسبا عسكريا . ولما كانت هذه ، لحين من الدهر ، هي القافلة الاولى ، فلقد احتبل خلق كبير الفرصة للسفر الى السليمانية . وكان المسافرون ذوي متربة ، راحلين على الاقدام مشيا ، وهم اكراد من انماط شتى ، فيهم ، واحد ، او اثنان ، من أصحاب الدكاكين، من أهل السليمانية، وعدد من الموظفين المدعوين الى الخدمة . والاخيرون جميعا يصطحبون نسوتهم ، وكانت روح من الرعب تطبق على هاته الاناث التلعسات ، وسرت هذه الى بعض « الافندية » أيضا . ذلك انه على الرغم من الحراسة التي كانت لدينا ، تُعتد محاولة المرور ، عَبْر بلاد الهماوند ، أمرا محفوفا بخطر عظيم. ان اشفاقهم لحق ، اذ لم يكن لدينا الا ٧٠ جنديا من المشاة ، وعلى الرغم من انهم كانوا مسلّحين ببندقيات (موزر) فانهم لن يستطيعوا الوقوف بازاء عدد مساو لعددهم من الهماوند ، وانهم ليعلمون ذلك حقا .

---

(١) شيدها ابراهيم باشا بابان في عام ١٧٨٣ وانتقل اليها من مركز امارته السابق (قلعة جوالان) ودعاها باسم السليمانية نسبة الى سليمان باشا الكبير والي ولاية بغداد (١٧٨٠ - ١٨٠٢ م) او، على رواية اخرى سماها باسم جده سليمان باشا بابان ، ولعله سماها باسم أحد أبنائه . ويقول ياسين العمري في كتابه (غاية المرام في محاسن بغداد دار السلام) ان السليمانية بناها محمود باشا بن خالد باشا وذلك في سنة ١١٩٦هـ = ١٧٨١م بناء على امر سليمان باشا الجليل . (المترجم)

ان امتعة السير لدى هؤلاء الرجال الاشداء ذات صبغة عمليــة ملحوظة ، ففي هذه الارضين ، حين لايتطلع الانسان الى ثلاث وجبات من الطعام الحار ، ولا يخشى النوم في العراء ، يعمد المسافر الاعتيادي الى تدبير امره تحت ظروف يراها الجند الاوربي عسيرة معسرة . لــــذا لا يؤمل من الجندي ان يحمل غرارات من علف الميدان . وفي الحق انه لا يختلف عنا جميعا الا في كونه يمتلك بندقية حسنة واطلاقــات كثيرة . وبالنسبة الى بقية الامور ، انه يحتذي الحذاء الذي يروق له ، ولا يسّره حذاء منها باكثر من غيره ابدا . انه ينام بالملابس التي يسير بها ، على ما يفعل كل احد تقريبا ، كما لايهمه على اي شيء يضطجع ، ولا يهمه بأي شيء يلتحف . وكان بيننا نصرانيان : كيمياوي رومي عسكري وزوجه ، وهي كلدانية من كركوك . كان يركب حمارا ، أو لعـل الاصح انه كان يمشي ليحمل الحمار فراشه ، فالحمار كان يأبى ان يحمله ، والفراش ، معا . وكانت زوجه تعلو متاعهما على ظهر بغل . وكان أحد الافندية ضابطا في الجيش عائدا الى السليمانية ، بلدته . انه كردي يصطحب عددا من النسوة الكرديات ، احداهن تمتطي جوادا والاخريات منفرجات السوق على ظهور بغال محمّلة . وكان هناك العدد المعتاد من الصبيان والاطفال المحمولين على الاذرع ، ويهودي اويهوديان يحملان القماش القطن المطبوع الى كردستان ليبيعه فيها .

وكانت بغالنا تحمل صناديق العتاد ، وحملا من الاسفار — هي تعليمات (البرلمان) الجديدة التي تنظّم عقود الاجارة والشؤون البلدية . وكانت البغالة تتفكه بهذا الحمل كثيرا ، وتعلق على تبديد المال بارسال (تعليمات) الى مدينة تعدم الامن والنظام دوما ، وان وجدا فان عقود الاجارة والشؤون البلدية غير معروفة فيها ، حتى بالاسم ، وبالمرّة .

ولو ارسل المرء النظر من كركوك الى كردستان مشرّقا لحالت دون نظره سلسلة من التلال الحمراء الواطئــة الجرداء ، وعليها يمتــد الطريـق المؤدي الى السليمانية . وبعد ان يُقطع السهل الخلفي ، يمر الطريق من الفجوة

الوحيدة في سلسلة ثانية تفضي الى سهل بازيان ، موطن الهماوند[٢] .
وفي هــذه الفجوة يهـــاجم الفرســـان المتوحشون القوافل دوما ، وهي تمضي شرقيا ، ولقد قاموا بعد شهرين من رحلتنا الى السليمانية بمهاجمة جماعة من الجند فدحروهم كليا وقتلوا منهم عددا واستولـــوا على كل سلاح واطلاقة عندهم جميعا .

وقبل ان نرحل بيومين ، جاء رجلان يلبسان الاطمار[٣] ــ من هذه الفجوة المفضية الى كركوك ، وهي على مسافة يومين منها ــ ووصفـــا ما مُنيت به قافلة عندها ، لذلك فالمستقبل ، بالنسبة الينا ، لم يكـــن مشرقا .

فاحكم ، اذن ، على الجذل الذي غمرنا حين انتبذ قائدنا (شفيق افندي) الطريق واتخذ مسارا بين تلال واطئة ، تتجه الى الشمال تقريبا . ذلك انه ، بصنيعه هذا ، ترك ارض الهماوند الى وراء تقريبا ، واتجه الى ارض الاكراد الشوان ، وهم قبيلة قوية ، لكنها مسالمة تعنى برعي القطعان ــ على ما يدل عليه اسمها [٤] .

وعند الظهر اخذنا بالصعود على وجه معتبر ، وكانت التلال آخذة بالاطباق ، وما كنا نستطيع ان نرى ما قدّامنا ، فالطـــريق كان يتمعّج ، تمعج الافعى ، بين منحدرات تتهاوى . ومررنا بقرية كردية ، وهي مجموعة اكواخ قائمة على رابية ، وكان ذلك في نحو الظهيرة . وكانت نسوتها سافرات يرتدين اردية ملوّنة مشرقة ، وتعتم كل واحدة منهن ، على ماتفعل النساء الكرديات ، بعمامة . وكان ان خرجن واخذن يطلن النظر الينا ويطلعن الرجال في داخل القرية بوصولنا . وسرعان ماجاء

---

(٢) اقسام القبيلة ، هي : بكزاده (جلبي) رشاوەند ، رماوەند ، صفروەند ، وسينەيسر . قبيلة باسلة ، اقلقت بال الحكومة العثمانيـــة والحكومة الايرانية قديما ، وعجز حتى الوالي المصلح مدحت باشا عـــن تاديبها . قدمت في الاصل من ايران في نحو سنة ١٧٠٠ م (المترجم) .

(٣) الاطمار ومفردها : طمر وهو الثوب البالي .

(٤) شوان كلمة كردية النجار ومعناها : الراعي (المؤلف) .

فرسان على السابحات العاديات على التلال ، وتراءى كانهم برزوا من اركان مهجورة في ذلك المشــهد الارضي ، وتقــدموا الى قائــدنا . وما أن بلغوه الا ترجلوا وأخذوا يديه وحيوه تحية ود وصفاء ، وعندها اكتشفنا انه ـ اعني المحاسب العسكري ـ هو رئيس القبيلة هذه نفسها . لقــد اختفى الطربوش من رأسه بمجرد رحيلنا عن كركوك ، وحلّت محله ، كفيّة كردية . وعلى الرغم من دعوة هؤلاء القرويين فان قائدنا لم يشأ أن يقف ، وعلى ذلك دأبنا على المضي خلل الوديان . وهنا ، وفي بعض الامكنة الاخرى أيضا ، ركدت الريح وأصبحت وديقة الشمس شــديدة بحيث أخذ أصلب هؤلاء القوم المتمرسين عودا ، يجأر بالشكوى .

ودخلنا احد هذه الوديان ، ولعله احد السهول المنبسطة الكائنة بين التلال ، وفيه غدت الحرارة على اشدها . وما كنا نحس بنسمة هواء ، وتراءى الجند الناعسون مجهدين مرضى جدا . وكان كل واحد يحمل ماءا ، لكنه سرعان ما نضب وانتهى . والى ازعاج الوديقة الشــديدة انضافت حشود وحشود من الذباب الطنّان النشط الطائر حول الرأس ، المستقرّ على العيون والآذان ، الملتصق بالشفاه . وكان أن أغمي على احدى النسوة ، فهوت من بغلها . ومن كان يعتمّ من الرجال عمد الى نشر الكفــافي المكونة لعماماتهم والامساك بأطرافها ، وأخذوا يتظلّلون بها . وحوالينا ، وعلى حافة احد النشوز الصخر ، كانت ثمة صفوف وصفوف من النسور المتوفزة وهي ملمح موائم لهذا المشهد الارضي الذي لا يوجد فيه صخــر الوادي العاري ، ولا بوصة واحدة من الظل الواقي ، ولا شــفرة من العشب الطري ، ولا قطرة من الماء الراوي . انه لسكون مطبق مخيف بل هو أكثر ارعابا من دوي أسوأ الاعاصير . وكان العرق يتصبّب من الشعر على الوجه ، فالصدر ، ومنه يتسبّب بين الثياب فتتشبّع به ، ثم ينتهي بالفراش الذي يجلس عليه الانسان . وتصبب عرق البغال ، وانبعثت منها رائحة كريهة ، وتعالى الغبار فسد الحناجر ، وهي جافة يابسة . وسرنا لمدة ساعتين ، وسيرنا يتلوى على الارض المنبسطة ، حتى بلغنــا

نهاية الوادي حيث تطبق التلال ويتعالى المسار . واخذنا نزحف صعدا ، واستطال ذلك لمدة نصف ساعة ، وكان سيرنا متعرجا ، وعلى مسار منحدر صخر ، وعلى حين غرة هبت علينا نسمة ، وتراءى منظر : فأمامنا كانت التلال العالية لارض شوان الواطئة ـ انها نشوز عظيمة خضراء وسفوح تلال تموج بحشيش متال وتشرق باوراد ، (وفاح بها روح الطبيعة والزهر) . وثمة وديان عميقة منحدرة تقع في الظل بينها ، وعلى مبعدة تتعالى قمم جبال زاغروس ، وقد جللت بالثلج ، وتراءت متممة . ان (الافق طلق ووجه الارض قد راقا) ، والهواء قد صفا ، كما تراءت كردستان الفارسية أيضا .

اننا الآن في أرض شوان على التمام ، وما دام سبيلنا فيها فاننا آمنون ، ذلك ان الهماوند لا تخرج من ارضها وتدخل ارض الشوان ، لان القبيلتين على ولاء وصداقة ، يضاف الى ذلك ان الهماوند تحترم قوة هذه القبيلة الراعية حقا . وعلى ذلك توقفنا عند اول مجرى ، لاتراودنا عن السراق فكرة ما ، وانزلنا احمالنا من الزمن حينا . وما كان في عنفقة المجرى الا وشل ماء ، او بالاحرى ثلاث برك ، وفي قعره ينبوع يثرثر ، وهكذا مضى وقت طويل قبل ان يشرب كل واحد منا . وكانت هناك شجرة واحدة ايضا ، قائمة في الممر المملوء المستبان ، وسرعان ما عسكر الجند تحتها ، واخذوا يضربون المسافرين المشاة الذين اجهدهم السفر الذين ارادوا ان يستظلوا بظلها . ان جماعتنا الخاصة المؤلفة من المسافرين الاصليين من الموصل كانت ، بقدر تعلق الامر بالماء ، احسن من غيرها حالا ، ذلك ان احدنا اكتشف ينبوعا جديدا كائنا على مسافة ربع ميل نزلا . واختلفنا اليه ، ومعنا جابيات الماء وأوانيه المصنوعة من فخار ، وتناولنا طعاما ممتازا من الخبز والتمر وهذا الماء . وكنا نغط في نوم

---

(٥) ينقسمون الى فرعين : (شواني خاصة) و (شوان بازياني) وتبلغ عدتها (١١٠٠٠) نسمة ، وليس عندهم (اغوات) ، وكانت اسرة (نفطچي زاده) تملك اراضيهم قبل الاصلاح الزراعي (المترجم) .

عميق ، والنوم يسرع الى من يحل في العراء عادة ، غير آبهين بالشمس وبالذباب ـ حين صدر الامر بأن نعاود حمل الاثقال • ولما كان (الافندي) يصرّ على الرحيل معنا ، فلقد حدث اندفاع راعب مرعب •

ان تحميل البغل لأمر سمج غليظ ، يتطلب ، في الأقل ، رجلين • وأول ما يلزم هو الاتيان بالحيوان ليقف الى جنب حمله ، والحمل هذا يتألف من رزمتين متساويتين وزنا ، لتعلّق كل رزمة على جانب من جانبيه • وتشدّ هذه بالحبال ويرفع الشطران معا الى أعلى السرج ، الى علو يقرب من خمس اقدام وستة سانتميترات • ثم ان على احد الرجلين أن يدور الى الجانب الآخر ويأخذ النصف الخارج ويسحبه الى أسفل ، ثم يأخذ بمداورته ، الى هذه الجهة والى تلك الجهة ، حتى يوازن نظيره على الجهة الاخرى ، فان كان هناك مسافر رمى فراشه فوقه ، كما يرمى حزام طويل فيحيط بالكل • ويستطاع انجاز ذلك سريعا بتوافر حالتين ـ الاولى : أن يكون البغل قريبا من حمله حين يأزف وقت تحميله ، وثانيا : أن يحمل على الوقوف ، والرزم يجرى رفعها ووضعها بازاء السرج • ومن عادته في مثل اللحظة أن ينتبذ مكانا جانبيا ، فيسقط الحمل أرضا • ومن دقلة القول أن نذكر ، وبعد أن حمّلنا نحو ١٦ بغلا ، وهو ما كنا نفعل مرتين يوميا ، وعلى أشدّ ما يكون اسراعا ، ان الراحة أمر يلقى من الجميع ترحابا عظيما • لكن المرء ملزم بأن يمشي بضعه أميال على أرض صخر ليستحثّ الحيوانات عندما تتباطأ ، كما ان منحدرات سفوح التلال تجبره على الترجّل غالبا •

وخرجنا من وادي الينبوع فبلغنا واديا أعلى يقع بين سلسلتين من التلال ، وسرنا خلاله لمدة ثلاث ساعات ، تلقاء الشمال ، حتى بلغنا قرية الشـوان وهي حسنة الوقوع على مجرى ماء ، قرب أجمات من الصفصاف • وكان أن ألقينا أحمالنا على الارض هنا وهناك •

ان أول اجراء يتخذّ للمبيت هو جعل الاحمال منتظمة على شكل جدار ، وخلفها يفرش الانسان اللبّادات والمعاطف • وتقاد ، في الوقت

نفسه ، البغال لتسقى ، ثم تعاد وتنزع عنها سروج الاحمال • ثم تعمـــد البغال الى تنظيمها بمطمار Curry Comb من قصدير ذي قمقمة ، والى استبدال السروج التي تقوم مقام الاغطية ، ثم تعقل الحيوانات ، وقــد صفت على خط ، الى الارض وتعلف بشعيرها •

وفي الوقت نفسه يتخذ المرء سبيله الى القرية ــ ان كانت واحــدة منها قريبة ــ بحثا عن ضرورة تسد الرمق ، وهي في العادة ، تسمى في ارض الاكراد (دو) وفي الفارسـية (دغ) • انهـــا تتألف من الروب وماء الجبن ، (الشنين) الى الحليب ، ومذاقها حاذق نوعـًا وهي باردة دوما لأنهم يحفظونها في جلود ذات مسام • انه افضل شرات ممكن ، ومن الهوان عند الاكراد أن يباع مثل هذا ، وما كانت هذه القرية لتشذ عن هذه القاعدة • وكان ان حملت نفسي واجب الاتيان به لجماعتنا ، ورحلت • ودخلت القرية من سور فناء مهدوم ، اذ لم تكن ثمة شوارع • وبعد ايلاج رأسي داخل بيوت عديدة وجدت امرأة طيبة تصب (الدو) في صحن من خشب ، وطلبت منها أن تزودني بشيء منه ليشارك فيه عدد عديد منا •

ومن دون أن تبس بنت شفة ناولتني القربة ، وصحنا ، وملعقة عميقة ، ومع ذلك كله بضعة أرغفة اختبزت حـــديثا ، مجيبة شكراني بالكردية (حواشيت بي : لتكن هـــذه مسرة لك) • وبين الاكــراد لا يعترض أحد على أن يمشي الغرباء الى داخل بيوتهم ، أو على رؤية نسوتهم ، وهن يمشين سافرات • وفي الحق انهن لا يمتلكن الاقنعـــة أبدا • وثمة حرية اتصال تامة ، والنسوة ، في غدوهن ورواحهن ، يتحدثن مع الناس ويتفاكهن ، سواء أكان أحدهم ذا متربة أم كان « أفنديا » •

ارض (شوان)

وما أن تبسم ثغر الغلس ، وقبل أن تنتشر تباشـــير الصباح بأمــد طويل ، الا أنهضتنا أصوات الناس وهم يضطربون ، فوجــدنا ان أوامر الرحيل قد صدرت وان نصف القافلة قد جرى تحميلها • وركض أحدنا ليملأ قلل الماء عند المجرى ، حيث كانت نسوة القرية تقوم بمثل هـــذا ،

وانتت بقيتنا الى أمر التحميل • واثر دقائق معدودات رحلت القافلة • وبأمل السير مشرقين ، تلقاء السليمانية ، قادنا الجند الى مسار شمالي أفضى بنا في النهاية الى ما يدور حول أعالي بعض التلال العالية ، بمحاذاة نشز منحدر تتهاوى الارض منه • وثمة ممرات جبلية مونقة يتدفق فيها الماء • وعند بساتين تتفرع في الاسفل وتتفتح على سهل وسيع كنا نتملى منه الزاب الاسفل العريض جاريا • ان السليمانية تقع ، الآن ، في الجنوب تقريبا ، وكان في مكنتنا أن نرى المعلمة الارضية العظيمة أعني : جبل بيره مكرون الذي يتعالى الى الشمال منها ، وهو جبل منحدر علوه نحو ١٠،٠٠٠ من الاقدام[٦] • ولم نر بين هذه الممرات ، أو في أراضي الرعي المخضوضرة ، أحدا فيما خلا كوكبتي فرسان كانتا تجوبان بلادهما ، وتراءتا لنا من بعيد •

وعند الظهر كنا قد تبوأنا مكانا عليا وأصبحنا : (كالنسر فوق القمة الشماء) ، وكان ذلك ، بين التلال المتدحرجة • وسرعان ما بلغنا منحدرا ، فرأينا الى الاسفل من مكاننا قرية كبيرة تحميها قلعة حصينة ، تقوم فوق رابية • انها احدى المواقع الرئيسة لقبيلة (شوان) ، وما أن بلغناها عن سبيل متمعج منحدر الا ألقينا أحمالنا تحت شجرة من أشجار التوت • وليس مثل هذا الترتيب ، أعني التوقف عن الرحيل عند منتصف النهار ، وفي نصف الطريق ، بشيء غير مألوف في بلاد الكرد ، لكنني لم أجده معمولا به في فارس ، فالمراحل فيها أقصر •

وذهب (الافندي) الى مأدبة اعدت له في القلعة ، ذلك ان نفرا من

---

(٦) يلحظ ان اسم الجبل في الكلدانية (بير) ، وفي الارمنية (طور) وفي الاشورية والفارسية (ار) ولهذه اثارة في اسماء الجبال في رحلة (المؤلف) على ما يتبين من اسم هذا الجبل • (وعلوه ، على التحقيق : ٩،٧٠٠ من الاقدام) • وقد ورد اسمه في تقويم تركي قديم بصيغة (بير عمر كودرن) ، لكن الاكراد تستعمل الاسم (بيره مكرون) المشتق (بير ــ ابي ــ ما ــ كدرون) ومعناه (والدنا الروحي : كدرون) وبالمناسبة نقول ان الـ (بير) لفظة كردية النجار تعني (عظيم القوم) ، وفي الانكليزية نظير لها اعني : Peer (المترجم) •

والراكضين اتخذوا سبيلا اقصر على التلال واعلموا (الاغا) بوصوله ، لذلك ذبح خروف وشوي بأكمله، أما بقيتنا ، فبعد الارتواء من (الدو) ، اضطجعت للمنام حتى يحين وقت معاودة التحميل .

ان القرية هذه كائنة في ركن قصي من أرض (شوان) ، بعيدة عن أي مسار رئيس ، ولقد أعجب الاهلون من سعة قافلتنا بحيث ظهروا جميعا فوق سطوح منازلهم المنبسطة يرقبون رحيلنا . وفي الحق ان النواقل هنا صغيرة بحيث لم يكن هناك من مسار فيما وراء القرية ، ولقد صحبنا فارس ليدلنا على أقرب سبيل الى مكان توقفنا التالي . لقد قادنا المسار الى جانب تل منحدر ، وما ان كنا هناك الا أخذنا ننحدر محاذين طنفا من جبل يتهاوى . ان الانحدار هنا لشديد بحيث يتعذر الجلوس حتى على حمار ، ولما كانت النسوة لم يعتدن على الركوب الطويل وتشق عليهن الملابس الخُرَّق ، لذلك غدون على شفا خطر ، سواء أكن يسرن على اقدامهن ام على ما كن يركبن ، والخطر هذا يتأتى من سقوطهن على الرؤوس الى منحدر يفضي الى جدول على مسافة ٣٠٠ قدم نُزلا :

والماء مطرد يسيل عبابُه كسلاسل من فضة وجمان

وعند العصر كان علينا ان نجيه سلسلة اخرى ، وفوق هذه سلسلة أكثر انحدارا ، وبازائها قرية ذات موقع مونق تكاد تختفي بين الشجر ، وثمة مسقطان من مساقط الماء منحدران بين البيوت . انها اعلى نقطة في ارض (شوان) تقريبا ومن ذروتها كنا نستطيع رؤية بلادهم كلها ، ونشهد أميالا من التلال ، وقد ازينت بحلة الربيع ممتدة الى الجنوب والغرب. وكان أمامنا وادي الزاب ، والمنظر كله ، في الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، يختفي وراء سلسلة فوق سلسلة من الجبال العالية المنحدرة : سلسلة جبال زاغروس . وخيمنا تلكم الليلة ، في العراء ، على سفح جبل منحدر ، قبالة قرية . واتخذ بعض القرويين السبيل الى مخيمنا

ليكونوا قرب حب حصيد استوى على سيقانه ، وكانوا يحلون في حسائك[7] اقاموها على ذروة الشنز .

ومن هنا كان طريقنا تلقاء الجنوب تقريباً ويفضي الى السليمانية انتهاء . لقد مررنا بارض (شوان) الاكراد ، وليس لدينا من سبيل اخر الى السليمانية الا الذي يمر بارض الهماوند نزلا . ولما كنا قد اتينا الى هذا المدى شمالا ، فلقد استدرنا حول "بازيان وانا لداخلون الوادي الممتد من نهايتها العليا الى الشمال الغربي والجنوب الشرقي منها . انها ديار الهماوند الحقة[8] لايجسر احد من المسافرين على المرور خلالها ، والتي كان يجهلها المسافرون المشاة الشيوخ الذين يجوبونا ، وذلك على الرغم من انهم طوفوا في البلاد كلها .

طبيعي أن يستطيع مسكين ذو متربة الذهاب ماشيا الى أي مكان من دون ان يتعرض له احد تقريبا ، ذلك انه لن يثير اغراء الاكراد بما يملك ، ولا عداءهم بسلاحه . ان سلاحه عصا غليظة وخنجر . . .

ومن بين هذه المجموعة المختلطة التي تحمل ما تملك على ظهورها ، كان ثمة عدد كبير يعرف الفارسية ويسره أن يُنطق بها ، في أي وقت مستطاع . انهم اكراد من جميع الامصار : سنه ، وساوجبلاق ، وكويسنجق ،

---

(٧) في الاصل Pallisades وواحدتها (حسيكة) وهي دريئة من اوتاد يلقى عليها الشوك تتخذ سكنا مؤقتا (المترجم) .

(٨) لا معدى عن ان نفصل القول في قبيلة الهماوند تفصيلا :
كانت هذه تعتد ، حتى سنة ١٩٢٥ وعلى الرغم من قلة آحادها اشهر قبيلة محاربة في بلاد الكرد الجنوبية ، ويزعم انها جاءت من هضبة الفرس في اوائل القرن الثامن عشر ، وهم يتكلمون لهجة تشبه لهجة كرمنشاه .

وقد وقفت الهماوند ، بجانب امراء بابان في السليمانية ، بازاء الاتراك وبعد زوال امارة هؤلاء بقيت الهماوند شوكة في حلق الامبراطورية العثمانية . وقد تسنى للاتراك ذات مرة سحق القبيلة فهاجر بعضها الى اطنه . والهماوند يتحدثون دوما عن مغامراتهم في بنغازى . وقد عادت الهماوند من بنغازى الى (بازيان) سنة ١٨٩٦ أي بعد سنوات ، وتعتد عودتهم من ملامح التاريخ الكردي القبائلي ، وحذا هؤلاء حذو بعض من نفي الى اطنه ايضا (المترجم) .

وحتى كرمنشاه ، وهذه منقطعة عن السليمانية تماما بجبال شواهق ذوات انحدار وقبائل مبتدية •

ومن بينهم كان هوراماتيان ، وهما من آحاد قبيلة تقطن الجبل الحد في[9] هوراامان ، وهو جبل من صخر منحدر ، ارتفاعه ٩٠٠٠ من الاقدام ، تقطن واديه قبيلة هوراامان • وكنت تائقا الى معرفة شيء عنها ، ذلك ان اعرافها تشير الى ان اصلها في شمالي فارس • كان الهوراامانيان يتكلمان لهجة غير كردية ، والآن رأيت عليهما سمات خلقية مميزة وعادات غريبة عن عادات شعوب الاكراد • وكانا يتكلمان الفارسية الحديثة ، وكان احدهما مطلعا ينشد أبياتا طوالا من (الشاهنامة) ، وهي ملحمة فارسية شائعة ذائعة جدا • وما كانا ليعترفان بأصل كردي ، بل كانا يطلقان على نفسيهما اسم : (فارسيين كوهانكاهين) ـ اي : من العهد القديم ، ولغتهما ـ ولقد علمت بعد ذلك وشهدتها مكتوبة في مخطوطات عديدة ، ليست ، على القطع ، لهجة كردية •

وتأخر رحيلنا ذلك الصباح ، ذلك ان (شفيق افندي) ، قائدنا ، ارسل رسلا الى أول قرية هماوندية يعلم القبيلة فيها بان (شفيق افندي •• قادم) ، وان الازعاج الذي ينجم عن أية غزوة تشن عليه سيثير قبيلة (شوان) •

وباغفال امر هذا الانذار ، شأنه كشأن الحرس الذي كان يصحبنا ويتألف من عشرين فارسا شوانيا ، ودأبه على ذلك حتى المناقية التي تضع حدا لأراضيهم ، لم يكن أمر عدم مهاجمتنا يقينا ،فالجنود، بعد كل شيء، لايقعون فيصنف المسافرينالذين ينجم ضرر منورائهم ، وليسوا تحتحماية (شوان) • وكان يخشى من نزول جماعة من الهماوند ، تحول بيننا وبين الجند ، ثم تنقض علينا • وعلى ذلك ارسلت كشافة خيالة من الحرس

---

(٩) تبلغ أعلى قمة في جبال هوراامان ٩٨٠٠ من الاقدام ، وهي تتعالى كالجدار السامق على الجهة الشمالية الشرقية من مدينة السليمانية • وتقع تحت ظلالها بليدة (حلبجة : هەڵەبجە) (المترجم) •

الى جميع الجهات ، ولا سيما الى الجهة الامامية ، واظهر الفرسان الاكراد مهارة عظيمة في طريقة العدو على ظهور الخيل والصعود الى قمم التلال المنحدرة والسير في الممرات الجبلية الضيقة ، مع مسايرة القافلة التي تمضي في الاسفل ، وذلك كله على الرغم من الاستدارات التي كان لزاما القيام بها . ووعز الى كل فرد في القافلة ان يرتدي بزة ، وان يقلب معطفه ، او يخليه بعباءة او رداء وان يخفي طربوشه بغطاء رأس كردي . وجعلت القافلة ملتمة ، والجنود تمشي في وسطها !

وطوال ساعات دأبنا على الزحف على وجه صخور تطل على وادي الزاب ، وابتعدنا عن النهر اخيرا ، فتسلقنا ، خلل عدد من الوديان الجميلة تطبق عليها الهاويات المنحدرات ، ونفذنا منها الى هضبة ، نحن الآن ، في أرض الهماوند ، ورأى احد الكشافة وهو ذو بصر حديد كوكبة صغيرة من الفرسان ، على مبعدة . لقد كانوا يسايروننا على مسارنا ، على حين استحث احدهم جواده وانطلق به باتجاه مايفضي اليه طريقنا . . .

ثمة خطر كبير ينجم بين العشائر عندما تتقارب كوكبتان من الفرسان ، فالعادة ان تطلق النار من بعيد وتسدد على القادمين الجدد ، للتحقق من كونهم اصدقاء او اعداء . في الحالة الاولى يحجم عن السرد ويرتقب الآخرون ليتقدموا وهم يفعلون ذلك ، اما بالعدو التام ، او بالتستر وراء الروابي . وعلى مسمع الاذن يتبادل الطرفان التحايا ، ويتعرف بعضهم على بعض عن طريق ملامح الوجه وميزات اللهجة ونوع العمامة ثم يتقرر ما يأتي في اعقاب ذلك .

وعلى هذا النحو سرنا ساعات ، بين التلال التي تلت الهضبة ، حتى بلغنا واديا ، حيث تقوم قرية كبيرة على سفح التل ، راكبة النهر . انها قرية الهماوند المستقرين ، وهي ، ببساتينها وبحدائقها ، ذات منظر يسر الناظرين .

وفوق السطوح المنبسطة ، تجمع اهل القرية . ان غناء ملابسهم ، والعطالة العامة التي تسودهم ، لتفصحان بجلاء عن قصة الظفر الـذي

أدركوه بنتيجة سنتين من الثورة والغزوات ٠ وكان أن برزت من هذه القرية كوكبة اخرى من الفرسان ، لكنها احجمت عن التقدم ، وبقيت على جهة الوادي المقابلة ٠

ولما كنا لا نروم الاخلاد الى راحة ، قرب القرية ، لذلك دأبنا على السير حينا من الوقت ، حتى وارتنا عطفة تلال ٠ وعند منخفض ، قرب حوض ، كان العشب يتعالى حتى يبلغ الركبتين ٠ وتحت شجر عارش القينا أحمالنا ٠ وما أن قمنا بذلك الا اندفع نحونا من كل فج ، في سفوح التلال ، عميق ، فرسان يعدون نزلا ٠ حسنو الجسوم هم هؤلاء الهماوند، وكانت كفياتهم ، وهي من حرير وذوات الوان عديدة ، تتطاير خلفهم ، وهم ينطلقون ٠ كما كانت اورديتهم ، التي تغطي جسومهم حتى اقدامهم ، تعلو وتسفل، والخيل تعدو وتلعب، وكانت مهاميز كثيرين منهم مطعمة بفضة، وتتباين في ذلك مع احذيتهم المعقوفة الى فوق ، القرمزية ، وستراتهم الزوف قد أزينت اجمل زينة ٠ وكانت تعلو اللباس الازرق الفاتح طرز سحرية ذوات خيوط من ذهب وظفائر ٠ وجلهم يتسلح ببندقيات (موزر) ، اخذت من الجنود الاتراك غصبا ٠ انهم لم يحاولوا اخفاء هذه البينات الدالات على اعمالهم ، سلبا ونهبا ، عن ناظري الجنود والموظفين العديدين في قافلتنا ٠

وكانت عدتهم نحو ٥٠ ، وبصرف النظر عن موقف الجند الذين اتخذوا من البالات دريئة لهم تخفيهم عن القادمين ، واتخذوا سبيلهم الى المخيم قصدا ٠ وما كانوا يأبهون بالجيش المتنافر ، وقد وقف من وراء ستارة ، وآحاده ينظرون اليهم نظرة خرقاء حمقاء ٠ وبينما كانوا يتقدمون ، عمد كل واحد منهم الى فتح مؤخرة سبطانة بندقيته جهارا وافرغها من الاطلاقات التي فيها ، ثم عمد الى تعليقها فوق كتفه معلنا بذلك نوايـاه الصديقة ، واحتقاره الجنود حاضرا ٠ وتجلى ان الرسل النشوان قد لقوا ترحابا ، ذلك ان (اغا الهماوند) كان موجودا ، وهو صبي في نحو العشرين من عمره ، عليه ثياب من حرير يزهو بها ويزدان كثيرا ، شأنه في هذا

كشأن ثيابه الداخلية ، وتدل عليه الأكمام المتدلية حتى قدميه . وملحظ بارز في هؤلاء القوم هو النظافة التي لا ترين عليها شائبة . وعلى الرغم من خشونة حيواتهم ، وانهم على سروج الخيل دوما ، فلم يكن على قميص أحدهم وضر ما . واكتشفت ، اخيرا ، ان الكردي الغوّار ، كلما اصبح أكثر غناءً ، أصر على أن يكون أنظف ثياباً — وهي ظاهرة خاصة . واني ليخيّل لي ان أكراد هذه الارجاء لا يمكن أن يوصموا بالقذارة — على وفق معايير فارس .

ان الهماوند آحاد رمى باسل مقدام ، لسان حاله : (فلان متنا فموتات الرجل) ، لا يخضع لقانون أو نظام ، وقد طار اسمهم بين مواطنيهم كل مطار ، وفاقت غزواتهم اوحش الغزوات الجسور ، انهم أشد ما يكونون شجاعة بازاء الخطر : ولسان حال كل فرد فيهم دوما :

ولئن قتلت ، فانما .... موت الكرام الصيد : قتلا ! . . .

ان عداوتهم للاتراك تراخت دائبة بتراخي سطوة (بواشيه)[10] السليمانية القدامى . كان لهذه السنوات من حياة الشقاوة ، على مايتراءى ، اثر في ملامحهم الخلقية . انهم لا يملكون ملامح الرس الكردي المطبعة ، لكن في عيونهم السود لمحات اليقظة بادية . انها نتاج طرز حياتهم الخاصة ، وروح عدائي لا يستطيعون ، حتى بين ظهراني صدقانهم ، الى كتمانه سبيلا . ولقد نُمي الينا ، تدريجيا ، من الاخبار التي تسرّبت من تحت الشجرة التي تحلقوا عندها حول (شفيق افندي) ، انهم استقبلوا رسلنا ، وانهم سيرافقوننا حتى خيمة رئيسهم في (سهل بازيان) ، وعندها علينا ان نهتبل فرص قراره . انهم لا يضمنون عدم استنكاره لظهور مثل هذا العدد من الجند ، أو الامتناع من التحرّش بهم . واقترح الزعيم البلدي أن يحمل الجند سلاحهم على ظهور البغال ويقفلوا الى كركوك راجعين ، وعندها سيرحب بنا ، على التحقيق ، (الزعيم) باعتدادنا من اتباع (شفيق افندي) . لقد كان الهماوند جدّ صرحاء ، وجد شرفاء . لقد رفضوا

(۱۰) الجمع الصحيح لـ (باشا) — المترجم .

أي طعام قدّم لهم من (الافندي) ، اذ قد يطلب اليهم الانقضاض عليه وعلى جنوده في تلكم الليلة ذاتها ، لكنه ، بعد ان اخلاهم من كل تبعة ، وافقوا على المشاركة في احتساء الشاي •

ومهما تكن الحال ، صروا على شروط معينة بشأن قضية الجند • لقد سلّم البوق الذي كان يستعمل في ارض (شوان) الى زعيم الهماوند ، فحاول احد رجاله ان ينفخ فيه نغم (الاستدعاء) ، لكنه خاب على وجه يدعو الى الاشفاق ، فأثار ذلك سخرية الجند الرفقاء ، ولم يكن ذلك السخر منه ، حسب ، بل من اولئك الذين يرضون لانفسهم (الاستدعاء) بنفخة صور من شبه ، ولا يفهمون دعوات التلال ، انهم سخفاء !" وكان على الجند أن يسيروا الى حيث يقودهم الركبان ، امام القافلة ، او خلفها ، وعليهم ان يخيموا نيّلا حيث يطلب اليهم ذلك ، وان يترقبوا اطلاق النار عليهم ان تحركوا خلاله • طبيعي ان يوافق على هاته الشروط ، وذلك على الرغم من تمرمر وتذمر (البكباشي : المقدّم) وهو تركي كان بحاجة الى ترجمة كردية ، وقد اخذ يدرك من هم الاكراد اخيرا •

وما ان تمّ ترتيب هذه الشروط الا غادرنا عدد من الجند لابداء المشورة للزعيم • وكان ان اتخذوا مسارا جبليا منحدرا ، وسرعان ما تلاشوا عن الانظار • وكان أن حملنا أثقالنا وئيدا ، وعاودنا المسير على طريقنا ، خلّل ارضين اشدّ ماتكون رونقا وجمالا ، وازيد مما رأيت في بلاد الكرد طرا ، وكان الماء ثرّا والشجر وفيرا ، وتتابعت الوديان الوديان ، وقد اخذت الارض زخرفها وازّينت بعبقريات حسان من زهر : (وسنان نبّه منه الصبح احداقا!) وعشب سندسي يتعالى • وكانت السائمة والماشية ترعى في كل مكان ، يرعاها صبيان وصبايا ، شباب الهماوند وشوابهم الذين لم يبلغوا مرحلة حمل السلاح فينخرطوا في صف المقاتلة ، واني لاضمّ الشواب في المقاتلة الى الشباب لان النسوة الهماوند يقاتلن عندما يكون ذلك لازما ضروريا •

وعندما اصفرّت الشمس ، اعتلينا نشزا فشهدنا ، قبالتنا ، الوادي الطويل الضيق في (بازيان) : قلب ارض الهماوند • انه على حظ خاص من وفرة

الماء المتساقط ن الجانبين • ويتراءى ان السلسلتين تصبّان كل ما حباهما الله به من ماء على وادي بازيان ، ذلك ان السهول التي تتصاعد حتى تبلغ اقدامها خارجا تمد الماء • هذا وان كل سلسلة منها لتقدّم ، من الداخل أو تواجه بازيان ، الخضرة ، وان كانت هي منحدرات هاوية ، فتظهر للعالم الخارجي وجوها من الصخر الاجرد •

وعلى ذلك فان وادي بازيان ، على طوله الضيق كله ـ الذي يزيد على ميلين ـ هو حقل مخضوضر تتوالد فيه قطعان الاغنام ، والابقار من جنس (كيرنسي) المعروف لدينا ، وترعى طوال السنة • ونظر الهماوند في اختيار هذه البقعة المنعزلة الى امر الدفاع الذاتي • ذلك انها مغلقة من جهة انهايتين الشمالية والجنوبية ، ولا فجوة في جداريها الشرقي والغربي الا فجوة (بازيان) عند السلسلة الغربية ، كما ان ثمة منخفضا في السلسلة نفسها ، عند (ساكرما)[١١] نزلا • ان هذين الممرّين ، على وجه يدعو الى الاعجاب ، حصينان بالنتوء المنحدرة التي تعلوهما ، ولم تستطع أية قوة غازية أن تنفذ منهما[١٢] •

وفي ركن من السلسلة الشرقية بلغنا ، (ولمعات النهار المودّع تأخذها أحضان الافق الوردي عناقا) ، خيمة سوداء كبيرة ، هي مستقرّ زعيم الهماوند : حمه أغا • انه يقيمها (عندماتضحك الارض من صوب السماء) ربيعاء وخرج من الخيمة نفر ، وقفزوا الى صهوات خيولهم واسرعوا الى لقيانا ، وقيادتنا الى ارض مخيمنا ـ ذلك ان مثل هذه القيادة كانت أمرا ضروريا • ان زعيم القبيلة الثائرة يجب ان يكون ، حتى في ارضه عينها ، للاحتراب مستعدا ، ولقد اقام هذا (الزعيم) خيمته على مثل هذا الوضع ، بحيث تكون خلفها هاوية ، وعلى الجهات الباقية مستنقع ذو غور لا سبيل

---

(١١) وهو ممر (دربند في الكردية) وجبل ارتفاعه (٥٠٠٠ من الاقدام) على طريق القوافل الرئيس المارمن بغداد الى السليمانية (المترجم)•

(١٢) في رأي اكراد السليمانية ان كلمة بازيان تعني في الكردية « موطن الهزيمة » لكنهم أغفلوا الحقيقة القائلة بان كلمة (بازيان) شائعة في الكردية على معنى : « التلال الشاخصة » ـ (المؤلف) •

الى اجتيازه الا عن طريق ضيق شاق وحيد . وفي وسط هذا المستنقع تقع جزيرة صلبة من التربة يعاش عليها ، وقد خصص لنا « موقع مخيم » فيها . وتتراءى الارض لغريب صلبة كلها ، ذلك ان عليها غطاءا من العشب المتعالي ، طبق عليها من اقدام الصخر ، عبر السهل ، امتدادا .

والظاهر ان (الزعيم) قرر السماح لنا با نجتاز ارضه من دون ضر يلحق بنا ، ذلك انه خرج من خيمته واستقبل (شفيق افندي) مرحبا به ترحيبا وديا كافيا وافيا ، ثم قاده حيث قدمت له (الناركيلة) والشاي في داخلها .

وحتى عند هذه المرحلة، كان كل واحد منا على حال ارتجاف (كريشة في مهب الريح سابحة) ، ذلك ان كانت هناك احتمالات دائمة من الذبح والسرقة . وكل ذلك بسبب من وجود الجنود حصرا ، وهم من كان كل فرد ينظر اليهم ، بطبيعة الحال ، نظرة كره ، لايختص بها واحد منهم بل الكل جميعا . ان هؤلاء التاعسين ، ما كانوا يعانون من اشفاق يضعف القوة المعنوية حسب ، بل كانوا خنوعين تماما لا تظهر عليهم القسوة الساطية التي طبعت عليها المخلوقات عادة . لقد اضجعوا ، صامتين ، على الارض الرطبة المخصصة لهم ، كما لم يعترضوا عندما تحلق حولهم ١٢ رجلا من الهماوند .

وعلى الرغم من موقف (الزعيم) الودي ، فانه لم يتخل عن حذره البلدي ابدا ، ولسان حاله ما قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك الف مرة !
فلربما انقلب الصديق ، فكان اعرف بالمضرة !

ومن المحتمل انه كان شاكا ، أو انه كان يرى احتمال وجود مكيدة ما ، اذ على حين كان عندنا ١٠٠ جندي ، ولم يكن لديه الا ٣٠ او ٤٠ رجلا . ومهما يكن من أمر ، دأب الفرسان على الظهور ، مثنى وثلاثا ، من الجهات جميعا ، لايتحداهم احد مادام الضوء منتشرا ، لكنهم كانوا يتقدمون

على اهبة الاحتراب ، وينادون رفاقهم باسمائهم بعد ان نزلت الشمس الى خدرها وتوارت في الحجاب • وعند منتصف الليل لنيس بد من ان قد كان هنك ١٥٠ رجلا ، حالين يتحلقون حول خيمة زعيمهم يقظين • وكانت جيادهم مسرجة ، وقطع من السروج منزوعة ، ترعى بمقربة ، وعلى استعداد في كل لحظة •

وكان شيئا معلوما مفهوما ان كل من يقف او يطوف هو للرمي يتعرّض ، وكان ان قام جندي لا يعرف الحذر والحيطة ، ومن الظلمة التي لاقمر ينيرها واثقا ، فتحرّك ، وعندها عرف ما تكلفه حركته ، ان الهماوند لا تنام عندما تناط بها حراسة ، وانها تستطيع ان تسدد الرماية القريبة جدا في الظلمة •

ولا اعتقد ان قد نام منا كثير تلكم الليلة • لقد كانت البغّالة على حال من الرعب الراعب وتخشى ان تأخذ الهماوند منها بغالها ، بهدوء ، وتقودها الى التلال وتطلقها عليها ، وحيث لا يستطيع احد ، غير الهماوند ، استعادتها • وكان الجند يخشون الذبح على حين غرّة ، كما كان المسافرون يخشون النهب والسلب أيضا •

وكان مضيّفونا ، طوال الليلة ، يقظين ، طرّا • ودأب وميض اعقاب السكائر ، واستمرت همهمة الحديث ، وتراءى ، عند الفجر ، ان احدا لم ينم ابدا • انها لقوة عجيبة هذه القوة التي يتحلّى بها الهماوند : اعني المراقبة الليلية • لقد شهدت رجالا ، يواصلون الليل بالنهار على هذا المنوال ، يجلسون بازاء نار ، طوال الليل ، من غير حركة ، تقريبا ، لكنهم على حال من اليقظة الوسيعة وعلى استعداد للحركة ، وما ان ينصدع عمود الصبح الا يمتطي هؤلاء الرجال مطاياهم ويسيرون بها مسافة ٣٠ أو ٤٠ ميلا ، ثم يكررون ما فعلوه آنفا • والظاهر انهم لا يعرفون للكلل أو الملل معنى ، ويمتلكون من قوة الصبر ما لا ينفد ، وهو شيء علّمهم اياه الخطر الذي يدهمهم دوما : (وصرف الدهر نعم المؤدب) •

انه ، على كل حال ، شيء يجعل من المستحيل اخذ الكردي على حين غرة ليلا .

بين الهماوند

ان الهماوند ، وهم يؤلفون قبيلة اتقنت فنون الغزو وحرب العصابات ، أي اتقان ، ذات ناموس عريض في باب الاقدام والاستقلال ، وصدق في الهماوندي ما قال الشاعر :

يقلن له : السلامة خير غنم   وان الذل في ذاك المقال !

واذا تحرينا الدقة من الوجهة البلدانية (الجغرافية) فانهم لا يحلون ضمن حدود بلاد الكرد الاصلية ، انهم يقطنون تخومها الغربية ،ولعل انعزال بلادهم بين سلسلتي تلالهم صيرهم فوق جيرانهم ، لسنوات .

انهم يدعون بالانحدار من العرب ، وهذا الادعاء ليس بغريب ذيوعه بين بعض القبائل الكردية الصغيرة ، وليس هناك من دليل يدعمه ، بل الذي يناقضه، بقدر تعلق الامر باحتماله ، كثير . وسمحوا طوال سنين خلت، لشيوخ الاكراد ، أو القادة الدينيين ، في (قره داغ)[12] ، منطقتهم ، ان يتبوءوا مكانا عليا ، وان هؤلاء ، بالالحاح والحث المستدامين ، ادركوا بغيتهم: اذ التزمت القبيلة بالعادات الدينية بصلابة ، وهي عادات غريبة تماما بالنسبة لاكراد الجبال الحقيقيين (كذا ــ المترجم) . ان الحماس الديني ، بالنسبة الى السنة ، بخاصة ، شيء لا ينفصل عن تبجيل اللغة العربية . والاصل ان تبجل تبجيلا عظيما ، وهو شيء يكلف بتبيانه التركي السني ، وكردي الحدود ، وتعريف نفسه به . ان ذلك يشبه كثيرا هذا الذي يسعى الى اثباته (مستر سميث) أو (مستر جونز) ، واعني به الانحدار من أصل نورماندي محض وان لم يدل عليه اسماهما ومنحدرهما لزاما .

---

(١٢) اسم ناحية تقع بين جبل قرهداغ وجبل بيرانان (ويسمى عندها منسوبا الى كوره قلعة) وللسادة البرزنجية (ومنهم الشيخ محمود حفيد زاده نضر الله عظامه) نفوذ قوي فيها كشان ناحية سنكاو (المترجم) .

وعلى ذلك نجد ان كـلا من (الهماوند) و (البابا) و (الشوان) و (الجاف) يدعي بالاصل العربي لقادتهم ، على حين انهم اليوم جد مفخورين بانهم اكراد .

وكل هذه القبائل تكلف بالظهار ان ملابسها ان هي الا تكييف لبوس العرب ، وقد اتخذته بدلا من اللباس الكردي الغريب القديم ، وهي تشير اليه باعتداده مظهر الصلة بالعرب .

ومهما تكن الحال ، هنـاك دلائل من الجهـة الاخرى راجحـة اكثر تدل على انهم اكراد ، وليسوا الا من الاكراد ، واولها : لهجتهم ، وهي لسان كردي محدد جيدا لا شائبة فيه ، وما فيه من كلم عربية لا تعدو ان تكون دخيلة مقتبسة . وهذا الكلم ، في العادة ، أسماء آلات وأدوات قد لا تكون موجودة لديهم قبل ان يقفوا على صنائع العرب .

وقائع الهماوند

ومن ذكر بلاد الكرد الموغلة في القدم يستبان ان الهماوند كانت ثائرة بازاء القوة الحاكمة . انها ، على غرار كل قبيلة صغيرة أخرى ، لا يستشف لها الا التأريخ النزر ، وهو تأريخها الاحدث . لقد جاؤوا ، اصلا ، من الاراضي الفارسية ، حيث سكنوا قرب الحدود ، عند قصر شيرين . وهنا غدوا مبعث ازعاج لا يطاق ، بامرة رئيسهم : جوان مير خان ، بحيث ان الفرس ، في أمل خائب ينصب على تهدئتهم ، منحوهم منصب حماة الحدود لقاء مشاهرة معينة . وقبل بذلك جوان ميرخان ، ثم كان ان ضاعف من غزواته فأصبح لا يطاق الى حد الاضطرار الى القاء القبض عليه واعدامه . وخلفه ابنه (حمه بك) ، وما ان تولى امر القبيلة الا ادعى الاتراك بها . من نافلة القول ان نذكر ان الفرس سروا من استلال هذه الشوكة التي كانت تقض مضاجعهم ، كما انهم رجوهم تقبل رعاياهم هؤلاء على استعجال و (كمثل النار في الحلفاء) . وكان ان اعطوا الارضين الحالية في منطقة قرهداغ .

وفي سنة ١٨٧٤ غزوا الجنوب وشرعوا باقلاق حال مدن الحدود ، وضربوا الحصار على مندلي ، وهي مدينة من مدن الحدود ذات خطر ، حقا . وما ان صدهم الجند وآحاد القبائل الأخرى الا انسحبوا ، وقام عدد منهم بغزوة موفقة ، في الجهة الشمالية ، حتى بلغوا القرى النصرانية المتحلقة حول (بايزيد) ، ثم عادوا ، على ما تقول الاخبار ، محملين بالغنائم ومن دون ان يهجم عليهم احد ، وذلك على الرغم من ان سلاحهم الرئيس لم يكن الا الرمح .

وبعد خمس سنوات من ذلك انقضوا على السليمانية ، ولم تنج المدينة من السلب والنهب العامين الا بورود فوج من الجنود . وبُعيد هذا الفعل ، ولما كان الاتراك قد استطاعوا ايقاع بعض الزعماء الصغار ، بالخديعة ، في فخ ، نفي فرع منها الى ولاية طرابلس في افريقية ، ومنها عادوا بعد ذلك . قيل ان قد مضت على الرحلة ستة اشهر ، ولا يزال الهماوند يفخرون بانهم نهبوا العرب وسلبوهم ، شأنهم في ذلك كشأن الاتراك ، وهم على طريق العودة راجعون . ثم كان ان اعتدوا على أرض القبيلة الكبيرة : الجاف[13] ، كرة أخرى ، فارسل (باشا) هؤلاء الأكراد الاقوياء ، انذارا لهم ، وهددهم بالثأر الدموي .

وفي نحو سنة ١٩٠٠ ، او قبل ذلك ، استفزهم شيوخ السليمانية وقره‌داغ ، فانقضوا على قافلة كبيرة من الحجاج الفرس ، قرب كركوك ، واجهزوا على ٢٠٠ من هؤلاء البائسين ، ذوي الحظ المنكود ، و (لكل حتف سبب من السبب) . وكانت كل من السليمانية ورواندوز وكوي سنجق تتمتع ، حتى هذا الحين ، بواردات جمة من الحجاج الذين كانوا يمرون من فارس ، بطريق ساو جبلاق ، الى بغداد ، وكان ان توقف النقل بعد

---

(١٣) انهم ، على التحقيق ، قبيلة كردية قاطنة في بلاد الكرد الجنوبية. كانت تتنازع (القبيلة) الانبراطوريتان : العثمانيـة والفارسـية عند مطلع القرن الـ ١٧ . واليوم يقطن أغلبها العراق ، غربي سروان (ديالى الشمالي) ويسمى هذا الفرع (مرادى) ثم (جوانرد) و (كرمانشاه) المترجم

هذا ، ففقد الشيوخ مصدرا عظيما من مصادر الثروة ، بسبب ارضاء روح التعصب عن طريق ذبح المسلمين الشيعة •

وفي سنة ١٩٠٨ قام الهماوند بحملة استطالت مدة ستين ارتكبوا خلالها النهب والسلب عشوائيا ، واعلنوا انهم ثائرون • وبين خريف السنة المذكورة وصيف سنة ١٩٠٩ ايدوا دعواهم بتعرية (متصرف كركوك) من ملابسه وايقاف النقليات ، ثم ختموا فعلتهم بمهاجمة طابور من الجنود الترك ، وقتل ١٢ منهم (بضمنهم المقدّم وغيره من الضباط) وجرح ١٠ او ٥٠ وسلبهم جميع ما يمتلكون ، وبضمن ذلك بُندقيات (موزر) ، واحمال عدة : من العتاد والملابس والخناجر والبزّات الرسمية والحيوانات ، مخلّفين • بقية السيوف • التاعسة على بعد ٣٦ ميلا ، كان عليهم قطعها ان ارادوا بلوغ السليمانية مرات عدة ، وبقيت ايديهم تضبث دوما فيما حولها ، بحيث كان يضطر الى نقل الجثث ، للدفن ، تحت جناح الظلام وبحراسة قوية ، وباذن من الهماوند انفسهم غالبا •

وجمعت القطعات في جمجمال ، خلال صيف سنة ١٩٠٩ كله • وجمجمال[١٤] بليدة صغيرة كائنة على حدود الهماوند • وتجمّع نحو ٨٠٠٠ من الجنود على درجات • لكنها ، وهي مطمئنة الى انها لن تقدر على الحركة ما لم يقدم (آمر) بَرِم ، بوغتت بالهماوند ، وقد جاءت الى المعسكر ليلا ، وقطعت اسالة الماء اليها وخطفت من لم يتخذ الحيطة والحذر من الاحراس ، واختفت قبل ان يستطاع الى هجمة ، سبيلا •

هي النار فانظر نورها واخش قربها

ولا تكُ غرّا كالفراش بها تُشوى !

لم يكن قد دفع للجنود معاشاتهم ، وكانت معنوياتهم متبددة ، اما الضباط نكسالى عاجزون ، و (الآمر) محتجز ببغداد لاسباب عديدة قوامها :

(١٤) كان قضاء جمجمال ، على ما يسمى اليوم ، يعرف في ايام الاتراك بقضاء (بازيان) وتابعا الى السليمانية (المترجم)

الفساد والعطالة • واستدعي « حاكمان محليان » من السليمانية وكركوك الى جمجمال لتشكيل محكمة والحكم على الهماوند ان القي القبض عليهم •

وكان هؤلاء الاشخاص ، والأمراء من الضباط ممن يدفع لهم شيوخ السليمانية مالا لقاء الامتناع عن القيام بأية حركة ، وان فقدان الخيول والبغال لدى الجنود صيّر الحركات ، في ذلك الوقت ، امرا مستحيلا •

غزوات الهماوند

وعلى ذلك دأبت الهماوند على الغزو ، وهي جذلى فرحــة : تحتجز البريد ، وتحرقه ، وتقطع اسلاك البرق وخطوطه • وعندما استدعي متصرف السليمانية الى جمجمال، اول مرة ، رفض ذلك بتة ، اذ لم يجسر على الخروج من المدينة • لذلك حصلت سلطات جمجمال على ٢٠٠ من البغال بالسبيل الهين ، اعني وضع اليد عليها في كركوك • وارسلت ٣٠٠ من ذخيرة جنودها راكبة للاتيان بمتصرف السليمانية • وبهذا (الحرس) اندفع (المتصرف) الى جمجمال فوصلها في غضون ٧ ساعات ، ولم يكن ذلك من دون مطاردة الهماوند وفقدان بعض الفرسان •

ولما كان اقصى ما لدى الهماوند من قوة راكبة هو : ٢٥٠ من الفرسان موزعين في أرضهم على شكل عصابات صغيرة ، فمن المحتمل ان من هاجمهم لم تزد عدتهم على ٣٠ او ٤٠ ، اما الـ ٣٠٠ من الشجعان الباقين فلقد اطلقوا لسيقانهم الريح •

واخيرا رفع تجار بغداد والموصل والسليمانية عقيرتهم وجهروا بالشكوى ـ لذلك اخذت الحكومة المركزية ـ وهي تجهل السبب في تأخير الاجراءات الى حد ما ـ تصرّ وتلح على (الآمر) ، فاضطر هذا الى الانطلاق من بغداد • ولما قام عيون الهماوند ، في الوقت نفسه ، باخبارهم عن ذلك ، عمدت (القبيلة) الى تقويض خيامها وممتلكاتها ، مطمئنة وبراحة ، وانسحبت الى اعالي الحدود الفارسية ثم الى اراضي الاكراد : (شرف بياني) ، وهي

قبيلة صغيرة تسكن ، عبر نهر سيروان[١٥] ، على الحدود .

ووصل (القائد العام) بشيء كثير من التهليل والضجيج والعجيج ، ومعه اوامر تقضي بمطاردة الهماوند ومهاجمة فارس ان اتهمت باستقبال حتى الطفل الهماوندي ، عبر حدودها .

وشرعت القطعات بالتحقيق عن مخابيء الهماوند ومظانّهم فورا ، ولما لم تجد منهم في ديارهم احدا ، تمتّمت باكل الخضراوات المستنبتة وحرق السقوف الخشب في بعض القرى المهجورة . وطوال شهرين سعى الجند الى التوثق من ان لا اثر لهماوندي في هاتيك الارجاء ، وكانوا يمسكون ، بين الفينة والفينة ، بكردي غريب بائس ويمزقونه باعتداده مشبوها ، وبامره مشكوكا .

وكان اداء هذا الواجب البطولي جاريا ، وانا عن السليمانية راحل ، وحتى الان لدي سبب يحملني على الاعتقاد بان الجمع السعيد في چمچمال لا يزال قائما ، أي بعد ٦ أشهر من وصول آحاده للزحف على ٢٥٠ من الفرسان . وسيحجون ، في يوم ما ، عندما يصبح القوت نزرا قليلا ، وعندها يظهر الهماوند ، كرة اخرى للشروع ، بحقبة من الغزو والتحدّي ، اخرى[١٦] .

(١٥) ان الفرع الرئيس لنهر سيروان ينبع قرب مدينة اسد آباد على الممر العالي الكائن عبر طريق كرمنشاه ـ همدان ثم ينساب في مجرى متعرج بين الجبال ، والى الجنوب من (حلبجة : هەڵەبجە) يكون الحد الدولي الفاصل لمسافة ٢٠ ميلا ، واثر دخوله العراق يلتقي به نهر تانجرو : أي (نهر التاج) ، المنساب من وادي السليمانية وشهرزور ، وانه الحد بين لواءي السليمانية وكركوك من جهة وديالى (خانقين) على الجهة الاخرى . من بعد ذلك يسمى النهر (ديالى) المترجم

(١٦) من أغرب ما يتصل بتجريد الحملات على الهماوند وغيرها من القبائل التي كانت تشق عصا الطاعة على العثمانيين : ان الضباط الكبار كانوا هم الذين يدفعون الى جنودهم (الرواتب) ، لقد روى (بيردي فوميل) قنصل فرنسا في العراق احدى وقائع عام ١٨٨٨ حين وجدت السلطات نفسها واقعة في مأزق حرج اذ وجب عليها قمع عصيان قام في كركوك . كان المقرر ان تعهد قيادة الحملة الى قائد تركي كبير يدعى محمد باشا ، وكان

وعندما كنا بين ظهرانيهم في هذه المرّة ، ولم تكن قد اجريت بازائهم حركة ما ، كان الرأي الشائع ان لا سبيل لمرور قوافل ، بعد قافلتنا . وكانت هي الحال حقا ، اذ لم تعاود القوافل الاختلاف بين السليمانية وكركوك الا في اواخر آب .

وفي صباح اليوم التالي استمدّ عدد كبير من الخيّالة لحراستنا ، فغادرنا ديارهم بعد رحلة استغرقت نحو ساعتين ، وكان ذلك تحت الجانب الغربي من سلسلة التلال الملوّنة للحدود الشرقية ، ثم عثرنا على مسار فوق قصبة .

ومن ذروتها كنا نتملّى سلسلة من التلال طويلة قائمة على الجانب المقابل من سهل متموّج عرضه نحو ١٢ ميلا . كما كنا نشاهد ، من بعيد ، على الجهة الشرقية ، جدارا عظيما ، جبال هورامان وفارس المتوّجة هاماتها بالجليد . هذا سهل (سورجينا) ، وعلى حدّه الشرقي تقع السليمانية . واشار الحرس الهماوندي الى اقدام المرء وبيّنوا البقعة التي سلبوا فيها قافلة أخيرا ، وقتلوا جميع حرّاسها العسكريين واتلفوا عددا كبيرا من الرسائل والحسابات الحكومية . وكانت بقيتها الممزّقة لا تزال ، هنا وهناك ، متناثرة ، وفي مكنة المرء ان يحلّ رموز نهايات جُمَل فيها وهو شيء شغل به بعض المسافرين امدا طويلا . ان ديار الهماوند ، المعترف بها ، تمتدّ الى مسافة قليلة في هذا السهل ، وكان هناك عدد كبير منهم يخيّم عند مجرى ماء وفي مضارب غرابيب سود ، كما كانت قطعانهم تغمر سفوح التلال .

... وبلغنا السليمانية

ولدى التقرّب من السليمانية ، بلغنا رجا من الروابي ، حيث قامت اصلا بساتين وسيعة . اما اليوم فلا تعدو قطعا مهجورة من الارض فيها شجر قليل يموت بسبب من انعدام الماء (وجعلنا من الماء كل شيء حي) .

وتسقى الاراضي المحيطة بالسليمانية بالماء على وجه ممتاز ، وذلك عن

هذا قد سلف الدولة في حمة ماضية ٨٠٠ ليرة عثمانية ولم يرد له المبلغ لذلك تمرد على قيادة الحملة الجديدة وتمارض فتأخر ارسال الحملة لقمع العصيان لهذا السبب ، (واذا عرف السبب بطل العجب) .

طريق نهر وعدد من مجاري الماء • لكن رعب الهماوند في أيام الشدّة ، والحكومة والشيوخ في أيام السلم ، سبب الهجرة من ديار كانت مزروعة غنية • وحتى مشارف السليمانية نفسها تجد البقية الباقية المحزنة من أيام الرخاء الدابرة • ولا توجد ، اليوم ، بساتين تطيف بالمدينة ، وهي تموّن بالفواكه بأسعار باهظة ، تجود بها قرى كائنة على الجانب الاخر من التلال ، وهذه تقع خارج سلسلة جبال الهماوند •

وتقع السليمانية عند أسفل منحدرات التلال الكائنــة بين التشرين ، وبينها يجري ماء غمر سلسبيل ، ايضا • ولاحظ من خطر للمدينة كليا ، وليس فيها من البنايات الوسيعة شيء ما ، ولا تملك أثرا بارزا ، فيما خلا منارة شيّدت حديثا • وتتراءى من الخارج وكأنها كدس متجانس من سقوف مسطّحة مبنية من طين، وقد ترى ، هنا وهنا ، غرفة فوقانية لبيت كبير• وليس للمدينة أسوار ولا تحصينات، والمرء يدخلها من الصحراء توّا ، أما ضواحيها فلا تعدو مجموعة من بيوت ذوات طابق واحد تشاهد في فناء الواحد منها نسوة جميلات كسالى عاطلات يشغلهن شاغل وحيد دائب هــو : تدخين السكائر (كذا ـ المترجم) •

ويتجلّى الطــراز الفــارسي ، هنــا ، قــرب كردســتان الفــارســية جــدا ، وطــرز البنــاء في المســاكن الفقيرة هو طرز (سنه) و (ساو جبلاق) ، وفي البيوت الأفضل يشاهد طرز أية مدينة فارسية غربية• واتخذنا سبيلنا ، في احدى الاسواق المفتوحة ، الى أحد الخانات حيث قررت الاقامة فيه • انه مشيّد على الطراز الفارسي تماما ، فيه صف من الحجرات تحيط بفناء ، وتتفتح على طارمة خفيضة •

حصلت على حجرة فرميت فيهــا متــاعي وصرفت البغّــال (المكاري) الذي كان يطالب بجائزة ما لقاء الاتيان بي بسلام ، والمرور من ديار الهماوند ، فالوصول الى السليمانية •

الفصل التاسع

السليمانية

في مكنة المرء أن يتملّى من السليمانية سلسلة جبال (هوزامان : هه ورامان) ، معلمة الحدود . انها واقعة على بعد نحو ٦٠ ميلا عن اقرب نقطة فارسية ، وعلى فوت ١٠٠ ميل من ذروة هورامان ، وهذه الذروة ، من (المدينة) مرئية . انها تقع عند اقدام سلسلة جبال (ازمر) التي تدعم الهضبة الفارسية ، عند هذه النقطة ، وانها ، لاوسع مدينة كردية في كردستان الجنوبية التركية أيضا ، لكنها ، على الرغم من خطرها : التجاري والسياسي الذي أحرزته في يوم ما ، موقع ليس له من تاريخ ذي خطر ، بأي وجه من الوجوه .

تاريخ السليمانية

ويرجع اصلها ، على غير وجه مباشر ، الى من يدعى (ملا احمد) ، وهو من ساعد الاتراك في الحرب ، قبل ٣٥٠ سنة . ان هذا الرجل روحاني كردي ، من أهل قرية (داره شمانه) الواقعة في (پشدر) ، شمالي السليمانية ، وهو من فرع (نورالدين : نورادينى) من فروع عشيرة بابان[1] وكان مُنح ، لقاء خدماته ، بعض الاراضي والقرى من قبل السلطان الحاكم ،

(١) شمل حكم اسرة بابان ، في عاعراس مجدها ، (كوي) و (بانه) شمالا ، و (كفري) و (قرهتبه) جنوبا ، وحتى ، على ما يدعى في الاحيان : (مندلي) (وبدرة) .

وقد انتهى حكم (الاسرة) عندما اندحر أحمد باشا سنة ١٨٤٧ على يد نجيب باشا والي بغداد ، قرب (كوي) . ويرى الرحالة البريطاني (ريچ : Rich) ان البابانيين من ال (كرمانج) ، من پشدر وان (ببه) او (بابان) هو لقب الاسرة .

(المترجم)

خلدتهم في قرية (قلمهي جولان) ، المسماة اليوم : (قره جولان) ، والواقعة شمالي سلسلة ازمر ، على مرحلة يوم من السليمانية . دام حكمه فيها حتى اتاه اليقين ، وغدا اخلافه حكاما اقوياء ، شبه مستقلين ، يحكمون (سورجينا) ، حيث تقع اليوم مدينة السليمانية ، والديار الواقعة حوالي (قلمهي جولان) . وما كان هؤلاء الزعماء ، وعلى غرار كثير من زعماء الحدود في السليمانية ، موالين ، بأي وجه من الوجوه ، للاتراك ، وكانوا يجدون بولائهم الى فارس ، عندما يحلوا لهم ذلك .

وفي سنة ١٧٧٩ ، في عهد سليمان باشا الوالي البغدادي ، نُقل مركز الحكومة الى موقع المدينة الحالي وشيدت دار للحكومة وبنايات أخرى وسميت المدينة بـ (سليماني) ـ لا السليمانية .

اخذت تحكمها سلالة من البواشية الاكراد ، ابتداء من ابراهيم باشا ثم اخلافه من بعده . وبقي هؤلاء حتى أيام عبدالله باشا المعاصر لنامق باشا والي بغداد[٢] . وما أن جاء حاكم السليمانية الى بغداد يزور (واليها) الا ألقي القبض عليه مع اخيه : أحمد باشا ، وارسل الى اصطنبول مخفورا . كان ذلك في سنة ١٥٨١ وبه ختمت صفحة الحكم الكردي في السليمانية . ورتب احدهم ، المسمى اسماعيل باشا ، وهو تركي ، قائمقاما على السليمانية وجعلت فيها حامية ، وبقيت السليمانية محكومة من تركية حتى يوم الناس هذا[٣] . ومات الكرديان اللذان كانا من البواشية الـ (باشاوات) قبل ثلاثين سنة ، واولادهما يعيشون في اصطنبول اسارى .

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض   على الماء خانته فروج الاصابع

---

(٢) وكانت السليمانية خلال السنين القلائل الاولى من النصف الاول من القرن بيد الفرس   (المؤلف)

(٣) يريد أيام زيارة (المؤلف) للمدينة   (المترجم)

قلنا : ومحمد نامق باشا والي بغداد (١٨٦١م ـ ١٢٧٨هـ) هو الذي جعل بناء (المستنصرية) الجامعة العظيمة مخزنا للملابس العسكرية فتأمل !!
(المترجم)

وما ان حصل ابراهيم باشا الكردي على زعامة منطقة السليمانية وقرهداغ[٤]
وهي الى الجنوب ـ الشرقي منها ، الا" بنى لنفسه بيتا فخما ، واتخذ له
سفح التل" موقعا ، وقد جعله الحاكم الجديد (المتصرّف) ، اليوم ، له
مسكنا . وحوله ، رنُزُلا ، اخذت المدينة تتكوّن وتتشكل . واستقرّت
الاسرة القديمة من الشيوخ ، الزعماء الدينيين ، هناك أيضا ، ومما اضفى
على الموقع خطرا تشيد حمام وجامع أيضا . وليس الاكراد بسكنة مستقرّين
صالحين . واخذ سكان المدينة الجديدة يتألفون من مختلف الطبقات التي
تنشط عادة في الميدان التجاري . وهؤلاء القوم ، في هذه المناطق ، هم من تركمان
كركوك واليهود والنصارى ـ السريان والكلدان ، والأخيرون منهم على
الوجه الرئيس . وقيل ان من الـ ١٠٠٠ بيت ، وهو عدّة دورها في سنة
١٨٢٥ ، كان النصارى واليهود والتركمان يحلوّن في ٨٠٠ منها .

ولما كانت المناطق المجاورة مسكونة كلها باكراد الـ (ماكو) الهماوند
وبانه ، وقبائل الجاف ، فان لغة المكان غدت ، منذ طالعه الامر ، كردية[٥] .
وكان الشيوخ يمارسون سلطتهم ، في الوقت نفسه ، في سبيل الشر
والتعصّب ، فصيّروا الخيلة ، بالنسبة للنصارى واليهود ، عسيرة مصرة ،
بحيث أخذ عدد كبير منهم يبدّل دينه سنويا ، من الاضطهاد تفاديا ، متّخذا

---

(٤) يمتد جبل (قرمداغ : قەرە داغ) ـ أي الجبل الاسود ـ حتى (دربند بازيان : دەربەندي بازيان) ، وتقع مدينة السليمانية على بعد ٧٧ ميلا شرقي كركوك وتعلو ٢٧٥ قدما . (المترجم)

(٥) لا معدى عن أن نحدد هنا : فعلى العموم تنقسم اللغة الكردية الى ثلاث لهجات هي (١) (سوراني) وهي لهجة اربيل والسليمانية وكركوك و (٢) (بهديناني) وهي لهجة العمادية ودهوك و (٣) (كوراني) وهي لهجة خانقين وحلبجة ، وصاحب الشرفنامة يجعل اللغة الكردية على اربع لهجات هي : (الكرمانجية) ، وهي شمالية وجنوبية ، والاخيرة تمثل على رأى العلامة العراقي ، الكردي توفيق وهبي لغة اربيل والسليمانية وكركوك ، و (الكورانية) ، وهي في كردستان الجنوبية ومتفوقة على الفارسية ، ثم لهجة (زازا) الـ (لر) ، ومن علامات اختلاف اللهجتين الشرقية والغربية ، على سبيل المثال :

في الشرقية : (من نازانم) أي لا اعرف ، تصبح في الغربية (ئەز نزانم) ـ (المترجم)

بعد التبديل ، اللباس الذي يصطنعه الاكراد ولغتهم محليا • ومن هـذا الخليط التام نجم شعب اسلافه اطفال اجناس شتّى ، من حيث الاحاسيس والطبيعة ، ومن الآريين والساميين وجنس الترك ، لديه كل الصفات غير المستحبّة في كل جنس تقريبا •

ينضاف الى ذلك كله تعصّب لم يخمد له ، تحت الاجراء المؤجج الذي يقوم به الشيوخ ، اوار ، ولم يهن ، وبذلك اتّسمت السليمانية بسمة : قوامها الجهل والوحشية وهي التي ادّت بها الى الخراب •

ومهما يكن من أمر ، فان الشيوخ الروحانيين ، تحت حكم البواشية القدامى القوي ، لم يقووا على ممارسة نفوذهم السيء الذي كانوا يصبون اليه دواما ، لذلك تقدّمت المدينة تقدّما عظيما وغدت سوقا مهمة من اسواق الصوف والجلود ، يختلف اليها أبناء القبائل ، ومحطة توزيع ، ومستودعا لجميع البضائع المستوردة الى بلاد الكرد الفارسية الغربية ، من الموصل وبغداد • وكان في هاته الديار ، في قره داغ وشهرزور بخاصة ، سكان من الكلدان واليهود ، وكانت لهؤلاء ، سواء احتفظوا بدينهم ام اصبحوا في عداد السكان المسلمين أو اختلطوا بهم ، غريزة تجارية قوية تقدمية ، وقد جادوا بها عليها •

وكان (الباشا) على وفاق تام مع زعماء قبيلة الـ (جاف) العظيمة دوما ، ويحتفظ بعدد كبير من الفرسان المسلّحين القديرين لضمان السلم ضمن حدوده الخاصة ، وعلى ذلك أصبحت السليمانية من أهم مدن الحدود ط ٣ •

وفي خلال الحروب التي استمرّت في أوائل هذا القرن ، غدا موقع شهرزور المجاور لها فارسيا ، وعلى ما كان عليه قديما • لكن الاتراك استرجعوه ، وبقي في حوزتهم بموجب المعاهدة المبرمة في سنة ١٨٤٧ •

وفي نحو هذا الزمن حدثت مذبحة عظيمة ، مُني بها النصارى في جميع أرجاء كردستان التركية الجنوبية ، وقد اثارها في هذا الرجا نفر من اسرة الشيوخ • وفي اعقابها أصبحت قوة الزعماء الاكراد المستقلين قليلة جدا ،

واستطاع الاتراك ان يحولوا دون استمرار هذه الجائحه ، على ما شهدنا قبـــلا .

ومن هذا الوقت ، الذي توقف فيه نفوذ (البواشية) الاكراد الرادع السليم في الروحانيين ، اخذ ابناء اسرة الشيوخ في السليمانية يقيمون لهـم مركزا قويا ، بحيث غدا الحاكم والمحكوم ، على حد سواء ، يرتعد منهم فَرَقًا .

وما دام السلطان عبدالعزيز حيا - حتى سنة ١٨٧٦ - فان حكمـه الصالح ، نسبيا ، اخضع الشيوخ المذكورين ، واكتفوا ، بالحصول على تجلة قدسية والاستحواذ على القرى والاراضي شراءا . ونجح الشيخ سعيد ، رأس الاسرة ، في ادراك هذه الغايات على افضل وجه ، بحيث أصبح مالكا للاراضي المحيطة بالسليمانية كلها ، كما نشر في الخارج ما يؤكد امتلاكه قوة روحية و « أمر الغيب واستكناه المستقبل ! » . حقا انه يملك نظـاما من أفضل الانظمة المتقنة في باب المخابرات والجاسوسية . ان تنبوءاته من هذا النمط الذي يستطيع عملاؤه السريون تنفيذه بالخنجر والرصاصة . وليس من غير الطبيعي ان يغدو اسمه مرعبا ، وبلغ احترامه درجة فائقة بحيث أخذ الناس يحيّون حتى خيوله .

واثر وفاة (السلطان) المذكور آنفا وارتقـــاء السلطـان عبدالحميد كرسي السلطنة ، شرع هذ الروحاني الذكي بتضخيم ذاته والاغتناء ، وهذا هو السبب في قتله سنة ١٩٠٩ ، أخيرا .

ولما رأى ان السلطان فاسد جشع ، وحاشيته في الغالب ذات كيد ورياء ، لذلك اتّخذ السبيل ، صحبة روحاني آخر شهير هو : الشـيخ قادر ، الى اصطنبول ، وعن طريق هدية كبيرة استطاع أن يحصل له ، ولأسرته ، على الحظوة الشاهانية . ينضاف الى ذلك : انه ، عن سبيل موهبة المدح العجيبة التي اتّسم بها ، وبعون من الواجب الديني والشريعة ، استطاع دعـــم حججه ، لــذلك غـــدا مستشار السلطان عبدالحميد

الديني[٦] حقا .

انما هذه القلوب حديد ولذيذ الالفاظ مغناطيس

ان الضربة العبقرية الاخيرة الموفقة جاءت عندما ألّف الشيخ سعيد والسلطان وعزت باشا - ذو الذكرى الشريرة - حلقة حقّة لاستغلال منطقة السليمانية ، انه (الّف) استطاع (الثلاثة) به أن يصبحوا موسرين . وضمن عزت باشا تقديم الضباط الفاسدين العاجزين للحكومة المحلية ، والسلطان يجني دخلا سنويا بالاضافة الى حصيلة الضرائب ، أما الشيخ سعيد ، فعلى الرغم من انعدام تبعتـه الرسمية ، بالنسبة الى الوضـع في السليمانية، فلقد كان حرا في سحق الاهلين واعتصار المنطقة الى الحد الذي لا يبقى فيهـا الا هو واسرته . لقد اغتنى كثيرا من وراء المـدينة والبـلاد وقد استهلكتا وخربتا .

وعند ارتقاء السـلطان عبدالحميد منصّة الخـلافة والسلطنة كانت السليمانية أشدّ خطرا من أي وقت مضى . لقد غدت سوقا لحاصلات بلاد الكرد الجنوبية كلها . ذلك ان البسط كانت تردها فتباع فيهـا ، أو تحمل الى الموصل وبغداد أيضا . وأخذ صمغ الكثيراء Tragacanth المستورد من (بانه)[٦] يباع هنا ، ويفضل على بيعه في (سنه)[٧] ، ونشط

(٦) ولي السلطان عبدالحميد الثاني عرش الانبراطورية العثمانية فعمد الى ادماج (الخلافة) ب (السلطنة) وكان ذلك في بداية عهده : سنة ١٨٧٦م .لقد تعرضت (الانبراطورية العثمانية) الى الغزو الروسي وانتزعت منها اقاليم شاسعة بموجب (صلح برلين ١٨٧٨) ، كما ان انكلترة وضعت يدها على قبرص ، وغدت مصر محمية من قبل انكلترة وفرنسة . وكان (السلطان) يهتم بالبلاد العربية لوجود أملاكه فيها ، اعني (الاملاك السنية)، ونشطت في أيامه الجامعة الاسلامية تتوجها (الخلافة) التي يهدد بها الدول الاوربية. ومن أبرز مظاهر عهده : انكماش المشاعر القومية بازاء المشاعر الدينية الاسلامية ، ومن حسناته انه لم يرضخ لاغراء اليهود الذين اصطنعوا جميع الوسائل لاقامة كيان لهم في فلسطين، وانه عمّر المسجد الاقصى المبارك اذ أضاف سورة (ياسين) بأكملها الى الكتابة التي عليه ، وفرش أرض (المسجد) بالسجاد الفاخر الذي لا يزال حتى يوم الناس هذا . (المترجم)

(٧) (بانه) قضاء مستقل في كردستان الايرانية (٨ نواح) و (٤٥ قرية) وفي مركز بانه ٨٠٠ بيت، و (سنه : سنندج) مشهورة بالسجاد الفاخر (المترجم) .

عدد كبير من كلـــدان الموصل في تجارة وسيعة رابحة قوامها : الاقمشة القطنية المحليه والمنسوجات الأوربيـــة • كانوا يبيعونها في السليمانيـة ويصدرونها حتى الى مكان قصي كهمدان في فارس الغربية • واتخذت بعض الحرف مقامها في الاسواق الوسيعة ، وعلى وجه أخص صـــناعة الاحـــذية والسروج ، وصنع الخناجر والبندقيات • وبنى (بكوات) و (بواشية) قبيلة الجاف (الخانات) والأسواق ، ونجمت بينهم وبين تجار السليمانية صلات، فكانت تمر، خلال سوقها، جميع منتوجات هذه (القبيله) الكبيرة كالجلود والصوف والتبغ والزبدة • وكانت قافلة بغداد تغادرها ، وتصل السليمانية ، كل اسبوعين ، من الموصـــل واليهـا ، في الفاصـلات الزمنية أنفسها • وكانت القوافل الراحلة تقوم على خدمة (بانه) و (مريفان) و (سنه) و (ساو جبلاق) غالبا ، ورفعت درجة رئيس الوحدة الادارية الى (متصرف) ، واقيمت حامية اكبر في الموقع اسـيا •

قيل لي ان قد كان في سنة ١٨٨٠ (٥٠) من الـكلدان الموصليين و (٢٠) من تجار همدان الفرس، مستقرين فيها جميعا • وكان الاخيرون على حظ من خطر ، باعتدادهم جزءا من السكان المتاجرين ، بحيث أشغلوا خانا خاصا اطلق عليه اسم : (خان العجم) ، وقد بقي الاسم حتى يوم الناس هذا ، وعلى الرغم من عـــدم بقاء فارسي في السليمانية أبدا • وخمنت التجارة ــ باستثناء تجارة التموين المحلية ــ بما يزيد على نصف مليون ليرة سنويا • انها لا تبلغ هذا المقدار الكلي اليوم أبدا ، ذلك ان أعلى رقم تبلغه ، على ما يزعم ، هو ٤٠٠٠٠٠ من الليرات في سنة طيبة ، وهذا المبلغ في تناقص أيضا •

وفي سنة ١٨٨١ أسفر طغيـان الشيوخ ، مشفوعا بطغيان الحكومة التي أخذت تبتز ضرائب غير عادلة ، عن ثورة قام بها الشعب ، واستدعي (الهماوند) لضرب الحصـار على المـدينة وطرد المتصرف والشيوخ • وقاومت (المدينة) ، لمدة أربعة أيام ، وكادت تسقط لولا أن وصل فوج من كركوك فأنقذ الوضع ، وسلم المدينة ، في الوقت نفسه ، الى الروحانيين

المتقمين . وشرع الشيخ سعيد بحملة سرقة مكشوفة ، وكان أن ابتز من التجار مال عظيم ، من دون سبب أو حجة . وكان قتل الممتنعين عن الدفع ، فورا ، سببا في اضعاف معنوية الآخرين تماما . هذا وقد وضعت في الوقت نفسه ، سياسة اقراء أبوية واشراف . ذلك ان كل من كان يظهر على وصيد بيت الشيخ كان يحصل على طعام ، ويُعتمد من (الحاشية) . وبهذه الطريقة أصبح جميع الافراد ، من ذوي الشأن بين السكان ، للشيوخ الروحانيين أتباعا . ولما شرع الكثيرون بفتح الدكاكين في السوق نجمت طبقة من الأعوان ضمّت الحرفيين في السليمانية طراً . وكان من الخطر ابداء رأي يتناول الروحانيين في هاتيك الايام . ففي كل دكان ، وفي كل زاوية ، كانت هناك عيون متطلعة وأتباع ينقلون الى سادتهم عمال كل انسان . وكان هؤلاء الاشخاص يعرفون الحياة الشخصية ، وحركات كل شخص وسكناته ، نصرانيا كان أو يهوديا أو مسلما ، في السليمانية قاطبة . وكثرت حوادث القتل ، ذلك ان فقدان « شخص متمرّد » لا يسبّب تعليقا ما ، من الناتج اشفاقا ، وما كان على القتلة الا الاعتراف بالولاء الى الشيوخ ليسمعوا الثناء على تصرفاتهم المتطرّفة ، بدلا من التعزير عليها . والذي عانى من جرّاء ذلك كله هم : التجّار حصرا . ولما كانت الفرس من الشيعة ، فلقد عانت من تعصّب السنة ، وكان الشيوخ غير قادرين على قمعهم حذرا من فارس التي كان لها على الحدود شأن عظيم ، على ان ثمة ضررا مُنيت به تجارتهم ، مما جعلهم عن السليمانية يرحلون .

لقد اشترى الشيوخ ، في هذا الوقت ، جميع البساتين التي تطيف بالمدينة تقريبا ، وهي التي تجود عليها بالفاكهة والخضر ، ثم جاء فرض ضرائب جديدة ، بالاتفاق مع سلطات المدينة ، فشملت الحاصل والمنتوج . ثم بدأ الشيوخ بنظام محصله دفع ٣٠٠ بالمئة على أحمال الفاكهة التي تدخل المدينة ، باعتداد ذلك (رسم دخول خاص) .. لذلك عمد كل مزارع ، في غضون سنتين ، الى اشعال النار في أشجار الفاكهة التي

يسلكها ، وفي تخريب قنى الارواء العائدة له ، ثم الهروب ، من بعـد ذلـك ، الى أرض فارس لازدراع التبغ فيهـا . وفي أعقاب حوادث سنة ١٨٨١ ، حين استطاع الهماوند ، على التقريب ، أن يصيبوا النجح في الاستيلاء عـلى السليمانية ، والاجهاز على اسـرة الشيوخ ، أدرك (الشيخ سعيد) خطر هذه القبيلة واستخدامها المحتمل كسلاح . ولـكي يسيطر عليها عمد الى : زيجات شرعية ، فربطها بوشائج اليه ، ووثقهـا باقامة صلات ودية مع روحانيي قرهداغ . ونجحت هذه السياسة نجاحا عظيما بحيث وجدت القبيلة المذكورة نفسها ، في سنة ١٩٠٨ ، غير قادرة على عصيان أمر (الشيوخ) وذلك حين طلب اليها أن تعلن انها ثائرة . ذلك ان قصد (الاسرة) الآن لم يعد امتلاك ثروة السليمانية حسب ، وانما اثبات قوتها العظيمة بدرجة تحمل الحكومة على جعل أبنـائها على السليمانية حكاما ، وبعد أن تيأس من استتباب الأمن والسكينة بطرائق اخر . كان « انقلاب » تموز سنة ١٩٠٨ في القسطنطينية قد حدث أخيرا ، واعلنت تركية دولة ذات (دستور) ، ورأى الشيوخ احتمال فقدانهم السطوة ، أو لعل ما هو أسوأ من ذلك ـ الاقتصاص .

ومهما يكن الامر ، فقد كان (السلطان) على حظ كبير من سلطان ، وبأكثر مما كان يأمله المراقبون في أوربة . كان يأمل بأن يزيد منه ، وما كان يناهض نشوب الثورة التي تزيد من صعوبات . واجب الاصلاحيين . ان السلطة القديمة كانت عادمة غير ذات تأثير ، لا سيما في الاقسام النائية من (تركية الآسيوية) :

اقيم لاصلاح الورى وهو فاسد . متى يستقيم الظل والعود أعوج ؟!

وكان السلطان يضم الى جانبه ذلك الشطر القوي الذي يستطيع زيادة وارداته عن سبيل السرقة والشقاوة[٨] ـ وعندما تتفق مصـالح هؤلاء الأشخاص مع مصلحة النظام ، وهذا ما كانوا يفعلونه بين الحين

---

(٨) كمثال ملحوظ على خصيصة سياسة عبدالحميد هذه : ابراهيم باشا الكردي الثائر الحراني ، وقد أرخ له مستر فريزر في كتابه الموسوم : Frazer: Short Cut to India (المؤلف)

والحين ـ تسرع العدالة وتغدو ضالّة •

ومن نافلة القول أن نذكر ان نبذ النظام القديم كان يعني ابعـــاد تلكم القوى عن مسار الدستوريين ، وان هذا الشرط الملتزم في (الوضع) هو الذي أشاع الأمل في (السلطان) آنيا ، وأيأس (المجلس) ، وهو الذي لم يستطع أن يأتي بقوة تهيمن على أية حال فوضى ، أو تطبق على ثورة ، كما ان الحكومة الجديدة كانت غير قادرة على دفع ما تخلّف من مشاعرات الجيش ، وبوجه يفوق رغبة السلطان عبدالحميد نفسه •

وكان المجنّدون التركمان والأكراد في الجيش ، على وجه أخص ، نافرين واجدين ، يرفضون القيام بأي واجب يتراءى لهم مستكرها • وعلى ذلك حمل الهماوند ، كرها ، على أن يعيثوا نهبا وسلبا ، من غير أن يعكّر عليهم معكّر أبدا • ومهما تكن الحال ، أصبح الوضـع في السليمانية ، سيئا ، بحيث لم يستطع الحزب الجديد في اصطنبول أن يهمل شـــان الشيوخ بأكثر • وغدا التجّار ، في هذا الاوان ، يعانون ضعفي أو ثلاثة أضـــعاف ما كانوا يعانونه قبـــلا • فان لم يفقدوا ، على يد الهماوند ، بضاعتهم ، فان السلطات المكسية (الكمركية) والشيوخ وموظفي (المدينه) توقع بهم خرابا ساحقا • وتناهت من السليمانية رجاءات متكرّرة برقيا ، وأخيرا أغرت (الحكومة) الشيخ سعيد ، وهي عارفة باستحالة استخدام القوة ، على الشخوص الى الموصل مع بعض آحاد الاســـرة • وكان أن احتُجز فيها ، ثم حدثت بعد ذلك بقليل ، الثورة التي قُتل فيها • ولم تكتشف هُوية (القاتل) وسرّه أبدا : (ألا كل مقدور فسوف يكون !) • لقد نجمت الاضطرابات بين أهل الموصل بصدد شؤونهم الخاصة ، وبعد لأي من الزمن ازيحـوا من مشـهد الضجيج والجلَبه • وبصفٍ واحـد ، والظاهر ان ذلك جرى على وفق توجيهات تسلّموها ، اندفعوا الى بيت الشيخ سعيد ، واقتحموه ، ودخله نفر منهم ، وكان أن لقي الروحاني الشيخ حتفه •

هل للفتى من بنات الدهر من واق　　أم هل له من حمام الموت من راق؟

لقد كان هذا ارهاصا بذيوع حال فوضى متضاعفة في بلاد الكرد الجنوبية . حاز الشيخ سعيد ، على ما رأينا ، على سمعة من القدسية خارقة، وهذه ، مشفوعة بقوته ، سببا غضبا مزمجرا صارخا عم الجهات جميعا . وألقى الممثل في القسطنطينية : الشيخ قادر سلسلة من الخطابات اللاهبة طالب فيها ، باسم شريعة الاسلام ، الثأر المروع السريع من القتلة . وسمح لابناء الاسرة ، الذين هم أصغر سنا ، بالعودة الى السليمانية بعد أن أقسموا على الانتقام من تجار تلك (المدينة) ، ذلك أنهم زعموا ان القتل حدث باستفزاز منهم .

وعادوا يتميزون غيظا . وأجبرت السليمانية على اعلان الحداد العميق . أخذت جميع الحاكيات والآلات الموسيقية من أصحابها غصبا ، ودمرت تدميرا . هذا وقد أجهز على جميع احتفالات الزواج فورا وابدلت حزنا . وتولى الشيخ محمود زعامة الاسرة فأظهر مقدرة في باب العنف والجريمة (كذا ! المترجم) لايباريه فيها حتى الشيخ سعيد أيام سطوته السائدة الساطية . وقتل عدد من أهم تجار المدينة رغبة في ابتزاز ما يستطاع ابتزازه منهم بحجة الانتقام . وحدثت السرقات والسطو على البيوت في جميع الجهات . ان ابداء رأي بحق (غسال) صحون وآنية طبخ (الشيخ) ، مصير (مبدبه) الموت، تلكم الليلة عينها . وكان المتصرف والشرطة يتسلمان عمولتيهما اثر كل هياج جديد تشهده (المدينة) ، وكان الناس الناصون ، يحركون أيديهم ويهمسون باسم المجرمين ، قائلين : « بياوي شيخانه » : « انهم رجال الشيخ » !

وأوعز ، في هذا الاوان ، الى والي الموصل بالشخوص الى السليمانية، لسببين اثنين ، هما : (١) محاولة التحقيق في القلاقل والاضطرابات فيها و (٢) معاقبة سراق (المتصرف) ، وكان هذا غادر البلدة فهاجمه فرسان (الشيخ) وكاد يفقد حياته . كان الشيوخ ، بطبيعة الحال ، هم الجانحون ، ولكن لم يكن ثمة احتمال بتثبيت الجرم عليهم ، ذلك ان الناس قد

استضعفوا الى حد لا يجرأ أحد منهم ، عنده ، على التجار بالشكوى علانية، وكانت القلة القليلة من موظفي الحكومة ، الباقية في المدينة ، قد ابتيعت .

وسرعان ما سار (الوالي) على طريق اجراءات لا تجعله يصطدم مع اناس لا يستطيع الى اخضاعهم سبيلا ، بل يسفر عنهـا ، في الوقت نفسه ، ربح مالي يحتجنه لنفسه، وعندما كان في (جمجمال)[٩]، وهي محطة كائنة على الحد الغربي لدمار الهماوند ، استطاع أن ينقل الى الشيوخ ، فكره التحقيق ، وتقديم التقرير ، على الوجه الحاسم غير المتحيز . .

وجريا على العادة المتبعة (والعادة محكمة !) سعى أهل السليمانية الى مسافة ، خارجها ، لاستقباله مرحبين ، وعند اللقاء أدرك تجارها انهم كانوا في آمالهم خائبين . وكان الطرفان ، أعني : الشيوخ والتجار ، قد ساروا راكبين فصادفوا(الوالي) القادم قرب النهر الذي يقطع الوادي عند (سورجينا) . وكان ان لزّ الشيوخ وساروا قدماً فاستقبلوا بأرق التحايا ، وبأشد الاستفسارات توجساً ، فانضم اليهم (الوالي) وسار في المقدمة رخاءً ، ماراً من التجار المنتظرين ، ولشأنهم مستهملا .

وفي غضون ٢٤ ساعة صدر أمر الى طائفة التجار كلها ، يستدعيها الى الحضور في (السراي) ، مقر الحكومة ، لتجيب عن السبب في احداثها تلكم الصعاب والاضطرابات في (اللواء) بمعارضتها الشيوخ الحزانى المصابين بالارزاء . وعلى الرغم من هذا الامر الحتم المدبّج بأكثر التعابير ارتجالا ، على وفق طبيعة التركية الشاذة ، فان هؤلاء الاكراد لم يظهروا من شجاعتهم الاصيلة الا قليلا ، ورفضوا الاجابة عن تهم ظالمة وضيعة ، أو حتى أن يعترفوا بوجـود مثل ذلكم الموظف الفـاسد ، بالتقرب من مقامه .

---

(٩) تبعد عن شرقي كركوك بنحو ٤٦ كيلومترا وفي ظاهرها تل أثري وجد فيه رقيم من طين مفخور عليه كتابة ترجع بعهدها الى منتصف الالف الثاني ق·م· ويسترجح بعض الآثاريين ان المدينة الآشورية (دورتاليتي) الوارد ذكرها في حملة آشور بانيبال الثاني (القرن التاسع ق·م) على بلاد (زاموا) – أي اقليم السليمانية – مكمنة بثرى هذا التل . (المترجم)

لقد مكّن ذلك (الوالي) من فرصة كان يرتقبها . وكان أن أعلم الناس جميعا انه دعى الى مؤتمر ، تبحث فيه شؤون اللواء ، ويتألف من التجار من جهة ، والشيوخ من الجهة الأخرى ، وليبدي كل من الطرفين ما يختلج في نفسه من شكاوى ، ويقيم عليها البيّنة . وحضر (الشيوخ) في الوقت اللازم ، ولما كان التجار قد رفضوا الحضور ، فلم يبقَ لديه الاّ اعتدادهم الجماعات المذنبة ومحرضي الثورة و (حلّ بغير جارمه العذاب) ، المتذمرين المتمرمرين ، الخجلين الآن الى أبعد حدّ حتى من محاولة تبرير ما اقترفوه من وراء ستار . وعرض الروحانيون عليه ، على النقيض من ذلك ، شكاوى بازاء التجـــار ، مرتكنة الى أسانيد داعمه ، ومكنّوه من بيّنة تدينهم في قتل الشيخ سعيد الموقّر : (ومن لي بالانصاف والخصم حاكم !) .

وما أن ملأ الجيب بمال عظيم[10] الاّ ودّع (الوالي) السليمانية ، وعاد أدراجه الى الموصل راضيا عن نفسه ، وعن الشيوخ أيضا ، تاركا لهم الحق والقوة لا ينازعهم فيهما أحد أبدا .

وأرســـل متصـرّف جـــديد ليس من الماشـــين في ركـــاب (الوالي) ومعه موظفون ومعوّض شرطة جديد . و « ابتع » هؤلاء بمجرد ورودهم المدينة . وكان أن جرى توزيع تلك القلّة من الجند المخصصة

---

(١٠) آسف على اني لااستطيع أن أبين المبلغ ، اذ قد ذكر لي مقداره على اختلاف ، أعني : ٥ و ٦ و ٧ و ١٠ و ٢٠ و ٣٠ ألف تومان (والتومان عملة فارسية) . ويتبين من مصادر ، أكثر وثاقة ، ان المبلغ كان في حدود ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ من الجنيهات تقريبا (المؤلف) .

قلنا : هذا نموذج ، وكم له من مثال ، على تفشي الرشوة في الانبراطورية العثمانية وهي المعول الذي هدمها باشاعة الظلم عن سبيلهــا فاندثرت واضمحل أمرها وتلاشى (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه اليم شديد) (المترجم) .

للسليمانية ، على مخافر الحدود كانادة ، وعلى (بنجوين)[11] و (بستان) و (كل عنبر) و (هه‌له‌بجه : حلبجة) ، ولم يترك منهم أكثر من ١٥٠ من الأفظاظ الشلاظ الذين لا يخضعون للضبط والربط – من أهالي كفري وكركوك – ومن التركمان وأكراد (منغرل) • وأصبح الوضع أشدّ من ذي قبل سوءا • واستدعي في هذا الآبان ، الهماوند الى أبواب السليمانية، وان تهديد السكان بالسحق الفوري صيّرهم خاضعين الى ارادة الشيوخ • وغدا (المجلس) في اصطنبول، في هذا الوقت، مؤسسة معترفا بها ، باكثر من ذي قبل ، أو انه غدا ، في الاقل ، مالكا قوة كافية يسيطر بها على تعيين (والي الموصل) و (متصرف السليمانية) ، ينضاف الى ذلك ان أيام حكم السلطان عبدالحميد أوشكت على نهايتها ، وكان الشيوخ يعلمون ذلك حقاً، وكان عزت باشا في القاهرة منفيا والشيخ قادر في اصطنبول مغمورا • لذلك بدأ الشيوخ يشنّون حملة بازاء الحكومة • ووجّهت جهود (الهماوند) بازاء السلطة ، ممثلة بالجيش • لقد قُطّعت جسوم جماعات من الجنود ، هنا وهناك ، اربا اربا ، وأخذت الأذرع منها • وغلقت الطرق بين كركوك وبغداد ، وكركوك والسليمانية ، والسليمانية وبغداد ، بالمرّة• أما وقد تَرِبَت[12] السليمانية أو كادت ، فلقد اغلقت نصف دكاكينها أبوابها ، لشح البضاعة ، وجلست القلة من التجار ، ممن كانت لهم شجاعة على ابقاء مكاتبها مفتوحة ، في غرف فارغة ، عاطلة لا تعمل شيئا • ومن ثم نجم (التعقيب) – أي المطاردة وانزال العقاب – بالنسبة للهماوند ، ولقد شهدنا كيف جرى هذا • عرقل الفساد المُستشري في كل مكان

---

(١١) هي من نواحي قضاء (هه‌له‌بجه : حلبجة) في لواء السليمانية وهي تضم ذلك الشطر من حوض (قلعة جولان) الواقع بين الحدود وبين (لارحي – تريار) • وتقع بنجوين على لسان من ارض جبلية تمتد شرقا ، وهي من الحدود العراقية – الايرانية بمقربة ، وتشتهر بتربية نحل العسل خصيصا كما تشتهر بالحلوى المعروفة بـ (منّ السماء) وهذه تصنع من مستحوق ابيض تفرزه حشرة على الاغصان والاوراق الجبلية (المترجم)•

(١٢) ترب : أي افتقر •

أفضل مخططات (المجلس) ، ونجحت الهماوند ، والشيوخ في السليمانية جالسون ، من غير ان يتهمهم احد ، ولا يزالون يتخـــذون موقف مـــن تضررت استقامته وســت ، فتصلب عدلا .

ذلك هو الوضع في السليمانية ، في آب ١٩٠٩ ، حين كنت اغادرها .

وفي هذا الوقت كان التجار يراقبون استيفاء الديون البارزة ـــكي يغادروا الاقليم ، ولا سبيل الى معاودة اخلائه مما نني به من خراب ، ما دامت اسرة الشيوخ باقية متمتعة بسطوتها الظالمة . وهجرت التجـــارة السليمانية الى أبعد مدى . وشـــرع التجار بالذهاب الى فـــارس ، وهـــي التي لم تسمع في أسوأ ايامها بمثل هذا الوضـــع ، وحيث التجـــــارة واهنة تتناقص ، ان كانت لا تزال تجد لها مخرجـــا . والان اخـــــذت العائديات الكمركية ، وقد زيدت الى ١٥ بالمئة ، تساعد على خراب التجارة ، وقد تضاءلت الى حد استيراد البضاعة من فارس ، وعلى وجه أخص الصمغ والسجاد . طبيعي ان تستمر تجارة المرور (ترانسيت) الى حد مـــــا ، ولما كانت نسبة كبيرة من التجارة ترجع الى القبائل المهاجرة اصلا ، فان نقلها الى مكان آخر بات أمرا محتملا .

وعندما وصلت في ايار سنة ١٩٠٩ كانت الامور سيئة . وأثـــارت قافلتنا اهتماما كبيرا ، ومرد ذلك الى انها استطاعت ان تمر من كركوك كلها ، وكان التطلع الى الاخبار على أشده ، ولا سيما بصـــدد أي احتمـــال في باب تحسين الوضـــــع . وعلى كل حال ، فان ما أتت به الايـــــام كان اشد سوءا ، اذ لم تقدم أيّ قافلة اخرى ابدا .

واتخذت لي غرفة في (الخان) العائد لغفور اغا ـ وكان ، يومئذ ، رئيس البلدية ، لم اجد فيه أي نزيل فيما خلا احد الشـــــيوخ العرب من أهل طرابلس في أفريقية ، يشغل منصب (مدير) احدى القـــــرى الصغيرة ، لم يستطع اليها سبيلا ، ذلك ان هذه القرية لم يكن فيهـــــا موظف مثله قبلا ، وان أهلها الاكراد ليعمدون الى ذبح من يجـــــرأ على ان يستقر فيها باعتداده حاكما .

وكان جاري : مصطفى ملك شيخا هرما مهذبا ومتعلما تعليما جيدا ، أمضى حياته في موانىء البحر المتوسط وقنصليات (مالطة) و (تريست) وما جانس هذه الامكنة وشاكل • كان يتكلم العربية والتركية على وجه التمام ، ولكنه لم يكن يعرف كلمة كردية واحدة كما ان طبعه المهذب ونشأته الطيبة لا توائم الاخلاق الخشنة التي لقيها في السليمانية • وما كان هناك من مثال أتم على الأغفال البليد لصالح انسان لمنصب ما من هذا الذى كان يمثله (الرجل) • وبخيبته في الاضطلاع بتبعته ، عاش الشيخ الهرم وحيدا في غرفة ناعصة في الخان • ولم يكن لديه ما يستر ارضيتها ، وكل متاعه صندوقان ، فيهما ملابسه ، و (دلّة) لغلي القهوة ، وموقد نفطي قديم ، وفنجان قهوة وحيد ، وبعض فراش • وكان ينام في الليالي في محفة متروكة سبق ان قتل صاحبها ، ولعل مرد وفاته ، وقد حدثت بعد شهور ، الى هذه العادة •

وكان يستقر في مدخل (الخان) تاجر يملك نصف المكان في (دائرته) كما كان هناك بعض الباعة الطوافين اليهود يختزنون بضاعتهم في حجرتين من حجراته • أما بقية الحجرات فهي خاوية ، وجدرانها العارية لتدل على حال السليمانية • وكان الفناء مغمورا بالتراب والاوراق الممزقة وثمة بركة فيها ماء راكد كائنة في وسطه • لقد كان الخراب منه بمقربة ، وعن سبيل الشيوخ اطبق عليه بأخرة •

ووصلت قبل غروب الشمس بنحو نصف ساعة ، ولما كنت افتقد الطعام ، فلقد اغلقت باب غرفتي ، واتخذت سبيلي لعلي اجد منه شيئا • ان الخبز ، بطبيعة الحال ، أول حاجة ترتجى ، ووجدت منه نوعين اثنين ، احدهما من نوع (الرقق) والثاني من نوع سميك مدور كالكعك ، وكل منهما يباع بسعر (بولين) للرغيف الواحد ، و (البول) عملة من نحاس ، ذات قيمة فارسية تساوي سبع الـ (بني (Penny) الانكليزى • وتباع ثلاثة أرغفة بـ (بني) واحد ، وهي تكفي

حاجتي ، وهذه ورأســـان من الخس (بســـعر فارثينك[١٣] للرأس الواحد) وحفنة لزجة من التمر ، وهو نادر جدا في مثل هذه الديـــار الباردة ، وصحن مملوء بالتين ، او (دو) ، كل أولئك كان نـــي الشاء الممتاز •

وكان ابتياع شيء ما ، أول مرة ، امرا شاقا ، ذلك ان السليمانية قد احتفظت بعملتها الفارسية ، وان مرّ على كونها تعود الى هـــذه الامة أمد طويل • وما كان احد ليرضى بعملة تركية ، بما خلا المجيدي • وعلى ذلك بقيت الاســـماء والصلات القديمة على حالهـــا ، كما كانت الأسماء التركية تطلق على المحلات ايضا ، وهذا يحـــدث حالا فوضى • وثمة ثلاثة رموز حقة : البول وهو نحاس و (البيجو) وهو من فضة ، او (تبنج شاهي) الفارسي ، وقطعة القرانين الفرنسية المعتادة ، وهي تسمى هنا . (طهراني) .• لكننا نصادف هنا أســـماء : (جارخي) و (جـــوت) و (دهبـاره) و (غـــازي) و (قمري) و (قران) و (قراني راش) بالاضافة الى ما ذكرنا •

وكل شيء يحتسب بالقمري ، وهذه العملة الخيالية تســـاوي (٤) من (البولات) • أما الـ (بيجو) ، وهو الرمز الحق الـذي يجب التعامل به ــ فيساوي ٧ من البولات • وبالنسبة للكميات الكبيرة ، انها تسعر بالـ (طهراني) ، وهذا يتألف من خمسة (بيجـــوات) وبول واحد ، او ٩ (قمريات) ، وعلى ذلك يتخبّط الغريـــب فـــي دوّامة يأس ، ولا يقلّل من ذلك ان الـ (بيجو) يسمّى في كركوك : بالـ (قمري) ، والـ (طهراني) بالـ (قران) •

واني لاورد على ذلك مثالا يبين كيف يجري التعامل بمثل هـــذا النظام ، والامل الا يكون أشد اضطرابا واختلاطا من الوضع الـــذي لا يمكن تفسيره ابدا • فان انخفنت السبيل الى حيث تعلق مزع الضـــأن

---

(١٣) Farthing عملة انكليزية تساوي ربع الـ (بني) الانكليزي ، ونحو نصف الـ (سنت) الامريكي •   (المترجم)

على عمود ، وهو ما يكوّن دكان جزار ، وسألت عن السعر اجبت : ٣٣ • عليّ أن افهم ان هذه الـ ٣٣ هي من القمريات وانها ٣ قرانات و ٥ قمريات ، وهي ترمز الى ٣ قرانات وبجوين وستة بولات • انه سعر (حقة) السليمانية • ان كل بليدة في الشرق تثبت نظامها الخاص في باب المعايير ، ولو سألت السليماني لاوضح لك ، ببيان مفرط ، ان الحقة البلدية تساوي أربعة أخماس حقة (بنجوين) وخمسة أرباع (مَنْ) تبريز ، وخمسي (مَنْ) حلبجه ، ولن يعطيك ، حتى آخر لحظة ، المعلومات التي تفيد انها تساوي اوقتين ونصف من اوقات اصطنبول وهي التي تصطنع أساسا في الاحتساب في « تركية الاسيوية » كلها •

وعلى ذلك ما ان تجاب بـ (٣٣) الا عليك ان تصل ، أو يؤمل منك ان تصل ، الى أن كمية اللحم الضرورية ، وهي نصف حقة عادة ، تكلف ثمانية من القمريات ، وهذه يجب ان تدفع على اساس (٤ بيجوات و ٤ بولات) وانك لتكتشف ، في الوقت نفسه ، ان الحقة ، على غرار الـ (من) الفارسي ، أشيء استعمال اسمها ، وانها تنقسم الى ٤٠٠ درهم ، وان جميع أجزاء الحقة يجب التعبير عنها بالتركية وليس بالكردية البلدية •

وسرّي عني كثيرا أن أجد جميع السكان تقريبا يعرفون الفارسية ، ذلك ان اللغة الكردية الشمالية والشرقية غير مصطنعة هاهنا ، والناس تفهم هاتين اللهجتين بأقل من الفارسية • وفي طالعة الامر ، وقبل أن تعرف هويتي ، كان لبسي الـ (فيز) - أي : الطربوش - سببا في أن يذهب كل أحد الى انني تركي ، ومن كان يلم بالتركية كان يسعى الى اصطناعها معي • ومن الواجب ان نقول : ان سنوح الفرصة للتكلم بالفارسية كان يبعث شكرانا أعظم •

عادات السليمانية

ومن بين العادات الغريبة البليدة الاخر هذه العادة التي تحول دون

ظهور امرأة في الأسواق اذ قد تكون هذه مجازفة باسمها الطيب[١٤] أما السبب فسير بيانه ، اذ لم تكن هناك مدينة ذات فَوَق على السليمانية خلقياء ومن المحتمل انذلك كان علىغرار اعتداد لبس الجواريب المنمنمة غير لائق بالرجل ، شأنه كشأن ان ينحني على خفيه ، أو أن يبقى في بيته آناء النهار ، أو أن يعامل زوجه كامرأة ، (كذا : المترجم) . وكثير من هذه النزوات هي من عادات السليمانية الثابتة الصلبة الاجتماعية الحياتية . وان خرق واحدة من هذه القواعد الصغيرة تستدعي نظرة مرعبة مستكرهة وتطلق التعبير القديم المبتذل : (عيبه بوكوم)[١٥] ،وقد تأصل هنا ويستعمل للحيلولة دون كثير من الفعال ، ويعرقل كل تحسين أو تقدم ، دوما .

ولو تحدثت عن زوجي في الشارع، أو لو حسرت عنرأسي في مكان عام ليلامس نسمة باردة ، ولو أكثرت من اظهار الولاء نصراني ، أو تكلّمت مع يهودي بأدب ، انها داخلة في باب «عيبه بوكوم»[١٥] على الاقل. ولكن لو اقترحت ، في لحظة اندفاع ، وبدافع من الاحسان والمثالية ، قتل الذباب المتجمّع على اللحم المتعفّن في الدكاكين ، أو تخليص المدينة من « أهل الكدية» المزيّفين ، أو بناء بيت صحي،أو تنظيف شارع ، أو القيام بأي شيء ذي فائدة الى نفسي ، أو الى غيري ، لغدوت ذا جنّة وهُـذاء ، من سماع « عيبه بوكوم » ، آناء الليل وأطراف النهار ، وذلك « ان سمح لي بالبقاء في المدينة حقا[١٦] .

والسليمانية ، في هذا ، شبيهة جدا ، ببقية الشرق المحمّدي ، لاسيما

---

(١٤) « اتخذت » هذه العادة من قبل عرب الموصل (المؤلف)

(١٥) تعبير كردي ، معناه : انه عيب يا أبي الصغير (المؤلف)

(١٦) في هذه الاقوال اطلاق وشطط ، فالكردي على ما يقول (ريج) في كتابه (حكاية ثواء في كردستان :

Rich, C.F. Narratire of a Residence in Kurdistan Vol. 1, 10

« الخلاص ماله من فواق والتزام بالكلمة وعطف على ذوي القربى ومعاملة ممتازة للمرأة ، وذوق ادبي مصقول ، حب للشعر واستعداد للتضحية واعتزاز جميل بالقومية والوطن ».[المترجم] .

تلكم الارجاء البعيدة عن الغرب ، وعقيدتهـا : « إنا وجدنـا آباءنـا عـلى امة ونحن على آثارهم سائرون » ، و « اننا ندع ما لم يفعله هؤلاء الآباء ونلعن أهل البدع » .

وليس بصحيح أن نطرح مثـل هذه العقيدة ، كأمر هيّن ليّن ، جانبا ، وذلك على الرغم من انها تنطوي على رهق بالنسبة الى الناس أنفسهم . وقبل سنين جاء طبيب على شيء من مهارة الى هنا ، آملا - باعتداده أول قادم الى مدينة تجتاحها الامراض الناجمة عن القذارة - بأن يكتنز المال سريعا ، وعلى غرار ما فعله الآخرون الذين حلّوا بين ظهـراني الاكراد قبلا[١٧] . وبعد شهرين من حلوله فيها ، عـاد الى كردستان الفارسية ، حاملا أدواته الطبّية على ظهـره ، ورأسـه يدوّي بعبـارة : « عيه بوكوم » .

وجاء ، بعده ، مصوّر ، وقد أدرك ، بادىء الأمر ، نُجحًا طيّبا . لكن أحد أبناء السليمانية المتبحّرين نبش قول أحـد الروحانيين حول وجوب قطع الرأس ، من تصـاوير الاشخاص ، ببراءة ، والا ازعجت روح المفن (الفني) روح الذي صوّر ، فظهرت في اليوم الآخرة شبيهة لها . لذلك قام أهـل السليمانية التاعسون بقطـع رؤوسهم على الورق وطردوا المصوّر . وبعد لأي من الزمن جاء (الحاكي : Phonograph وهو أكثر مخترعات الغرب شيـوعا ، في الشرق ، وذيوعا . أخـذه بعضهم وأوقفوه لدى موت الشيخ سعيد باعتداده آلة كافرة .

ان النهج الفكري هنا ، وكره كل ما هو جديد ، على وجه دائب مستدام[١٨] ، يفسران لنا لِمَ لا تزال السليمانية تسير في الازياء التي تراها

(١٧) يجب ان تتذكر ان سكان السليمانية ، وان اتخذوا لغة الكرد وشيئا من لباسهم ، لا ينتمون الى هذا الرس كليا ، وعلى غرار ما بين في الالحوظة التي تصف أصل هؤلاء القوم (المؤلف)

(١٨) هذه حـال جميع المجتمعات المغلقة المعزولة في أجواف الاودية وأعماق القفر ، ذلك لانها تعدم التطور وروح العصـر ، وتجـد فـي ما توارثت اجيالها طريقا لها معلمة ، لذلك تشيع فيهـا الشكوك والريب ويكثر التحاسد (وقديما كان في الناس الحسد) وتبقى المعركة بين (القديم =

في كتب الرحّالة المطبوعة الذين شدّوا الرحال الى فارس في القرن الـ ١٦ ، ولم تتدلى أردان أحدهم لتلامس الارض ولم يكنس قميصه القذارة في الشوارع ، وهو يتخذ السبيل فيها (كذا : المترجم) .
هؤلاء هم الحفظة على العادات السيئة القديمة ، من سيذبح اليهود المقيمين بينهم ، صارفين النظر عن رابطة الدم التي تربط ٩٠ بالمئة منهم بهـذا (الرّس) . ان عادة اللباس وشريعته قويتان الى درجة يتحتّم على الغرباء الذين يرومون العيش بينهم ، من دون ازعاج ، أن يصطنعوا طرزهم في اللباس[١٩] وينبذوا اللبوس الذي في بلادهم وان كان أشد راحة .

لقد صيّرتهم العزلة شديدي الارتياب بالغرباء ، ومن الريب هذا انبعث اتجاه تساؤلي لا يطاق . من حق كل سليماني أن يتحرّى عن أهداف كل قادم جديد وهُويته . ومن حسن الحظ انه لا يمانع في تحرٍ دقيق مقابل ، أو لعله يرحّب به باعتداده يهيء الفرصة للزهو الذاتي واظهار حقه في الاحترام . وعلى ذلك فان الشك العظيم الذي يخامرهم ، وهم يتقدمون الى غريب ، يجعل الاجابة عن تحرياتهم ، سواء أكانت صحيحة أم كاذبة، غير ذات موضوع مطلقا . ومن التناقض، على ما يظهر، انه ما أن يجاب عن أسئلتهم ، وتشيع الاخبار في (المـدينة) ، الا يرحب بالغريب على وفق قدره الخاص ويغدو واحدا من أهلها .

= الموروث) و(الجديد المكتسب) على ما بقي الخلق يختصمون من جرائهـا زمنا طويلا حتى يغمر نور العصر مثل هذا المجتمع فيبتمثه ويواكب متطلباته فيندثر القديم البالي وينسى ويضمحل أمره ويتلاشى .

(المترجم)

(١٩) في الحق ان الكردي انسان خلق في أحسن تقويم مهذب يدلك على ذلك طريقة أدائه التحية دوما (سام سەرم : على رأسي) حسن الهندام، في الغالب ، نظيف البزة ، يرتدي سروالا تكثر فيه الثنيات ومعطفا وعمامة ذات الوان ويتمنطق بنطاق يضع فيه سلاحه . أما السترة الصغيرة من اللباد الثخين التي يرتديها فللوقاية من زمهرير الشتاء . وترتدي النسوة الحزام الزمرد زينة ، ويضعن على الرأس قلنسوة من حرير تزين أطرافها خرز زرق من ذهب وفضة ، وتشد المرأة الكردية ، علـى وفق مركزها ، المناديل الحرير .
[المترجم]

وما أن وقفت على شيء من مثل هذه الشؤون ، الا زال عجبي من زيارة أداها لي رجل بهي ، جاء الى (الخان) ، ذا صباح ، يسمى . وكان هذا الشخص يلف نفسه بعباءة مونقة من شعر الاباعر ، والجانب الأيمن من خلفها مغطى بوشي ، نسج من خيوط ذهب ، ومن بين طياته كان يظهر قراب خنجر مثبت في مشد البطن . وما أن دخل الا نزع من قدميه زوجين جديدين من أحذية بغداد . وحيا بتحية فارسية ممتازة ، وما أن قبل دخينة (سكارة) الا بدأ استفسراته ، من دون مقدمة ، فأجبت عنها بأوجز عبارات ممكنة :

وكان الحوار على الوجه التالي للسطر :

ـ أين موطنك ؟

ـ فارس .

ـ أية مدينة ؟

ـ شيراز .

ـ أهناك كثير من أهل السليمانية في شيراز ؟

ـ لا ، اذ ليس فيها أحد منهم أبدا .

ـ أأنت ذاهب الى فارس ؟

ـ لا أدري ، في الوقت الحاضر .

ـ لم لا تدري ذلك في الوقت الحاضر ؟ كيف لايعرف شخص وجهته ؟

ـ لأن خططي لم توضع ، بعد .

ـ امكث هنا ، انه لأفضل مكان يرتجى : ماء عذب ، وهواء نقي ، وسكان طيبون . ما هي صنعتك ؟ أأنت طبيب ؟

ـ لا ! ولم ؟

ـ ذلك بسبب طرز لباسك الاوربي ، اذ انه لا يليق الا بطبيب .

ـ أأنت تاجر ؟

ـ أجل ، قد أكون ذلك .

ـ ما بضاعتك ؟
ـ الاقمشة وما جانسها وشاكلها •
ـ أعندك صابون معطّر ؟
ـ لا ! ولِمَ تسأل مثل هذا السؤال ؟
ـ لأن أحد التجار جاء من الموصل قبل عشرين سنة ومعه صابون معطّر ، لكنه لا يلائم هذا المكان •
ـ لِمَ ؟
ـ لأنه لم يستعمل فيما مضى ، ينضاف الى ذلك ان الاطفال يموتون ان شمّوا رائحته •
ـ اذن ، أيشفق اطفال السليمانية من الحلوى والروائح الذكيّة ؟
ـ اجل انهم غير معتادين عليها • اين ابتعت هذا الحذاء ؟
ـ في كركوك •
ـ انه لا يليق بهذا المكان لان فيها أشرطة (قياطين) •
ثم سأل أسئلة جديدة ، وفاه على حين غرّة :
ـ ما الذي في هذه الصناديق ؟
ـ ملابس •
ـ أليس فيها أشياء للبيع ؟
ـ لا ! •
ـ أي تاجر أنت وليس لديك بضاعة وأحمال ؟
ـ اني ارقب النماذج اذ لا يأتي عاقل ببضائع جديدة ما لم أتأكد صلاحها للبيع عن سبيلها •
ـ انك لتقول الحق ، ولكن ما هذا الذي تحويه صناديقك ؟
ـ قلت لك : انها ملابس •
ـ أين اشتريت هذه الصناديق ؟
ـ في لندن •
ـ في لندن ، لِمَ ذهبت اليها ؟

ـ كان لي فيها شغل •
ـ أي شغل هنا ؟
ـ شغلي الخاص ، ولكل شغله وشؤونه •
ـ ذلك هو الحق المبين ، لكنني جئت الى هنا لأقول لك ، كصديق ، ان من الواجب عليك ألاّ تقيم في (خان) ، اذ أن ذلك لا يليق •

وهنا نَفِـدَ صبري فبـدلت مجرى الحديث ، وبدأت بتحرياتي الخاصـة •

ـ لِمَ تلبس خاتما من الشذر Torquoise ؟ سألت ذلك بحدّة !
ـ ماذا ؟
ـ قلت لِمَ تلبس خاتما من شذر ؟ ان ذلك في بلادي لا يليق •
ـ جئت هنا كصديق ، لِم تسأل مثل هذه الاسئلة غير اللطيفة الهازئة ؟ قال ذلك بلهجة المتألم المتمعض •

أجبت : لأن في بلدي سيراز ثمة قول سائر : ان من يزعج الغريب بالحاف في الاسئلة انما يسعى وراء القول البذيء الهازل الذي ينطلق ممن ينتابه الضجر !

اذا كنت تبغي البر فاكفف عـن الأذى
وما البرّ الا أنْ تكف أذاكـــا

وكان ان لملم عباءته الزاهية مقطبا وجهه ومن الغضب ، وانصـرف معجلا ، غير آبه حتى لكلمة وداع مني •

وبعد خمس دقائق من ذلك جاء صاحب (الخان) الى الباب وهو متزعج الى حدّ ما ، وقال : ان من جـاء صديقا وولّي عدوا هو صاحب المحل ورئيس بلدية المدينة : غفور اغا نفسه •

وفي تلكم الايام القليلة الاولى وقفت على الكيفية التي يحلو للسنيماني أن يعامل الغريب بها ، ولاستكمال الدرس ، في اليوم الذي سبـق يوم رحيلي الى(حلبجة)، ايقظت من قبل بائع صحون مطعّمة واكواب (الشربت) وعلب الثقاب وما يبيعه الجوّالون عموما ، بصرخة :

« راووسا ! » وقعت على مسمعي بلهجة شديدة ، وجاء الصوت من وراء اذني متاهيا • وخضوعا للدعوة ، وقفت ، وما أن استدرت الا وجدت نفسي بازاء شخص يتراءى انه مهتاج ، ومن طبع على الهياج على وجه جلي ، مطالبا بلغة شرسة بال ١١ قرانا ، أنا له بهما مدين • وبمصطلح الكردية البلدية ، ومن غير زيادة في التأدب ، انكرت الدين ، فتقدم ، وخنجره مستل الى النصف ، ولكنه ما أن وجد اني لم أطلق لساقي العنان ، ولم أدفع ، الا توقف ، وهو محتار قليلا بشأن الخطوة التاليه التي يجب عليه أن يخطوها •

وأطال النظر في شديدة ، ثم انسحب بضحكة ساخرة الى وراء كس من أواني التصدير الموضوعة فوق سقيفته، وبقي واقفاء مسقطا في يده ، يتأمل سقف السوق المقبب • قيل لي ، بعد ذلك ، ان هذه لاتعدو اهزولة صغيرة يصطنعها أهل السليمانية ، وهم الذين يعد الاتراك ، في الاحيان ، الى ارعابهم عن طريق نزواتهم الكبيرة فيحتالون ، بدورهم ، على حاج ضعيف يتخذ السبيل من خرلسان الى كربلاء •

نصارى القوم

وكان أول خلطائي في السليمانية ، نصرانيا سريانيا من الموصل يدعى: متى توما • لقد عانيت في ذلك المكان شيئا من مشقة ، وذلك بقدر تعلق الامر بنقل المال الذي جئت به ، لكنني وجدت أخيرا نصرانيين يدعيان (صفو) و (سمو) ، على استعداد لاعطائي حوالة على مراسلهما في السليمانية • وكان أن أخذت (الحوالة) التي جعلتها واجبة الدفع الى (غلام حسين) الفارسي ، الذي انا مسافر باصطناع اسمه • وكانت الحوالة مشروطة بمدة سبعة أيام بعد الاطلاع عليها ، لكن شيخا هرما مثل في صباح اليوم التالي لوصولي ، يلبس لباس اهل السليمانية على وجه التمام ، فيما خلا عمامته الصغيرة ، وقدم نفسه الي باسم : متي توما • لقد جاءني بالخبر السار بأن لديه المال ، ودفعه • ان طبعه الهادىء ، مشفوعا بتأكيد رغبته في اسداء العون لي ، على كل وجه ، حملاني على ان انصح له

عن خططي كلها تقريبا ، وذلك من غير ان اتطرق الى هويتي طبعا .

كانت هذه أول مرة يقابل فيها فارسيا في السليمانية ، منذ أن غادرها التجار الهمذانيون. ولكي أيسّر سبل عيشي في كردستان، حيث الجوّال السَّبَهْلَلَة(*) مدار شك وريبة ، قررت أن أبدأ بفتح صفحة صلات مع شركات عديدة ، اني الآن في وضع أستطيع فيه التحدث في موضوع نماذج شتى ، والتحرّي عن اسعار المنتوجات البلدية (المحلية) .

وكان ان وجدت (متي) على استعداد لاعلامي بصدد هذه النقاط ، كما انه كان يجود علي ، في الوقت نفسه ، بنصيحة سديدة تتصل بشراء كل ما احتاج اليه ، ويدعوني الى الافادة من خدماته وخبرته في السليمانية (ومن يعص المجرّب يندم !) ، وقد أقام فيها مدة ٢٠ سنة ، وكل ذلك من غير تردد . كان يؤيد ، بشدة ، نواثي في السليمانية لمدة ، وكان يقول ان ثمة املا في تحسّن حال التجار . ولما افصحت له عن رغبتي في رؤية ما هو اكثر من كردستان ، وظاهر من ذلك اني كنت اريد التوثق من احصل المربح فيها ، واين يمكن شراء بضاعتها على الوجه الأفضل ، لذا ابقى فكرته المعارضة في صدره ولم يمانع بأكثر ، بل قال لي ما مفاده ان اترك له اعداد البغال لرحلتي .

وكان ان اخذ بيدي الى مكتبه الكائن في الخان المسمى بـ (خاني عجم) . والمكتب هذا عبارة عن غرفة طويلة تنفتح على الروشن العالي لباحة الخان .

واقيمت بمحاذاة الجدران رفوف تحمل البضاعة المعتادة لتجار الموصل ، وعلب دخينات (سكائر) ، واقمشة قطنية ، ومطبوعة ، الخام ومنسوجات حلب ، وستائر رخيصة ، وعيّنتين من المسامير ، وهذه تستورد من أوربة فتجد هنا سوقا عتيدة .

اما « أرضية » الغرفة فكانت مفروشة بسجاد همداني ، وكان (متي) جالسا على احداها ، قرب الباب ، امام صندوق من حديد روسي يفتح

(*) السبهللة : من يذهب ويجيء في غير حاجة .

بمفتاح بحجم هذا الذي يعطنه السجّان ، وتسمع ، لدى اجراء عملية الفتح ، دقات جرس ، ثلاث مرات •

وعلى غرار اغلب خانات السليمانية لا تعدو الغرف ، حقا ، أكثر من تجاويف عميقة بنيت ، عبر واجهتها ، ستارة من خشب ذات ثلاثة أقسام ، وتفتح هذه الاقسام بتزحلقها صُعدا ، وتثبّت على هذا الوضع عن طريق قطعة من حديد مثبتة عبر الخط الذي تسير عليه •

وكان جيران (متي) الملاصقون من نصارى الموصل ايضا ، وقبالته - ذلك ان مكتبه كان في رواق يولج منه الى الخان - حجرات لثلاثة من التجار الاكراد قدّمني اليهم (متي) • وعلى عرف المكان المتعارف جاء هؤلاء يسألون من القادم الجديد هذا ؟ وكان عليّ ان اجيب عن سلسلة من الاسئلة • وهؤلاء القوم يتكلمون [٢٠] الفارسية جيدا جدا ، ولحسن الحظ اطمأنوا الى ما رويته لهم باعتداده حقا ، فاصبحت اعرف هنا ، من هذا الوقت فصاعدا ، ب (مرزا غلام حسين شيرازي) •

كما اني قدّمت الى من يدعي ب (حبيب بدرية) ، وهو نصراني موصلي ذو مظهر غير سوي باعتداد الرسّ العربي • ان بشرته بيضاء ذات نمش ، وشعره من النوع الذي يطلق عليه « جزري » ، شأنه كشأن شاربيه • هذا وان عينيه زرقاوان ، ومظهره مظهر اسكتلندي ، على العموم ، وبارتدائه الملابس العربية والطربوش ، يتراءى غيرمتجانس، على أشد مايكون • انه يبدي اقوى الافكار تقدمية ، ولعل لما ذكرناه تأثيرا في طبعه • وما ان سمع باني ذهبت الى أوربة الا رجاني من الفور ، ان أكتب وأطلب آلات تصوير وصابونا ذا عطر ، وقاموسا فرنساويا ومواد افرنجية اخرى • لقد اظهر التقزز من عادة ارتداء الملابس ، المكرره

---

(٢٠) في السليمانية تعم احدى اللهجات الكردية الرئيسة المعروفة باسم (سليماني) او (سليماني أردلاني) • واللغة الكردية،بهذه اللهجة واللهجة الاخرى ، من فروع اللغات الفارسية المنتمية الى (عائلة اللغات الهندية - الارية) القديمة وهي قريبة من الماذية ، فلا غرو ان استطاع الاكراد التكلم بالفارسية • (المترجم)

على ارتدائها ، واذهب نفسه حسرات على مباهج (الياقة) والاكمام . وعلى الرغم من هذه المشاعر ، تبين انه صديق مخلص ممتاز اخيرا .

وكان طريق عودتي الى (خان غفور اغا) مارا من قسم كبير من الاسواق ، وما كنت بقادر على أن اتفادى ملاحظة منظـــر صفوف من دكاكين خربة خانها الدهر فتركت ، من قبل أصحابها ، فارغة، وهم الذين تقززت نفوسهم ، وساور قلوبهم الاسى ، بسبب الاضطهاد في السليمانية ، وشرورها . وما ان دخلت (السراي) الا رحّب بي صاحبه التاجر ، وكان مكتبه عند الباب . وكان من عادته الجلوس خارج غرفته ، في الشرفة ، على مصطبة يستطيع التشوّف منها سفليا ، حيث المدخل ارواقي المفضي الى الشارع الخارجي ، ويلحظ كل واحد من الداخلين . ودعاني الى الجلوس على مصطبة ، وما ان اعتليتها الا سألني : ان كان في مكنته مساعدتي ، بأي وجه من الوجوه ، واعارتي الاواني البيتية أو الاثـــاث ، لحين استقراري . وكان ان اعلمته اني ذاهب الى (حلبجة) ، وسرعان ما ظهرت عليه امارات اهتمام خارق . وكان عليّ أن أبدي له من الاسباب المنطقية التي تحملني على الرغبة في زيارة هذا (المكان) ، ذلك انه كـان يعرف (عثمان باشا نجاف) معرفة جيدة ، وقد قام بتجارة بها . وكان ان تحدّثت في امر السيدة (زوج الباشا)[٢١] ملمّحا الى زراعة الحرير (وكنت اعلم انها تروم القيام بها) والحصول على مالها من نقود لابتياع

---

(٢١) هي السيدة عادلةخانم وقد طارصيتها في كردستان كل مطار، وسيكون ل «المؤلف» شان معها في القيام على خدمتها وتعليم اولادها ــ باعتقاد ذلك ستارا للقيام بمهمته الاستطلاعية ، انها تنتمي الى اسرة اردلان وتذكر الشرفنامه ل (شرف الدين البدليسي) (١٥٩٦ م) ان هذه الاسرة قد استقرت ، في بادىء الامر ، في شهرزور وان (بابا اردلان) شيد قلعة زلم (٥٦٤هـ = ١١٥٨م) وجعلها مركزا للاسرة التي قضى عليها ناصرالدين شاه (١٢٨٤م) . لقد كانت هذه (السيدة) الحاكمة المطلقة في منطقة حلبجة ، بغياب زوجها (عثمان باشا) غالبــا ، حتى ارسلت الحكومـــة العثمانية موظفا اداريا تركيا اصلا ، فابتعدت عن ذلك واخلدت الى شيء من الراحة نسبيا . [المترجم]

ماتنتج الجبال الكائنة في منطقتها . وما ان علم ذلــــك الا 'علمني ان (الباشا) موجود في السليمانية ، وانه قادم لزيارته ، فيما بعد الظهر ، وانه ينصحني ان أكون حاضرا ، في هذا الوقت .

وفي نحو الساعة الثالثة وصل (الباشا) واتخذ مقام الصدارة على مصطبة فرشت بسجاد . وقدمني صديقي التاجر اليه باعتدادي تاجرا فارسيا راغبا في زيارة حلبجة ، فدعاني (الباشا) اليها بلهجــة فارسية ممتازة ، ثم لازم الصمت المطبق ، وقد علمت ، بعدها ، انها من الامور المتعالمة عند رؤساء الجاف ، وعادتهم الملازمة .

كانت لدي فرصة طيبة لافحص رجلا يُبجّل اسمه في القسم الاعظم من كردستان كثيرا ، هو ، في الوقت نفسه ، زعيم عظيم في قبيلة الجاف الكبيرة ، وحاكم حلبجه وشهري زور .

وكان لباسه لباس قبيلته ، لكنه من افخر نوع . وباستثناء مشد خصره الابيض ، لم يكن لباسه غير حرير . وكان قباؤه ، ذو الفنــون العسلي المخطط ، وسترته الزروف الموشاة بخيوط من عسجد ، وقميصه الابيض التحتاني ، كل اولئك من أفخر الانواع أيضا . وكـان يضـع في حزامه خنجرا مزخرفا زخرفة غنية ، ويتدلى من جانبه مسدس صغير من طراز (براوننغ) ، يضمه غلاف من جلد احمــر ، فيــه تمــاط شاخصة الى اعلى ، وكان رأسه ملفوفا بمناديل كثيرة من حرير ، على شكل عمامة ، وسيعه في اعلاها ، بالنسبة الى اسفلها .

كان أنفه صغيرا معقوفا ووجهه قد بانت عظامه ، على غرار كل كردي شمالي أصيل ، كما كانت عيناه الصغيرتان تتطلعان من تحت حاجبين كثيفين ، أخذ الشيب يخطهما . وكان فمه يختفي تحت شاربين ضخمين ، لكن خطوط فكيه وحنكه القوية ليست هي كـذلك . ان مظهره ، على العموم ، ينم عن شراسة وقسوة ، وعنــدما كان يتكلم كان يصطنع في ذلك جملا قصارا ، يصوغها في أخشن لهجة ، هي لهجة قبيلته .

وكان يقوم على خدمته عديد من الرجال الغلاظ ، وسائسان وعشرون من حملة البندقيات ، وحامل غليون ، وخدم آخرون شتى ، كل واحد منهم مسلح ، عليه امارات الشراسة ، مظهرا ومخبرا • انهم صفوة القبيلة اجتبوا لشجاعتهم الملحوظة وقدرتهم على القتال الضاري •

لقد وقف هؤلاء في (الباحة) وما كانت وقفتهم على شيء من اجلال كبير ، ولم يترددوا حتى في المشاركة في الحديث ، عندما كان يتراءى ان ذلك يجود عليهم بشيء مفيد ، وما كان (الباشا) لينكر تدخلهم أبدا • لقد حافظ هذا الشيخ الهرم على أعراف الاكراد التي أضفى عليها الزمن تبجيلا واجلالا • وعلى حين كونه غنيا وقويا ، فهو لا يعزل حياته عن حياة شعبه بأي وجه من الوجوه ، كما انه لا يعتد نفسه أسمى منهم اجتماعيا • وعلى ذلك فهو على صلة بمشاعرهم وثقي ، وما هو أعظم من هذا : انه يعرف حركاتهم وسكناتهم • وبينا كنا جالسين هناك ، جاء راكب من (هه‌له‌بجه : حلبجة) يسمى مُشْجَلا ، وأخرج من (الخرج) سلة قدمها الى (الباشا) • لقد عُني بالمجيء من (حلبجة) ، وقطع طريقها ليقدم باكورة (خيار) الموسم • وسرعان ما أوفد أحد خياله الى (حلبجة) ليحمل شكرانه الى زوجه التي كانت السبب في ارسال أمثال هذه اللطائف اليه •

وكان أن ودع ، بعد ذلك ، وانصرف ، كما اني آويت الى غرفتي أيضا ، واليها وافاني بعد قليل مصطفى بك الهرم ، جاري •

لقد أبدى أعظم الأسى لسماعه اني راحل الى حلبجة ، ذلك انه عثر ، على حد قوله ، على جار وصديق ، في آن واحد ، وانه شرع يثمن ذلك ، ولا يستطيع الا الغريب المنفرد تقدير نعمة التعرف على غريب منفرد (وكل غريب للغريب نسيب !) ولم يحاول أن يثنيني عن عزمي ، اذ سبق له أن رحل الى حلبجة وأصاب من سماحة (سيدة حلبجة : زوج عثمان) ، وهي من طار اسمها في كردستان كل مطار ، خيراء كان يأسف على

رحيلي الى حلبجة ، على ما قال ، لأنه يعرف الطقس في ذلك المكان وانه سيحملني على العودة الى السليمانية حيث نلتقي كرّة اخرى .

وكان الشيخ الهرم بالحديث عن اصطنبول كلفا ، شأنها كشأن الغرب أيضا ، ولقد وجد فيّ المسافر النادر ، الذي يطأ كردستان الان ، ورأى ، من قبل ، تلكم البلدان ، ويستطيع التحدث فيها كما يتحدث من هو بموضوع خبير . وجعلتنا هذه الموضوعات تتقارب ، وسرعان ما أخذ ينطلق بمخاوفه ويصبّها عليّ . كان قد عُيّن ، وهو في اصطنبول ، بمنصب (محاسب حلبجة) ، فرحل منها ، وحيدا ، عبرّ بلده : طرابلس في افريقية ووصل حلبجة بعد ٤ أشهر من يوم رحيله . وما كان الاكراد ليرضوا بوجوده بين ظهرانيهم ، وهو تركي ، ثم انهم وجدوا الوسيلة التي تحمله على الرحيل عنهم . ولما كان لا يتكلم كلمة كردية أو فارسية واحدة لذا وجد نفسه بين شعب عدو ، لا يستطيع التفاهم معه . وعاد أدراجه الى السليمانية فعيّن بمنصب «مدير كلعنبر»[٢٢] ، عاصمة قليم شهر-ي-زور . ولم يستطع أن يباشر هذه الوظيفة أيضا ، فالاكراد رفضوا أن يكون بينهم موظف تركي أيضا . وساءت صحته كثيرا وعمد الى الاضطجاع وحيدا في غرفته في السراي ، طوال ستة أسابيع ، يقتات على شيء قليل من (الروب) والخبز يأتيه بهما حارس السراي . ثم عيّن مديرا لسراجق ، وهي قرية تقع شرقي السليمانية ، لكن حال البلاد وفقدان التعليمات اللازمة أبقته في السليمانية ، ولم يتسلّم ، طوال هذا الوقت ، معاشا . لقد عاش على قليل من الخبز ، وعلى «الكباب» ، حين يؤتى به اليه من السوق بين حين وحين ، جاعلا وجبته الرئيسة العشاء الذي يقدّم في مضيف الشيوخ ، واليه كان يتخذ السبيل كل أمسية . وكان يمضي أيامه مصليّا ، يتوضأ ، مصلحا من ملابسه (ذلك انه كان

---

(٢٢) كانت في الاصل قلعة للاردلانيين ، وقد هدمها الشاه عباس . هي اليوم مركز ناحية خرمال ، وتقع البليدة على (وادي زلم) ، والاسم (خرمال) محرف من (مكفير : ورد العنبر) [المترجم]

نظيفا موسوسا) ، يعدّ القهوة ويطوّف في المدينة ويزور الموظفين الاتراك والكتبة .

وكان يجلس ، في الاحيان ، كثيبا ، (وعينه تفيض من الدمع حزنا) : (ان في الدمع راحة المحزون) . انه يتفكّر في المسافات والصحارى التي تفصل بينه وبين بلده واسرته ، ويعجب كيف سيتمكّن ، وهو على حال ضعف متأت عن التقدّم في العمر ، من العودة اليه . ان امنيته الوحيدة هي : ليته يرى البحر المتوسط قبل ان يرحل عن هذه الدنيا الفانية : (ليت وهل ينفع شيئا ليت !) وانه ليرتعشّ فرقا بمجرد ذكر الناس المتبدّين الذين رُمي بين ظهرانيهم ، وكيف سخروا من محاولاته في الاتصال بهم .

وكادت صداقتنا تهتزّ قليلا ، عندما اكتشف اني محمدي ، على المذهب الشيعي ، فأخضعت الى هذا الفحص الدقيق الذي يخضع له أبناء طائفة (الاثني عشرية) ، وذلك قبل الاطمئنان الى سلامة عقيدتي الدينية ، من حيث الاساس . كان أعظم اعتراض لديه أن يراني مسبل اليدين وأنا اصلي بدلا من (التكتّف) وأن أقوم بالتوضؤ على غير وجه الدقة ، وهو كاف لدى الشيعة (كذا ! المترجم) .

وأخرج نسخة من القرآن (الكريم : المترجم) ولما وجد ان آراءنا لاتختلف علىما فيه ، لذا أعادني الىمقامي من محبته مردّدا القول السائر : (ان الغريب يرحم الغريب) كثيرا .

الفصل العاشر

شهر - ي - زور[1]

.. وبعد ثواء في السليمانية استطال مدة أربعة أيام ، استيقضت مبكّرا ، ذا صباح،مستجيبا لنداء أحد(المكارية)،وما أن حزمت ها أملك،ووضعت في

« ١ » - يطلق اسم (شهرزور) في الوقت الحاضر على منخفض من الارض يوءلف القسم الشرقي لوادي (تانجرو) بلواء السليمانية ، وهو جزوءه الاوطا ، ويمتد هذا المنخفض من جنوب بلدة (عربت) الى اطراف بلدة حلبجة ومن الممكن عد هذا المنخفض حوضا عمقه نحو ١٥٠ مترا ، وتقدر مساحة سهل شهرزور بنحو ٦٥٦ كيلو مترا مربعا .. واسم (شهرزور) مركب ومعناه (المدينة الواطئة ، القطاع الواطئ) فالتسمية تناسب تماما الشكل الطبوغرافي لمنخفض شهرزور .. ويلوح لي ان منخفض شهرزور كان في البداية بحيرة ، ومن غرائب الدهر ان سيعود قسم منه الى بحيرة بانجاز السد في دربندخان وستقطع هذه البحيرة الجديدة نحو ربع المساحة لمنخفض شهرزور .

راجع : (اصل تسمية شهرزور) للاستاذ توفيق وهبي (مجلة سومر) المجلد السابع عشر الجزءان الاول والثاني ١٩٦١ .

قلنا : ورد اسم شهرزور في (الشرفنامه للامير شرفخان البدليسي) وقد نشرها فرج الله زكي الكردي (طبعة القاهرة) باسم (شهرزول) ، وهو سهل جميل ومن اخصب سهول العراق الشمالي ، ولدير المياه تحده جبال هاورامان من الشرق والشمال الشرقي ومن الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية اقليم (هاورامان سهون) ومن الجنوب نهر ديالى (ويعرف باسم سيروان في هذه الارجاء) ، ومن جهة الغرب سلسلة جبال برناند ومن الجهة الشمالية الغربية اراضي عربت .

وقد افتتح مشروع سد دربندي خان يوم الخميس الـ ١٣ من تشرين الثاني ١٩٦١ .

ويسقى سهل شهرزور نهر تانجرو وتوابعه، التي تخترقه ويلتقي دياليب (تانجرو) عند (شكميدان : شيخ ميدان) ومن اشهر توابعه نهر (زه‌لم) الذي ورد ذكره عند القزويني حين قال انما سمي بهذا الاسم لورد يستنبت فيه . تقع (حه‌له‌بجه : حلبجة) في ملتهى سهل شهرزور الى الجنوب الشرقي من السليمانيه . [المترجم]

حزمتي من الخبز قليلا ، الا امتطيت جوادي ، وودّعت (مصطفى بك) واتّخذت السبيل : (وابيض الفجر يبدو بعد أسوده) ، قبل أن تشرق الشمس ، راحلا وحلبجة هي : غايتي ، ذلك المكان الذي جئت لأراه ، قاطعا الطريق اليه ، من اصطنبول ، مددا . وكان الطريق المفضي من (السليمانية) الى (حلبجة) هو أحد طرق ثلاثة أمينة آمنة ، تخرج من المدينة الاولى ، عن ديار الهماوند بعيدا . ولكن ، حتى على هذا الطريق نفسه ، كان السرّاق التابعون الى (الشيوخ) قد صيّروا قطعه ، من قبل غير قافلة كبيرة ، أمرا مستحيلا . وعلى ذلك كان لزاما علينا أن ننضمّ الى قافلة كبيرة ، خارج المدينة . ان قافلة حلبجة تسير بانتظام اسبوعيا ، يقودها اناس من أهلها .

من المستحيل ألا يلحظ المرء ، وهو يجوب السليمانية ، الأثر الكبير للعمارة الفارسية في بناياتها . ان جميع الأبنية القديمة الفضلى شيدت على النمط الفارسي ، فالغرف الفوقانية ذوات أبواب من زجاج ، وهذه تضفي على المكان مظهر مدينة في كردستان الفارسية . ان كل شيء ، اليوم ، يوحي بخراب تام . وان الخطر الدائم يمنع كل محاولات تنصبّ على التحسين ، منعا باتا .

وكان الرحيل الى حلبجة

وما أن خلفنا تلكم الشوارع المتداعية والبيوت الخربة ظهريا الا وردنا بقعة تقع تحت مقبرة قائمة على تلّ ، وحيث جرى ترتيب يقضي بتجمّع القافلة عندها . ومهما يكن من أمر ، فاننا لم نرَ قافلة ما ، وانما رأينا ثلاث نساء يمسكن بحزام ، يفترشن الغبراء ، كما رأينا ١٢ فارسا من الـ (جاف) يتمنطق كل منهم بثلاثة ، أو أربعة ، من انطقة الاطلاقات ، يحملون البندقيات والخناجر والمسدّسات ، وهم يجلسون

بين الحنطة الطريّة وخيولهم تحصدها حصدا •وجاءالمسافرون، الواحد تلو الآخر : الرجال منهم على الاقدام سائرون ، والنسوة قد امتطين الحمـر والبغال ، يقتعدن على منصّات عاليات من الفرش ، وهن يخفين كل شيء ، فيما خلا رؤوس مطاياهن وأقدامها •

وكان يصحبنا (ضابط) يتّخذ السبيل الى خانقين عن طريق حلبجة ، وقد اعطي حرس ، عدّته ٢٠ جنديا ، ليصحبه حتى يبلغ المكان الاخير • ومثل هؤلاء أخيرا ، فاتّخذوا مظهر الهيبة التي تليق باحراس القافلة ، وعمدوا الى النفخ في البوق ، مرات عديدة ، ليحملوها على الرحيل •

وكانت قافلتنا كبيرة جدا ، نصف السُفَّر فيها من النسوة العائدات من السليمانية الى أوطانهن ــ وهي قرى على الحدود الفارسية ــ كائنة انهن كرديات جميعا ، فيما خلا ثلاث بغداديات كثيرات الصخب والجلبة ، يصحبن أزواجهن ، وهم موظفون أتراك ، الى خانقين • وكانت الجماعة الصغيرة التي التحقت بها لا تخلو من عنصر ساني ، عجوز من الاراضي الجبلية (هورامان) وهي أم زوج (المكارى) ، لذلك فهي ترحل ، من غير أجر ، راكبة على ظهر حمار صغير ، كان يبدي عدم الرغبة في المضـي قدُما ، بالجلوس غالبا •

وذات مرة ، وعلى النشوز المتموّجة على (جبال ازمر) ، كنا نسير على طريقنا ، فأخذ أحراسنا العسكريون يبدون ذلك الحماس المصاحب لاداء الواجب ، وهو أمر لم يفارقهم أبدا • على ان واجبهم ، سواء أكانوا سائرين أم كانوا في المدن مقيمين ، كان يبدأ وينتهي ، على ما تراءى لاسكان ولي ، بدراسة عملية الازعاج ، والشقاوة ، والسرقة ، والعنف مجتمعة ، تنصبّ كلها على الاهلين ، وفي هذا اكتسبوا مهارة باهرة فائقة •

وفي هذه المناسبة عينها كان أول ما قاموا به هو انزال ثلاثة أو أربعة من الاكراد المسالمين ، غير المعتدين ، عن الحُمُر التي كانوا يركبونها ، ثم أخذوها منهم غصبا . وبعد ساعة من رحيلنا عن السليمانية اشتدّت وديقة الشمس واوارها وانتاب الجندَ عطش فافرغت قلل (تُنَك) المسافرين مما فيها من ماء وذلك على الرغم من احتجاج أصحابها . وبسبب من هذا الاحتجاج عمد الجنود ، مرتين ، الى كسرها ، لهوا ، فذهب ما فيهـا من الماء بددا .

وكثُر الحديث عن اللصوص ، ذلـك ان الطريق يمرّ خلال ديار الاكراد الهماوند الثائرين ، وكان مجرد ظهور بعض الفرسان على رابية ، يبعث في الحرس قلقا وفَرَقا . ولما كان الحرّاس مزوّدين ببندقيات من طراز (موزر) فلقد اضطروا الى أن يبدوا روحا ما ، وما أن انسحبوا نازلين الى منخفض من الارض الا فتحوا النـار على السرّاق جملة ، ومن حسن الحظ انهم لم يصيبوا أحـدا . وقف العـدو المسالم ، على وجه التمام ، وأطلق صرخة تهكمية ، وعن طريق لباسهم ولهجتهم تبيّن انهم من أفراد فرساننا ، وعدّتهم نحو ستة . وما أن عُلم ذلك الا غدا وضع الجيش على الاشفاق باعثا . وكان أن عمد ستة أو سبعة من الجند ، ممن تغلّب اشفاقهم من الثأر العشائري على (الضبط والـربط العسكريين) الى الذهاب الى المدينة ، ناسين الرجال الذين أصلوهم نارا . وما أن رأى هؤلاء الوضع من بعيد ، الا ساروا في أعقابهم ، تتعالى منهم صيحات الغضب والهياج . أما البقية الباقية فلقد تناولتها خيالتنا وانهالت عليها بضربات ، من دون شفقة ، بأخمص البندقيات ، وبكل اقتـدار وسداد ، ومن فوق صهوات الخيل ، المكان العالي . وصرخ (البكباشي)[٢]

(٢) رتبة «بكباشي» تقابل رتبة (المقدم) في الجيش العراقي .

بالتركية داعيا البوقي و (الباشجاووش)[٣] ، لكن كل واحد منهما كان مضطجعا ، أحدهما داس عليه حصان بقدمه ، والثاني قد فقد حسّه تحت بطن حمار ، وكان الحمار يجيب(البكباشي) بنهيقه : و (ان أنكر الاصوات لصوت الحمير) .

ولو لم يك بيننا نفر من قبيلة الـ (جاف) ، وكنا داخلين ديارهم ، لتبرّكنا الفرسان وخندقوا بين الروابي البعيدة ، ولهجموا علينا وسلبوا القافلة . ومن حسن الحظ ان غضبهم سرعان ما ذهب ، فعاود الجنود ، وقد اصيبوا برضوض وتقطيع ، وبما يبعث على الاشفاق ، مشية المكبّ المطرق تلقاء (هەلەبجە : حلبجة) ، مبتعدين عنا الى أبعد مدى يستطاع . وخلفنا الروابي وشعاب الجبال[٤] ، والشمس تتعالى ، ظهريا ، حتى أخذنا نعلو المرتقى الطويل الاخير ، وسهل شهرزور أمامنا . انه واد وسيع تناثر فيه مضارب قبيلة الجا فبخيامها السود[٥] ، والروابي الكثيرات شاخصات تدلّ على السكان الاقدمين الذين حلّوا فيه ، وعلى قرية حديثة دمّرها أمرٌ (شيخ) ، نابه الشأن ، روحاني من أهل السليمانية ، لكنه نصّاب نجس الاسم (كذا : المترجم) .

تقع الحافة الشرقية لهذا السهل المحاط بالجبال تحت ظلال جدار جبل عظيم ، وأعني به : هوراماں ، حدّ فارس . انه جدار يحيط بديار

---

(٣) باش جاووش : رأس العرفاء .

(٤) شعب الجبل الطريق فيه او ما انفرج بين جبلين .

(٥) الجاف قبيلة كردية رحالة على حظ كبير من خطر ولدى هذه القبيلة نوعان من الخيم : نوع وسيع لمضرب الشتاء ونوع خفيف للرحيل والرعي صيفا . والخيمة تقسم الى قسمين احدهما يصطنع كضيف(ديوكسان) والاخر لـ (الحرم) فالمرأة لا تجلس في مجلس الرجال عادة ، وفي مقدور احد المطارف القدامى أن يدخل خباء النسوة ان شاء .

المترجم

هي أشد ما تكون عزلة ، ولعلهـا أشدّ غرابـة أيضا ، ديار قبيلتي كردستان : الهوراماني والرضوي (العلي المهية) •

حلبجـة

ان (هەلەبجە : حلبجة) ، أو (ألَبَّجه) على ما تكتب ، لبقعة تعلو منحدر السهل المتعالي وتتراءى جلية من مسافة ٣٠ ميلا ، وكان بينها وبيننا القفر اليباب الحبيب الى قلب التركي • ان (يده) ، هنا ، لواهنة في يوم الناس هذا ، وان هذا الاقليم الذي كان اقليما فارسيا خصبا مزدهرا في يوم ما ، في كل شيء ، ولايزال ، فيما خلا اسمهاه انها تحت سيطرة (عثمان باشا) كليا ، وهو رئيس أكراد الـ (جاف) ، الذي لا يخضع الى الحكومة التركية ، الا قليلا ، أو لعله لا يخضع أبدا ، أو يرضى ، على أسوأ وجه محتمل ، وعلى أساس اسباغ الفضل ، بوجود قلة من الموظفين الترك في حلبجة • لقد ألغى البرق والبريد منذ مدة طويلة ، ورفض تقديم مال لقاء قطـع من ورق تلصق على الرسائل ، وهذه مما يمكنهم حملها بأنفسهم • لقد وجـدوا فائدة اخرى لأسلاك البرق اذ صنعوا منها سلاسل ورصاصات • وعلى حين تملك حلبجة اليوم (مدير برق وبريد) ، متفخا تماما ، لكن منصبه من دون عمل كليا ، شـأنه كشأن (جابي الضرائب) الجالس في السليمانية ، يستعطي الفتات من مائدة عثمان باشا •

ان (شهر ـ ي ـ زوري) هذا لتمتلىء روابيه بنقود فارس الساسانية ورموز بلاد آشور المندفنة ، لم يكن ، حتى حقب قليلة ماضية ، الا اقليما تابعا لـ (كولعنبر)[٦] ـ أي : «زهرة العنبر» ، والاجماع ينعقد على انـه أجمل ما في كردستان من الوديان طرّا !

---

(٦) شوه الاكراد الاسم الى (خولمر) ، ومعناها (الارض الميتة) (المؤلف)

ان الهوراماني العشائريين يتكاثفون فيه ، وفيه من الارضين ما لا يحصى عددا :

« رائقـة تجلي بحلي الزهـر   تـدي السرور وقت مدّ البصر

نوارهـا مختلف الاشـكال   يسمو على قلائـد اللآلىء »

كما تكثر فيها الفاكهة وتنعم بماء عذب ، على ما كانت عليه دوما ، تداعبها نسمات عليلات بليلات تتهادى اليها من الجبال العاليات ، فتلطّف من حرارة السهل[٧] .

لكن الاتراك امتلكوه، ولما كانوا كالآفة الوافدة، لذا أُجهز على كل شيء فيه ، ولم يبق من سكانه اليوم الا الرحّالة (الجاف) الذين يذهبون ويجيئون ، كل ربيع وخريف . علمت هذا كله ، لذلك أرسلت البصر الى المُجتلى ، بأكثر من اهتمام اعتيادي، حتى استحثنا الفرسان على الاسراع، اذ شهدوا ، من بعيد ، كوكبة كبيرة من الفرسان الهماوند . وبجلبة ، وعلى استعجال ، هربنا الى مجموعة من الخيام تسكنها جماعة من قبيلة صغيرة تدعى : (الموان) ، وقريتهم ، المهجورة في الصيف ـ تقع على بعد نصف ميل ، تحتضنها أجمة من شجر الصفصاف .

هنا رمينا أثقالنا على ثرى السهل ، وكل جماعة صغيرة منا أقامت ، حولها ، حاجزا من ممتلكاتها . ولما كان الخبز الذي يختبز من الحنطة غير معروف عند أهل القرى في مثل هذا الفصل من السنة ، لذا أتينا بما عندنا منه ، وقد دُعم هذا بجرّة كبيرة من (الشنين) ، شراب الاكراد القومي .

وما أن أرخى الليل سدوله الا دوّت المصرات[٨] . ولما كنا

---

(٧) ذكر الاقليم في بعض المؤلفات القديمة من امثال (سيازورس) وكان الليما ذا خطر في (حلوان) ايام الساسانيين (المؤلف) .

(٨) المصرات : السحب فيها مطر .

مكشوفين جميعا ، فلقد ابتل كل واحـــد منا تماما • ان العقـارب التي تكثر ، هاهنا ، تستكره الرطوبة ايضا ، لذلك التجأت الى ما تحتنا • ولـم نخلد الى النوم الا غرارا وذلك بسبب من الريح والرعد والمطر والعقارب وجحافل الذباب والرمي المتقطّع ، ولم نأسف عندما عاودنا تحميل أثقالنا عند الصبح البارد المبكّر • لقد عانت أم زوج (المكارى) كثيرا ، ذلك انها قامت بواجب (الديدبان) طوَال الليل ، وكان واجبهـا الرئيـس سحب حيوانات الحمل الكسالى من فراشنا ، وكانت هذه تقف عليها وتدوس ، فتضيف بذلك الى ازعاج الليلة ازعاجا • وفي صباح اليوم التالي غـــدا الجنـد ، التعبون المتقزّزون من الحياة ، مكتئبين جـــدا • لقـــد تراءى الابتلال ، وقروح القدم ، التي اخشوشنت من ضربات اليوم الدابر ، ومن السير مسافة ٣٠ ميــلا تحت وطـــأة حرّ (شهر ـ ي ـ زور) ، كهمّ نازل عظيم •

منــزل باشـــا

وفي منتصف الطريق ، عبْر السهل ؛ وحيث الهواء الراكد يمتصّ الابخرة الحارة المتصاعدة من الماء المتبطّح ، بلغنا ظُلّة كبـيرة من شـعر الماعز تحيط بها ظُلَل من السـادة نفسها • انه مضرب (محمود باشـا جاف)[٩] ، أقوى رجل في هذه الارجاء ، والدلائل النفذّة على سمو قدره هي نجاده[١٠] من : السجاد الفاخر وصفوف الصناديق الجلدية واللحفان

(٩) ان اخر رئيس اعلى عـلى الجاف هو (محمد باشا) وقـد مارس سلطانا حقا على القبيلة كلها ، وبعـد وفاته دأب احد ابنائـه محمود باشا (المتوفى سنة ١٩٢٠) على الترحال مع القبيلة عـلى حـين استقـر ابن آخر هو (عثمان باشا) (المتوفي سنة ١٩٠٩) وزوج السيدة (عادلة) في حلبجة وشغل منصب قائممقام •

(المترجـم)

(١٠) النجاد ما يزين البيت به من فرش ومتاع •

، وهي من حرير ، متـدلّية في الشمس ، لكي يولّي القمّل منهـا فرارا[11] .

وكان أن بلغنا (حلبجة) فيما بعد الظهر ، وهي بليدة تحفّ بهـا بساتين . انها تتميّز بثلاثة بيوت عظيمة هي :(بيت عادلة خانم) ، واسمها يترجم على أفضل وجه بـ « السيدة عدالة » ، و (بيت طاهر بك) ، و (بيت مجيد بك) ، وهما ابنا زوجها . ان هذه البيوت ، وسوقا نظيفـة حسنة البناء ، تضفي على حلبجة امتيازا كانت تعدمه ، قبل ٥٠ سنة ، كليا ، حين كانت قرية حقيرة زرية . وعلى الغريب في حلبجة ، غالبا ، أن يصحب (مكاريه) الى البيت الذي يتخذ لحيواناته اسطبلا ، اذ لا يوجد فيهـا حتى الآن (خان) ، وان كان هناك (خان) واحد يُبنى . لكنني كنت قـد صادقت أحد تجار حلبجة ، الذين عرفوا ، على ما يعرف جميع سكانها ، (السيدة عادلة) ولقد أسرّ هذا على ان « معلوماتي ، ومعرفتي ، وتربيتي ، وتهذيبي » كلها ستكون سببا في أن ألقى لدى هذه السيدة ، نابهة الذكر ، طيبة الاسم ، ترحيبا حارا . ولو أقمت في بيت خاص وطرق سمعها ذلك لمسّت عزتها . ان هذا طبيعي بالنسبة لوصول فارسـي ، وهو مسـافر لا يقدم هذا الرجا من أرجاء كردستان الا على الندرى .

قال لي ان أذهب الى بيت طاهر بـك مُقَدّما : (واذا عزمت عـلى الهدى فتوكّل !) انه موصول ببيت السيدة عادلة بجسر وأبواب.ثم عليّ أن أقول اني كاتب فارسي ، وتاجر ، يجوب ديارها ، ويرتكن الى فضلها ومنتها . وصمّمت على أن أفعل هذا ، وما أن ولجت باحة مهجورة كبيرة الا سرت راكبا تلقاء شرفة عالية ، ثم ترجلت ، وجاء خادمان يسعيان ونظرا اليّ ، والى متاعي ، وسألاني : من أنت ؟ وقدّمت نفسي لهما على

(١١) يجب ان لا تعزى الى الاكراد عادة مفرطة في عدم النظافة مـن جراء وجود القمل في مضاربهم بكثرة كاثرة . ان سهول بلاد ما بين النهرين وسـورية وكردستان مربى ملايين من هـذه الحشرات ، ووطنها الرمـل والتراب ، ويوجد كثير منها ، سواء في الاراضي الصحراوية ام في الاراضـي المأهولة . انها تتلاشى في تموز وتعاود الظهور في الربيع (المؤلف) .

ما اشير به عليّ ، فدعياني الى الجلوس على مقعد ، ثم أعلما (السيدة عادلة) بمقدمي وكانت ، آنئذ ، في البيت الآخر . لقد وجداها استيقظت من قيلولة ، وبعد قليل عادا يبلغاني انها لمسرورة من سنوح فرصة لقيا فارسي من شيراز ، وهو أول من يشاهد في ديارها .

لقد جادت عليّ بغرفة عالية في (بيت طاهر بك) أستطيع أن أتشوّف منها على البستان والسهل والجبل . وفرشت سجاجيدها وجيء بالشاي ، شأنه كشأن الدُخينات (السكائر) ، ومن جاء بهما رجال لا يتكلّمون الفارسية الا قليلا . وقامت خادمتان كرديتان وقحتان ، وعمامة كل منهما لفّت على شكل زاوية غاوية ، باخضاعي الى استجواب ، وهما في أثناء ذلك لا تنفكان عن تدخين السكائر .

وبعد قليل أرسلت السيدة عادلة مرة اخرى تقول انها ستراني عند الصبح من اليوم التالي في مقابلة خاصة ، وهو تعبير «نسبي» في مثل هذه الديار ذوات الاتباع يرد على سبيل عرف التوقّر والاعتلاء . وجيء بالعشاء في صينيتين كبيرتين : الرز (پلاو) واللحم والروب وحلوى و (شربت) . ثم جاء بعد ذلك رجل يحمل لفيفة من فراش جديد سرّني أن أتمددّ عليه ، وأنام .

وقبل أن نمضي في سرد (القصة) ، من السداد أن نبدي الحوظة بشأن اسرة الـ (جاف) وقبيلتها ، وبوجه أخص ، عن شأن تلكم المرأة الخارقة التي أحلّ في بيتها ضيفا . انها في الاسلام لأمرأة لا كفاء لها ولا لها من نظير ، باعتداد القوة التي تملكها ، وفي القدرة التي تصطنعها في استعمال ما في يديها من أسلحة .

ولو كان النساء كمن ذكرنا   لفضلت النساء على الرجال !

ان قبيلة الجاف لعريقة ، وهي ، منذ أوائل تأريخ كردستان ، ايدة ، وتشتهر باتفاق زعمائها وتماسكهم . ان هذه السمة الاخلاقية ــ أعني التماسك ــ نادرة بين الزعماء الأكراد العظام ، ولقد أكسب وجودها

القبيلة غنى وقوة ، لذلك يمتلك الزعماء المختلفون اليوم مدنا ذوات خطر من أمثال : بنجوين ، وحلبجة ، وقزل رباط ، بالاضافة الى قرى عديدة وأرضين ، حصلوا عليها شراءا •

ان أملاك الافراد لا صلة لها ، بأي وجـــه من الوجوه ب (ديرة الجاف) ، أعني الاراضي التي تمتلك هذه (القبيلة الرحالة) حق المرور منها ، والاقامة والزراعة فيها ، وتعود لها بحكم حق عريق ، حصلت عليه على سبيل المنحة وبالفتح ، وتمتلكها القبيلة جمعاء •

ومنذ الزمن الذي عادت بغداد فيه الى أيدي الاتراك ، أعني : في القرن الـ١٧ للميلاد ، كانت الـ (جاف) على صلة ، في الجهة الغربية ، مع هذه الامـــة[١٢] • ودأبت ، طوال نحو ٢٠٠ سنة ، على الاعتراف بـ (السلطان) سيدا عليها ، و (خليفة) أيضا • ان الخليفة هو رأس السُنّة المسلمين ، والـ (جاف) تنتمي الى هذه الطائفة عينها • وأيا كان الامر ، انها قبيلة احتفظت بأكثر من شبه استقلال ، حتى يوم الناس هذا • فمحمود باشا كان يعتدّ تبعته محصورة بدفع مبلغ سنوي الى (السلطان)• وعندما غادر مجموع القبيلة ديارها القديمة في (جوانرا) الفارسية ، انشقّ شطران منها واستقرّا مع قبيلة (كوران) الفارسية ، ولا يزالان ، على هذا ، حتى يومنا هذا • انهما : (جافـي ـ قادر ميرويسي) والـ (نايشي) • وفي وقت ، أحدث من ذلك ، انعزل شطر آخر ـ بزعامة مَن يدعـــى (فتاح بك) ـ وانسحب الى فارس ، ليستقرّ في اقليم كرمانشاه •

وفيما خلا هذه الاقسام ، ولا حظ لها من خطر ، ان قبيلة الجـاف متماسكة متّحدة ، على ما كانت عليه دوما • انها تدعى ، بين الفينة والفينة، للقيام بمعاقبة القبائل الاصغر شأنا ان أساءت التصرّف ، والقيام بواجبها ، وذلك باعتدادها للاتراك أحراسا للدروب ، لا يحول سلطانهم دونها • ان القبيلة نفسها ـ أعني آحادها الذين يتجولون ، كل ربيع ، من (قزلرباط)

---

(١٢) بموجب المعاهدة التركية ـ الفارسية اعتدت الجاف جزءا من رعايا الترك وجزءا من رعايا الفرس (المؤلف) •

حتى (بنجوين) و (ساقز) ـ هي تحت الاشراف المباشر لمحمود باشا ، وهو يصحبها شخصيا . أما أخوه الاكبر : عثمان باشا[١٢] ، فمعيّن ، على ما ذكر قبلا ، من قبل السلطان قائمقاما على (شهر ـ ي ـ زور) . انها حكومة على حظ عظيم من خطر ، وهي حكومة حدود تتطلّب امتلاك قوة مسلّحة يصطنعها (الحاكم) فيها ، وعثمان باشا الذي تلبي القبيلة أمره ، يمتلكها طبعا (والناس حيث يكون المال والجاه) .

وهنا ، يجب أن ننحرف عن السياق قليلا لكي ندخل فيه (السيدة عادلة) وهي السيدة التي جاءت من وراء الحدود . ان الاقليم الذي يحاذي حدود شهر ـ ي ـ زور هو : (اقليم اردلان) . واردلان كانت ، قبل ذلك ، مملكة تحكمها اسرة من الامراء الاكراد الصغار ، وهم ، على الرغم من استقلالهم الحق ، كانوا يقرّون سطوة شاه فارس . وحكم هؤلاء الامراء مدة ٥٠٠ سنة ، وكان بلاطهم في (سنه) ، وهي لا تزال عاصمة اردلان .

وفي ظل حكمهم المشرق المنير ازدهر الفن والادب في (سنه)[١٤] ، وهو أدب ذو صبغة فارسية وكردية ، وقد بوشر بكشف النقاب عنه اليوم[١٥] وجمّلت المدينة ببيوت مونقة وبساتين نضرة ، وغدت (سنه) مكانا تحفل بذكره كتب الرحّالة الذين مرّوا منها ، وربما يسجّل جمالها الوضيء ، وينوّه به .

ومهما يكن من أمر ، ولما كانت الاسر تزول ، فلم تشذّ عن ذلك

---

(١٣) اسرة الامراء هؤلاء تدعى (بكزادة الجاف) لقد شجعتهما (حكومة اليابان) على المجيء الى شهر ـ يَ ـ زور . (المترجم)

(١٤) وحتى كانت هناك لغة بلاطية خاصة ، هي لهجة (كوران) السنية الرخيمة ، التي تمثل لسانا فارسيا قديما لا تزال قبيلة هورامان تتكلم به شأنها كشأن بعض الكورانيين المستقرين . وكان السواد الاعظم من الشعب يتكلم الكردية وهي اليوم لغة (سنة) (المؤلف) .

(١٥) في المتحف البريطاني مخطوطة غير مصنفة تحوي قصائد يقول جامعها انها لشعراء اكراد تابعي الشأن كانوا في بلاط (سنه) .

هذه (الاسرة) ذاتها • وكان عقد (امراء اردلان) ـ على ما كان يسمّى هؤلاء الحكام ـ حلفا دفاعيا مع الاسرة الحاكمة في فارس : (القاجارية) ، وتزوّج أحدهم كريمة (فتح علي شاه) الذي كان يحكم فارس في مفتتح القرن التاسع عشر للميلاد • وخلفت هـذه (السيدة) وزوجها ، وحكمت (اردلان) بيد قوية عادلة • وجاء من بعدها ابنها ، ثم خلفه حكام فرس ، ذلك ان ناصرالدين ، شاه فارس ، وهو حاكم قوي ومن كان يتَغَيّى اخضاع الدول القديمة ، شبه المستقلة ، له مباشرة ، منع أن يخلف أحد (والي اردلان) الاخير المسمّى : (غـلام شاه خان) ؛ وعيّن ، مكانه ، قريبه الفظ الغليظ : معتمد الدولة •

وجنبا الى جنب ، مع هؤلاء السلاطين والولاة ، أخذت اسرة اخرى جديدة قوية بالنماء ، أعني وزراء الأمراء الذين كانوا يملكون (بلـدة دويسة) ، قرب (سنه) ، ولم تذهب ريح هذه الاسرة ، ولم يسلب منها الحكم ، وكان أن بقيت ، حتى يوم الناس هذا ، حيث محاسب (كردستان) الرئيس ، على ما يسمّى الاقليم ، هو سليل اسرة (الوزراء) القديمة •

واضطُر (بواشية : باشوات) الجاف القدامى الى أن يكونوا عـلى وفاق مع السلالة الاردلانية ، وقامت بين الطرفين ، بين الحين والحين ، مصاهرات ممثّلة في اشخاص الرؤساء الكبار ، والصـغار ، عـلى حـد سواء •

وكان الاتراك ينظرون الى هذه الاحلاف نظرة المستكره وبشيء من الروع ، ذلك ان كانت تراودهم رغبة قوية في أن يروا الـ (جاف) على غير وفاق مع جيرانهم في فارس • وعلى ذلك ، ما أن أعلن عثمان باشا ، في سنة ١٨٩٥ ، رغبته في أن يصهر الى (الوزراء الاردلانيين) الا عارضت الحكومة التركية في ذلك ، لكنها كانت معارضة ، عديمة الجدوى والفائدة• ومهما يكن من شيء ، لقد مضى (الباشا) الى (سنه) وعـاد الى حلبجة ،

وكانت ، عهد ذاك ، قرية لا خطر لها[١٦] ، بعروس من اسرة الوزير ، كان أبوها يشغل منصبا ذا خطر في طهران .

وما أن حلت (السيدة عادلة)[١٧] في حلبجة الا شرعت في تدعيم مركزها ، يساعدها على ذلك ما لاسرتها من احترام وهيبة ، وهو أمر لم يعارض فيه عثمان باشا بتة . لقد شيدت بيتين فاخرين ، لا نظير لهما في السليمانية ، وذلك على طرز (سنة) ، وقام به بناؤون فرس على حظ من خطر . وكان أتباعها من الفرس جميعا ، وأقامت في بيتيها في حلبجة نافلة (جالية) من الاكراد الفرس ، وفتحتهما على مصراعيهما لجميع الرحالة ، من فارس واليها : (مأوى الكرام ومنزل الاضياف) ، ودأبت على ابقاء المواصلات مع (سنة) ، التي تبعد بمسيرة خمسة أيام ، دائمة .

وأخذت تمسك بزمام السلطان السياسي تدريجيا . وكان (عثمان باشا يستدعى ، غالبا ، للنظر في بعض الشؤون ويتخذ السبيل ، بين الفينة والفينة ، الى الموصل وكركوك والسليمانية ، راحلا في مهمات حكومية . وعلى ذلك كانت (السيدة عادلة) تحكم نيابة عنه ، فبنت سجنا جديدا ، وأقامت محكمة قضائية ، كانت هي رئيستها ، وبذلك دعمت سطوتها الخاصة ، بحيث كان (الباشا) ، وهو في حلبجة ، يزجي الوقت بتدخين (ناركيلته) ، وبناء حمامات جديدة ، ويقوم بتحسينات بلدية ، على حين كانت زوجه هي (الحاكمة) .

---

(١٦) عمل عثمان باشا نفسه على اعمار حلبجة ولا تزال بعض البنى فيها منسوبة اليها عندما كان قائمقاما فيها . ويلفظ الكرد اسمها (هله بجه) ويتواتر عندهم انها سميت بهذا الاسم لكثرة ما فيها من الشجر المسمى بالكردية (حلوجك) ، وهو الذي يسمى ببغداد (الوجا) ، انه من انواع (الكوجه) يجفف ويطبخ . (المترجم)

(١٧) في كتاب ال (شرفنامه) اسماء السيدات الكرديات من امثال عادلة خانم ، ذوات الاقتدار على تولي الشؤون العامة وتصريفها بمهارة وكياسة مما ادى الى ان يفخم قدرهن وتنفذ كلمتهن اعني : (حليمة خان) الحكارية و (كوخا نرجس) الشوانية .

(المترجم)

وبنت سوقا في حلبجة ، وهو بناء مربّع الشكل فيه أربعة صفوف من الدكاكين تتصل بأزقة ، فيها دكاكين أكثر ، وكلها مسقّفة ومقبّبة بطوق حسنة مبنية بطابوق . وعلى ذلك انصبّت التجارة على حلبجة ، ونمت حتى أصبحت على حظ من خطر عظيم . لقد أصبح المكان على هذه الدرجة من الخطر مما جعل عقارب الحسد تدبّ في نفوس الاتراك حقا ، ولكي يفرض هؤلاء القوم سطوتهم عليه مدّوا خط برق ، فعارض ذلك أبناء الشائر وعبّروا عن معارضتهم هذه بقطع (الخط) . وفي الوقت نفسه ، نصحت (السيدة عادلة) الاتراك بألاّ يعمدوا الى اصلاحه ، ذلك انهـــا كانت تعارض تسرّب الاتراك الى ديرتها أيضا ، لقد أنذرتهم بأن قومها سيعمدون الى قطع أسلاك البرق بالسرعة التي يتخذونها في مدّها ، وعلى ذلك ليس في حلبجة اليوم خط برقي على الرغم من وجود (موظف) يعيش فيها ، يزهو بعنوان : (مدير البرق والبريد) ، ويرتدي اللباس الرسمي . وعنـــدما يصبح جوّ حلبجة حارا خانقا ، في كل صيف ، ينتقل بلاط (السيدة عادلة) الى قرية صغيرة بين التلال كائنة ، أو الى بليدة في الاراضي الفارسية ، حيث يمضي نحو ثلاثة أشهر أو أربعة . وقامت السيدة عادلة ، في حلبجة ، وفيما حولها ، باصطناع الطرز الفارسي في غرس الحدائق ، باستثناء الحدائق التي تطيف بالبيوت ، ومنها ما يقع اليوم خارج البليدة . انها مونقة يتكاثف فيها الشجر :

« كم أصبحت عرائس الغصـــون   تزهو بدرّ بردها المصـــــون !

وافتـــرّ ثغر نورها المعطـــــار   مكللا بلؤلؤ الامطـــــار ! »

وهذه لا سبيل الى رؤية امثالها إلاّ في فارس . انها حدائق وبساتين من الشجر العارش الضخم ، وتحت ظلالها مستنبتات الزهر :

« واخضرّت الارض بحسن ملبس   رافلـــة في حلل من سندس ! »

وعلى ذلك ، ففي هـــذه الزاوية القصيّة من الانبراطورية التركية ،

المتفسخة المتردية ، بقعة صغيرة فذة ، تسامت ، تحت ظل حكم « امرأة كردية » ونمت من (قرية) حتى غدت (بليدة) • ان سفح جبل ، كان في عداد الجرد قبلا ، غدا اليوم مونقا ، يأخذ زخرفه ويزيّن بالبساتين ، وليس هذا الا احياء حال عتيقة لمثل هذه الارجاء ، وان كان ذلك الى حدّ ما •

وكان بعضهم يسّمي (شهر ـ ي ـ زور) أو (شاريزور) باسم (شاهر ـ ي ـ بازار) ، وحتى عهد متأخر كانت عاصمته : (كلعنبر) الكائنة تحت جبال هورامان • وثمة اسطورة تقول ان قد كانت في الازمنة القديمة قرية تدعى (أحمد كولان) ، عبر الجبال الشمالية ، تُتخذ عاصمة •

حلوان

وايا كان من امر ، كان ذلك أيام الساسانيين في فارس ، حين بُنيت (قصر شيرين) ، وجاي (فرهاد) الصخر في جبل (بستيون) • وكانت ثمة مدينة عظيمة تدعى (حلوان) ، في نحو سنة ٤٠٠ للميلاد ، تمتد هي وأراضيها الى ما يعرف اليوم بـ (شهر ـ ي ـ زور)(*) ، ووراء موقع (حليجة) الحديثة ، وكانت ، في التلال التي تكوّن ما يشبه (الملعب المدرّج) الكائنة خلفها ، ثمة مدينة وسيعة تدعى (سوسان) • فيها كانت بنًى عظيمة من صخر ، ولا تزال اخربتها اليوم قائمة ، بقية أسوار اعتيادية وعمد عظيمة ترجع الى عصر الساسانيين في فارس • والى الاساطير ، هناك جميع الدلائل التي تشير الى قيام مدينة عظيمة ، وفي سهل (شهر ـ

(*) خليق بنا ان نذكر ما ورد عن (شهر ـ ي ـ زور) في التراث الاسلامي العربي : فلقد فتحه القائد عتبة بن فرقد ، في خلافة عمر بن الخطاب (رض) عام ٢٢هـ ، بسلوك الطريق من اذربايجان ، وقد ضم الى الموصل حتى افرد عنها في آخر خلافة الرشيد على ما يقول ابن الاثير •

وقال القزويني ان (الزلم) وهو اسم نوع من الورد ويصلح للباه يستنبت في شهرزور • وقد سمي اسم النهر في السهل باسمه •
[المترجم]

ي ـ زور) في الاسفل ، كانت ثمة قرى يزرع أهلها الرز ، كما كانت التربة حسنة الارواء • اما اليوم فليس هناك الا تلال وسبعات عاليات ، وتدل، يقيناء على سكن قديم « كان (شهر ـ ي ـ زور) محميًا حماية جيدة، ومردّ ذلك الى تلاله ، لذا ليس بعجيب ان ينظر اليه الملوك القدامى باعتداده بقعة مرغوب فيها خصيصا ، وصالحة لابتعاث التجارة • وهناك حلقة من جبل تحيط بالمكان من جميع الجهات ، فيما خلا الشمال ـ الغربي ، ينضاف اليها نهر سريع شديد الجرية يحتوي التلال في الجهة الجنوبية •

وعبر ذلك ، ومن سوسان ، هناك جسر عظيم بُني في أرض حلوان ، لا يزال قسم منه قائما • و (شهر ـ ي ـ زور) يعني (شهر ـ ي ـ بازار) ، على معنى (المدينة ـ السوق) ـ والاسمان ينطبقان على المسمّين ، وليس هناك من دليل يدل على الاسم الذي اطلق على السهل اصلا •

وعاش الشيوخ الدينيون بين قرى التلال في أعالي وديان جبال هورامان الكالحة ، وماتوا • واليوم ، هناك عديد من الروحانيين الذين يقطنون القرى الصغيرة المستكنّة على علو الاف من الاقدام ، تحت الجدار الضخم الكالح لتلك الجبال الظلام • وفي السهل تعايش الكرد والنصارى بسلام حتى اعتلى احدهم : عبدالقادر ، مقام السطوة • انه متعصّب يذبح من لا يهوى ذبح النعاج • وكان في (شهر ـ ي ـ زور) ، ايامه ، سكان مختلطون لا يزالون يتكلمون باللهجة القديمة المعروفة بال (شهر ـ ي ـ زوري) وهي لسان فارسي قديم يتهجى ، بطرْز وصوت ، لا يسمعان اليوم الا في هورامان ، وقد شابهما فساد عظيم •

لقد كان هذا « المتعصّب ، سببا في مذبحة مُني بها النصارى ، فهرب الكلدان الذين كانوا يسكنون السهل الى الجبال ، والى كركوك وبغداد • اما اهل (شهر ـ ي ـ زور) ، وكانوا على غير وفاق مع بعض السكان البلديين الذين اصطُنعوا في (المذبحة) ، فلقد اصبح امرُهم فرطا وتفرقوا ايدي سبا ، اذ غادروا (شهر ـ ي ـ زور) ولم يبقَ لهم لا عين

ولا اثر ابداً . ومظهر (كلعنبر) ، بلغة لا واطئة خالية خاوية ، شأنها كشأن القرى الكائنة عند القمم الجبلية ، وهكذا تشكلت هذه القرى جزئياً ، وهي اليوم أشباح (١٧) كان في الماضي [illegible]

وفي سنة ١٨٢١ م اوقع [illegible] أمير [illegible] (محمد علي مرزا) [illegible] جرح جرحاً مميتاً في معركة تالية ، دارت رحاها قرب حلبجة [illegible] عند [illegible] (باشا) تركي من [illegible]

ومهما يكن من امر [illegible] (الامراء) بملكية [illegible] زور) ، اذ كان ملكاً لهم في يوم من الايام حقاً ، [illegible] مرة ، وهو يقوم اليوم على [illegible] من الارض [illegible] اقليم [illegible] ضمن حدوده ، وقد [illegible] لجنة دولية [illegible] قالت [illegible] يمكن الافتراض بان الحد لا يزال قائماً .

وعندما كانت السليمانية تحت حكم من [illegible] من سلطان باشا ، صيرت (كلعنبر) « قائمقامية » كما تشكلت مديريات النواحي الثلاث اللازمة في السهل . وسارت الامور على هذا المنوال الى ان استقر (عثمان باشا) ، رئيس فرع (بشت ماله) ، من الجاف ، في حلبجة ، وعلى ما بينا آنفا ، شرع في صيرورتها ذات خطر . ولم تستعد (كلعنبر) خطرها القديم ومكانتها ، وشرعت (حلبجة) باقتطاع ما لدى جيرانها ، عبر السهل ، حتى تم نقل عثمان باشا ، وهو اليوم (القائمقام) ، الى حلبجة ، وجعلت (كلعنبر) مقر مدير ناحية .

وفي ابان زيارتي كان يحل في حلبجة ، بالاضافة الى عثمان باشا وزوجه ، (مجيد بك) و (طاهر بك) ، وهما ابنا زوج الباشا السابقة . وتسنم مجيد بك[18] الآن زعامة (بشت ماله) ، فالرجل الذي طحنته السنون

---

(١٨) يفيد النبأ الوارد أخيراً ان مجيد بك قد ودع الدنيا الفانية ايضا (المؤلف) . قلنا : أخطأ (المؤلف) في (طاهر بك) فهو ابن السيدة عادلة من زوجها عثمان باشا [illegible]) [illegible]

الطويل لقي ربه في تشرين الاول سنة ١٩٠٩ م ودفن في (بياره) ، وهي قرية جبلية تحتضنها تلال قديمة في هذه الارجاء .

(تاريخ الجاف) :

لم يمض على استيطان (فرع عثمان باشا) من الجاف في حلبجة أكثر من ١٢٠ سنة تقريبا . فلقد كانت (الجاف) تسكن ، اصلا ، الارضين الواقعة الى الجنوب الشرقي من حلبجة ، في الاراضي الفارسية المسماة (جوان رو) . كانوا فيها مستقلين ، حتى استطاع (والي اردلان) القبض على الرئيس وولده واخيه ، واعدامهم . وجاء ، في اعقاب ذلك ، قتال ، وطردت (الجاف) التي فقدت ثقة الامراء الاردلانيين وعطفهم بسبب من استقلالها اولا ، ثم بسبب من عنجهيتها وعدائها ، ثانيا . ولاذ (الفرع الرحال)[٢] منها المسمى (مرادي) ، وعدته نحو ٥٠٠٠ ، بالفرار الى (الباشا) في السليمانية ، الشامية مجددا . وكان ان منحهم الاراضي التي يحلون فيها في يومنا هذا ، وهي الاراضي الممتدة من (قزل رباط) جنوبا الى بنجوين ، الكائنة على الحدود الفارسية ، شمالا . وبقي عدد من الـ (جاف) المستقرين يعيشون على ارض الآباء والاجداد ، لكنهم كانوا يعانون الأمرين على يد ابن الأمير الاردلاني ، لذلك رحلوا الى قبيلة (كوران) واصبحوا جزءا منها ، خاضعين الى سلاطينها .

وبقي آخرون ، غير آبهين بانشقاق بني جلدتهم ، ولا يزالون ساكنين في (جوان رو) بالعداد من الرعايا الفرس ، وقد نسوا انهم كانوا من اكراد الجاف في يوم من الايام .

واز دهرت ، في الوقت نفسه ، حال فرع (مرادي) ـ والقسم الرئيسي فيها هو ([illegible]) ، وازدادوا نفرا ، وكان الرئيس ينجم

(٢) هذا هو الرحالة من الجاف [illegible] في المنطقة [illegible] من أعالي (خيلان) [illegible]) [illegible] شتاء ، وفي الربيع [illegible] الى البلاد الايرانية عن طريق (بنجوين) ويحلون بجوار (سقز) [illegible] . [المترجم]

من (بشت ماله) ، الفرع الارستقراطي ، دوما ، حتى الى ما بعد عهد (محمّد باشا) ، وهو الذي ، عندما اتاه اليقين ، خلّف ابناءه الثلاثة : عثمان ومحمود ومحمد علي . لقد قسّم هؤلاء (الديرة) ، على حين بقوا على اتصال وثيق ممتزجين ، وتولّى (محمود باشا) أمر العشيرة ، ودأب على اصطحابها ، ابّان ترحالها : الربيعي والخريفي بين الجبال والوهاد . واستحوذ عثمان باشا على اراضي (حلبجة) و (كلعنبر) و (شهر - ي - زور) ، وبازدياد قوته وثروته استطاع الظفر بحكم الاقليم . وبقي محمد علي بك ، الابن الثالث ، في (قزل رباط) حيث يمتلك من الارضين والبساتين كثيرا ويحيا حياة دعة ورضى[٢٠] .

وتحت هذه الفروع الثلاثة لـ (بشت ماله) ، هناك (البطون والافخاذ التالية : (امالا) ، (جاف - ي - سارتيك) ، (جاف - ي - تيلان) ، (ميكائيلي) ، (اخاسوري) ، (جانكاني) ، (رغزادي) ، (ترخاني) ، (پاشكي) ، (كه لا لي) ، (شاطري) ، (هاروني) ، (نوروالي) ، (كوكوى) ، (زرداوي) ، (يزدان بخشي) ، (شيخ اسماعيلي) ، (ساداني) ، (باداغي) ، (موساى) ، و (تيلاكو) .

أما العشائر التي لا تزال باقيـة في فارس ، قاطنـة أرض الآباء والاجـداد ، فهي : (قبادي) و (باباجاني) (ولدبكي) (اناخي) (امامي) (دايشي) (ديلاتيجي) (ميرابكي) (ديتيري) و (نامدار بيكي) . اما التي احتمت بقبيلة (كوران) ، وأصبحت كورانية ، اسما فهي (قادر ميرويسي) (تيشـايي) (قلخانجاكي) (يوسف يار احمدي) (كويـك) (نيرجي) و

---

(٢٠) ان كاتب هذه السطور لمدين الى محمد علي بك الجاف بشأن شطر كبير من القضية التاريخية المتصلة بعشيرته . ان هذا الماجد الكردي المتحمس الى جميع الشؤون المتصلة بها متحمس النظر فيها ومطلع عليها اطلاعا لاصقا . (المؤلف) .

(كركايش)[٢١] • ان هؤلاء رعايا فرس ، بطبيعة الحال ، وهم يقاومون الجاف الاتراك في محاولة حملهم على المجيء ، عبر الحدود ، والانضمام الى القبيلة العظمى ، ذلك انهم لمطمئنون حقا من تسميتهم بـ (الكوراني) واعتدادهم رعايا الفرس •

وعدّة فرسان (محمود باشا) ، و (مجيد بك) ، خليفة (عثمان باشا) و (محمد علي بك) : ٤٠٠٠ ، وهم مسلّحون دوما ببندقيات (مارتيني) وعلى استعداد للاحتراب تحت راية رؤسائهم ، في غضون ساعات معدودات • ان هنا ، مشفوعا بدفع ضريبة طفيفة الى الحكومة التركية ، هو الواجب الفذّ الذي يضطلع به الفرسان بازاء رؤسائهم • ولما كانوا تحت سيطرة عثمان باشا فهم ، بطبيعة الحال ، مستقلّون في أعمالهم ، سلبهم ونهبهم ، من دون خشية مقابلة بالمثل • ذلك انهم يعملون على وَفْق العرف العشائري بالاعتراف بمحمود باشا ، واصطحاب بقية القبيلة ، ودفع ما يترتب عليهم من ضريبة ، واعداد المقاتلة لو مست الى ذلك الحاجة •

وكان طبيعيا أن يهان الترك كثيرا حين أصهر عثمان باشا الى العائلة الارستوقراطية في كردستان الفارسية ، ذلك ان الاتراك هم الذين نصحوه بأن يتزوّج زوجـــه الاولى ، وهي شخصية كانوا يقرّون شأنها تماما ، ويرجون ، بنفوذها ، أن يصبح عثمان باشا ، بقدر تعلّق الامر بأحاسيسه ، أكثر تركية مما مضى • لقد كان زواجه من احدى بنات النبلاء الاردلانيين الذين يمالئون فارس ، امراً استنكرته (الافندية) منذ نزولها • وعندما حارت

---

(٢١) لم يرد ذكر البطون والافخاذ الباقيـــة من عشيرة الجـاف القاطنة في السليمانية ، لنستدرك ذلك على (المؤلف) فنقـــول انها : (عزيزى) (رشوبورى) (يوسفجانى) (كمالى) (تاوكوزى) (بى سرى) (ياروبسى) (عيسائى) (صوفيهوند) ونضيف : ان قبيلة الجاف تتحد وتكون جبهة واحدة بازاء العـــدو الخارجي وتمد زعماءها وتعينهم على النصر عليه •

راجع : خلاصة تأريخ الكرد وكردستان : محمد امين زكي ، ترجمة محمد علي عوني ، ص ٣٨١ ، ص ٣٨٢ • [المترجم] •

(السيدة عادلة) كثيرا من القوة التي منحوها لعثمان باشا أخذوا يعضّون على الانامل نادمين ، مهتاجين عاجـزين ، ويفكّرون بكثير من الخطط الفاشلة لاحباط نفوذها .

كان الانحراف عن سياق (القصة) ، وقد استطال ، ضروريا لتفسير طبيعة الناس الذين وجدت نفسي ، بين ظهرانيّهم ، في حلبجة ، وهو مكان فذّ في كردستان التركية ، باعتداده موطن أمثال هؤلاء الأكراد الاشدّاء : عثمان باشا ، والسيدة عادلة ، وطاهر بك ، ومجيد بك ، ولانه في قبضة هذه البنَى الثلاث الضخام التي يحتلّون فيها ، وسيطرتها المطلقة .

وانفجر صبح يوم وصولي على أصوات (استكانات) الشاي تتناهى من خارج غرفتي ، وما أن فتحت بابها الا جوبهت باثنين من (الحاشية) يحملان جهاز الشاي ، وهو (سماور) كبير من شبه ، وحوضا لغسل الصحون والاكواب والاستكانات الفارسية الصغيرة والصحون الصينية ، أنفسها .

ولُفّ الفراشُ وحُمل خارجا ، وقـدّم الشاي الحار الحلو ، وثلاثة استكانات هي العدد الصائب . وبين تقـديم استكان واستكان ، يستطيع المرء أن يدخّن ، ويسمح بفترة معقولة لتمرّ بين تقدمة وتقدمة . وما أن تمّت المراسيم الا حُمل الجهاز خارجا ، ولما كان اليوم قد بـدأ رسميا ، لذلك اتّخذت الى مقابلة السيدة عادلة سيلا .

سيدة عظيمة

وعلى ما هو متواضع في كردستان تعدّ هذه المقابلة خاصة ، لذلك لم أجد أكثر من ١٢ خادما وتابعا ومسلّحا يقفون عند الباب ، انتصابا . وكانت الغرفة طويلة ضيّقة ، وفي جدارين من جدرها ثمانية أبواب مزدوجة تنفتح على الطارمة ، أما الجداران الآخران فقد صُبغا باللون الابيض وفيهما كوى ، على غـرار ما هو حادث في جميع البيوت الفارسـية . وكانت «أرضية» الغرفة مفروشة بسجاد فاخر من (سنه) ، وفي النهاية القصوى

كان ثمة سرير ضخم من شبه كدّست عليها (لحفان) حُشيت ريشا • وأمام هذه (السيدة) ، وعند قدميها ، بساط طويل مغطى بحرير ، جلست عليه تدخّن لفيفة (سيكارة) • ان اللمحة الاولى دلّت على انها من أصـل كردي خالص • ان وجهها ضيّق بيضوي ، وهي فوهاء نوعمًا ، وذات عينين صغيرتين سوداوين ، براقتين ، وأنف نَسْري ، قليـلا ، وكلها امارات دالّة على ذلك الاصـل • وتنسجم نحافتهـا تماما مع العادة المتّبعة بالنسبة للقوام الكردي ، وهو قوام لا تعتوره سمنة أبدا • ومن سوء الحظ انها اعتادت على استعمال الذّرور ، الـ (بودرة) ، والتبهّج بالاصباغ ، لذلك كانت أطراف أجفانها المكتحلة مفارقة غير طبيعية بالنسبة الى الجبهة المبيّضة ، والخدود المحمّرة • وعلى الرغم من هذا الخطل ، ان كل خط من خيوط وجهها لم يكن مخفيا ، من العينين المتطلّعتين الى الفم والحنك الصُلْبين • وكان غطاء رأسها من النوع الذي يصطنعه الاكراد الفرس ، طاقية (عرقجين) ذات حلقات من عملة من ذهب ، تقوم الواحدة منها فوق الاخرى ، وترتبط بكفية من حرير مما صنع في (يزد) و (كاشان) • وعلى جانبي الجبهة تدلّى حوافي الشعر المرسـل النمطي ، من الفودين حتى الخدين وتحت الاذنين ، وكأن ستارة قد اسدلت عليهما فأخفت كل واحدة منهما • هذا وان الخصل تدعى (اغاريجة) بلغة كردستان الجنوبية • ان الشعر الخلفي الاسود مظفور ، وهو يختفي تحت الكفية الحرير المتدلّية من غطاء الرأس • ان لبوسها كله من حرير ، من الرداء الطويل المفتوح الى (السروال : شروال) • وكانت قدماها عاريتـين مصبوغتين بالحناء ، وتزين كاحلها ومعصمها حلقات من ذهب ، مما تصنع فارس • وفي يديها ١٧ خاتما رصّعت بجوهر كثير ، وحول رقبتها قلادة من لؤلؤ ، حبـاته ضخمة ، وتناوب كل لؤلؤة منها مع السمكات الذهب ، وهي زينة لا معدى عنها بالنسبة لاكراد فارس ، ولكثيرين من الفرس أيضا •

وكانت احدى النسوة تصطنع (مروحة) لتهويتها ، واخرى تحمل

الدُخينات (السكاير) وعلى استعداد لتقديمها لهــا ، كما ان خادما كانت تنتظر حاملة (الشربت) وماء الورد . وما أن دخلتُ الا تبسّمت السيدة عادلة وأشارت بأن أقعد على السجادة ، قربها ، ثم سلّمت عليّ بالسلام الكردي القديم : (وخير هاتن وباني‌جو ، أحوالاكينان خسا شالا !) أي : « أهلا بك وسهلا ، خدمتك على عيني ، صحتك جيدة ، بفضل الله ولطفه »

كانت تصطنع لسان (سنة) الفلاحي ، موطنها الاصلي ، ولا تصطنع لهجة السليمانية[٢٢] الرخوة ، كما كانت اجابتي بها أيضا ، وأنا ممتنّ من سماعي اللغة التي عرفتها قبل سنة ، في كردستان الفارسية .

وكانت نضاتها خاصة ، وما كانت من هذه التي تصدرْ عن امرأة ، وعلى الرغم من انهــا لم تكن عميقة ، لكنها كانت واضحة ، حاسمة ، مقتضبة . وكانت تفهم الفارسية فهما تاما ، وذلك على الرغم من انهــا كانت تتكلم بها على استحياء قليل ، وأمام شخص لم تعرفه الا باعتداده فارسيا . وبعد أن سألتني عن تفصيلات (رحلتي) ، وعن أنباء (شيراز) وأهلها ، وقد تناهت اليها سمعتهم ، رجتني أن أقرأ لهــا كتــابا محرّرا بالفارسية ، وردها من طهران توّا . لقد أخذت منها النبرة الشيرازية كل مأخذ ، فلم يُشبع نهمها الا بعد أن قرأتُ (الخط) ثلاث مرات ، وعندها قالت لخدمها[٢٣] (مرحى ! هذه هي اللغة الفارسية الحقّة ، أعذب لغة

---

(٢٢) نعود الى الكردية ولهجاتها في شيء من البسط لاغناء معلومات (القارىء الكريم) فنقول : ان لهجة السليمانيــة هي الـ (كرمانجى) الجنوبية ، وثمة لهجة شماليــة لها ، يضــاف الى ذلك الـ (مكرى) والـ (سنانلجاجى) ــ وهى الـ (اردلانى) ــ فالـ (كورانى) ويضــمها الـ (باجالانى) والـ (هوراماني) . راجع :

A Kurdish-English Dictionary.
Taufiq Wahby and C.G. Edmonds — Introduction.

(المترجم)

(٢٣) ولكيلا يتراءى هنا على انه ادعاء ، لاسند له ، بمعرفة فارس ، وهو مما لايوصل من اوربى ، فان (المؤلف) ليذكر انه عاش بين أهل شيراز ، باعتداده احدهم ، ومن دون ان يعرفوا انه ليس بشيرازى حقا .

(المؤلف)

في العالم طر٣) .

وبعدها رفضت السماح لي بالتكلّم باللغة الكردية ، وأصرّت على الفارســية ، ودأبت على اغتصاب تضبيرات طويلـة تتّصـــل بالمصطلح الشيرازي ، مما لم يكن لها به من علم .

واستطالت المقابلة ساعة وزيادة ، نهضت بعدها وهي جدّ مشوقة الى أن تعرف ان كنت مرتاحا تماما . وأصدرت أوامرها بشأن سجاد جديد وفـراش أفضـــل ، ثم انسحبت ، ونطقت ، لاول مرة ، بكلمة الوداع بالفارسية ، وأمرتني بأن أعود الى « الديوان الرسمي » الذي تعقده كل يوم عصرا .

وبينا كنت الى غرفتي عائدا ، لقيني أحد المعينين وطلب مني أن أزور طاهر بك ، الابن الثاني لعثمان باشا ، من زوجه الاولى ، وكان يحلّ في الطرف الثاني من البيت الكبير الذي فيه غرفتي . لقد طار صيت هـذا الزعيم كل مطار ، وهو يملك بعض الارضين في حلبجة ، باعتداده ذا مهارة أدبية فائقة . انه يتكلّم ، الى الكردية ، الفارسية والتركيـــة ، ويكتب ، بالاولى من هذه اللغى ، قدرا من الشعر كبيرا . وانه ليعرف من الفرنسية شيئا قليلا .

« بقدر لغـات المرء يكثر نفعـــه   فتلك له عند الملمّات أعوان ! »

« تهافت على حفظ اللغات مجاهدا   فكل لسان في الحقيقـــة انسان »

وعلى عادة هؤلاء القوم ، لطاهر بك بيت مفتوح يختلف اليه الزائرون في جميع الاوقات ، نهارا .

ووجدته في حجرة ذات ثلاثة جوانب ، هي في الحق رواق صيفي ، ينفتح على مدخل الردهة وبعض الحجرات الملحقة . ومن الجانب المفتوح يترامى (شهر – ي – زور) على أروع صورة ، وتمثل جبال أزمر لاحبة وردية في ضوء الصبح المنفلق . وثمة مصطبات عاليات وسيعات تنظم عند أول الرواق وعليها يستطيع المرء أن يتخذ مجلساً مدليا رجليه فلا تمسّان

الارض أبدا ، أو له أن يقتعد ، على الطريقة الشرقية ، أرضا . ولقد مد بين
الطريات على الارض وعلى المصطبات . وفي الخارج على السقف ،
يجلس الكرد مستلقين على أشملتهم وبعضهم على مصطبة
عليها عبقري حسان ، متأملا ، والظاهر أنه كان يستقبل وجود روحاني
فيه من متجهم سيد بلغ من الكبر عتيا ، بعض بعظمة كبيرة نحو مقدم ،
يرتدي برنسه كنلا ، انه لرجل عليه مظهر التجلي ، ولكن على جيه الكثيفين
الثلاثة الباروتين الزرقاوين وعلى جبينه الاخاديد . لكن
المظهر المتزاوج هذا كان يقويه أنف يشبه منقار النسر ، وجلد صلب
ويختفي فيه تحت شارب أصفر كثيف . وكان يرتدي اللباس الكردي
المعتاد ، ازياء طويلة فضفاضة مخططة من خيوط في حزامه مسدس ،
مع طرازه (كولت) ، وخنجر كبير ، أما قطاء رأسه فهو غطاء رأس زعيمه
الجاف نفسه ــ الكفافي الحريرية ذوات الالوان التي على شكل عمامة
وتنته في الكلال بالنسبة الى أسفلها ، الا العمامة تتدلى على أذنيه وجبينه
تضفي عليه مظهراً مرعبا تبديا [illegible]

ــ وكان قد أعلم بوصولي كرد يحيى بلغة فارسية سليمة ، سالمة على
وجه التمام ، ومن دون أي أثر للهجة كردية فيها ، ودعاني الى الجلوس
على مقعد بجانبه ، وسألني قليلا : من أين أتيت ؟ والى أين تقصد ؟
وهل تتكلم الفرنسية ؟ وما أن سمع مني (نعم الا أنني بعض وأنا كذلك ،
ولكن ذلك قليل) ، وهو نطق مستغرب من زعيم كردي لم يغادر
وطنه : التلال ، أبدا .

وكان هذا الجهد كان بالنسبة اليه كبيرا جدا ، لذلك لجم لسانه
ولازم الصمت .

[illegible] ، والصمت للمرء الحليم وقاية [illegible] عرضه ما يكرهه [illegible]

وعلى هذا جلسنا لا يعكر السكون سوى الاقداح القهوة التركية ،
وكان الخدم يديرونها على الحاضرين ، والسجائر مرة أخرى

حين قدم لي سكارة من صندوقه ، وأشعلها لي بنفسه . [illegible]

[illegible] وبعض موظفي الترك ، آخرين في الحال ، وكان في طريقه من خانقين الى السليمانية ، ولما كان مثله شخصاً متزناً فلقد أصبحت علاقتنا حميمة ، لكنه اقتصر على كلمات تركية قصيرة فيها [illegible] [illegible] ([illegible] المقابلة بالوقوف عليه [illegible] مخابرة ، فقد كان [illegible] كل الاحوال [illegible] .

وكان علي أن أؤدي زيارة [illegible] . ذلك اني [illegible] [illegible] ولكنه قد [illegible] يبلغ ٥٠٠ [illegible] يبلغ ١٥٠٠ قراناً [illegible] (٧٥ جنيهاً تقريباً) ، [illegible] وكان صديقي [illegible] بالموصل [illegible] أحد [illegible] ([illegible]) في كردستان الفارسية [illegible] كلداني . لقد كان هذا الشخص تاجراً صغيراً ، ووكيلاً لمن هو أعظم [illegible] يدعى الحاج [illegible] ولما كان الرجل من [illegible] منذ أول الامر [illegible] حجرة [illegible] في بيتها ، وعاش لمدة سنوات ضيفاً عليها ، لا يدفع عن ذلك أجراً ولا يملك أثاثاً ولا يبتاع طعاماً ، [illegible] كان يجود عليه بوجبات طعام [illegible] ([illegible] لا نريد [illegible] ولا شكوراً) ، وكان [illegible] بالقيام ببعض الواجبات [illegible] للتجار والكلدانيين [illegible] ([illegible]) ، [illegible] معاملات معهم ، [illegible] لم يكن يميز بين أي كردي من [illegible] ([illegible]) ، [illegible] كان يرتدي الصدرية القصيرة ، وسترة فارسية ذات عذارين ، وعمامة [illegible] طاقية من لباد ، وهذا هو [illegible] عنه .

كان يتكلم الكردية أيضاً ، وعلى وجه التمام ، ويعرف الفارسية جيداً جداً . وكان قد تسلم من (متي) خطاباً يتصل بي شخصياً ،

فرحّب بقدومي حلبجة ، واضعا نفسه في خدمتي كليا . كان يعيش في حجرة مظلمة سفلية ، جُهِّزت بطنفستين وبعض اللبـاد ، وعلى جانبي النهاية القصوى كان الفرش ، يُستخدم ليلا لما هو معدّ له ، وفي النهـار يوضع على مصطبات . لقد كانت مؤلّفة من بسط موضوعة على الارض ، ولفّة من المخدّات والاغطية . وبين هذه الفرش ، عند رأس (الحجرة) تماما ، كان هناك صندوق من حـديد واسع من صنع روسية ، عـلامة التاجر ، وفوقه ، وعلى رف من طين ، كدس صغير من كتب دينية باللغة الكلدانية . وعندما دخلتهـا كان منصور جالسـا بازاء الصندوق الحديد يدخّن (ناركيلة)[٢٤] فارسـية ، فهبّ واقفا وتقـدّم اليّ ، وانحنى محيا ، وأشار الى الفراش الذي يحتلّ مقام الصدارة العـالية ، أعني الزاوية اليسرى القصيّة في (الحجرة) بالنسبة الى من يدخلها من الجهة المقـابلة .

لقد أبدى أسفه على الدهر المرير المنكود الذي ناخ بكلكله على ديار الاتراك ، ذلك انه عانى كثيرا من سرقات بضاعته ابان مرورها من السليمانية الى كركوك .

كان أقرض عثمان باشا شيئا من المال ، ولعن الاتراك الذين جعلوا (الباشا) في السليمانية قعيدا ، فلا يستطيع الى جباية وارداته الخاصـة سبيلا ، ولا الى تسديد ديونه وفاقا . وما كان عنده في حلبجة من الشغل الا القليل ، فيما خلا ابان موسمي الربيع والشتاء ، حين يأتي الاكراد من الجبال بالجلود الثمينة فيشتريها ويرسلها الى (سنه) ، حيث يقوم من هم على دينه بنقلها الى (نجني نوفكورود)، ولسوقها الذي يعقد صيفا . وكان من عادته أن يذهب ، كل سنة ، الى موطنه (سنه) ويمكث فيه طـوال الصيف . أما في هذه السنة فلقد أصدر له مستخدِمُه أمرا ، بناء على مقدار الديون التي على السيدة عـادلة وعثمان باشا ، بالبقاء الى حـين

(٢٤) من النارجيل وهو (جوز الهند) وكان يصنع شطرها المنفتح منه أصلا (المترجم) .

استحصاد شيء من الحنطة ، أو بيع التبغ ، وعندها يستطيع أن يطالب بالدفع (فان اغتباطنا بالوفاء حميد) •

سوق حليجة

وبعد أن شاركنا في احتساء الشاي ، اقترح أن نتمشّى في السوق لنقابل من حوّل عليهما (التحويلان) اللذان عندي • وعلى ذلك اتخذنا الى السوق سبيلا ، مغادرين الفناء من باب حقير تغير خفيض ثم الى شارع ضيّق قذر • وغدا ، هذا ، بدوره ، ميدانا مفتوحا ، يحتلّ جانبا منه صفٌ من السقائف شُغل من فيها بشواء « الكباب » ، وتقطيع الخراف ، وشراء الفاكهة من الفلاّحين القادمين من البساتين حديثا • انه سوق الفاكهة في حليجة ، وقد أعلمني (منصور) انه لم يكن ، قبل سبع سنين ، الا أرضا قفرا يبابا ، على حين هو اليوم سرّة البليدة •

ويولج الى (السوق) من باب ضخم ، يؤلّف جداره الجانب الثالث من الميدان الصغير • انه لجدار متين ، حسن البناء ، شيد من أفخر أنواع الطابوق • وأفضى المدخل الى جانب من ممرّ طويل مقبّب ، على كل جانب منه دكاكين ، ويستدير على درجة مستقيمة ، على مسافات قصيرة من الباب الرئيس •

لقد خططّت السوقَ (السيدة عادلة) ، وهو أكثر مما نفهمه من تعبير سوق • انه مربّع الشكل تماما ، وثمة مدخل اليه في وسط كل جانب من جوانبه • وهناك صف من الدكاكين تنتظم داخل الجدران ، وممرّ يصل مابين ، قاطعا المبنى على شطرين متساويين • وتقوم الدكاكين فوق منصة من آجر ، ولعلها تعلو بقدمين عن الارض • ان لها منصة من آجر ، بالعلو نفسه ، تقوم قدّامها ، يجلس عليها صاحب الدكان القرفصاء ، أو يضع عليها ما عنده من بضاعة للبيع والشراء • ولا يعدو الدكان نفسه خزانة ضخمة ، تنفتح جبهتها ، وهي مصنوعة من قطع من خشب أو ستائر • وفي داخلها رفوف وضعت عليها البضائع ومواد

البيع ، وان كان صاحب الدكان يهوديا ، فهناك صندوق من حديد قوي موضوع أمام التجهيزات .

في سوق حلبجة ٥٢ من هذه الدكاكين ، ولعل ٢٠ منها مشغولة من قبل باعة الستائر الكتان وتجار القماش ، وهم يهود ، في الدرجة الاولى ، ويؤلفون الشطر الرئيس من أرباب التجارة(٢٥) .

لقد سمع السوق ، واليه تتاهى جميع أبناء المدينة ويلتقي منهـا الغريب ، بوصولي ، وما أن دخلته ، بصحبة منصور ، الا وجدت الاكراد واليهود ، يسلمون عليّ ويرحبون ، وهم في ذلك سواسية . ومهما يكن من أمر ، فان هذا الترحاب لم يكن موصولا الى التجارة بسبب ، ذلك ان اليهودي الذي اشتريت (تحويلي) الصغيرين عليه ، رفضهما ، فكان ذلك مدعاة امتعاضي . لقد وجدت ان بائع السليمانية قد وعد بارسال البضائع ، بقيمة التحويلين ، اليه ، ولما كان المال عنده معدوما لذا سحب القوائم وباع البضاعة لحسابه في السليمانية . كان (متي) وهو الذي حصل لي عليهما في السليمانية ، لحسن الحظ ، قد ضمنهما ، لذلك لم تطل متاعبي الا لمدة مؤقتة ، ذلك ان « من يقيم لدى السيدة عادلة » - على ما قال منصور - « لا يحتاج الى نقود . »

وتراءى انني أول فارسي ، شاهده القوم في حلبجة ، واثير تساؤل عظيم بصدد موطني الاصلي . وبينا أنا جالس على طنفسة ، أمام دكان تاجر يهودي ، أخذ جمع صغير من الاكراد واليهود المشوقين بالتكأكؤ عليّ محاولا التحدث معي باللغة الفارسية ، والكل يطنب بذكر جمال حلبجة ، ويرفض الاعتقاد بأن (شيراز) - ومنها قد أتيت - أوسع منها وألطف ، أو ان الكردية لا تفهم فيها .

---

(٢٥) ويذكر [ياقوت] ، نقلا عن بلداني عاش في القرن الرابع الهجري يدعى (مسعر بن مهلهل) ان قصة (طالوت و جالوت) الاسرائيلية قد وقعت في سهل شهرزور ، ولعل هذه الناقلة (الجالية) اليهودية التي تعيش فيه ، وعاشت من قبل ، هي مصدرها [المترجم] .

ومن أروع ما يشغل بال القوم وحديثهم : هو حديث السيدة عادلة . ذلك ان تشييدها (السوق) ، جذب التجـــارة اليها ، وغدت مصـــدر ربح للتجار ، كما جادت بأفضل ما يمكن على جيبها الخاص ، ولعـــل ما قامت به هو أحسن شيء يستطاع تخطيطه . لقد كانت غارقة في الدين الى من يحل فيه ، وكان لها الاختيار الاوسع بالنسبة الى ميعاد التسديد ، بطبيعة الحال . والشائع انها تقوم بالتسديد أخيرا ، ودوما . ولهـــذا السبب ، والى السبب الممتاز الآخر وأعني به هذا الذي يحمل المتأجر على الخضوع للمالك القوي ، لم يحاول أحد تحديد مشترياتها ، وهي من القماش والمواد الاخرى ، بكميات عظيمة جدا . وكانت الاسعار التي يطلبها هؤلاء اليهود باهظة أيضا ، ويعتذرون عن ذلك بفقدان الربح الناجم عن الدفع المتأخر ، وعلى غرار ما يقوم به خياط كل انسان .

نعي السيدة عادلة

وأمضينا الصباح كلـــه في السوق ، ورجعنا لتناول الغداء ، وقـد أحضر في نحو الظهر . وفيما بعده ، وفي نحو الوقت الذي يقدم فيه الشاي ــ فالفرس هم الذين ابتدعوا شاي ما بعد الظهر قبل أوربة بأمد طويل ــ اتخذنا السبيل الى (ديوان) السيدة عـــادلة . وكانت الغرفة الطويلة ، هذه المرة ، مليئة الى قصاراها . وقد وضعت ، قرب طنفسة السيدة عادلة ، طنفستان اخريان ، احداهما لمجيد بك ، ابن الباشا الاكبر ، وهو رجل في الـ ٤٥ من عمره أو في نحو ذلك ، وطاهر بك ، انهما ، في العادة ، يستدعيان فيما بعد الظهر ، كان الاول حاضـــرا ، وهو كردي رصين جاد يختلف عن أخيه الاصغر كليا ، والذي يتراءى غاويا . انه أكبر جرما ، وان وجهه الصبوح ليشبه وجه انكليزي بأكثر من وجـــه أي كردي رأيت ، وذلك على الرغم من أن كثيرا من الاكراد لهم ملامح الشعوب السكسونية ومظهرها . يلحظ المرء ، أول وهلة : عينين زرقاوين ،

وبشرة بيضاء ، وقماءة(*) وأنفا مستقيما ، وشاربا مؤرّما[٢٦] وحنكا مربعا ، على انها ملامح وجه . وكان ان جلس ، ويده على الورك ، لايُبدي الى أحد انحوظة ما ، يهزّ الرأس ، بين الفينة والفينة ، جوابا عن شيء تقوله السيدة عادلة . ان جمع رؤساء الجاف يتّسمون بسمة الصمت هذه ، وقد يجلسون ساعات من دون أن ينبسوا ببنت شفة . وبمحاذاة جدر الغرفة وحولها كان يجلس أفاتين من الاكراد . كان هناك أهل حلبجة والاقليم ، وثمة هماونديان مستطرفان ، لا يعرف ما شغلهما ، كانا يجلسان صامتين كأن على رأسيهما الطير . وكانت السحنة منهما سوداء ومظهرهما فظا غليظا ، كما كانا يحتضنان بندقيتيهما بيديهما ، والعينان من كل منهما يقظتان تدوران ، هنا وهناك ، وتلك عادة ناجمة عن الطبيعة القاسية . لقد ذهب روحاني ذو حاجبين أسودين من أهل (بافا) ، وهي قرية في كردستان الفارسية ، وثلاثة من الفلاحين من (سنه) ، وتجار نبتي لجمع حشد مختلف من الاكراد الجنوبيين . وكان كل واحد ، حتى أرباب الدكاكين والروحاني ، يحمل خنجرا كرديا ضخما . وكان الرجال التابعون يقفون ، حول الباب ، قرب (سيدتهم) و (سيدهم) ، وان كدسا من البندقيات كان موضوعا في الزاوية يمثل قُنْبة عدد من المجتمعين . وفي خارج الغرفة ، في الطارمة ، كان الجمع الفائض يمدّ بانوفه بإزاء الابواب ذوات الزجاج وينب[٢٧] احاده ، بين حين وحين ، بملاحظات ، هي في الغالب كافية ، على تعليقات السيدة عادلة . وكانت تقف نسوة مُعينات ذوات مظهر غوي يرتدين ملابس فضفاضة وعمامات منحرفة ، وكن يأتين بالدخينات ويصطنعن المهفات ، تهوية للسيدة عادلة ـ ذلك ان الغرفة ، كشأن طقس اليوم ،

(*) القماءة : القصر .

(٢٦) في الاصل (stubbly) والمؤرم المتروك بعد الحصاد على شكل ارومات (المترجم) .

(٢٧) « نب » على معنى صاح وهي من العامي الفصيح عندنا ، وكم في العامية من كلم فصاح صحاح (المترجم) .

كانت حارّة ـ أو كن يأتين بالمقص والشريط للقماش الحرير الذي كانت تفحصه • وكان ثمة يهودي من السوق يعرض عليها بضاعته ، ويتلقى طلبات كبيرة تتّصل بجميع أنواع المواد ، كان جالسا القرفصاء بإزائها ، يدوّن ملاحظات بالعبرانية ، على جذاذة من الورق قذرة • وكانت التابعات ينتقدن وينصحن ويخترن القماش والمواد لأنفسهن ، وكانت السيدة عادلة ترفض ذلك حالا ، أو تمنحهن ذلك في الاحيان ؟ فلقد كانت تعاملهن معاملة حسنة بيّنة • وكان الحضور يعلّقون على ماجريات الامور ، فيفيضون السيدة عادلة بشأن مشترياتها غالبا ، وعندها ترد عليهم بالكردية السريعة ، وقد زُيّنت بأفضل مزْحة (والمزاح مما يباح) ، وعندها يشارك الكل في ضحك ، وقد يكون عليها ، وليس ذلك على الندرى • وجاء أحد أصحاب الدكاكين وبيده (فاتورة حساب) تشكو الميان[٢٨] من زمان ، فقامت بتأييدها على وجهها الثاني جاعلة صاحبها مالكا كمية معينة من الحنطة عندما يتمّ الحصاد ، ذلك انها لم تكن لتملك نقدا جاهزا ، أو انها صرّحت بأنها لا تملك منه شيئا • وبينا كانت تقيس الحرير ، دخل فارسان ، ولاتزال في أقدامهما أحذية الركوب القرمزية ، وبندقية كل منهما على كتفه ، يقودان بينهما عشائري عربي تاعس مسكين ، يلبس ملابسه التقليدية ، وهو القميص الوحيد الذي جاد على العرب بالاسم المستعار (فاقد السراويل) والذي يدور على لسان الأكراد والأتراك ، على حد سواء • وكان الرأس منه عاريا ، اذ قد فقد كفيته وعقاله ، وكان ينكمش وتأخذه العروراء ، وهو يدفع الى قُدّام في الندي ••[٢٩] لم يرَ في حياته جمعا عليه امارات التوحش والمظهر الفظّ الشرس كهذا الجمع • وحتى السيدة عادلة ، وهي ترتدي لبوسها الفاتح ، وعيناها تبرقان من تحت عمامة كبيرة ذات أزرار متدلية ، وضعت على رأسها منحرفة ، كانت ذات مظهر بدائي شرس ، على

(٢٨) « الليان » : المماطلة وعدم تأدية حساب او حـ ق (المترجم)•

(٢٩) « ندي القوم » : مجتمعهم ومحفلهم ، وهو النادى ايضا •

ما تقصه الحكايات[30] . أرعب مظهر هؤلاء الرجال العديدين المسلحين الاشداء العربي البائس ، وهو لا يصطنع الا مع أمثاله من المخلوقات المستضعفة . وما كانت الضحكة التي استقبل بها مظهره المزري لتسري عن قلبه وتكشف الهمّ عنه أبدا . وتراءى ان حارسيه كانا يعتدان الامر كله أهزولة أيضا .

علقنه

وسألت السيدة عادلة : ما خطب (الشبح) هذا ؟ فبدّر الحارس ، وكأنه يقصّ حكاية هزْلية ؟ فروى كيف حاول الاسير أن يسرق احدى فرى شهر - ي - زور ، كما تراءى انه اتخذ سبيله الى السليمانية مع الابل لسبب ما ، وما أن أصبح في معزل عن رفقته الا أخذ يحاول العثور على سبيله ويعود الى الارضين المنخفضة ، بطريق خانقين . لقد استجدى ، فجادوا عليه بالطعام وبالمأوى ، في بيت مزارع كردي ، وجعل منامه في سقيفة كانت متخذة لحصار اسطبلا . ثم انه سرق منها سلسلة ولما لم يكن عنده مكان يخفيها فيه لذا لفّها حول خصره ، تحت قميصه ، وفرّ بها عند تنوير الفجر وفلق الصبح الباكر . وما أن تحسّس المزارع عليه ، وعلم بهروبه الا قام بتعقيبه مبدئيا . وما أن أسرع الخطى الا سقطت السلسلة ، بسبب من ثقلها ، حتى بلغت كاحله ، فأوقعت العربي التاعس في ورطة . وأمسك به الكردي ، ولما لم يجد شيئا في متناول يديه ، غير السلسلة ، لذا قام بربط رجليه بها وتركه لينال من أوار الشمس المحرقة وديقتها عذابا غليظا . وبقي على هذه الحال حتى مرّ به اثنان من فرسان السيدة عادلة ، وعندها سلّم اليهما أسيره فجيء به الى حلبجة يركض عند مهاميز الجوادين .

---

(30) في هذا شطط ولعله لا يعدو تصرفاً فرديا ، حسب : فالكردي انسان ودود طيب المعشر ، لطيف بازاء الغريب ، يظهر ترحيبه الحار به حين يستقبله مرددا (بخير بيت !) أو (بخير هاتي !) أي (اهلا وسهلا !) وليست في الكردية كلمة تدل على الحقد ، لان الحقد يكاد يكون معدوما عند الكردي (المترجم) .

واحتفظ بالسلسلة بيّنة على جرمه ، وكانت تتدلى حول عنقه . وما أن سقط يتحب أرضا ، وحاول أن يزحف الى قدمي السيدة عادلة يروم تقبيلهما ، الا ّ ذهب عن الجماعة ما عليها من سيماء الجد والوقار فتعالت منها ضحكة جماعية ، ولم يشذّ عنهم الرجل الرصين الرزين : مجيد بك أيضا .

وكان لزاما أن يُجرى استطاق (المظنون) في هذا الأوان ، والظاهر إنه لم يكن هناك من يعرف العربية، فيما خلا كلمةمنها أعني ! : (اسكت!)،وقد اصطنعت حقا ، وما كان ذلك من دون حاجة ، اذ ملأ بكاء الرجل وعويله الغرفة كلها .

والالحوظة الوحيدة التي شعرت السيدة عادلة بلزوم ابدائها نزلت على شعبها نفسه ، فلقيت قبولا حسنا :

« ما مصير من يسرق كرديا ، يا ترى ؟.. اخرجوه ، وخلوا سبيله . » وما أن سحبوه من رجليه الى خارج الغرفة الا ّ ازداد نحيبا ،ولعله كان يحسب انه في طريقه الى الاعدام ، لا الى الحرية .

وما أن خرج الرجل الا ّ اعلن عن قدوم طاهر بك ، فهبّ كل واحد على قدميه واقفا . ودخل الغرفة ، وفي اثره عُنق من الناس يسير وئيدا متمهّلا ، وكان أن اتّخذوا مجالسهم بين المتدين في الندي . واتّخذ طاهر بك سبيله ، فريدا من بينهم،الى حيث جلس على طنفسة قريبة، وتفضل فدعاني الى الجلوس بجانبه ، ثم بدأ حديثا تناول مزايا الفنين الفرنسية والفارسية .

وما استطال اجتماع القوم ، اثر قدومه ، كثيرا . اذ غادره مجيد بك أولا ثم نهضت ، بعد ذلك ، السيدة عادلة ، وآوت الى غرفة داخلية ، وهكذا تناثر عقد ندي القوم وانتشروا . وطلب مني طاهر بك أن أتقدم مجلسه الذي يعقد على السطح مساء ، وهو مجلس ينعقد كل ليلة . وما أن عدت الى غرفتي الا ّ وجدت زائرا ، في شخص كاتب طاهر بك ،

يدخن احدى 'دخيناتي ويتشوف من النافذة مستطلعا • انه ، على غرار جل سكنة هذا البيت الغريب ، من الرعايا الفرس ، من أهل (سنه) ، لكنه يرتدي اللبوس الطــويل الجافي والصدرية الزوق • وأيا كان الأمر ، رفض هذا أن يتخلى عن لباس الرأس في (سنه) ، ودأب على ارتداء الـ (طاقيــة) المختصة بها ، تحيط بهـــا كفيات من حرير ذوات حافات • وكانت لديه أمور عديدة يريد التحدث فيها : أولها ، تقديم شخص يريد أن يشغل منصب المعين الخاص بي ــ وقد رتبت أن أراه عند الصبح ، وثانيا أراد أن يسألني عن السعر الحق لمسدس من طراز (براونتك) سبق أن اشتراه بعشر ليرات ؟ وأخــيرا أراد أ ن يعلم ان كانت لــدي كتب بالفارسية • وكانت عندي نسخة من كتاب (سعدي) قديمة ممزقة أعطيته اياها فجلس ، غير آبه لشيء ، يقرأ فيها مختارات من الشعر لا يفقهها ، لكن جرسها وحروف علتها الطويلة كانت مما تستهوي الاذن الكردية • ويجب أن نلحظ انه ، من بين من هم أكثر ثقافة من أكراد الجنوب ، تهفو القلوب دوما الى ما هو فارسي ، وهذا هو السبب في ان كثــيرا من شعراء الاكراد يكتبون بهذه اللغة حصرا ، ويهملون لغتهم ، وهي الطيعة لنظم الشعر المغنى على الوجه الممتاز •

غرام كردي

هذا وان الشاب (حسنا) ، على ما سمعت أخيرا ، ذو ناموس لذلــك يعتد به • دم • المكان ، وانه لشاعر ، ولا شك انه ، في ذلك ، مقلد سيده المتنح ، وان من واجبه هو تسجيل أشعاره املاءا • ويظهر انه قتل أحدهم في عراك جرى في (سنه) ففر منها الى حلبجة مستجيرا بالسيدة عادلة ، حتى يتم حسم القضية • ثم انه عشق فتاة من فتيات (مجيرته) واسمها : بيروزه ، وهي فتاة وقحة من (ساوجبولاق) ، في مكري، وكردية ــ فارسية أيضا • وسرني أن أشهد ، باخرة ، ما كان يجرى بينهما من مغازلة ، وكانت ، نوعما ، جريئة • ان هذه هي أروع ملامح الحياة الكردية •

ذلك ان الزيجات ، بين الامم المحمّدية ، وتسوتها في معزل تام ، قضايا يجرى ترتيبها من قبل أطراف ثالثة • أما الكرد ـ فنساؤهم يتمتّعن بالحرية ، على غرار نساء أي بلد أوربي تقريبا ـ فيما خلا عدم اختلافهن الى السوق • ان الاتصال بين الجنسين هو الأصل ، وتتجه زيجات كثيرات ناجمات عن الحب ، وهذا حسن بالنسبة الى شعب هيّن ، في عاداته وحياته ، ليّن •

وحاول حسن أن يسمني بحرفة الطب ، ذلك ان أحدهم لمّح له بأن ثمة رجلا وفارسيا شهد أوربّة ، ويملك حقيبة كبيرة ، وجاء من بلدان قاصية ، على ما يتجلّى ، فلا معدى عن أن يكون طبيبا • وبمهارة عظيمة ساق الحديث الى الطب والمرض ، وجعلني أخوض في حديث طويل عنهما ، وما أن وجد ان آرائي رصينة سديدة الا غادرني ليؤيّد الاشاعة الدائرة •

وما أن تعشّيت الا وجدت نفسي أتّخذ السبيل ، والظلام مخيّم ، الى رواق طاهر بك ، فوجدت فيه ثلاث مصطبات نظّمت لتكون ثلاث جنبات في مربع على السطح • وكان طاهر بك يجلس على الوسطى منها ، صامتا على العادة ، وكانت تجلس على الاخريين طائفة من التجار ، وروحانيان ، وتركيان من لابسي البزّات الرسمية • وقدّم لي المضيّف مقعدا ، وكان أن التفعت بعباءتي ، وهي من وبر البعران ، ووضعت قدميّ تحتي وشاركت في عملية الصمت ، على غرار ما كان القوم يفعلون • وكان أن حيّاني الحضّار ، فرددت على تحاياهم ، الواحدة تلو الاخرى •

وإثر لأي من الوقت ، خاطبني تركي، كان يجلس أمامي ، بلغته ، سائلا ان كنت قد زرت القسطنطينية ، وما أن تلقّى الجواب بالايجاب الا بدأ يسأل : أين أقمت فيها ، وكيف وجدتها ؟ لقد اجبرت على أن أقول انني أقمت في اصطنبول ، اذ كنت أشفق من أن أقول اني كنت في (بيره) لئلا يداخله عجب ، وقد يكون عجبه حقا ، اذ ماذا يفعل فارسي في هذا الحي الاوربي المحض يا ترى ؟ ومن حسن الحظ ان رحلاتي الى

اصطنبول كانت غالبة ، وكنت أعرفها جيدا ، وما أن وجد في شخصي انسانا عاطفا عليها ، الا شرع بالقاء تقريض للمدينة ، وبلعن الحظ العاثر الذي نفاه الى أقصى زاوية من كردستان . وأخيرا تحدث عن (حلبجة) مستخفا ، يحدوه على ذلك مقارنته تركية بكردستان ، وهنا ، استيقظ طاهر بك من صمته توا ، وبجملة جافة سأله : لِمَ لمْ تبقَ في اصطنبول ثاويا !؟ فأشاع ذلك في كل واحد ارتياحا . وما أن وجد الجو عدائيا الا استأذن ذلك (الضابط) ـ وكان (بكباشيا : مقدما) ـ ومن دون حديث آخر اتخذ السبيل منصرفا .

آراء سياسية

وشرع طاهر بك ، بعد ذلك ، يسألني عن الاماكن المختلفة ، ثم انحدر الى حديث سياسي ، بحث في خلاله القضيتين : البلقانية والكريتية ، مظهرا نفسه على اطلاع رائع ، وفي الحق ان اطلاعه على الموضوع ، على وجه متابع ، يفوق اطلاعي شخصيا ، ذلك اني ما كنت لاهتم بمثل هذه الامور الا قليلا . ومهما يكن من أمر ، كنتُ قادرا على تزويده بمعلومات قريبة من البلاد ، أعني الحدود الشمالية ، حيث كان الاتراك يمتدون على الاراضي الفارسية . لقد استثير اهتمام الحاضرين على وجه كبير وانصب على الحوادث السياسية الجارية . وعلى غرار أغلب الاكراد أظهر القوم عطفا على الملكيين بأكثر من العطف على الجمهوريين الذين كانوا يعتدونهم نفرا من الجماعات الناشطة في سبيل الشر ، مجردين من أية موهبة تؤهلهم لحكم بني جلدتهم ، وهو رأي صحيح الى مدى بعيد . وكان الشعور الناهض للبرلمان التركي قويا جدا ، ذلك ان السلطان عبدالحميد كان يعتد الاكراد على وجه أضعف مما كان يعتدهم أسلافه ، وقام بأفضل مايستطيع في سبيل وصلهم باصطنبول ، وهي شبه متمدينة ، وكل ذلك من دون القبض على رؤسائهم كيدا ، أو أن تفرض عليهم الضرائب باطلا . أليس السلطان عبدالحميد هو الذي زود الاكراد الشماليين بالسلاح والعتاد ،

وبزّة رسمية ، وسمّاهم : « الخيالة الحميدية » ، وأطلق لهم العنان ليعيثوا في أي مكان يحلّوا لهم أن يعيثوا فيه ، سلبا وغزوا ؟!

ان طرز الحكم التمثيلي لأمر يُنكره الاكراد ، ذلك ان حكمهم كان دوما على يد الزعماء الوراثيين ، وفي هؤلاء خلقت غريزة الحكم خلقا ، وانهم ، من دون شك ، أليق مَنْ في رسْمهم لذلك ، وأفضل مَنْ على قبيلتهم رؤوسا . فان اعتدّت الاكراد الرحّالة غير لائقة ، وليست على حظ كاف من الذكاء ، واصطناعه في تبيّن صالحها ، فما الذي يقال عن الفلاح التركي ، اذن ؟ وهو لا يعدو أن يكون أبله ولا يزيد ذكاؤه على ذكاء بقرة ، (كذا : المترجم)[30] بل هو أنقص مرتبة في الادراك من المزارع الكردي . وعلى ذلك كان هؤلاء الاكراد يحاورون ويناقشون بحق ، وهو يمثّلون حالة فاضلة جدا ، بقدر تعلّق الامر بحكومة استبدادية دائمة في تركية الاسيوية ـ الشرقية ، وكردستان .

وبينا كنا نحتسي القهوة ، في فناجين تركية صغيرة ، سأل أحدهم : الى أين ستمضي السيدة عادلة في أشهر الصيف ؟ ذلك ان في الامر اعتبارا بالنسبة لهذه السنة . اذ بقي (الباشا) في السليمانية لشؤون حكومية ، ولا يزال فيها باقيا ، لذلك لم تتخذ الاجراءات اللازمة لنقل البيت العظيم .

تمضي السيدة عادلة ، على العموم ، الى قرية من قرى التل في جبال هورامان ، أو الى مكان صغير يدعى (مريفان) في الاراضي الفارسية . وفي العادة يسير طاهر بك في الاعقاب ، وئيد الخطى هادىء المسرى ، أو يمضي الى بليدته (بنجوين)[31] ، وهي بـ٣ أيام على الماشي من حلبجة ، وحيث يقام حفل كبير لرؤساء الجاف وقبائلهم كل سنة ، وهو نوع من أنواع مؤتمرات الصيف . ان الزعماء الاكراد الآخرين يأتون ، فرادى ، لقضاء

---

(٣٠) قد تكون هذه حال الفلاح التركي ايام تاليف (الكتاب) . اما اليوم فقد خطا خطوات كبيرة في ميدان تفتح البصيرة والتعلم (المترجم).

(٣١) انها اليوم من نواحي قضاء حلبجة ، وتقع على مجاز في سلسلة جبال هورامان . يمر منه طريق بين ايران والعراق . وثمة مجاز آخر ، عند (قرية طويلة) في السلسلة المذكورة (المترجم) .

وقت قصير هناك فيلقوا السمع الى ما مرّ ، ويوثّقوا العلاقات الودّية مع الجاف • ومن (سنه) جاء عدد كبير من الـ (بكزادة) الارستوقراطيين لمقابلة طاهر بك وانشاد الاشعار الفارسية • كما جاء زعماء من كردستان الفارسية أشد جدية وأكثر وقارا أيضا ، لكن مجيئهم لم يكن لطاهر بك ، وانما لاشغال ذوات علاقة بـ (محمود باشا) الايد القوى ، وكان هذا قد جاء مع القبيلة الى بنجوين في حزيران •

وما أن تمت هذه المحادثة من دون أن يبدو أي فرد أكثر من ذي قبل تنويرا ، وأصبح الوقت متأخرا ، الا نهض طاهر بك ، فرحل ، وبذلك انتثر عقد الندي ، وتفرّق المتندون ، فكان أمرهم فرطا •

واستدعتني السيدة عادلة في صباح اليوم التالي لاقرأ لها شيئا من الفارسية • وكان أن وجدتها مشغولة بالرسائل ، فسلّمتني عديدا منها لكي أقرأها لها ، كما أملت عليّ من الاجابات ، عديدا ، وكنت اصوّب لها فارسيتها عند انحرافها عن المصطلح السليم • وبينا أنا في شغلي الشاغل هذا ، أعلن قدوم المدعو : (أمين أفندي) فدخل يسير في أعقاب أحد المعنيين توّا • لقد كان منظر الرجل عجبا ، وما كان له مظهر كردي أبدا : انه طويل القامة ، عريض الجثة ، ذو وجه ضخم ، وعينين زرقاوين مبصبصتين ، أي من النمط الذي يشاهده المرء في المانية الشمالية • كما كان شعره باهتا يشبه لون الحلفاء ، وأنفه طويلا بارزا عظيما ، وثمة بسمة متكلّفة لم يستطع ، على ما يظهر ، نفيها عن فمه العريض أبدا •

كان حسن البزّة ، يحمل بيده لفيفة صغيرة من الورق ، وكأن ذلك دلالة على مركزه الرفيع • وباطمئنان عظيم دخل (الرجل) واتّخذ مجلسه على احدى الحقائب الجلد الوسيعة المنظمّة حول الغرفة • وسألته السيدة عادلة ، وجليّ انه كان تابعا لها على وجه ما ، ما مراده ؟ فأجاب : انه سمع بوجودي ، لذلك أدّى الزيارة في هذا الاوان آملا أن يقابلني • وقال : انه سمع بأني زرت أوربة ، واني أستطيع التكلّم بالفرنسية والانكليزية

، واني ، فوق ذلك ، طبيب ، وأستطيع أخذ تصاوير فتوغرافية • وبقي يتحدث عن مثل هذه المزايا والمؤهلات ، ويضمن على امتلاكها تهنئات ، وما كانت بسمته المتكلفة لتفارقه أبدا • وكان أن أمرته السيدة عادلة بأن يتكلم معي بالفرنسية • ومما أثار عجبي أن يخاطبني بهذه اللغة ، وان كان يجد في ذلك اعسارا ، كما كان يقحم في حديثه كلمات كردية دواما • قال لي انه كان يحسنها ، فيما مضى ، وتراءى ان الامر لا يعدو النسيان ، وليس الجهل أبدا • ولكن الذي كان يسترعي الانتباه هو تلك النبرة الرائعة التي كان يلتزم بها في كلامه بالفرنسية ، ولو كنا في أوربة لاستطاع أن يعلن عن رعويته الالمانية • وما كان امرؤ يأمل بأن كرديا يتكلم الفرنسية ، ومن الطبيعي أن أسأله أين تعلمها ؟ فجاء الجواب متملصا • وجوابا عن أسئلتي بشأن مهنته ، وعمله ، أجابني بشيء من الزهور : إنه طبيب السيدة عادلة ، وطلب مني أن يعلم أين تخرجت في هذه المهنة ؟ وأنكرت أية معرفة بالجراحة ، وقلت له : اني لست مسؤولا عن الاشاعة التي دارت باعتدادي طبيبا :

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالما ... وللناس قال بالظنون وقيل

وتراءى انه ارتاح الى قولي هذا فأخبر السيدة عادلة بما قلت ، فعقبت على ذلك بتصديق قوي • واثر ذلك مباشرة انصرف فانصرفت •

رجل خليع

أثار الرجل في عجبا كبيرا لذا اتخذت سبيلي الى بيت صديقي الجديد : منصور النصراني لأسأله من هو (أمين افندي) هذا ، فالاسم نفسه ليس بكردي ؟

وعند ذلك نبر قائلا : « هذا المخلوق ، لتحل لعنة الاسخريوطي عليه ، ــ ثم صمت فجأة وقد تذكر انه يكلم مسلما •

وقلت : « حسنا ، ولم ؟ »

فأجاب : « على ما ترى ، انه ليس بكردي ، انه ألماني بالولادة من اصطنبول ، كان أبوه يبيع الاقراص ، لكنه اكره على ترك المدينة لجريمة ارتكبها . وكان عنده ولدان ، أمين افندي هذا ، وآخر . ثم انه ورد بغداد واقترف فيها أمرا طالحا وكان عليه أن يولي فرارا . وساق الولــدين القدر الى حلبجة فوجدا نفسيهما على حدود كردستان ، فأشفقا من المضي قدما ، ولما لم يكن لديهما من الاسباب التي تهيء لهما سبيل العودة فلذا رميا بنفسيهما الى رحمة (القاضي) وأصبحا مسلمين . وأسبغ عثمان باشا الحماية على هذا . أما الثــاني فلقد اتخــذ السبيل الى الشيخ علي في (طويلة)[٣٢] وهو اليوم فيها . واتخذا الاسمين : أمين افنــدي وعلي افندي ، وكلاهما معروفان بضعة الطبــع وبالكيد الرخيص وبالجهــالة والعطالة . ويدعي أمين أفندي هذا انه طبيب ، لكن ليس لديه من علاج يقدمه الى من يراجعه ، رجلا كان أم امرأة ، غير (أملاح ابسوم) يشتريها من اليهود في اسوق ليبيعها بالسعر الغالي . لذلك فلا يراجعه أحد ، وانه ليعيش بأريحية السيدة عادلة ، وقد تجود عليه ، في الاحيــان ، ببــدلة وتسمح له بأن يدعي بأنه طبيبها » .

« وبالمناسبة ، طرق سمعه انك طبيب ، ولما كنت في أوربة ، فانــه قد يرى انك ناجح منتج ، وسيصطنع كل ما يتيسر لديه من وسيلة لايهان شأنك ، لذلك احذرك لتكون بازائه يقظا . » .

لقد سمعت هذه القصة العجيبة باهتمام ، وبقليل من شعور الاشفاق ، وهذا ، على كل حال ، قد زال مني عندما فكرت في المدة التي مكث فيهــا

---

(٣٢) « قرية جميلة ، مناخها في الصيف بارد ويكثر فيها شــجر الجوز المزروع بمدرجات كثيرة على جانبي الوادي . والجوز والزيت مصدر اقتصادي اساسي في حياة اهل القرية كشأن التوت والالوجك ، واللهجــة السائدة في منطقة (طويلة) و (بيارة) وفي لقرى الممتدة على جبــال هورامان الى مشارف بنجوين هي (الهورامانية) التي تختلف عن غيرها من اللهجات الكردية ، وفي طويلة جامع وتكية حسام‌الدين في بطن الوادي كما ان فيها مقبرة للاسرة النقشبندية (المترجم) .

هذا الشخص هنا ، وكيف انه نسي أوربة كليا . ومهما يكن من أمر ، هناك أشياء يقوم بهـا بيسر فيجعل الموضـوع يدور حول تحريات مستكرهة ، لو اتجه اليها . وعلى سبيل المثال كانت على صندوقي الاحرف E.B.S. وهي حقيقـة بارزة كافيـة بالنسبة لمن يعرف الحروف الأوربية ويعرفني باسم (غلام حسين) . لم تر هذه الاحرف الاولى ، حتى الآن ، تعليقا ما ، اذ كنت قد وضعت الحقيبة ، منذ أيام ديار بكر ، في كيس من جنفاص ، وجعلتها تراءى ، في الطريق ، كبالة من بالات البضاعة . لكنني هنا ، ولاخرج منها شيئا ، أخرجتها من الكيس ، وها هي قائمة هناك ـ حقيبة لندنية لا لبس في ذلك ولا من غموض ـ ، انكليزية جليـا .

زيارة ... عند المساء

ما أصدق حديث (منصور) عن هذه النفس الوضيعة ؟ لقد ثبت ذلك في تلكم الامسية نفسها . كنت قد تناولت عشائي وجلست ادخن هادئا مطمئنا ، فسمعت طرقة على الباب.. ان الكردي لا يعرف معنى انطرق على باب شخص ما ، فأما أن يفتحه واما أن ينادي من الجانب الآخر ، لذلك عرفت ان الطارق يجب أن يكون : أمين أفندي وفتحت الباب ، فدخل ، وعليه مسحة استخفاء من يجيء لأمر ذي بال . وبينا هو داخل أخـذ يرسـل النظر من فوق منكبه ، غير آبه لدعـوتي اياه الى الجلوس فوق الطنفسة . ثم جلس فوق الصندوق فغطته عباءته تماما . وشرع يتكلم بالفرنسية ، وطبيعتها الخاصة تصير التفاهم بيننا عسيرا لو لم أك عـارفا بالكردية وقادرا على طرح نبرته الالمانية . وفاه بكلمات عرفت منها انه يطلب (نترات الفضة) لمقاصد طبية ، وسرعان ما طمأنته بأن ليس عندي منها شيء ، وبالسرعة نفسها اهمل شأن ما تجلى انه للزيارة عـذر . والتف بردائه مضيقا على نفسه ومال الى الامام ، الى حيث كنت أجلس عـلى طنفستي ، ثم أخفض صوته ، وفي عبـارات متقطعة أفضى الي بالموضوع الذي أرويه ها هنا :

« انك ، يا سيدي ، رجل متمدين ، واني لكذلك ، ولكني لم أكُ على هذه الحال دوما . كان أبي طبيبا مرموقا في اصطنبول ، وأنا ابنــه الاكبر . لقد ربيّت في أفضل المدارس والكليات ، وان الحظ العاثر هو الذي قذف بي الى الشرق ، وضربة من ضربات الطالع النكد جاءت بي الى هذه الارض لاحلَّ بين الاكراد المتبدّين (كذا : المترجم) . اني أمكث هنا منذ ١٣ سنة ، ولقد فقدت المقدرة ، ولو كانت عندي الوسيلة للذهاب الى أوربة لفعلت ، ولقد نسيتها الآن ، ولا أتذكّر عاداتها ولغتها الاّ على ما يتذكّر المرء حلما جميلا . آه يا سيدي ، انها الضلالة التي حملتك على مغادرة المدنية والراحة وألقت بك بين ظهــراني هؤلاء القتلة ، هؤلاء الشقاة ! (كذا : المترجم) .

قلت : ولِمَ لا ، ان بلادي تقع فيما هو أبعد من هذا ، انها مرحلة من مراحل طريقي اليها ، واني لمتعطش الى المكوث فيها لأياً من الزمن ، لاجد العطف واللطف ، وعلى غرار ما أنا حاصل عليه من هؤلاء الذين تسميهم بالبرابرة . » .

قصة الخليع

« احذر ! » قالها هامسا ، « انك لا تعرف عمق النفاق وعدم الاخلاص الذي تغطس فيه حياة هذا المكان . وان هؤلاء الذين يبتسمون في وجهك يعبّــون وراء ظهرك ، ويرومون تحطيمك ، ولقد أتيت من أجــل أن أنذرك . ثمة اشاعة لا أعرف من أطلقها تقول انك فارسي ، من الحزب الثوري ، وتسعى الى التجسّــس على الديار هذه ، وتفتن الرؤساء وتثيرهم بازاء الاتراك . وبهذا لديهم السبيل الاقصر هاهنا . وفي السنة المنصرمة وجد هنا أجنبي جاء من (سنه) يسمى ، وقال لنا ان كل الذي جاء من أجله هو جمع اللهجة القديمة في هوراماں . قال انــه دنماركي لكنني اختبرته فوجدته لا يستطيع التكلّم بالالمانية . ولكيلا أكون طرفا في خزيه ، حذرته من انه ليس في أرض آمنة ، واني لأعرف انه روسي ، فلــديه كتب بهذه اللغة ، كما شهدت في خيمته خرائط . لقد كان يظهر المودّة

ودعاني الى الجلوس معه • وعلى ذلك حذّرته ، لكنه أصرّ على البراءة • حسنا ، حدث ذلك ذات يوم كان يتطلّع فيه الى تل من مسافة بعيدة بواسطة ناظور ، وقد راعني منظره الغريب ، لقد وجدت آلة تصوير مخبأة في الداخل • وفي هذا الوقت ذاته أخذ الشك يخامر طاهر بك ، ذلك انه من بين جميع الزعماء ينكر ظهور الفرنجي ، وحتى سماع اسمه ، لذلك اتّصل بعثمان باشا ومحمود باشا • لقد أعطى كل منهما المسافرَ ورقة يبرزها الى (اغا) كل قرية عند مروره بها • كانت هذه تسمح له بالبقاء مدة نصف ساعة في كل بقعة ، على أن يرمى بالنار عند الدقيقة ٣١ • وكان في يوم ما خارج قبضتنا بعيدا •

والآن لست بصدد المقارنة بينك وبين ذلك الجاسوس ، فأنا واثق من نيتك الحسنة ، لكن الشك يخامر طاهر بك بشأنك ، وقد نصح السيدة عادلة بأن تراقبك • ثمة شعور مناهض لك ، واني لأحذّرك بأن الاعتبار الذي تمتّع به « الروسي » لن يكون من نصيبك ، فأنت فارسيّ النسب ، وان اطلاقة واحدة تحسم القضية بيسر وسرعة • وكان طاهر بك في هذا الصباح يروم اختبارك واطلاق النار عليك ، وبما اني أعرف سمو مقامك ، واني كنت أتحبب لأجلك خفية ، فلقد رجوته وأعطيته ضماني بأنك لا تظهر الا ما تخفي ، وانك شخص غير ضار • وبقيت على هذا حتى الاخير ، والى أن صرف النظر عن الموضوع ، ولو أردت أن تسمع نصيحتي فعليك ألاّ تطيل بقاءك •

« آه ، يا سيدي ، انك لتعرف المثل الالماني القديم : يتراءى الجبل من بعيد لطيفا ، ولكن ما أشدَّ ما يُمنى المرء به من خيبة عندما يكون تحته ! ان هذا لهو الحقّ بالنسبة الى هذا المكان • من بعيد حيث يتحدّث المسافر عن قِرَى السيدة عادلة ، والبيوت والرفيعة ، والبساتين المونقة ، وسوق حلبجة ، ينسى الوحشية ، والكيد الكائد والخوف ، بحيث تصبح الحياة محفوفة بالخطر المروّع • آه ، ان هؤلاء القوم يسعون الى أن

يبتزوا من كل فرد ما عنده ، ثم يردى قتيلا . لا تفكر في انهم يعطونك شيئا هنا ، او يعاملونك بالحسنى ، ما لم تدفع عن ذلك اضعافا . خذ نصيحتي يا صديقي وابتعد عن « عش العقارب » هذا ، قبل ان تنال منك حمأتها ، لسما ، فترحل عن هذه الدنيا فانيا . غادر هذه (البليدة) ، بليدة النسور الجائعة ، ما دام اللحم على جسدك باقيا ، وقبل ان تغدو اجسامهم لحيمة شحيمة . انظر الي ، ماذا املك ؟ اني اسير في هذه الثياب المهلهلة ، لا أبغي الا الحفاظ عليها من شهوة النهب التي تراود بعض الاكراد الفوارة » .

وقلت : « مع ذلك ، يتراءى انك ، كنت ، في اليوم الذي قدمت فيه من بغداد ، لاجئا ، اسوأ حالا من يومك هذا ، اذ انت اليوم بفضل (الباشا) تملك بيتا وملابس وزوجا واطفالا ، وما يقيم اودهم جميعا » .

واحتج بضعف قائلا : « آه ، انك لا تفهم » . ثم التزم جانب الصمت هنيهة ليعاود كرة اخرى قصته المرعبة المنذرة ، لكنني كنت قد بلغت من اقواله ما فيه كفاية ، ولكي اتخلص منه اخذت اسخر منه ، باعتداده اوربيا اتخذ الاسلام دينا ، وسألته ان كانت (طائفة السنة) خيراً من (طائفتنا الشيعية) ــ وهو سؤال اغتاظ منه فرحل آسفا[٣٣] .

لم يكن ذلك كافيا لارعابي ، واعني به ما يهبط بالمعنوية ، لكنني شعرت بوجود عدو لي وضيع في حليجة ، سلاحة المفضل ، على ما ظهر وتجلى ، هو القذف . ومن حسن الحظ ان هذه هي (كردستان) ، حيث جرت العادة ان يرفع المرء عقيرته بشأن ما لديه من أمر على أعالي البيوت وسفوح التلال ، وان عمر (القذف) قصير ، ويختم عادة باطلاقة غير مرتقبة .

لذلك ، وعلى غرار نظام اعالي البيوت ، قررت ان امضي الى بيت طاهر بك ، واتظاهر باستنكار عظيم قوي لمثل هذه المعاملة التي يلقاها ضيفه ، والقيام بمودعته للرحيل المفاجىء .

---

(٣٣) الحردان : الغاضب المتنحي .

وبهذه الطريقة ، وعن سبيل تصرّفه بازائها ، استطيع ان اقف على افكاره تماما . فان كان مني مرتابا ، فلن يعترض على رحيلي ابدا .

لذلك اتخذت سبيلي في الطرمة ، التي تخيّم عليها عتمة ، ووجدته على السطح مع جماعته المعتادة ، فاتخذت مجلسي ، على يمينه ، بين الحشد الصامت . وغب جانب من وقت ، سألني ان كنت اتخذت الترتيبات اللازمة لمكوثي ، ها هنا ، من الزمن لأيا ، ذلك انه شديد التوق الى أن يدرس الفرنسية معي . فاتخذت سيماء المستنكر المستكره ، وقلت اني بسبيل مغادرة حلبجة في غضون ايام قليلة ، وجوابا عن سؤاله : لِمَ ؟ قلت ان الضيف ليس معتادا على استقبال الرسل الذين يسرون اليه ليلا ويتأبطون شرّا ، ويتحدثون عن ضيفه حديثا سيئا .

وان العرف الكردي العريق المتصل بالقِرَى لو خرق على الوجه هذا فالافضل ان امضي من هنا راحلا . وعند هذا غدا القوم جميعا اذانا صاغية ، ولدى ذكر القِرى الكردي علت على وجوههم مسحة كئيبة دكناء ، ودارت على الافواه مرمرة ناجمة عن الاستغراب من فحتي ، جزءا ، وجزءا من استنكار واستكراه مثل هذه العبارة تورد في بيت من بيوت الجاف . لقد استثارت عباراتي طاهر بك أيضا ، وليس من غير الطبيعي أن يطلب ايضاحا فوريا يتصل بها ، وعلى ذلك أخبرته بجميع ما حدث صراحة .

خذلان الخليع

وعجبت من أن يظهر اليوم انسا كبيرا ، وكاد طاهر بك يتبسّم من قولي ضاحكا . وقبل ان يحرى جوابا ، قال السيد الهرم القادم من (برزنجة)[٣٤]، وهو شيخ مكرّم : (الا تعرف هذا المخلوق السخيف : امين افندي ؟

(٣٤) برزنجة هي اليوم ناحية سروجك التابعة لقضاء شهرزور ، بيوتها معلقة على سفح الجبل بطبقات تتجاوز الـ ١٠ ، والسفح هذا هو سفح جبل كروكي الجنوبي ، وتشتهر بانها مركز السادة العلويين ومنهم الشيخ محمود بن الشيخ سعيد البرزنجي (رح) ، وفيها جامع كبير .
[المترجم]

انه يفعل مثل هذا مع كل غريب ها هنا ، وبذلك يجهز على اسمنا ويخيف ضيوفنا . لا تهتم ، انه رجل وضيع ، واحد من بين وضعاء سفلة ، ولما كان شخصا عاجزا سخيفا فانه ، بطبيعة الحال ، لا يعرف عنك الا انك طبيب . من المنطق انك ستجعل الارض من تحته تخسف ، وسيطرد من هنا . انتظر حتى غد ، واذهب الى السيدة عادلة ، ولا تذكر عن هذا الامر شيئاً . .

واضاف طاهر بك ، الذي لم ينكر هذا ، ان عليّ ان لا اهتمّ بهذا المخلوق – الخليع ومن هو اوضع الوضعاء طراً ، انه شخص مخادع صغير العقل ، يخزي من يسدون له عونا . ثم انه انصرف ، تعويضا عن الاستنكار الذي خامر نفسي ، الى حديث طويل ودي تناول موضوعات شتى ، واعارني اهتماما بالغا ، فظهر من تصرّف القوم ، لدى مغادرتي ، ان محاولة أمين افندي في التخلّص مني قد حسنت ، على كل حال ، لدى طاهر بك ، مقامي .

الفصل الحادي عشر

شهرزور (شهر ـ ي ـ زور) وحلبجة
(هەڵەبجە)

وفي صباح اليوم التالي ، عند حسو الشاي ، مثل شخص لم اره من قبل ابدا ، وشرع يسدي الي عونا . وتراءى « معينا » ، لكن ما عليه من ثياب لا تشرف من يستخدمه الا قليلا . ولكي يلج الباب الخفيض ، كان عليه ان ينحني ضعفين تقريبا ، وما ان استقام جرمه الا تبين انه يبلغ ٦ اقدام و ٤ انجات طولا . وثمة صدرية مهلهلة عليه ، تصل الى منتصف المسافة الى ركبتيه ، وطولها يدل على انه كردي (مكرى) من فارس ، ان هذا لم يكن كافيا ، ذلك انه يرتدي غطاء الرأس ذا النهاية الحادة ، الذي يختص به هذا الرس ذاته ، وقد لفت حوله كفية زرقاء اللون من قطن ، زاويتاها تدليان حول اذنيه . ولم يكن يرتدي ، تحت الصدرية ، شيئا ، فيما خلا (شرواله) العتيق المهلهل . كان هذا رداءه الوحيد ، وهو يكشف صدرا عريضا مثلث الشكل محترقا ، كأنه طابوقة حمراء ؛ ولم يلق عسرا في خلع حذائه ، وهو يلج الغرفة ، اذ لم يكن لديه حذاء ابدا . وبينا كنت احسو الشاي ، دخل كاتب طاهر بك واخذ يشارك فيه ، وعندما سألته من الرجل ؟ اجاب : ان من اهداف مجيئه ، في مثل هذه الساعة ، هو تقديمه الي . انه (مكري) فقير ، عاطل عن أي نوع من العمل ، وهو ينشد العمل ، ولما كانت السيدة عادلة وكل من طاهر بك ومنصور على علم به ، لذا اقترح ان يكون لي معينا . ثم قال : « ذلك ان شخصا على حظ من خطر مثلك

يجب ان لا يعيش من دون معين ، ومن السداد استخدام شخص بلدي ، طوال وجودك هنا ، وانه سيسافر معك الى أي مكان تقصده ، وانه لراغب في مشاهدة فارس • »

وكان المرشح يقف ، في الوقت ذاته ، متصبا ، ويتراءى سخيفا ، ولما كنت غير آسف على ان يكون لي ، على أية حال ، احد الاتباع ، في مثل هذه الأرض الغريبة ، لذلك وافقت على استخدامه ، وذلك بشروط ليست غير معتادة بين الاهلين هنا ــ اعني : بدلة جديدة ، وطعاما ، ومبلغ تومان واحد شهريا ، وهو يساوي نحو ٣ شلنات وستة بنسات ، او بمعدل ١٠ بنسات ونصف بنس اسبوعيا • ويضم طعامه الدخينات (السكاير) ، وهي مادة لا تكلف هنا كثيرا ، ذلك ان ٣٥ دخينة تشترى بال (بني) الواحد ، ولو ابتيع التبغ : امكن صنع ٥٠ دخينه بال (بني) المذكور ، وهو (بيجو) بلهجة كردستان الجنوبية •

الخليع يأكل الوضر ..

واستدعيت ، خلال المحاكمة ، الى مقابلة السيدة عادلة ، فسار تابعي في أثري • ان رداءه لا يشرف قدر متبوعه الا قليلا ، ولم يكتم ذلك عني أيضا ــ فلبيت الدعوة ، وكان في حضرة (السيدة عادلة) لمة من التابعات يتضاحكن بشأن ما آنسهن ، شأنهن كشأن البطانة المسلحة الواقفة في الخارج ، وكان أمين أفندي[1] يقف قرب الباب محتجا •

وكانت السيدة عادلة ، جريا على عادتها ، جالسة على حصيرة تنهال

---

(١) ان أمر (أمين افندي) هذا ، لعجب ، ومن الابتسار في الحكم ، فيما نحسب ، ان نجاري (المؤلف) فيما يذكره عنه • لقــد مر بك انه الماني بالولادة ، ومولده في اصطنبول ، ويخيل لي انه من جواسيس الالمان الذين كانوا يجتاحون الانبراطورية العثمانية لمناهضة جواسيس الانكليز ، ومنهم (المؤلف) نفسه ، وهو الذي جلجل اسمه في أرجــاء كردستان فيما بعد ، فلا مندوحة من أن يقوم بين الاثنين صراع ، وان يورد (المؤلف) الاقوال المرسلة عنه ، التي لا حادي عليها •

[المترجم]

عليه بصوتها العميق بأبشع الاسماء التي تحفل بها مفردات كردستان ٠ وما ان دخلت الآن عاودت اطلاق شتائمها ، ودعت السماء الى نسف مخلوق خرق جميع اعراف الاكراد ، وسوّد وجه الجاف امام غريب فغدوا كأنما غشيت وجوههم قطعٌ من الليل ، واتخذ صفة المرعب ، بازاء ضيف يقع تحت حمايتها ، ثم انها امرته بان يعتذر اليّ بكلمات تدل على الضعة والمهانة، وصدع بالأمر على كره قائلا: «طين على رأسي وقذى في عيني» ، لقد اكلتُ غائطا ٠ ان قلبي رذيل ، اقبل حوافر الحمار الذي تركبه وانضف حذاء تابعك ، وانا عبده ٠ اني امضي خزيان امام الناس جميعا ، أنا كذاب وأنا لست لائقا للقيام على خدمة النسوان ، وهلم جرا ، وهكذا دواليك ٠ لقد تلكأ ، بادىء ذي بدء ، لكن صوت اطلاقة ادخلت في سبطانة بندقية (مارتيني) ، واحساسه براس سكين في قفاه جعلاه خنوعا ، وقد انس القوم لذلك كثيرا ٠ واخيرا رجوت السيدة عادلة بان تسمح له بالانصراف ٠ وعلى ذلك سمحت له بان يخرج زاحفا ، على حين نصحته البنات الخادمات ، من غير احتشام ، باستعمال (ملح ابسوم) لمعالجة امراضه ، تخسيسا له وازدراء به (والفاتنات يرينك الاهوالا !) ٠ وما كنت انشد هذا النوع من الثأر ، وما كنت راغبا فيه ، لكن كل من كان حاضرا تراءى انه يقــدّر اني أدركت نصرا عظيما على شخص يعاديني طبعا ٠ وعلى الرغم من الاحتجاج المؤكد اعتبرت طبيبا منتجا ، ومردّ ذلك الى ان السيدة عادلة اهانت تابعها القديم لصالحي ٠ وانهالت عليّ التهاني الخشنة ، لكنها كانت مخلصة خالصة ، وكان المهنئون من الرجال والنسوة على حد سواء ، وكان هذا يتطلّب الانحراف عن الموضوع واحتساء الشاي في المقهى ٠ وصحبني ، لدى مغادرتي اليه ، نفر من الرجال المسلّحين ليقصوا قصة (أمين أفندي) الى الجمهور فيها ، وهؤلاء بتلبثة Telepathy الشرق الغريبة كانوا وقفوا على (الحكاية) ، فحوى ومحتوى ٠

ويتذكر ان قد اشير في (الفصل الاول) الى كردي روحاني قابلته في اصطنبول ، وحديثه عن (موطنه) هو الذي جعلني أزمع على القيام برحلتي • وخلال الوقت الذي كنت اقضيه عابراً تركية ، لم يغب هذا الرجل عن بالي ، وكانت اخباره قد تناهت اليَّ ، وانا في كركوك ، حيث سمعت ان (الهماوند) قد سلبته • وتحرّيت عنه في السليمانية أيضا ، وكنت آمل ان اجده فيها حقا ، لكن قيل لي انه اتخذ سبيله الى (سنة) في كردستان الفارسية ، عائدا • وقد بعث هذا النبأ في نفسي ارتياحا عظيما ، ذلك اني شرعت في التفكير في امر لا يمكن تأجيله ابدا ، واعني به : تبيان هويتي ، ان لقيته ، أو شخصني أحد ما • وفي اصطنبول قال لي ، في مجرى حديث : لو قدمت كردستان باعتقادي نصرانيا ، ثم اتخذت الاسلام دينا ، فانه لقادر على ان يجد لي سبب معيشة عن طريق التصوير الشمسي (الفتوغرافي) أو الجراحة المدعية ، أو الطب أو التعليم ، لكن ذلك لم يكن الا اسلوب الروحاني في الاغراء ، ولا يعني أكثر من مجاملة طيبة • ولو صادفني ، الآن ، باعتدادي محمديا وشيعيا (لصيرني سنيا) ولغدا الوضع عسيرا جدا ، ولتقزز من رؤيتي كثيرا ، وذلك كله بالنظر الى أنه يشاهد « متنكرا » ، تنكرا يجعله عن الذي لقيه في اصطنبول مختلفا كثيرا ، ولان هذا الشخص اختار البقعة هذه عينها ، ويا للغرابة ، واتخذ السبيل اليها ، من دون ان يكون لذلك سبب خاص أبدا ، وكل ذلك اثر تحريات تتصل بأمور هينة الشأن جرت في القسطنطينية نفسها •

وعلى هذا فكرت في الورطة المحتملة ، وبذلت أفضل ما في وسعي لتجنب الوقوع فيها • ولكي اشرح كيف استطعت ان اتخذ صفة متنكر فارسي وقاية لي ، عليّ ان ارجو (القارىء) ان يعذرني ان رجعت الى الوراء لحين ، لأن ذلك يعرض عليه مرأى (شيراز) على ما كانت عليه

قبل آربع سنوات . لقد اتخذت ها هنا الاسلام دينا ، بعد دراسة دين الفرس لمدة ٣ سنوات خلت . ليس هذا معرض القول في المدى الذي ذهبت اليه ، بقدر تعلق الامر بالايمان بحقيقة المحمدية أو الكفر بها ، كما ليس هنا مجال تقرير ما اذا كنت قد آمنت بها اطلاقا . وما لم اظهر بمظهر المسلم فلن أتمكن من تعلم اللغة على الوجه السليم ، ذلك انها ، بقدر تعلق الامر بمصطلحاتها ، لا يمكن ان تكون عن الدين بمعزل ابدا[٢] لذا ، واثر مقابلة ما مع روحاني اتذكر اسمه اليوم باحساس من الاعجاب العظيم والاحترام الجزيل ، غدوت واحدا من اهل هذا الدين الاسلامي وعُنيت بالاختلاف الى درس ديني . وبفضل تدريس شيخي وزملائه ، حصلت على قدر من المعلومات عظيم ، واستطعت ان ادخل غمار المحاورات والمحاججات الدينية ، وهذه حرفة قسم كبير من أهل شيراز ، ينصرفون اليها توا . وباوهى سبب من الحظ حيل بيني وبين الرحيل ، ذلك اني كنت قد صممت على زيارة كربلاء ومكة ، فوجدت نفسي مندفعا الى انكلترة ، على ظهر باخرة شركة (بي . او) ، بدلا من الذهاب الى جدة ، باعتدادي « مسافرا على سطح سفينة » . وعلى ذلك حصلت على معلومات جمة تتصل بموضوعي ، ان جاز لي ان اطلق ذلك عليه . وعلى حين كنت غائبا وردتني رسائل كثيرة من اصدقائي الروحانيين في شيراز ، وقد عنونت باسم (ميرزا غلام حسين) ، وليس من غير الطبيعي ان اعمد الى الاحتفاظ بها حتى يومي هذا ، وحين وجدت نفسي في كردستان ثاويا .

لقد صممت ، ان جبهني الكردي الروحاني (شيخ الاسلام في سنة) ، على ابراز بعض الرسائل التي ذُكر فيها اني « كنت متنكرا بزي اوربي ، لكن حمدا له تعالى وشكرا فانا من سار على سبيل السلام واتخذ الاسلام دينا ، ولست بكافر ابدا ، وعلى ما يتراءى » . بهذه الرسائل ،

---

(٢) هذه حقيقة اتخاذ (المؤلف) الاسلام دينا ، ظاهرا ، أي على غرار من آمن لسانه وكفر قلبه [المترجم] .

وبمعلوماتي عن الاســـلام ، كنت آمل أن أستطيع اثبات كوني فارسـيا ومسلما ، فان آمن بذلك ، اصبحت القضية هيّنة الشأن لينة ، اي ان يبيّن له ما هو مطلع عليه حقا ، واعني به : انا فارسي ذاهب الى لندن ، وهو حق ، فعليّ ان اصطنع اللباس الاوربي فيها ، وهذا يُفسر له لِمَ اظهر بمظهر الاوربي ؟

ولنعد الى حلبجة ، فذا صباح كنت اتحدّث الى تابعي الجديد ، وكان ذلك بعد يوم أو يومين من استخدامه ، فعنّ لي ان أسأله ان كان قابل (شيخ الاسلام) في (سنه) • وظهر انه لم يبتعد الى أكثر من الارضين التي للسيدة عادلة ولاية عليها ، وانه في أثناء مقابلة حادة معها طلب عونا مسلّحا يجهز به على (سنه) ويجعل حال اعدائه فيها فوضى – وان يشمل بطشه الحكومة والسلطات الدينية معا •

كان عطف السـيدة عادلة عليه محدودا جدا ، لذا رفضت أن يدخل الاراضي الفارسية ، ومنعته من ذلك منعا باتا ، والاّ عمدت الى انذار الحكومة ليلقى في غيابة السجن • وفي غمرة هياج ، وسورة غضب ، اتخذ السبيل الى مكان مقدّس في جبل هورامان[3] حيث بنى (شيخ يارم) ، على جانب واد منحدر ، (تكية) لنفسه ويأوى اليها الدراويش والطوّاف ، على أساس « أجر دير » •

ومن هذا المأوى الهادئ لم يتحرك ولم يتململ ، فيما خلا زيارات كان يؤديها الى حلبجة ، بين الفينة والفينة ، كان يُسمح له بها ، ولكنه لم يكن ليلقى ترحابا • وفي ابّان هذه الزيارات كان يقيم في (بيت طاهر بك) ، وحتى في الغرفة التي اشغلها ، احيانا • وقام تابعي (حمه) بتحريات تتصل بنواياه فتحقق من انه يروم المجيء الى حلبجة قريبا جدا ، عندما يعود الباشا حقا ، ليقدّم له تبجيلا • ولما كان قدوم (الباشا)

---

(٣) موطن ال (هورامان : هەورامان) ، وهم يدعون انهم ينحدرون من سلالة (رستم : روستەم) البطل الاسطورى الكردى – الايرانى •
[المترجم]

بين يوم ويوم مرتقبا ، لذا كنت اشعر بقليل من عدم الارتياح ، ذلك اني ، حتى هذا الحين ، استمتعت بثقة أهل حلبجة جميعا ، وجعلت من بعضهم صدقانا لي . وعلى غرار ما هو معروف في كردستان ، اصبحت اعتد ، في هذا المكان ، جزءا منه لا يتجزأ أبدا . واكثر من هذا ، ولكي ازود نفسي بشيء من المال توا ، واظهر حسن نيتي بازاء الناس عموما ، والسيدة عادلة خصوصا ، سلفت احد اليهود من المال شيئا ، ليذهب الى (جوان رو) ويبتاع اربعة احمال ، من تلكم الشحنة الثمينة المسماة (رن) ، أو الزبدة المصفاة ، ولها في كردستان عبق رقيق ومذاق شهي بحيث لا يستطيع احد ان ينكر على الاهلين وصفهم القائل : (ان رن « جوان رو » تعطره الازهار التي ترعاها الضأن) .

ولذا كانت ثمة أسباب غير قليلة تحملني على ان احيا حياة غير مقلقة في حلبجة ، ما دمت اخترت الثواء فيها . لذلك فكرت في وضع خطة استطيع ، بواسطتها ، ان أواجه وصول (شيخ الاسلام) ، ان جاء في غير ابانه ، وكذلك حب الاستطلاع عند الجمهور ، أو لعل العداء أيضا حين يفصح الموما اليه عن استغرابه وشكوكه .

الحياة في حلبجة

والشيء الوحيد الذي استطعت ان اتبينه هو الذهاب اليه ومقابلته بهدوء ، وان اقول له : اني قائم بزيارة (بيارة) ، واليها اعتاد الناس على الاختلاف ، بين حين وحين ، واطلاق اسم (زائر) على من يعمد الى ذلك . واستغرق تصميمي على ذلك اياما ، اذ لم ارد ان اكون في ذلك معجلا ، ولا ان اذهب باسرع مما كان لازما . ومضت علي ، في الوقت نفسه ، الايام ، ينادي بعضها بعضا ، وانا لا اعمل شيئا : احضر ديواني السيدة عادلة وطاهر بك ، واتمشى مع (منصور النصراني) الى بستان في ظاهر البلدة عصراً ، حيث يفترش (صاحبي) العشب ويخرج

قنينة صغيرة من جيبه ويحتسي (عرقه) مصحوبا بالنُّقْل[٤] من الجوز وحب الرقي ، على غرار العادة المتبعة عند الشرب في فارس . وكانت أعظـــم محاولاته أن يغريني على أن اشـاركه في ذلك ، مؤكدا انه لو شرب وحيدا ، غدا بائسا تاعسا . لكنني لم أشأ ان افتح سبيلا يُجرى عليه لاحقا ، واخضع لافكار تناهض ايماني الاسلامي الرشيد ، وقد تستحيل الافكار هذه الى كلمات تدور على الافواه .

وعندما ذكرت لـ (حمه) اني ذاهب لمقابلة (شيخ الاسلام) عرته مسحة من الدهشة ، ومُسّ شعوره كثيرا عندما لم أقل له ما لدي من شغل عنده ، ذلك ان فقدان الثقة كهذا على ما قال لم يكن مما جرت به عادة ، بين سيّد وبين تابعه ، وانه ليمس كرامة الاخير . لذلك ربطته الى سرّ عظيم ، وقلت له ان (شيخ الاسلام) مدين لي بمال ، واني ذاهب لتقاضيه منه ، واني لا اريد الانتظار لحين مجيئه الى هنا ، اذ هو ذو مزاج قلق وطبيعة مشاكسة ، وقد يعرّضني الى خطر ان شهد داثنه منتصبا على بابه ، على حين غرّة . ان هذا لمنطق كردي سـديد ، واكبر (حمه) من شأن تعليلي كثيرا ونصح بان اشتري اربع (كلاّت) من السكر ، اكرومة للشيخ ، اذ من الخطـل الذهـاب الى زيارة رجل مثله (صفر اليدين) .

وذا صباح ثانٍ ، اجّرت لرحيلي بغلا بـ ٤ قرانات (أي : بمـــا يساوي شلنا واحدا وثمانية بنسات) وحملنا على ظهره (كلاّت السكر) الاربع ، في خرج ، ورحلنا بعد أن تزودنا بالخبز المعتاد ، والدخينات ، لأستهلاك ذلك كله على الطريق . انه يمد تلقاء الجهة الشرقية من حلبجة ، متجها نحـو السـور الهوراماني العظيم ، عنـد اقدام التلال الكائنة جنوبي (شهر ـ ي ـ زور) . وسرنا لمدة نصف ساعة على طريق مستو ، متطلّعين الى يسارنا ، عبر المنخفض العظيم ، متخيّلين عظَم مشهد

---

(٤) النقل : ما يتنقل به على الشراب وهو المعروف عند العـــامة بال (مزة) [للمترجم] .

الحوض الذي تكتنفه التلال في ذلكم السهل، وما كان عليه من حال حين حكم الارض (انو شروان العادل) ، ولا تزال البساتين والمدن تغطّي وجهه الذي لا يزال حسنا . والى الشمال ، عند الافق الازرق ، الذي سرعان ما تلاشى بفعل الشمس القاسية ، تتعالى الجبال المتركبة ، طبقة فوق طبقة . انها المسماة (ازمر) ، وهي خلف السليمانية ، يتصاعد منها يحموم خفيف مبته الخشب المحترق . انه يشبه دخان ما يقدّم للشمس ضحية ونذرا ، على ما ينطوي عليه (دين الزرادشتية) ، وقد كانت نيرانه تتقد على قمم هذه الجبال نفسها . انه واجب نذوري نسيه الانسان ، ولم تنسه الطبيعة فبقيت عليه دائبة .

وما ان انتهى الطريق المستوي الا مررنا بقرية (عنب)[5] حيث كان نفر من الاكراد جالسين تحت غابة من الصفصاف يدخنّون سكائر الصباح ، قرب خزّان كبير يصبّ فيه جدول مثرثر . هنا التحق بنا شيخ هم ، اصفر صبح مشيه ، حيّانا أولا ، ثم سأل : الى أين نحن ذاهبون ؟ كان يتكلّم بالتركية ولا يعرف الكردية ، وقال انه يروم الذهاب الى (بياره) مثلنا ، ليزور (ملاذ الشيخ) . انه من اهل رومانية ،

---

(٥) يمر الطريق المار من حلبجة ببيارة ثم بقرى جميلة ، منها (عنب) هذه ، ثم يمتد من (بيارة) و (برخة) حتى (طويلة) في خاتمة المطاف . وتقع (بيارة) على الحدود بين العراق وايران ، على مسافة ١٨ كيلومترا من حلبجة . وطويلة ، مركز شيوخ (الطريقة النقشبندية) ويؤمها الزوار القادمون من الهند وروسية (ومنهم الشيخ الهم الذي يذكره « المؤلف ») . وفي بيارة مرقد الشيخ عمر النقشبندي ، وهو الذي عمّر المسجد الجميل في قرية طويلة ، كما توجد فيها تكية للشيخ عثمان بن علاءالدين النقشبندي ايضا .

ان شيوخ شمدينان وشهرزور ، في قريتي طويلة وبيارة ، وفي هاورامان ينتمون الى الطريقة الصوفية ـ النقشبندية ، واشتهر منهم في التاريخ (مولانا خالد السليماني) المقبور في دمشق ، وهم يؤمنون بنقاوة دمهم وقدسية اضرحة اجدادهم ويعتقدون أن لهم قدرة روحية عجيبة ، فيشد اليهم الرحال ، لذلك ، أناس كثيرون .

[المترجم]

ومن رعايا روسية . لقد حجّ الى مكة ماشيا ، ومنها اتخذ السبيل الى دمشق وبغداد . وجاء الآن الى كردستان ، وانه قائم بالاحتلاف الى كل مزار في الامكنة المقدسة ، ثم انه سيرجع الى رومانية على الاقدام مشيا . وتعسّر عليه أمر اسمي : غلام حسين ، وهو اسم لا يُسمع الا بين ظهراني الفرس ، كما انه لم يسمع الكلمة الاولى فيه ، لذلك راقه الاسم فسمّاني : حسين افندي . واخذنا نرقى ، في طريقنا ، عددا من النشوز المتتالية حتى بلغنا جدولا ، وبقربه شجرة ، وهما في واد صغير . وتوقفنا هنا هنيهة ، وتقاسمنا خبزنا ، وهو وجبة طعام مقتصدة . وغدا الشيخ الهرم هنا اكثر ولاءاً ، لكنه ، مقابل قطعة صغيرة من الجبن اعطيتها له ، قدّم اليّ ، والى (حمه) ، اربع رقيات صغيرات ، هي جذاذات من ورق خيطت في قطعة قماش ، مثلثة الشكل . لقد اشتراها في السليمانية من الروحاني الذي كان رفيق سفره ، وقال انه احتفظ بها ، وانه كان يبيع الواحدة منها في الاحيان الى قروي ، أو يبادلها بطعام أو مبيت ليلة .

وقبل (حمه) الرُقى شاكرا ممتنا ، وحمه من كانت دماثته ، ابان مقابلة رجل فاضل ، عظيمة ، لكنه لم يكن متحررا من شيء من الغلظة التي تلحظ على الكردي الساذج عندما يصادف بضاعة يُتجرّ بها دينيا .

واثر استراحة استطالت مديدة ، عاودنا السير متقرّبين من السور الجبلي العظيم ، عابرين النشوز التي كانت تكبر وتكبر ونحن سائرون قدما ، كما كنا نتحدر الى بعض الوديان وكانّا نمضي الى هاوية . وكان ان لقينا على نشز رهطا صغيرا مؤلفا من اربعة جنود ، وعريف ، واحد البغالة . وعلى العرف الجاري في كردستان ، عرف الشك والارتياب ، سألونا: الى اين نحن ذاهبون ؟ لقد خانتهم لهجتهم واظهرتهم من تركمان كركوك . وانصرفنا ، اثر تحايا متبادلة ، وانحدر كل منا الى واديه ، وهو غير وادي الآخر . وكان ان سُمع ازيز الطلاقة ، وشهدنا احد الجنود يركض نحونا ، ويباري الريح في جريه . وما كان لدينا أي

سلاح دفاعي ، كما لم نكن قادرين على ان نفلت من قبضة هذا الذي يطاردنا ، ذلك اننا كنا ملزمين باتخاذ ذلك المسار حصرا ، بسبب البغل الذي كان عندنا ، على حين كان هذا المطارد قادرا على الزحف على سفح التل صُعُدا • وعلى ذلك توقفنا وجاء الينا يرقى راكضا • ومن دون ان ينبس ببنت شفة امسك بعنان كان بيدي واخذ يفتش جيوبي بيده الاخرى • ان كل ما عثر عليه : ساعة و٢٠ قرانا ، وما كان ذلك ، على التحقيق ، كثيرا ، لكنه كان يكفي لاثارة مقاومة من قبلي ، ومن قبل (حمه) أيضا •

لقد اهتاج السارق لها ، أو لعله تراءى مهتاجا ، فسحب خنجره الطويل وطعنني في ذراعي ، مسببا لي جرحا سيئا • ثم انه دفع بأخمص بندقيته ، بقوة ، بازاء انف (حمه) • وكان الروماني العجوز ، في الوقت نفسه ، يستغيث بالله • ثم شرع السارق يفتش (الخرج) ، لكن العجوز الهرم قال له : انه سكر طلبه (شيخ بياره) ، والشيخ هذا ذو نفوذ كبير بحيث لا يقوي اي جندي على الاعتداء عليه ، لذلك غادرنا واخذ يعود من حيث اتى • لم يره (بجبه) آخذا الساعة ، وما ان قلت له انه أخذها الا شرع يركض في اعقاب الجندي ، وهو الآن على مبعدة • وما ان سمع السارق بمقدمه الا توقف عن السير ، وهنا قفز (حمه) بمهارة كردي حقه ، قفزة سريعة ورماه أرضا ، ولم يكن ذلك ، على كل حال ، من دون ان يصيبه الخنجر في الكتف • ولم استطع ان اسمع ما قاله ، لكنه كان يحتج على الجندي ، وبعد لأي من الوقت استعاد الساعة والمال ، وعاد ادراجه • وعندها جلس الجندي على ركبته وصوب بدقة ثم اطلق النار • ومرت الاطلاقة من فوق رأسه تماما فطارت الزر الصغير الكائن على ذروة غطاء رأسه العالي • لكن (حمه) لم يسرع الخطى ولم يظهر عليه انه كان من جراء ذلك مرتبكا • واهتبل العجوز الهرم الفرصة التي سنحت له من جراء هذه الحادثة فهرب الى ما فوق حاجب

التل ولم يعد ، بعدها ، ليشاهد ابدا • وما ان جاء (حمه) الا عاودنا السيرعلى طريقنا قدما ، وكان الجندي يرقبنا من جهة الوادي المقابلة • وفوق النشز تماما وجدنا الدرويش العجوز جالسا خلف صخرة ، مشوش الفكر كثيرا ، لكن فرحه كان عظيما عندما لم يجدنا مُنيا بجروح مثخنة ، بأكثر من الجرح الذي أحدثه الخنجر ، على ما مر بك آنفا ، وضمدناه ، وما ان استطاع (حمه) ان يوقف الدم الذي كان يرعف به انفه الا عاودنا السير قدما •

وفي غضون ساعة بلغنا سورا سامقا من جبل رفع فوقنا ، وحيث كنا نشهد قطع الثلج ، ثم تابعنا سيرنا واخذنا نرقى واديا ضيقا صاعدا ، ولعله احد الاحواض ، الكائنة عند اقدام الجبل •

وفوقنا كان الوادي يضيق ، وكان فيه مجرى ماء يساقط وكانت الجوانب حافلة بالبساتين وشجر الفاكهة • وكان ثمة مسار يتخللها ، واخذنا نرقاه تدريجيا ، والحرارة تنخفض ونحن نمضي صعدا • واصبنا ، في مضينا ، من التوت المعلّق طعاما حسنا • انه اسود اللون وابيضه ، وكان بالنضج آخذا • وبعد اميال تفرّع شعب ضيق وكأنه ذاهب الى وجه جبل هوراماں ثم قفتينا اليه • وكانت الاشجار ها هنا اشدّ كثافة وامتدت البساتين على سفوح التلال وهي تنقسم بعضها عن بعض باطواف من صخر ، وما بينها من ازقة هي سواقي الماء غالبا ، وكانت هذه تنحدر لتلتقي بالمجرى الرئيس نزلا • وتخبطنا في الطين وفي امكنة كثيفة الحسك ، طوال ساعة أو نحو ساعة ، ثم اجزنا جسرا من جذوع النخل يعلو المجرى فبلغنا بيتا من صخر كان متداعيا ، على سفح التل قائما • كما كانت ثمة قرية صغيرة تتعلق به ، وفوق ذلك ، بما لا يزيد على مسافة نصف ساعة ، غدا المسار شقا في سفح الجبل العظيم والاراضي الفارسية • وما كنا قادرين على رؤية شيء من البيت فيما خلا الجدار الصخر الثخين يقوم فوق رؤوسنا ، فلزاما علينا ان نهتف عند باب صغير فيه • وفتح

الباب ، وما أن أعلن (حمه) ان ثمة زائرا جاء الى (شيخ الاسلام)يسمى، الا سُمح لنا بالدخول وارتقاء السلم الصخر ، وما ان فعلنا ذلك الا وجدنا انفسنا على مستشرف وسيع ، كان جداره فوق رؤوسنا ، قبل دقيقة . وكان ان جاوزناه قبلنا حوضا من المرمر الخشن في الارضية ، وكانت هذه من الحجر أيضا .

شيخ الاسلام

وما ان شهدنا ، عند حافتها ، الاحذية المخلوعة جميعا الا خلعنا احذيتنا أيضا ودخلنا منها الى الحجرة[٦] الصغيرة الكائنة عند نهاية البيت . وفي نهايتها القصوى كانت ثمة شقة أخرى مفتوحة ، وقد طُلب الي ان ادخلها ، فتناهت الى مسمع شاغلها (شيخ الاسلام) تحيتي : (سلام عليكم !) . كان يجلس القرفصاء بجانب نافذة صغيرة ويدخّن سيكارة . ورد التحية بمثلها ودعاني الى الجلوس بجانبه ، وما ان عرفني الا هتف :

« آه ! أأنت هو ؟! »

وجلست واستفسرت عن صحته ، فاجاب عن استفساري بأسلوب غليظ ، ملتزما ضمير المخاطب المفرد في كلامه ، وهو امر يجافي اللياقة في مخاطبة زائر ، ثم التزم جانب الصمت ، ولم يقطع ذلك الا ظهور (حمه) ومعه (كلال) السكر الاربع ، وقيامه بوضعها قرب الباب ، ومعها الاخرجة .

وسأل شيخ الاسلام : « ما هذه ؟ » فاجابه (حمه) ، وقد صدمته اللهجة الجافة : « هدية جئنا نحييك بها ، وان كانت غير ذات جدوى » ، وهنا انثنى الشيخ الي ، ووجهه عبوس قمطرير ، وفاه بأغلظ قول مستطاع :

« خذها الى حيث جاءت منها ، أو استهلكها انت نفسك ، أو بعها

---

(٦) ان كانت في الطابق الاول من البيت فهي حجرة ، او في الطوابق العاليات الاخرى فهي غرفة [المترجم] .

الى حلبجة ، لا حاجة لي بمثل هذه الاشياء ، ولسنا بأصدقاء بحيث تقوم بيننا مثل هذه المهاداة . »

« لم نهـد شيء لان الناس مذ اربوا عابوا الهـدية الا بين اكفاء ! »

ثم انه خاطب (حمه) مرة أخرى قائلا :

ـ « ما اسم سيدك ؟ » .

ـ « انه مرزا غلام حسين شيرازي » اجاب البائس المسكين ، وقد علت الدهشة والامتعاض كل خط من خطوط جرمه الضخم .

واسمك ؟

ـ « حمـــه . »

ـ « ومن اين ؟ »

ـ « من مكرى (ساوجبلاق) » ، وهنا انتفخ (حمه) ، على غرار ما يجب ان يفعله كل من ينتمي الى قبيلة عظيمة قوية .

ـ « واين عثرت عليه ؟ » سُئلت .

فاجبت : « في حلبجة . »

كنت ارتدي عباءة جديدة ، من وبر الاباعر ، فاسترعت هذه انتباهه بعد ذلك .

« أأعطيت هذه لك كامارة تقدير من قبل السيدة عادلة ؟ » سأل ذلك بشيء من التهكّم !

فاجاب (حمه) عني : كلاّ ! ، وقد علا سخطه : « ان سيدي لا ينشد من احد فضلا ، وانه يدفع لقاء ما يحصل عليه لنفسه بعملة فارسية صحيحة . » ، ولسان حاله :

وكلام سيء قد وقرت اذ نى منه وما لي من صمَمِ !

« أقول مرة اخرى ، خذوا هذه ، أنا لا أريد سُكّرا ، اخرجوها ، وأنت ـ مخاطبا خادمه ـ اذهب ، ما شأنك وهذه الاشياء !؟ » .

ومع ذلك رفض (حمه) ان يرفع (كلات) السكر ، الى ان التفت اليه وقلت له بأن يفعل ذلك ويجود بها على الفقراء ، وهي الطريقة المتادة التي تدل على ان المرء ليس بحاجة الى هدية مرفوضة .

وعلى ذلك كانت الغرفة خالية من الخدم ، وعندها انثنى اليّ (شيخ الاسلام) وعاود ملاحظاته غير المستحبّة :

« اذن انت « انكليزي القسطنطينية » ، كيف يستطيع اوربّي ان يجد السبيل منها الى هنا وهو على مثل هذا التنكّر ، لا يرعاه احد ، يتكلم الكردية ، ويصطنع الفارسية باعتدادها لغته ؟ عندما كنت في القسطنطينية كنت ضيفي ، وما كنت بقادر على ان اقول شيئا لك ، وان كنت اعلم امرك ، لكنني هنا استطيع ان اقول كل شيء بحرية ، ذلك ان كلاً منا غريب ، وهذا يفسر لِمَ لمْ أقبل منك هدايا . لا أروم أن اسيء اليك لكنني اعيش هنا في تكية دراويش ، حيث طعامنا لا يعدو اللبن والخبز ، كما اننا لا ننغمر في الكماليات ، وعلى هذا ، ولكوني احلّ في بيت رجل آخر ضيفا ، فلست بقادر على ان اقبل من أي فرد هدايا .

ومع ذلك ، ولكوني لا انطوي على سوء بالنسبة اليك ، وان كنت قد خدعتني مرتين ، حين جئت الى هناك متكرا ، والى هنا متكرا ، ارجو ان تكون صريحا وتخبرني من انت حقا ؟ وما عملك ؟ بعد تلكم التحريات الدقيقة في القسطنطينية .

وتقاذفتني الريب

قلت : « جليّ مما تقول انك وانت في القسطنطينية كنت ترتاب من كوني فارسيا ، وقد كنت في ذلك على حق ، وكدليل على ذلك أستطيع أن أسلمك رسائل من مسقط رأسي شيراز ، يستطيل أمد قراءتها طويلا . »

واطلع عليها ثم اعادها لي .

قال : « أأجل انها جميعا صحيحة ظاهريا ، لكن انّى لي ان أعرف انها ليست بمزيفة . وعلى كل حال ، ما الذي جاء بك الى هنا لمقابلتي ؟ »

قلت : « عندما كنت في القسطنطينية احسنت الي وأنرت لي حلكة كثير من أيامها الرتيبة ، فطبيعي ان أشد الرحال لمقابلتك عندما طرق سمعي انك ها هنا » .

أجاب ، بلهجة من يأسو على استخلاص الحقيقة ، : « كلا ! كلا ! لم يكن هذا ، قل لي ما هو ؟ تذكر انك وضعت نفسك في موضع حرج وقد يسبب لك ذلك امتحانا ، ان أحيت أنا ، باعتدادي روحانيا أشغل مركزا قضائيا ، وان كانت الحقيقة على ما يخيل لي ، فسيكون أمــــرك عسيرا جدا . مما لا طائل من ورائه ولاجدوى ان يقال لك : انــــك هذا ، وانت هذا ، فلقد كذبت كذبا شـــــنيعا في ذلك الوقت ، أو في هذا . وخيل لي في القسطنطينية انـك لست بأوربي ، وحسبتك ، أول مرة ، كرديا ، اذ لا يستطيع غير كردي أن يعرف أسماء الاماكن والقبائل على ما تعرفها ، لكنك كنت تتكلم الفارســـــية كفارسي ، وليس ككردي - على ما أفعل انا على سبيل المثال - . وارتبت ، يومذاك ، في انك كنت منطويا على دافع بعيد المـدى ، والآن استطيع أن تبيّن كيف نظهر وجودك يا ترى ؟.وبصدد (رسائلك) قد تكون أصيلة أو غير أصيلة . بقيّ شيء واحد هو انك من أهل فارس ، وانا أشــــعر بوثاقة ذلك . والآن ، ان اتخذتني وليا حميما ، قل لي ما الذي فعلته فطردت بسببه من فارس . دع الاكاذيب ، يا بني ، والتزم جانب الحقيقة وقــــل صـــدقا .

وما بقي من شيء أفعله الا التفكه بأوهامه ، لذلك أخذت أصف لــــه كيف اني انغمرت في مشكلات سياسية في طهران أيام (محمد على شاه) ، ثم هروبي الى لندن في أعقاب ذلك . ولست أعلم ان صدق هذا أم لا ، لكنه تظاهر بالاطمئنان اليه .

ثم قال ، والابتسامة تعلو محياه : « اذن ، لقد هربت لتنجو مـــن السجن أو الموت ، مصير بعض مواطنيك في ذلكم الوقت عينه . » .

قلت : « أجل ! » ، ولم اتمالك نفسي من أن أضيف الى ذلك .
« وعلى غرار ما فعلت انت بالهروب من (سنه) في زمن ليس ببعيد » .

قال : « أولئك الكلاب ، الفرس (كذا : المترجم) ، ذوو اللسان المداهن . انك واحد من النسل الملعون ، وعندك هذا اللسان أيضا . ما أشد توقي الى أن أرى هوءلاء الفرس يذبح بعضهم بعضا (فاذا هم فريقان يختصمون) .

أجبت : « لما كان هذا رأيك عنا فمن العبث أن أقول شيئا ، ولن أتطوع به أبدا ، فان سألت أسئلة ، فعليك أن تقبل بما أحري به جوابا ، أو أن تمتنع عن توجيهها . اني لارفض أن تقوم باستجوابي ، فانا لست من رعايا الاتراك ولست من من على دينك ، فانا على غرار مواطني جميعا ، شيعي مذهبا ، وعند هذا تصبح القضية منتهية . جئت أزورك ، فوجدت نفسي تتقاذفها الريب ، وتهان بلادي أيضا » .

قال : « حسن هذا جدا ! لكنك لا تدرك ان في مثل (تكية الدراويش والاتقياء) هذه ، لا معدى عن أقول اني ارتاب بك ان تكون ارمنيا أو حتى شيعيا ، ان مثلك لن يصل قعر الوادي حيا . اني واثق من هويتك ، على ما هي عليه حقا ، ولا حاجة لاحد ان يبحث فيها ، كيف تفسر وجودك ها هنا ، لا اعلم ذلك ، ولن اسأل عنه ابدا .

اسمح لي ان اقول هذا ، حسب : انك لو نشدت فضلا من (الاسرة الحلبجية) فسأعارضك فيه ، اذ لدي جميع الشكوك والريب . دعنا الآن نطرد الموضوع هذا ، اذ ما دمت في حلبجة فسأعاملك معاملة الولي الحميم ، فكلانا غريب (وكل غريب للغريب نسيب) ، وعلى كل منا ان يساعد صاحبه في مثل هذا البلد الغريب . ان اردت ان تبيت ليلتك هنا ، فافعل ، ويسرني ان اكون لك مضيفا . ان طريق العودة الى (حلبجة) لطويل ، وقد لا تصل اليها ، والشمس الى مغربها :

(وودعت الدنيا لتقضي نحبها   وشول باقي عمرها فتشعشعا)

قلت : « كلا ، سأعود ، وآمل ان ارجع بسلامة ، وباكثر مما جئت ، اذ قد سُرقت على الطريق الى هنا ، من قبل احد هؤلاء الجند التركي • »

واستدعى خادمه ، وامره بان يأتي بطعام ، واصرّ عليّ ان أُصيب منه شيئا ، مشاركا اياه فيه ، مرّة ، فلم امانع في ذلك • ذلك انه لو كان كرديا حقا ، فانه سيضطلع بواجب الضيافة الى حد ما ويؤدّي ذلك الى التفريج عما في نفسه من عداوة • وما ان جيء بطعام هين الشأن ، لا يعدّو الخبز واللبن ، الا شاركته فيه ، واخذنا نغمس في صحن واحد • واعتذر من ان الطعام مقتصد ، وقال : انه طعامهم ها هنا ، وحده لا غيره ! » وما ان فرغت منه الا سمح لي بأن اودعه • وكان ان وقفت بازائه اسمعه الكلمات الوداعية الفارسية الطوال ، فأخذ بيدي بين يديه ، ونظر في عيني ، هنيهة ، وكأنه يريد ان يستشفّ الحقيقة منهما •

وتبسّم ضاحكا وقال : « يا بُنيّ ان سُبُل العالم عسيرة ، والغريب ان جاء الى مجاهيله ، على مافعلت انت ، شجاع • هذا ما احبه فيك ، انك لا توجل ولا تخاف ، لكنك اليافع المسكين • وعند هـذا سمح لي بالانصراف •

وعند الوصيد ، استدعاني طالبا اليّ ان اعود ، بلهجة بطيئة لم يعتد عليها اهل فارس ، فتوقفت عند مجاز الباب • واتخذ سبيله الى الجهة المقابلة من الغرفة ، ثم اسرع ، عبْرها ، ودسّ في يدي مقدارا من المال ، قائلا : « خذْ هذا ، لقد سُرقت في حدودنا ونحن ، مهما كلف الامر ، قادرون على نعيد ما أُخذ منك • »

قلت : « ولكن ليس اليّ ، انك ترفض الهدية وتسعى الى العطاء ؟ لست بجائع ولا انشد من احد فضلا ، احتفظ به ، فهو مقابل كلاّتي السكر • »

وتبسم الروحاني ، واخذ يربّت على كتفي ، ثم نبّ قائلا : « انه

اختبار حسن ••• اختبار حسن » ، الفرس ، آه فارسي الفرس ، ان الزهو يمنعك من ان تأخذه • انك من الجنوب ، ولست كالطهراني الذي يأخذ من قاتل زوجته قرآنا ، لأنه مال حسب • »

والآن ناوله للفقراء نيابة عني ، وسينال كلانا الأجر ، ولا تذهب على جناح الخيال بشأن السبب الذي دفعني الى ان اجود به • »

وناديت (حمه) وكنت أرى قامته الطويلة في الفناء وقلت له ، وانا اناوله المال ، امام الروحاني ، بأن يقوم بتوزيعه على الفقراء ، وبذلك فزت في « السباق » لأنني واقف على كنه الحيلة القديمة اياها (شنشنة اعرفها من اخزم) • لقد سعى الى ان يحملني على اخذ المال ، وبالاستناد الى شغف محلي ، جاد عليّ بثقة مكنتني من قوة الحفاظ على النقد • لقد رأى انني تبينت « الصيدة » فتبسم بهدوء ونظر اليّ ، نظرة غريبة ، اما انا فلقد غادرته من دون ان انتظر تعليقا آخر •

وركبت البغل في الخارج ، كرّة اخرى ، وان فراغ (الاخرجة) تُعيد الى الذهن السكر المرفوض ، فسألت (حمه) ما الذي فعله به ؟

قال : « ولِمَ ؟ عندما رفضـه ذلك الكلب ، حملته الى المقهى ها هنا ، وتظاهرت بانني اشتريته من حلبجة للبيع • لقد ابتاعوه بـ ١٧ قرانا ، وهذا هو المبلغ • » وعندها اراني القرانات في يديه ، وافصح عن رضاه لما اسفرت عنه القضية من ربح مبروك • لكنه كان يغلي كالمرجل من الطريقة التي استقبلني بها (شيخ الاسلام) ولامني على تبديد وقتي مع مثل هذا الشخص مقترحا عليّ الا اقاسي من جرّاء الاهانات في سبيل استيفاء الدين غير المدفوع ، اذ الاجدر بان اصرف النظر عنه ـ انها نصيحة قلت له اني سأنتصح بها مسرورا ، اذ (لم يضق شيء على حُسن الخلق) •

عودة عثمان باشا

وعندما بلغت حلبجة مساء ، وجدت ان عثمان باشا قد وصل من

السليمانية ، ومعه بطانته كُمَّلا ، كما ان الشيخ عليا ، وهو من (طويلة) ، قد جاء من (كُلَنْبَر)[7] حيث يقيم ، في موكب طويل من الاتباع ، لقد غدا المكان الآن مزدحما جدا فسرّني انني نقلت محل اقامتي ، قبل يومين ، الى حجرة الى الاسفل من « غرفة الاستقبال » العائدة للسيدة عادلة . وفي الشرفة الخلفية منها عشت حياة منعزلة كلها امن وسلام لا تعكّرها عليَّ الا جماعة السيدة عادلة عندما يسعى آحادها اليَّ لأقوم بواجبات كتابية ، وقد غدوت الآن اضطلع بها لها بانتظام .

وفي هذا الوقت ذاته كنت آمل ان اغادر (حلبجة) على استعجال ، اذ لم يبقَ من شيء أقوم به ، فيما خلا ما يقوم به كاتب الفارسية للسيدة عادلة و (الباشا) ، وهو عمل لم اكن فيه راغبا ، بخاصة ، ذلك انه يجعل رحيلي اعسر فاعسر ، والايام ينادي بعضها بعضا . لقد اجريت تحريات بشأن امكانات تتصل بال «رون : الدهن» ، ونجحت في ذلك الى حدما ، ذلك اني الآن مالك لتلكم الكمية العظيمة من بضاعة الاقليم . ومهما يكن الامر ، انها لم تسلّم حتى الآن ، لذلك عيّنت منصورا النصراني (معتمدا) ، وشرعت ابحث عن شغل جديد في مكان آخر .

وعندما افصحت الى السيدة عادلة عن نيتي في الرحيل ، احتجّت على ذلك جهرا ، وعلى غرار ما فعل طاهر بك أيضا ، واقسمت يمينا على ابقائي هنا . كانت تريد مني ان ادرّس الفارسية لولديها اليافعين - وهما صبيان صاخبان يبلغان من العمر الـ ١٢ والـ ١٦ - ولا يبقيان في البيت ابدا . انك لتجدهما على صهوتي جوادين تـ (اعز مكان في الدنا سرج سابح) أو على الجبال . ثم ان طاهر بك كانت لديه عراقيل يضعها في الطريق أيضا . وكاغراء اخير حاولت السيدة عادلة ان تبقيني بقصد الدخول في اتفاق تجاري مع (عثمان باشا) ، وهو اغراء منّي بالخيبة

---

(٧) هي (خرمال) ويخترق القسم القديم منها (نهر زلم) وكانت فيها للاردلانيين ، الذين تنتمي اليهم السيدة عادلة ، قلعة كبيرة .
[المترجم]

وان كانت النية التي ينطوي عليها طيبة ، ذلك اني لم اكُ أميل الى خلق تبعة اضطلع بها بازاء أشخاص آخرين فتبقيني حيث كنت ، على حين كنت اروم الرحيل عن البلاد • وعلى ذلك استأجرت بغلا ، في قافلــة ستتخذ السبيل الى السليمانية وشيكا ، وشرعت اودّع معارفي • لقد كنت أكثر توقا الى الرحيل ، فقبل امد قليل راودتني فكرة الذهاب الى خانقين وشراء السكر ، جملة • لقد جوبهت بالحجج التي تدلى اليوم لابعادي عن السليمانية ، نفسها • لكن القافلة تأخّر رحيلها ، وتأخر ، والوعد بالرحيل صباح كل يوم كان يغدو ، عنـد الظهر متبدّلا • وعلى حين غرّة مثل (شيخ الاسلام) ، وجاء الى مقابلتي يسعى • وكان يشقّ علي ان اقابله مرحبا ، كما كان (حمه) يحقّره جهرا ، لكن هذا كان امرا غير مرغوب فيه جليا ، لذلك استقبل باكثر تحفظ استطعنا الى اصطناعه سبيلا •

كنت آمل ان اراه ناقما منتقما ، لانه لا معدى عن يكون قد سمع كيف ان أموري سارت في حلبجة رخاءا ، وان حسده ـ ان كان عداؤه منبعثا من شعور كهذا ـ سيتلظّى في معارضة مكشوفة ، محتملة الوقوع • لكنني وجدته متطلّق الروح يتبسم كثيرا •

كان انيسا ودودا ويجنح الى التذلّل قليلا • ولم اعرف لِمَ اتخذ هذه الوجهة ابدا ؟! فيما خلا انه صمّم على قبولي ، على ما انا عليه من شأن وقيمة ، ولما وجدني طائر الصيت محبـوبا ، خضع الى الرأي العام ف (حشر مع الناس عيد) • وعلى كل حال لا جدوى من وراء التطرّق الى مثل هذه التفصيلات والنظريات ابدا • قلت له اني راحل ، وكنت راحلا حقا ، وسرعان ما اثار اعتراضات كثيرة على هذا : انني سأجد الشغل التجاري في السليمانية سيئا ، وان الحكومة ستضايقني فيها ، واني سأخسر في معاملات تجرى مع اهلها ، وقد عُرفوا بالختل والخداع دوما ، واني لن استطيع العيش بين ظهرانيّ اناس خشني الطبع

ابدا ، وهلم جرا ، لكنني لم احر عن كل ذلك جوابا . لقد اجاب (حمه) بجواب واحد ، على وجه عنيف ، عنف شدة احد الصناديق بحبل ، ساعتئذ .

وأخيرا ، رحل الروحاني ، فارتاح واسترحت . وما ان غادر الآ دخل (البقال) واقسم انه سيرحل عند باكورة الصبح ، وان قد ترك نصف بضاعته وراءه . ان الامر لا يعدو استرجاع احمال عديدة من ال (رون) ، قيمتها نحو ٥٠ باونا ، وقد احتوتها (قربان - جربان) . ولما كان الجو حارا فلقد استحال الى شبه سائل ، وكان لزاما علينا ان نخيط جلود الدهن ، بالصموغ ، للنقل . وكان ان سلك كل (جود) في كيس خشن وخيط فمه . ثم خيطت حافتا كل كيسين بحبل متين وتكون منهما ما يشبه (الخرج) الذي يمكن حمله على ظهر بغل . واستغرق انجاز هذا الواجب وقتا متأخرا . وعلى حين غرة ظهر (شيخ الاسلام) ، وهو يركض شبه مجنون .

قال والالفاظ من فمه تنهمر : « كنت احسب ان مشورتي قد التزم بها ، خيل لي انك باق ، ولقد سمعت الآن انك راحل غدا . من الافضل جدا ان تبقى ها هنا ، لم تترك موطن الراحة والسلامة ، وتندفع تلقاء السليمانية ؟! ألا تبقى ؟ الا تعلو عندك مشورة المنطق على اندفاعك الاهوج ؟

قلت : « كلا ، لاني راحل ! لقد اجرت الحيوانات ، ولو آثرت البقاء هنا ، الآن ، لكان ذلك أمرا مستحيلا » . كنت انحني على (خرج) من « رون » ، وانا اتحدث ، وكان هو يقف وراءي . ووقف ، على هذا الوجه ، لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق ، ثم تمتم : (ليتك سعيدة !) ، وانصرف بالسرعة التي جاء بها . وقال لي (البقال) ، اخيرا ، انه حاول اغراءه على نبذ فكرة الرحيل بكل ما في وسعه من حول وقوة ، او ان يرفض تمكيني مما لديه من حيوانات كنت

استأجرتها منه . ولم اكتشف السبب الذي كان يحدوه على ابقائي ابداً ،
كما لم يستطع (حمه) ان يقف عليه ايضا ، و (حمه) من كانت
فطنته هي الدليل الهادي الى الوقوف على سبب كل شيء ، كما انه لم
يستطع ان يقدّم للامر حلاً .

وعلى ذلك ، ما ان تمزّق ستر الليل ولاح الفجر الوليد من اليوم
التالي الاّ استيقظنا وجمعنا بضاعتنا ، في ضوء الشموع ، ونقلناها الى حافة
الشرفة الوسيعة ، حيث حملناها على ظهور بغالنا . وجاء (منصور) ،
وهو الذي قبل بان يرعى مصالحي ، حتى الباب الرئيس ، وطمأنني انه
سيسعى جاهدا في سبيل شؤوني ، وما ان ضحك الصبح الاّ تحرّكنا .
واجتزنا الباب الرئيس ، فاسترعى (حمه) انتباهي الى (شيخ الاسلام)
الذي كان واقفا فوق السطح ، حيث نام مع اتباع طاهر بك ، وهو يرسل
النظر الينا محدّقا . وهكذا غادرنا حلبجة أخيرا .

وكدليل على الاحترام ، او من فرط الادب الرفيع ، قامت (السيدة
عادلة) باعداد حرس لي مؤلّف من اربعة خيالة ، كان رجلان منهم من
اشداء قبيلتها ، وجعلتهم بامرة رجل نحيف يدعى (رسول احمد) عرف
في حلبجة بانه « اقدم من اسد » وانه (طاهر الاثواب يحمي عرضَه)
عفٌ ذو كرامة . وكان (الثلاثة) الذين في امرته ضخام الجثة اقوياء
البنية ، يمثلون خيالة الاكــراد الجنوبيين . وكانوا يرتدون صدريات
طويلة ، وما ان كانوا يجلسون على خيولهم الا يعمدون الى ستر كواحلهم
العارية من الشمس بها . وكان رسول احمد ، وحده ، يلبس حذاء
الركوب القرمزي الشائع في هذه الارجاء . ولحظت ان احدهم تظهر
عليه أمارات الفاقة الشديدة وكان جــواده من جنس (روزينيت :
Rosinante) الصحيح ، وكان ، هو صنوٌ له وند . وكان ثمة خرق
كبير في صدريته نجم من احمص بندقيته وهو يحملها على منكبه ، كما
ان جلد خرجه قد تضرّر كثيرا من جرّاء بندقيته أيضــا وحملها على

ركبتيه امدا طويلا • انهما الموضعان اللذان يحمل الكردي سلاحه عليهما عادة ، الأول منهما عندما يعرف انه لن يستعمله في غضون وقت قصير ، ضرورة ، والثاني للاستعداد لحمله مستقيما تقريبا ، اما الذخيرة فتكون على الخرج مستقرّة • وكانت قدماه العاريتان في ركابين قديمين متصديّن • كما كانت بندقيته قديمة من طراز (سنايدر : Snider) ، وليست من نوع (مارتيني) الجيد ، وهي التي يحملها آخرون عادة • تراءى ان وجهه الحزين يعكس التبذّر والمظهر التاعس الذي لكسائه •• وحنكه ثقيل مربع وعيناه صغيرتان زرقاوان وهما اللتان يتّسم بهما اكراد الشوان والهماوند ، ولا يكلّم زملاءه الا قليلا ، (فالقول في غير حكمة لغـو والصمت في غير فكرة سهو) • وذات مرة مزح احدهم معه ، (والمزاح مما يباح) فهجم الخيّال الحزين عليه ببندقيته وصوّبها نحوه ، وما ان اطلقها الا عمد (رسول أحمد) الى ضربها ولم يحدث من جرّاء ذلك ضرر ما ، وهكذا اعتدّت الحادثة مُزْحة ، على وفق طبيعتهم الخشنة •

وما ان شهدته يمتطي صهوة جواده الا سألته اسئلة تختص بذاته ، فاعلمني انه من الهماوند وليس من الجاف ، وان خدم معهم ، وفسّر السبب • وتراءى انه اثّر غزوات عديدة شُنّت على القوافل السائرة مع قبيلته ، حاول ايقاف بعض المسافرين من دون معونة احد • ولم يصب في هذه نجحا ، وان اطلاقة نفذت من منكب حصانه رمته ارضا فالقي القبض عليه • وغدت الحال اشد سوءاً حين اكتُشف ان ضحاياه من الهماوند انفسهم ، وانهم قرابة رئيسه • وتناوشته مزحاتهم لان القضية اعتدّت اهزولة ، ويحدوه الاشفاق من الثأر النهائي ، اطلق لساقيه الريح وسار الى (ديرة الجاف) ، واستُخدم فيها كساع راجل وحارس •

وجزم بان اساه مردود الى عزلته عن مقامه في التلال ، وعن زوجه واسرته ، وانه يصدم السلب والنهب ، نيابة عن قبيلته • وكان يقارن ، وهو حزين القلب ، بين نفسه ، وشمس شهرزور تصليه باوراهـا

ووديقتها ، وزوجه الجالسة على سقف بيتهـا في قرية تل ، مرتدية الحرير وقماش الـ (ساتان) ، وتحتها افخر الطنافس الايرانية ، يحيط بها جدار من لفائف الاقمشة والبضاعة تصطفي منها ملابسها ، وهي تلقي السمع الى (وسوسة) « سماور » الشاي وتدير وجهها الى النسمة الباردة الندية . هذا ما كان مشوقاً اليه : (وكل شوق سوى لقيـاه مملول !) .

وبمثل هذا الحديث قضينا الوقت ، وبلغنا السليمانية في مرحلـة واحدة ، وكنا نتوقف في الليل ، سويعات ، بغية اراحة حيواناتنا ، كما كنا ننام على الارض الصلدة غرارا .

وحدثت اثارة صغيرة ، خلال العصر ، على يد جماعة مناوشة جاءت من قرية خيام ، اثر اكتشافها وجودنا ، فاخطأت اذ حسبتنا من السُراق . وشهدنا منظر الاكراد القرويين ينادون حصانا . لقد رأينا القرية هادئة ساكنة في وديقة الظهيرة ، والحادث التالي الذي حدث : ان الرجال الذين كانوا نائمين ، قبل هنيهة ، اندفعوا على الخيول وهي تركض خبباً ، مثنى وثلاثا ، والخيول هذه ملجمة مسرّجة دوما ، ثم انهـم اتخذوا مواضعهم حولنا ليمنعونا من هجمة . واستطاع (رسول احمد) ان يقنعهم ، من مسافة ، اننا رجال (الباشا) ، لذلك سعوا الينا ودعونا لاحتساء الشاي .

وكانت السيدة عادلة قد عهدت بي الى (رسول أحمد) ، وكان لزاما عليّ ان التزم بمشورته بصدد مكان استراحة في السليمانية ، خلال الليلة ، وان اقبل اقتراحه القاضي بان اقيم في بيت امرأة تدعى (فيروز) ، وهي قريبته ، وكان بيتها صغيرا . كان هذا البيت على حافة المدينة ، على وجه مربع قائما ، وكان هو يتخذه دار استراحة عندما يكون في السليمانية ثاويا .

ولما كان هذا هو البيت النمطي لبيوت السليمانية المتواضعة ، لذا يجدر

يا وصفه ، هنا ، وصفا موجزا :

بُنيت ، حول ثلاثة جوانب من فناء مربّع غير منتظم ، حجرات من طين ، ثلاث منها لا جدار لها ، وهي تكوّن مكانا باردا ظليلا يجلس فيه الانسان صيفا . اما حجر الشتاء ، فليس فيها الا باب واحد مزجج لا يزيد علوه على خمس أقدام . واحد هذه الابواب ، وهو افضلها ، مُبيّض بالجص ، والباقية مكسوّة بمزيج من الطين والتبن ، وهذا هو المادة الرئيسة للبناء في الشرق الاوسط . اما الارضيّات فمن طين غير ممزوج ، وهي ناعمة ، النعومة التي تستطيع القدم العريانة اكسابها . وفي وسط الفناء ثمة مجرى ماء بارد سائغ شرابه صاف صفاء البلّور ، يثرثر منبجسا من فجوة ، مالئا حوضا من آجر وطلاء ، يكاد يكون على مستوى صعيد الارض، وتظلله شجرة صفصاف كبيرة عارشة، ويصلح المكان لاحتساء الشاي صباحا وعصرا . ان مالكة هذه البنية ، والتي يساوي ثمنها ٥٠ باونا ، تعدّ من الموسرات على وفق ما يذهب اليه الاكراد . وكانت تؤجّر الحجر الى اسرتين بمبلغ نصف كرون شهريا ، ولما كان لها قرابة وصُدْقان يجودون عليها بالطحين والزيت ، فانها كانت تعيش عيشة يسر وراحة .

ان الحياة هنا ، حيث يختبز الخبز في البيت ، والخبز قوام الطعام ، رخيصة الكلفة .

ولبثت في هذا المكان من الزمن لأيا ، اقطع الوقت بحديث مع مالكة البيت وهي كردية ، حسنة المظهر ، لا يزيد عمرها على ٣٠ عاما . انها تمضي سافرة على غرار ما يقرّه عرف كردستان السديد ، وتصرّف معاملاتها مع الرجال ، وكأنها انسان صائب الفكر حقا .

ان هنا لفذّ بين ارساس الشرق الاوسط ، حيث النسوة فيها يتمتعن بالحرية التي تتمتّع بها نسوة اوربّة ، لا يحدّ منها الا ان من الواجب عليهن الا يختلفن الى السوق، فان فعلن ذلك، فعليهن ان يغطين رؤوسهن .

وان يعيش رجلان غريبان في بيت ، من بيوت فارس أو غيرها من بلاد الاسلام ، ملآن بالنسوة ، لشيء لم يسمع به من قبل ، ويسلك في مسلك الوقاحة . اما هنا فلا ينظر اليه الا على ما يحدث في انكلترة .

وبعد تناول غداء من خبز جديد ، خارج من التنور لتوه ، طول الرغيف منه قدمان ، مع شيء من ال (كباب) ، جاء به (حمه) من السوق يسعى ، اتخذت سبيلي للعثور على (متي النصراني) ، وهو الذي اظهر لي الولاء فيما مضى . وعثرت عليه في مكتبه ، ومعه اسماعيل اخوه الاصغر ، ومساعده . وقبل ان تمضي علي في (المكتب) المذكور دقائق معدودات ، مثل فيه (حبيب بدرية) واتخذ مجلسه على الاريكة ، الكائنة ، خارج المكتب ، كي يستطيع التحدث من هناك مع النزلاء . وكان ان قدمت الى رجل اعلى منه سنا ، يدعى أنطوان ، وآخر اصغر منه سنا يدعى بهنام ، وهذا يتكلم الفرنسية على الوجه الرائع . ان هؤلاء هم جميع النصارى الموصليين في الخان ، ولما كنت سؤولا ، على غرار اي انسان آخر ، فلقد اهتبلت أول فرصة للتعرف على غريب . كانوا جميعا هادئين ، حسني الخلق ، وما ان وجدوا ان لي شغلا شاغلا الا اتخذوا السبل الى مكاتبهم ، فيما خلا حبيب بدرية الذي بقي لأنه كان لـ (متي) الصديق الخاص .

ونصحني الرجلان ، باعتدادي لبضاعة مالكا ، بان اتخذ بيتا صغيرا ، قريبا من السوق ، من الزمن حينا ، اعيش فيه مع بضاعتي معا . وكان ان اغلق الرجلان مكتبيهما بغية الذهاب معي ، والتفتيش عن بيت مناسب لي . والظاهر انهما كانا حسني الاطلاع ، ذلك انا ، ما ان خرجنا من (الخان) وجسنا خلل سوق ، الا سلكنا زقاقا لا ينفذ ، فبلغنا عند منتهاه بيتا أرادا اطلاعي عليه ، فوافقت على ان اتخذه لي سكنا . لقد خلت الدار بوفاة مالكها :

فالعيش نوم ، والمنية يقظة   والمرء بينهما خيال سار !

انه تاجر قتله الاعراب على الطريق المؤدي الى بغداد • وعندما غادر الدار تركها بعهدة امه العجوز ، وهي كردية الدم نقيته ، كانت تزهو من انها تنحدر من نسب لم يلوث ، وتؤكد ، دائبة ، انها ليست يهودية اتخذت دينا آخر ، على غرار بقية اهل السليمانية •

ان بيتها مبني على نمط العمارة الكردية ، وعلى غرار ابنائها في فارس ، وهو نمط شاع فيها ، ويشيع أكثر فأكثر •

وينفتح الباب من الشارع على ركن فناء مفروش بحجارة ، ويتقي المرء الطبيعة بسقف من طين ، مساحته ياردتان مربعتان ، يرتكن الى عَمَد • وخلف الباب زوج من أدوات تشبه المجارف الفخار الكبيرة ، وقد رُميا على الارض • انه المطبخ ، وان الرقعة ، الممتدة من هنـــا الى النهاية ، المقابلة في الساحـة ، تحمل بمستنبتات الزهور ، فيها الخُبَّيزَى والاوراد ، وثمة حوض يعلو على صعيد الارض بقدم •

وكان البيت المقابل مبنيا من طابقين وفيه ثلاث حجر سفلية ، تنفتح كل منها من الساحة بباب خفيض جدا ، يشق اجتيازه حتى على صبي عمره ١٢ سنة ، ان ولجه منتصبا • وافضل الحجرات هـذه ، الحجرة الوسطى ، وهي تزهو بزوجين من الأبواب وسقفها من قطع خشب قصيرة ، هي بقية صناديق سكر • وكسي الداخل بطين احمر على اصفر ، اما الارضية فتشبه الزقاق الخارجي ، غير المفروش •

ومهما تكن الحال ، لقد اظهر المعمار مهارته ، بقدر تعلق الامر بالطابق الاعلى من البيت • وان افضل غرفة فيه تطلّ من خط الجبهة بنحو ٦ اقدام ، وهي مبيّضة كلها بالجَص ، ومزينة بتصاوير جصيّة على الجدران ، وافاريز على انماط عالية ، من المادة نفسها •

والعمد الكائنة بين تجاويف الجدار تحمل مرايا مطعّمة ، والسقف مصبوغ وتظهر عليه صور زهور ونجوم وقطع من المرايا ، منتشرة ، هنا وهناك ، على انماط شتّى •

وتطلّ على الفناء ثلاثة أبواب مزدوجة فيها زجاج ، والزجاج في نقش شبكي ضخم ، اما الباب الرابع فمصنوع من خشب الجوز والبلوط . انه ينفتح على الحجرة الوسطى ، أو الطارمة ، ومنهما ينزل على درجات ، غير متساوية بوجه ملحوظ ، الى الساحة . ان عمّد سقف هذا البناء - وهي بديل الجدار الرابع - من جذوع الشجر تكسوها الواح ضيّقة من خشب الجوز فتجعل شكلها مستطيلا ، لقد ثُبّتت فيها مرايا ضيقة طويلة تعلو ، بقدم ، على مستوى العين في الانسان . اما السقف فمكسو بقطع الخشب . وكان الواجب ان تكون الحجرة الثالثة أفضل حجرة لو لم يمت صاحب البيت قبل اتمام بناء بيته ،وعلى ذلك بقيت بطينها الاصفر وسقفها ذي العارضات . اما الابواب ، وهي موضوعة اخيرا ، فكانت من زجاج أبيض محض .

.. واستاجرت بيتا

وسمحت لنا السيدة العجوز (باجي ريحان) بالاطلاع على المكان الصغير ، وعرضت تأجير حجرتين في الطابق الاسفل ، والغرفة ، غير الكاملة في الطابق الاعلى ، وذلك كله بما يساوي ٧ شلنات شهريا - وهو ليس بمبلغ مبالغ فيه ، فالبيت كان قريبا من الاسواق العتيقة ، وخانات التجارة ، جميعا . وكانت العجوز تشغل الحجرة الكائنة تحت الغرفة الكاملة في الطابق العلوي ، وتريد ان تدأب على هذا . ولما وجدنا ذلك معقولاً ، لذا قررنا ان نتّخذ المكان سكنا ، ثم اتخذنا ، بعد ذلك ، سبيلنا الى مقهى . انها ، على غرار جميع « بيوت القهوة » في كردستان ، بنية ذات طوق عالية ، وقبب مسندة بأعمدة ضخمة ، والدخول اليها مضمون من أي مكان . وانتظمت ارائك عاليات حولها ، وفي فجوة منها كان جهاز المكان ، اعني سماورين[8] ضخمين ، معدّا ، واستكانات الشاي، ومواعينه، موضوعة على رف عريض

---

(٨) السماور : روسية النجار ، وقد دخلت العامية العراقية عبر ايران . ونسترجح ان معنى اسمه (المؤجج ذاتيا) (المترجم) .

مبني من طين وآجر • وكانت الارضية مفروشة بالطابوق، وثمة (سقّاء)
كان يختلف الى المكان ، كل ساعتين ، حاملا جوده على كتفه (يرش)
ارضه • فيبقى باردا •

وفيه وجدنا عددا كبيرا من التجار ، اكرادا ونصارى ، وقدّمت ،
على العرف المتّبع في كردستان ، باعلان اسمي الى من سأل عنه ، وذلك
بعد ان حيوني بـ (مرحبا !) ، تحية هذه الارجاء •

ودار الحديث ، في الغالب ، حول معاقبة الهماوند (ولاجلها كان الاتراك
يجمعون جيشا في (جمجمال) ، حول السياسة البلدية (المحلية) ، وبشائر
الحصاد • وهنا ، في المقهى ، يتبادل القوم الاخبار ، واسعار البضاعة تبحث
وتقرر ، وتجرى المساومة عليها ، ويتمّ البيع والشراء •

واعلن (متي) ان لديّ دهنا : « رونا » طريا ، من (جوان رو) ،
فتقدّم رجل صغير الجرم واعلمني (متي) انه بقال محترم ، ثم ضرب
موعدا يقدم فيه لمشاهدة « البضاعة » ، والموعد صباح اليوم التالي • وجلسنا
لحين من الوقت ، فوقفت على عسر لهجة السليمانية الدقيقة ، وهي من
اخص اللهجات الكردية •

تفرّقنا بعد هذا واتّخذنا السبيل الى بيوتنا ، ووجدت (حمه)
في بيت الارملة يعدّ الشاي ، ولما لم اكن قد طلبته فقد قدّم الى النسوة •
ولما كان المساء قريبا ، لذا فرشت طنفستي في الساحة ، وما ان طُعمت ، لان
الغروب هو وقت تناول العشاء في السليمانية ، الا جلست على أقمشة
فراشي ادخّن واناقل النسوة الحديث •

لقد تركت هاته النسوة فراش المنام على الارضية او على السقف
الذي كن يرقينه بسلم حادر وعر • وكان حديثهن يتناول الشيوخ • ولما كن
ينتمين ، على التقريب الى اسرة (الشيخ) جميعا ، فلقد كن آسفات على
مقتل (الشيخ سعيد) الذي حدث مؤخرا ، لذلك اكرهت على الاندفاع
في خضم من التعابير الخيرية الآسية • وتناولن حديث الزواج ، لكنني

كنت اشفق من المخاطرة الناجمة عن قيام شيعي بخِطْبة سُنية ، ومن غير ان يحدث ما لا يحمد عقباه بينه وبين اقربائها . لم تعقب النسوة على ذلك الا باقتراح هو : ان اتحول الى (السنّية) ، وهو شيء رفضته باعتدادي شيعيا صالحا . ثم اني نهضت واقمت صـــلاتي ، كنت بذلك ارمي الى انهاء المناقشة معهن ، وجعلهن على ثقة من اخلاصي .

ومهما تكن الحال، قطعت الراحة بهبوب الرياح الشمالية ـ الشرقية، التي ترمض[9] وكأنها نار السموم ، على حين غرّة . انها تسمّى ، ها هنا ، (رشابا) ، وهي تهب من التلال بقوة اعصار .

ولما كانت ، هذه ، جاءت فجأة ، مارة عبر حقول حُصدت اخيرا ، فلقد غمرتنا بالهشيم والتراب ، ثم جاء ، في اعقابها صائب[10] (والسحب تبكي وثغر البرق يبتسم) حملنا على الاسراع الى المأوى ، ولم ننم . واخيرا (الحمد لله الذي كشف الكرب !) ، اذ اقلعت السماء وعادت صافية ، وكان ذلك عند منتصف الليل .

---

(٩) ترمض : تحرق .
(١٠) صائب المطر هو الذى يروى الارض بكثرة ما يصيب منها .

فهرست

ملحقا (الكتاب)

١ ـ (المؤلف) ٠٠ في سطور

٢ ـ صور ٠٠٠



المؤلف ... في ... سطور

● وصفه المؤرخ الكردي ، الوزير في (العهد الملكي الزائل) محمد امين زكي (رح) « بانه يعرف اللغة الكردية كاحد ابنائها ، بل اعلم من كثير من علماء الكرد انفسهم »(*) وهو القائل بأن الكردي مقدام شجاع دائمـــا .

● طبيعة الحياة التي عاشها ، والوظائف التي اشغلها ، وسعت من افق تفكيره ، فانفسح مجال نظره ، وبذلك غدا على استعداد تام لخدمة مصالح بلاده ،على الوجه الذي يرتجيه هو، وترتجيه هي .حل فيفارس سنة ١٩٠٢ ، ورتب على (المصرف الشاهنشاهي) محاسبا ، عاش عيشة شظف والشف في (قرية سانكي) ، من قرى (بوشهر)، يراقب ويدرس، من غير ان يثير فضول احد . وفي (شيراز) اتخذ الاسلام، على المذهب الجعفري، دينا، وقيل انه تزوج من كريمة احد مجتهديها . ورتب على فرع (المصرف) ، المقدم ذكره ، في كرمنشاه ، (مديرا)، وشرع يدرس (اللغة الكردية) وشؤون (الشعب الكردي) عمــوما . التحق بخدمة (شــركة النفط الانكليزية – الفارسية) ، وفي سنــة ١٩١٤ اضطــلع بعمليــات (الاستحالة)(**) في (جياسرخ) ، قرب خانقين .

★ تاريخ الكرد وكردستان ج١ (ترجمة محمدعلي عوني) ص٣٠٦ وص ٢٤٨ .

★★ هي حفر الارض ارادة ما في بطنها من معادن وآثار ، وما الى ذلك ، او : التنقيب جلة العصر .

● اسره الاتراك ، عند اندلاع لهب (الحرب العالميـة الاولى) ، ونفي الى (مرسين) ، ومنها اتخذ سبيله ، بعد اطلاق سراحه ، الى مصر ، ثم جيء به الى البصـرة ، في اوائل سنـة ١٩١٦ ، فعمـل في (دائرة الاستخبارات) التابعة لقوات الاحتلال البريطاني فيها ومحررا في صحيفتها •

● اوسل في تموز سنة ١٩١٦ الى (دزفول) باعتداده (مساعـد حاكم سياسي) ، وصحبه رعيلان من (وحدة الخيالة الهندية) ، فسيطر على الوضع فيها ، واستطاع ان يمشط المنطقة من جماعات من (البختيارية) عديدة كانت بسبيل عودتها الى وطنها بعد ان جاهدت مع الاتراك المسلمين وحلفائهم الالمان •

● كان رجل عزيمة لارجل رأي ، حسب • ولقد وصفه الى (سير ارنلد ويلسون)رئيسه ، باعتداده حاكما سياسيا عاما ابان الاحتلال البريطاني للعراق « بالخبير الفذ في شؤون الاكراد وبلادهم » • وهـو الذي الف في سنة ١٩٠٩ (مرشدا) عن (كردستان الجنوبية) وثبت انه دقيق جـدا وصحيح الى ابعد مدى • بعد ان درس اللغة الكردية في كرمنشاه ، استقال سنة ١٩٠٧ من وظيفته وقام برحلته التي تضمها دفتا (كتابنا المترجم) هـذا •• وسر ارنلد ويلسون ، سالف الذكر ، هو الذي قدم لـ (الطبعة الثانية) من هذا الكتاب فقال عن (مؤلفه) : « لقد اكتسب هيبة ونفوذا »، وناموسا شخصيا ، ولنا ان نقـول ، باطمئنان ، انهـا لن تذهب عن مواجيد النفوس وخواطرها ، قبل مضي جيـل او اكثر • لكن (كتابـه) لا يرسم ، في الحق ، الا صورة باهتة لشخصية (مؤلفه) ، وهي شخصية ضارية طاغيـة متمردة ، لذلك اختلفت فيهـا الآراء (وفرق الناس فيـه قولهم فرقا) ، وعلى ما بانّ لي من اثناء (ترجمة كتابه) شخصيا •

● عندما احتلت القوات البريطانية (خانقين) في سنة ١٩١٧ كان (المؤلف) حاكما سياسيا على (مندلي) وقد اوفد الى (الاولى) ليقـوم بتاسيس حكومة مدنية فيها • كان واجبا عسيرا لان (خانقين) ، بفعـل الاحتلال الروسي القيصري ، والحرب ، كانت توشـك على الموت جوعا •

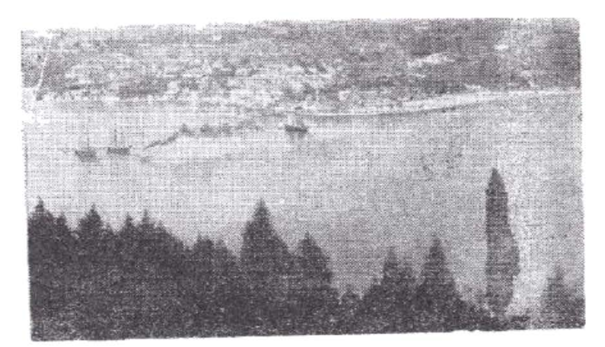
● نقل الى (السليمانية) ليشغـل منصب (الحاكم السياسي) عليها ، وكان له شان في قمع ثورة الزعيم الكردي – العـراقي الشيـخ محمود الحفيد (البرزنجي) – رحمه الله •

● قوام مزاجه الشخصي ، على ما يصفه معاصروه وتعكسه (رحلته) ، نقيضان لا يجتمعان وضـدان لا يلتقيان في نسـق • يشرق في ذهنـه ادراك فتلتمع فيه خواطر خصبة مخصبة تارة ، وتسرى على قلمه امور نابية تند عـن التحقيق والنصفة ، تارة اخرى • هو شديد الحب وشديد الكره في آن واحد • طرز حياته لايتسم بالطابع الانكليزي الخـاص ، لكن (القادة) الذين عمل في امرتهم احبوه وقدروه فلقد كان يعرف عن البلاد واهلها قدرا كبيرا •

(٢)

صـــور ...

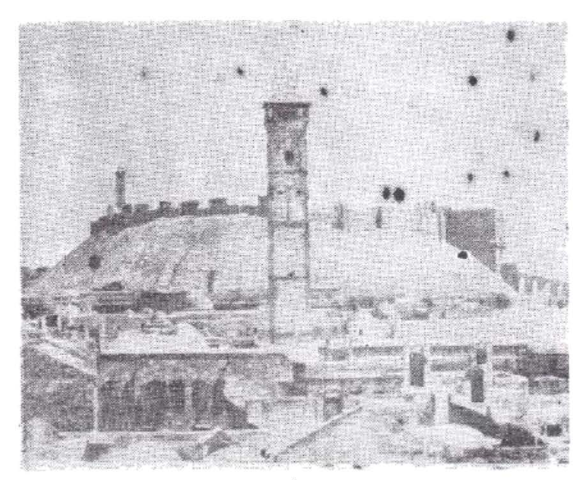
الحوظة : ثبتنا ما في (اصل الكتاب) من صور واضفنا اليها (صورا) اخرى توضح تعليقاتنا عليه ، ارادة الفائدة التامة .



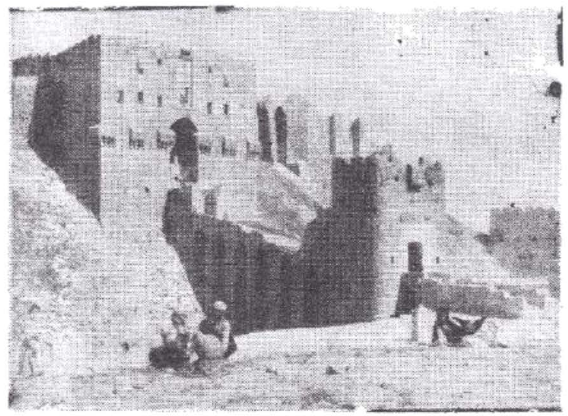
البوسفور - اصطنبول



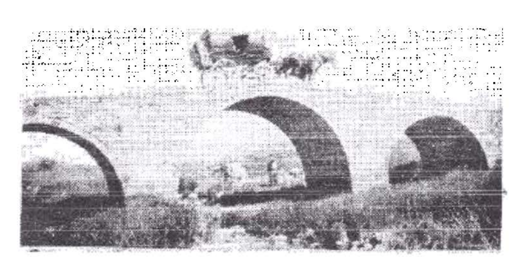
النهر المنساب في الجانب الاوربي من اصطنبول
ومصبه عند (القرن الذهبي)



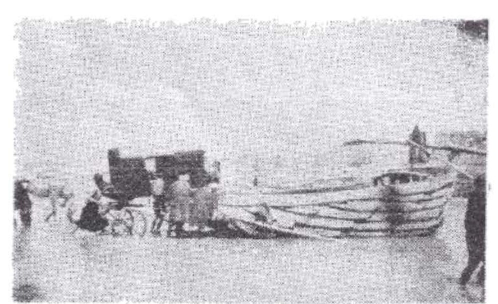
حلب



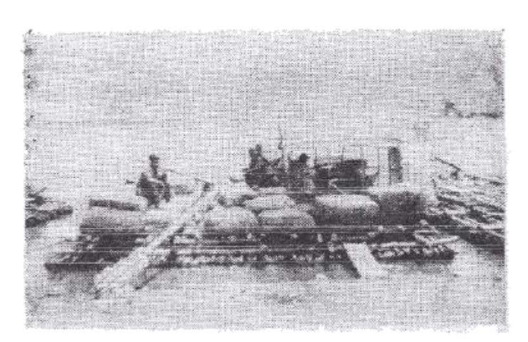
باب قلعة حلب



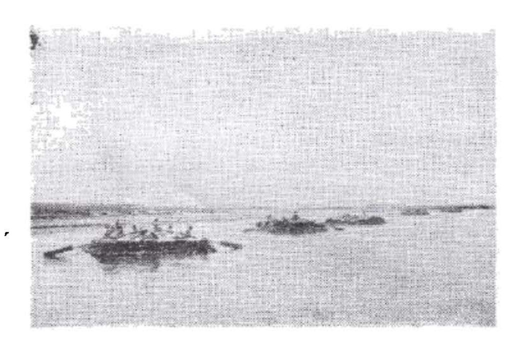
العربة التركية القديمة (يايليه) :
واسطة النقل البري الرئيسة في هاتيك الايام ٠٠ تعبر قنطرة



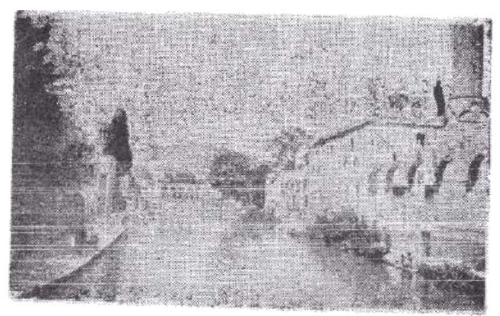
٠٠٠ وعبورها النهر على سفينة عند (بيرجيك)
وهي فوق (جرابلس) الحالية ٠٠٠



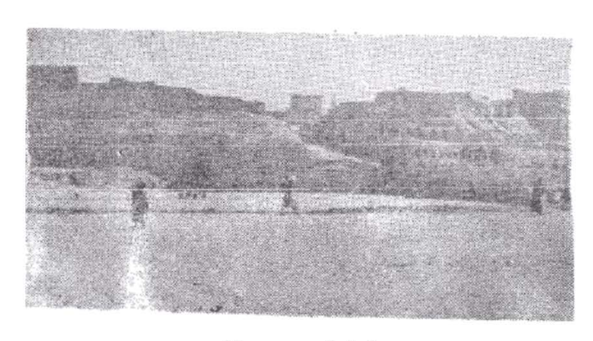
كلك محمل بالبضائع ... يوشك على الرحيل



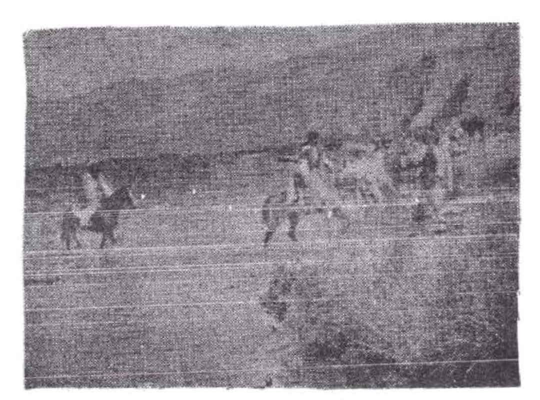
قافلة الاكلاك وهي تجري في النهر نزولا ..
واسطة النقل المائي الرئيسة في تلكم الازمان
ومن خلفها امواج النهر تتلاحق مرتفعة منخفضة
أترى أمواجـه انفاسـه رددت بين شـهيق وزفير
جحفـل يركب منهـا جحفـلا يتعـادى كجنود زاحفـين



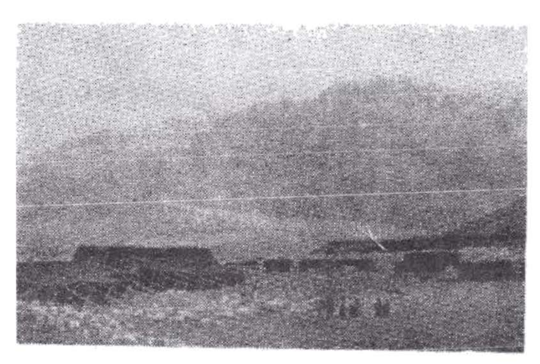
البركة المنسوبة الى ابراهيم الخليل (ع) في اورفه
و (سمك ابراهيم) يزخر فيها الان صيده محرم على الناس



كركوك ... عهدئذ



الهماوند في ديارهم



الجاف في مضاربهم
(شهرزور)



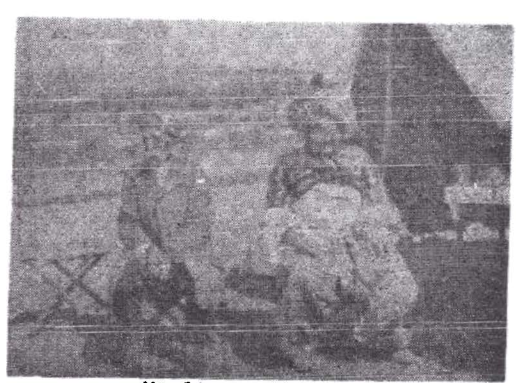
سيدة كردية بكامل زينتها



... وزعيم كردي من قبيلة الـ (جاف)



السيدة عادلة
تتوسط جمعا من سراة الاكراد



محمود باشا ... وبابكر اغا

الصحيفة	السطر	الخطأ	وصوابه
١٧	١٩	طـويلة	طويل
٣٧	٤	احـــد	احـدى
٥١	١٢	باراه	بازاه
٧٥	٢	بامتخينات	بالمخينات
٨٤	٨	فعل (النار كيلات)	بفعل (النار كيلات)
٩٤	٤	محجومة	محجوبة
٩٨	٢٣	امـذي	الذي
٩٩	٤	وداى	وادي
١٠١	١٩	قلد	فلقد
١٦٢	٥	الجوخ	الجوخ[٢٠]
١٧٧	٢٠	استان !	استكنان
٢٣٧	٤	رنزلا	ونُزْلا
٢٣٩	١٢	بالحنجر	بالخنجر
٣١٢	١٦	فرحل آسفا	فرحل حردان آسفا[٣٣]
٣١٢	٢٦	الملتحى	المتنحي

(*) على الرغم مما بذلناه من عناية مستأنية في تصويب (تجـــارب الطبع) وقعت — ويا للاسف — (أخطاء مطبعية) فلا معدى عن (مسرد) لها و (لتصويباتها) . وقد تكون في (الكتاب) غيرها لكنها لا تخفى على القارىء الكريم ، فمعذرة (وللحليم من العورات اغضاء) .

ف.ج



الاستاذ فؤاد جميل في سطور

ولد عام ١٩١٤ في مدينة العمارة

أكمل دراسته الابتدالية في بغداد وكان أول الناجحين في جميع مراحل دراسته

كان أول الفرع الأدبي للدراسة الثانوية سنة ١٩٣٠ في العراق فأرسلته وزارة (المعارف) الى الجامعة الأمريكية في بيروت في بعثة دراسية وحصل على شهادة ب٠ع

مارس التدريس في المدارس الثانوية بعد تخرجه

كان أول سكرتير للأذاعة اللاسلكية في العراق

تولى عدة مناصب ادارية في وزارة (المعارف) ووزارة (التموين)

زاول مهام المفتش الاخصائي في اللغة الانكليزية مدة طويلة والتدريس في جامعة بغداد

إنصرف لترجمة الكتب التي تعني بالتراث والأدب والرحلات وأخرج ١٤ كتاب ولازالت هناك ٣ كتب جاهزة للطبع ستولى أسرته طبعها بأذن الله

كان رحمه الله شعلة دائمة من النشاط والحيوية يعمل أكثر من عشر ساعات في اليوم يقضيها في الترجمة وكتابة الأحاديث للمجلات والصحف والمذياع

إنتقل الى الرفيق الأعلى في الساعة الثانية عشر ظهراً من يوم ١٩ / ١٠ / ١٩٧١ بالسكتة القلبية فأنطفأ بذلك السراج وسكت القلب الكبير الى الأبد ٠